مصطفى جحا

سلسلة نافذة على المعرفة (١)

رسالتي إلى المسيحيّين

الطبعة الثانية
موسّعة ومنقّحة

١٩٨٦

"...وأنا أعتبر نفسي أصيلاً في الشرق الأوسط. بل الموجودين هم ضيوف عندنا اعتباراً من القرن السابع. المسيحيّة هنا مستمرة"

أغناطيوس الرابع هزيم
بطريرك انطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس
مجلة "النهار العربي والدولي" ٧ كانون الثاني ١٩٨٥ العدد ٤٠١

مصطفى جحا

سلسلة نافذة على المعرفة (١)

رسالتي إلى المسيحيين

الطبعة الثانية
موسّعة ومنقّحة

١٩٨٦

المحتوى

صفحة

صفحة

كتب للمؤلف

- المخالب — فصول في الحرب اللبنانية
- صدى ونغم — قصائد وُلدت في الحرب
- أية عروبة أية قضية
- رسائل من خلف المتراس — الجزء الاول
- رسائل من خلف المتراس — الجزء الثاني
- الى امراة واحدة
- لبنان في ظلال البعث
- يوميات تائه
- في سبيل وطن وقضية
- الخميني يفتال زرادشت — الطبعة الاولى ١٩٨٠، الطبعة الثانية ١٩٨٣
- محنة العقل في الاسلام — الطبعة الاولى ١٩٨١، الطبعة الثانية ١٩٨٣
- أبعد من زحلة وصور (حرب الوفاق الشرق الاوسطي)
- جزيرة الكلمات — الجزء الاول
- حبيبتي ما زالت تغالب الفجر — رواية
- شاهدُ الثعلب ذنَبُه
- رسالَتي الى المسيحيين — طبعة اولى ١٩٨٥، طبعة ثانية ١٩٨٦
- قاموس حرب علي ومعاوية و (سباعية طلال سلمان)
- نحن وصنمية التاريخ

الاهداء

إلى زوجَتي الحَبيبَة : إيمَان ... وإلى أولادي الأعزّاء : عَلي وصَباح ونجَاح وَزهرَة وحسين وعناية وحَسَن ومُصطفى (الصغير) ...
وَعَسى أن يَعرفوا المسيحيّة كمَا عرفتها، ويحبُّوا المسيحيّين كمَا أحبَبْتهُم.
وانني إذْ أرفُضُ أنْ أتصوَّرَ شرقاً بدُونِ المسيحيّةِ والمسيحيّين، أرجُو لأصحَابِ المسيح كنيسَةً جَامعَةً ومَسيحيّةً مُوَحَّدة.

مصطفى

مقدمة الطبعة الثانية

لقد مضى على الطبعة الاولى ، من هذا الكتـاب : « رسالتي الى المسيحيين » ، سنة ونصف السنة ، وهذه المدة هي ، في عمر الزمن ، مشوار قصير ، بل قصير جدا ، فيما الاحداث التي تخللتها غالبا ما كانت صعبة وخطيرة ، لا يمكننا تجاوزها ولا تعدّيها ، وقد أوجعت منـا القلب والضمير قبل اللحم والعظم .

من المؤكد ان لبنان ، على الصعيد السياسي ، ليس وحده الوطن المعذّب والمظلوم ، في هذه الحِقبة من تاريخنا ، بل ان بلدانا شتى حالها تشبه حالنا ، بشكل أو آخر ، وتعاني ما نعاني . ولكن الثابت والواضح هو ان المسيحية ، ولا سيما منها الشرقية ، هي التي باتت مقهورة القرن العشرين ، وربما شهيدته الكبرى والوحيدة أيضا .

مرة أخرى : المسيحية في خطر . مكانها الشرقي بين النار والنار . هل تحترق وينتهي كل شيء كما يظن البعض ؟ أم ان المخلّص بات قريبا منا ؟

منذ مطلع هذا العام ، دبّ النشاط في الكنيسة المارونية . وكمن يقف في وجه العاصفة ، انتصبت بكركي بقامتها

التاريخية المشوقة ، فعاد الى المسيحيين اللبنانيين بعض من الحلم الكبير الذي أضاعوه ذات مساء ، وبانت وجوه طالما نظرتُ اليها ، وهدرَتْ أصوات أنقى من الدمعة لتجدِّد القول بأن الحكمة أبقى من وَحْيٍ في حجَر .

فمن تعيين المطران ابراهيم الحلو مدبّرا رسوليا للبطريركية المارونية ، الى انتخاب المطران نصرالله صفير بطريركا مارونيا، الى القرار الصادر عن قداسة البابا يوحنا بولس الثاني ، القاضي بتعيين مطرانين جديدين للطائفة المارونية، في بيروت وقبرص ، هما : الاب خليل ابي نادر، والمونسنيور يوسف بشارة ، الى انتخاب خمسة مطارنة هم : الاب بشارة الراعي ، معاونا بطريركيا في بكركي ، والمونسنيور أنطوان طربيه ، مطرانا على اللاذقية ، والمونسنيور اميل سعادة ، مطرانا على البترون ، والخوري عبدالله البارد ، مطرانا على جبيل ، ثم الى انتخاب الاب باسيل هاشم رئيسا عاما للرهبانية اللبنانية المارونية ، وتالياً الى بيان السينودس المقدّس لطائفة الروم الكاثوليك الصادر في ٢٣/٦/١٩٨٦، المشتمل على نبأ انتخاب الارشمندريت ابراهيم نعمة « راعياً لابرشية حمص وحماه ويبرود » من جهة ، وعلى « أخذ العلم بأن مطران بيروت حبيب باشا والمطران يوسف ريّا قد اتفقا على أن يتعاونا في العمل الرعائي في تلك الابرشية التي تجمّع فيها عدد غفير من أبناء الطائفة من المناطق

المختلفة » ، من جهة ثانية ، والحلم المسيحي اللبناني يكبر يوما فيوما .

وقبل هذه الانجازات المارونية « الانقاذية » ببضعة أشهر ، كرّست الكنيسةُ الكاثوليكيةُ الجامعةُ الراهبةَ اللبنانية بطرسية الريّس « رفقة » بطريقة علنية وجمهورية، في أعلى صرح فاتيكاني ، ورفعتها الى مقام الطوباوية، على أمل أن « يجد أبناء لبنان في مثل هذه المرأة القوية التي تألمت كثيرا والتي لم تؤلم سواها ، الشجاعة للسيرْ قدما على طريق المسامحة والمصالحة والسلام » (١) .

اذا كان موارنة لبنان بخير ، فان سائر المسيحيين ، الشرقيين عموما واللبنانيين خصوصا ، يكونون هم بخير ـ مثلهم ـ ومأمن أيضا . وعلى قول الخوري يواكيم مبارك فان « تأصّلَ الموارنة في لبنان وما حلّ بهذا البلد في السنوات العشر الاخيرة ، من ويلات ، يضع على عاتق الموارنة مسؤولية خاصة في ما يرجع لا لمستقبلهم وحسب، بل لمستقبل النصرانية في انطاكية وسائر المشرق » (٢) .
وما يهمّ الكنيسة المارونية هو أن يبقى لبنان وطن الاقليات

---

(١) من عظة قداسة البابا يوحنا بولس الثاني في الاحتفال باعلان طوباوية الاخت « رفقه » ، « النهار » ١٩٨٥/١١/١٨
(٢) الخوري يواكيم مبارك : الموارنة وعلامات الازمنة، كتيِّب صادر عن « المجلة الكهنوتية » التي تصدرها « الرابطة الكهنوتية » (أمين سرها ، الخوري بولس الفغالي) ، العدد الثاني ـ أيار ١٩٨٦ (السنة السادسة عشرة) ص ٤٥ .

والحريات ، ومتى فقد لبنان هذه الطاقة الانسانية الحضارية فان تغييرات سلبية سوف تطول مجتمعاتنا الشرقيـة ، وأخطرها ، بل أشدهـا خطرا ، زوال التعدديـة لحساب « التوتاليتاريا » و« النوع الواحد » و « الدين الواحد » •

ان هذا يدركه ، لا شك ، المسيحيون كافة • فكمـا الارمن كذلك السريان والكلدان والآشوريون والانجيليون واللاتين وشهود يهوه • الكل يعرف ، تماما ، ان حريـة الكنيسة المارونية انما هي حرية كنائسهم جميعا ، وان حرية أي من هذه الكنائس انما هي أيضا حرية الكنيسة المارونية نفسها ، وحرية كنيستي انطاكية: الارثوذكسية والكاثوليكية• ذلك لان الحرية كائنة « في صميم (معاناة) الموارنة »[٣] ، الذين هم « قوم ينشدون الحرية تجاه كل قوة قامعة لهـا في محيطنا ، مسيحية كانت أو غير مسيحية »[٤] •

على ان الخطأ المرافق لـ « التسيّس »[٥] الذي وقع « في هوّته »[٦] الموارنة ، أكبر طائفة مسيحية في لبنان ، وان هو ليس خطأ الروم الارثوذكس ، ولا خطأ الـروم الكاثوليك ، ولا خطأ الارمن أو غيرهم ، يحمل ـ عمليا ـ بذور الشر لهؤلاء وأولئك ، بحيث ان الصراع السياسي، عندنا ، ومنذ نشأته ، لم يحافظ ـ أبدا ـ على شكله

(٣) الخوري يواكيم مبارك : ص ٤٥
(٤) المصدر نفسه •
(٥) المصدر نفسه ص ٩١
(٦) المصدر نفسه •

وهدفه ، ولطالما تحوّل صراعا طائفيا ، وبالتالي مذهبيا ، ليصبح الخطف والذبح على الهويـة أول أدوات هـذا الصراع ووسائله • وهكذا يدفع المسيحي ، أي مسيحي ، والمسلم ، أي مسلم ، من جلده ودمه ، الثمن الباهظ ، فتدخل البلاد في محنة لا مجال فيها لـلرؤى والافكـار الوطنية والانسانية الواعية المتحضرة • فهل من حلّ لهذه المعضلة الرهيبة التي تهدد الحضور المسيحي ، وقد «أصبح مجرّد مجابهة للتغلب الاسلامي العددي ، مرورا بالتحالف مع اسرائيل ، وهو أشنع ما آلت اليه النصرانية في هـذه الديـار »[٧] ، كما تهـدد الحضور الوطني والتقـدمي والعلماني ؟

لا أعتقد ان المطران خليل أبي نادر قـد أذاع سرا عندمـا قال ، في القداس الاحتفالي الثاني بعد سيامتـه الاسقفية ، في كنيسة مار يوسف الحكمة في الاشرفيـة ، وكـان أقام قداسه الاحتفالي الاول في كنيسة الـوردية الحمراء : « نحن كنيسة ابرشية في إطار كنيسة مارونية• لن تتعرف ، مسلكا ، على ما يسمونه مارونية سياسية، بل نحن كنيسة مارونية ميزتها الخدمة والانفتاح على العـالم العربي ، وعلى العالم أجمع »[٨] •

(٧) المصدر السابق •
(٨) المطران خليل أبي نادر : « النهار » ١٩٨٦/٦/٢

هذا الاسقف الاديب والمربي ، الآتي من بين طـلاب « الحكمتين » : الشرقية والغربية (٩) ، ومعلميهم ، كيف نحمّله أخطاء السياسة والسياسيين ؟ وهل يُعقل أن نحكم عليه أو على من هو مثله ، بـ « العزلة » و « الانعزالية » مثلا ؟! ليس مجاملة القول : ان الاسقف أبي نادر يستحق لقبين هما : « مطران المسلمين » و « مطران المدارس والمعاهـد والكليات » •

ان الاساقفة الشرقيين ، أينما كانوا ، وحيثما حلّوا، بعضهم لا يختلف عن بعض ، الا شكلا ، وكذلك الرهبان والراهبات • ان أحداً منهم ، لأي كنيسة انتمى ، لا يريد أن يبقى المسيحيون مقسّمين مجزّئين ، كأنهم لا يعيشون في حقيقة ما يؤمنون به وما يبشّرون به ويصلّون لاجله!

ومهما يكن ، فان الآفة الكبرى تكمن في السياسة فحسب • وعندما نقول السياسة ، فلا بد اننا نعني الاقتصاد أيضا ، اذ لا سبيل ، ابدا ، الى الفصل بينهما •

هلاّ سمعتَ أو قرأتَ للمطران جورج خضر ، أو للمطران الياس عودة ، أو للمطران حبيب باشا ، أو للمطران الياس فرح ، أو للمطران شكرالله حـرب ، أو للمطران

(٩) المقصود مدرسة « الحكمة » في جديدة المتن ، ومدرسة « الحكمة » في كليمنصو ــ بيروت الغربية .

رولان أبو جودة ، أو للمطران اثناسيوس افرام،او للمطران تاوفيليوس جورج صليبا ، أو للمطران اغناطيوس زيادة ، أو للمطران آرام كشيشيان ،أو للمطران اندراس بدوغليان، او للمطران الياس نجمة ، أو للمطران الياس قربان ، أو للمطران يوسف الخوري ، أو للمطران اندريه حداد ، أو للمطران رابولا انطوان بيلوني ،أو للمطران نرساي دي باز، أو للمطران روفائيل بيداويد ؟

ألم تصغ الى الأب ميشال الحايـك ، او الى الاب بولس مطر ، او الى الاب عبدالله داغر ،أو الى الاب انطوان حداد ، أو الى الاب فريد جبر ، أو الى الاب روفائيـل ميناسيان ، أو الى الاب بطرس المعلم ، او الى الاب مارسيل الحلو ، او الى المونسنيور ميخائيـل الجميـل ، أو الى الارشمندريت سليم غزال ، أو الى الاب عفيف عسيران ، أو الى الاب أنطوان أبي هيلا ، أو الى الاب الياس الهبر، أو الى الاب جوزف هلّيط ، أو الى الاب نبيل الحاج ، أو الى الاب اميـل الحاج البـولسي ، أو الى الاب سمير مظلـوم ، أو الـى الاب سيبـوه سركيسيان ، وغيرهم من الرهبان الانطونيين والمريميين والبلديـين والمخلصيين والشويريين والباسيليين واليسوعيين والمرسلين والبولسيين؟

ألا التقيت ، ولو مصادفة ، احد الرهبان اللعازاريين أو الفرنسيسكانيين أو الدومينيكانيين أو الكرمليين ؟

وهلا جلست مرة الى الكاردينال مار أنطونيوس بطرس خريش ، أو الى البطريرك اغناطيوس الرابع هزيم، أو الى البطريرك مكسيموس الخامس حكيم ، أو الى الكاثوليكوس كاريكين الثاني ، او الى البطريرك يوحنا الثامن عشر كسباريان ، او الى البطريرك زكا الاول عيواص ، أو الى البطريرك انطون الثاني حائك ؟

ألا اطّلعتَ على أعمال « المركز الكاثوليكي للاعلام » ؟

هل زرت كنيسة أرمنية ، أو سريانية ، أو انجيلية ، أو آشورية ، أو لاتينية ، أو معمدانية ؟

أما جاءك يوما أحد رجال شهود يهوه ؟

ان جميع من ذكرت ، هم ، حسبما رأيت وسمعت وقرأت ، مسيحيون ، هدفهم المسيح وانجيله . هذا طريقه من هنا ، وذاك طريقه من هناك ، وذلك طريقه من هنالك . نعم ، لقد اختلفت السبل ، وتعددت الطرقات ، في حين ان المسيح واحد ، وأمه واحدة ، والصليب واحد !

« وكم يبدو حظا لنا وسانحة مؤاتية في تاريخ الكنيسة، أن تكون كنائس العالم جمعاء ، أكاد أقول ، ممثّلة على أرض لبنان ، الوطن المعذّب الصغير . وتلك رسالة ، لنا بها ، بارادة المسيح ، ان نوحّد في ما بينها ، وبروح

عنصرته نجمع ما باعدت القرون وفرّقت . فنكون بذلك للعالم أمثولة ايمان واحد مما علّم يسوع في انجيله الطاهر » [١٠] .

لذلك ، هي « رسالتي الى المسيحيين » أمس، واليوم، وغدا .

كل الكنائس ، في لبنان ، تعاني أزمة حادة خانقة ، بسبب الاضطرابات السياسية والامنية التي تعيشها البلاد والمنطقة . وعندنا ، مثلما هو معروف ، كلّ يجرّ النار الى قرصه ، أي كل يريد الخير لنفسه ، متجاهلا أخاه وشريكه سواء في الدين أمْ في الارض والمصير .

واذ يقف الرئيس العام السابق للرهبانية اللبنانية المارونية الآباتي بولس نعمان ، في بكركي ، ليعلن بصراحة ووضوح ان الكنيسة المارونية هي « على مفترق » [١١] ، والموارنة « في ظروف تاريخية تفرض الخروج من حال الحيرة والتردد وتحتّم التفكير المليّ والرجوع الى الذات الكنسية في سبيل الاصالة لا كأفراد أو كأجزاء مبعثرين متناثرين ، بل كشعب متضامن متناغم القوى ، وككنيسة مسؤولة عن وطن وحضارة وتاريخ » [١٢] ، فكأنه تحدّث

---

(١٠) المطران خليل أبي نادر : المصدر نفسه .
(١١) الآباتي بولس نعمان : « النهار » ١٩٨٦/٥/٤
(١٢) المصدر نفسه .

بلسان كل مسيحي لبناني وشرقي ، وتلك حقيقة لا يسعنا الا التأكيد عليها والكشف عن أسرارها ومسبباتها القديمة منها والجديدة .

وبما ان « الوجود المسيحي في هذه البقعة من الشرق هو شهادة للقيم المسيحية التي يجب أن نرفعها عاليا بتحلينا بالاخلاق والسماح ونشر المحبة » على قول البطريرك الماروني نصرالله صفير [١٣] ، أرى لزاما عليّ تجديد « رسالتي الى المسيحيين » بحلة جديدة ، موسّعة ومنقّحة ، بقدر ما سمحت الامكانات ، وقد أضفت ، الى فصولها العشرة ، فصلين جديدين هما : « الكلدان بين الامس واليوم » ،جعلته الحادي عشر ، و « القديسة تريزا الأفيلية عاصفة وسيْل ونار » ، جعلته الثاني عشر، مع رجائي أن يأتي يوم يكون لي فيه شرف الكتابة عن الطوائف المسيحية التي لم تشتمل عليها « رسالتي ... » حتى الآن ، وعسى أن لا يكون ذلك ببعيد .

لقد فرَضَتْ مطالعاتي ، التي أتت بعد الطبعة الاولى من هذا الكتاب ، بعض التنقيح والزيادة ، من دون المس لا بالشكل ولا بالمضمون ، وانما في الحواشي فحسب، وذلك في سبيل التوضيح والتفسير ، وبخاصة بالنسبة الى

---

(١٣) البطريرك نصرالله صفير : « النهار » ١٩٨٦/٥/٢٨

الموضوعات التالية : « السريان شعب ومواقف »، « كاهن ورسالة : الأب يوسف الشدياق » ، « أسقف ورسالة : المطران يوحنا حبيب » ، « مدينة ليست من العالم الثالث: دير سيدة اللويزة ومدرستها وجامعتها » ، و « فرنسيس الغزيري : الاب يعقوب الكبوشي » ، وجميع هذه الزيادات التي حتّمتها مطالعاتي الجديدة ، مثلما قلت ، أشرتُ اليها بعلامة نجمة (*) حفاظا على المنهجية التي اتبعتُ ، في التحقيق والتوثيق .

وممن أمدّوني بالمصادر والمراجع والملاحظات التي مكّنَتْني من القيام بهذا الواجب الادبي والتاريخي ، سيادة المطران ثاوفيليوس جورج صليبا ، سيادة المطران نرساي دي باز ، المونسنيور بطرس الجميّل ،الاب لويس الديراني ، الاب روفائيل ميناسيان ، الاب الدكتور اغناطيوس سعادة ، الوارتابيت سيبوه سركيسيان ، الاب يوحنا العنداري ، والآباء الكرمليون : د. جان سليمان ، وشاهين ريشا ، وجوزف رحمة . فاليهم ، جميعا ، عميق شكري وتقديري .

وأشكر أيضا سيادة المطران صليبا ، والاب يوحنا كوكباني ، والدكتور فرح الفرزلي ، والاساتذة : نسيب نمر ، وجوزيف خريش ، وابراهيم ربابي ، ونبيل مشنتف

(المحامي) ، اذ تفضلوا وكتبوا ، اثر صدور الطبعة الاولى، المقالات والابحاث ، ونشروها في : « النهار » و « الرعية» و « النهار العربي والدولي » و « الانوار » ، وقد تضمنت عواطفهم النبيلة فضلا عن الرضا والاستحسان والقبول .
على أن الرأي ليس بالتظنّي ، وانما بالتروي في الامر ، وهذا ما أنا ساع من أجله في « رسالتي الى المسيحيين » في كلتا الطبعتين .

مصطفى جحا

ضبية — المتن الشمالي ٢٥/٨/١٩٨٦

مُقَدِّمَة

الطبعة الأولى

نافذة صغيرة ، على المعرفة ، فتحتُها ، لتكونَ بين الناس والناس ، والعقل والقلب . فلا هي غربيّةُ الهوى ولا هي شرقيّتُه . ولكنها مشرقية بكل تأكيد .

لقد غرق البيتُ اللبناني ، في الظلمة ، وذهب نوره، فراح الابناء يذبح بعضُهم بعضا ، ويهجِّر بعضُهم بعضا، واستمرت هكذا النزاعات ، بينهم ، وتفاقمت وتعاظمت ولم تجرِ على استواء ، فاذا البيتُ الجميل ، لبنان ،الذي بنوه معا ، تعصف فيه الريح ، من كل مكان ، فكأن أهله قد انكسروا من مصيبة ، فتركوه خرابا !

ماذا تفعل نافذة صغيرة ؟

ربما لا شيء على الاطلاق ...

وربما لن يراها أحد ...

فلا أنا ممن يدْعون الى دين أو مذهب ، ولا الوقت يسمح بالتبشير ، ولا العيشة راضية ، ولا الاقوام أو الشعوب أو الدول مجتمعة على الالفة والمودة .

ومهما تقدمت الاختراعات ... وتطورت المنشآت ، فلن تأتينا ، كما يبدو ، بما سيردّ الى الانسان سعادته وراحة باله وفرَحه ، ما دام وعْدُ هـذه « الحضارة » إعصارا ليس بعدَه إعصار .

وبرغم هذا وذاك ، فتحتُ نافذتي ، وبدءاً بـ « رسالتي الى المسيحيين » .

لعلّكم تذكرون كتاب المحامي المغفور لـه سـالم الرياشي : « رسالتي الى اليهود » [1] (*) ، الا أنه ، ابداء ، ليس مثل « رسالتي الى المسيحيين » للأسباب التالية :

(1) ٤٠٢ صفحة من القياس الكبير ، لا يحمل تاريخ الطبع ولا اسم الناشر . قرأته ، أول مرة ، يومة كنت في الجنوب ، فضاع مني أو ان أحدا أخذه من مكتبتي هناك . ولما كان لا بد من الرجوع اليه استعرته من مكتبة صديقي الاستاذ الياس المر ، مؤلف كتاب « الاسلام بدعة نصرانية » (١٩٨٢) .

(*) توفي الاستاذ الرياشي يوم ٦ نيسان ١٩٦٨ ، أولاده هم :
— نبيل : يحمل شهادة في الحقوق .
— شوقي : دكتوراه في الفلسفة من السوربون ، يعمل في « النهار العربي والدولي » .
— نايف : ماجستر في الرياضيات . يمارس التجارة .
— ناجي : طبيب أسنان .
مرتى : متزوجة من فهد الرياشي .
— هيلانة : متزوجة من حبيب الرياشي .
— ريتا تنهي (أنهت) بانصرام العام الجامعي ١٩٨٥ اجازة في العلوم الادارية ، من الجامعة الاميركية .

أولا : ان المحـامي ، الاستاذ سالم الرياشي ، هـو مسيحي مؤمن ومثالي ، فيما أنا « مرتدّ » و « كافر » ، منذ منتصف شهر نيسان ١٩٨٣ ، مثلما حكمت « المحكمة الشرعية الجعفرية » بشخص رئيسها سماحة الشيخ عبدالله نعمة ، الذي يساعده عضوا المحكمة صاحبا الفضيلـة : الشيخ خليل ياسين (ت ١٩٨٤) والشيخ عبد الحميد الحر ، من جهة ، وحسبما رأى رجال من دار الفتوى ، من جهـة أخرى [2] .

ثانيا : ان ما بين المسيحيين واليهود يشكّل قضيـة كبرى ، تماما ، كما هي بين المسيحيين والمسلمين ، واليهود

(2) انظر كتابنا « شاهـد الثعلب ذنبـه » الطبعة الاولى ١٩٨٤ ـ ص ٥٨٤ . أما رجـال دار الفتـوى فهم أصحاب السماحـة والفضيلـة والسيادة : الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي ، الشيخ طه الصابونجي (مفتي طرابلس) ، الشيخ خليل الميس ، رئيس أزهر لبنان ، (مفتي البقاع) الشيخ خلدون عريمط ، أمين السر ، والدكتور حسين القوتلي المدير العام . على ان الحق يفرض ان أشكر لفضيلة الشيخ (المرحوم) محيي الدين العجوز ، رئيس المحكمة الشرعية السنية في شحيم ، اقليم الخروب الذي أرشدني اليه الصديق الشيخ الشاعر أحمد يـوسف حمود ، لاجل أن يعقد لي على ايمان يوسف الشيخ محمد ، التي صارت زوجتي . وقد فعل الشيخ العجوز ذلك اذ لم يكن على علم بالنزاع الذي دار بين دار الفتوى وبيني ، فلما علم رجال دار الفتوى ما فعله الشيـخ العجوز ، حـاولوا « تأديبه » ، الا انه أثبت « حسن نية » وأكد على عدم معرفته بموقفي من النبي والاسلام ، وهكذا أنقذ الشيخ محيي الدين نفسه من « العقاب » الذي كان محتوما .

والمسلمين ، والقضايا الثلاث لا تزال مستمرة ، مما يعني أن الخطر الاكبر يستهدف المسيحيين أكثر من سواهم • أما أنا «المرتد» و «الكافر» فليس لي على المسيحيين ما يجعلني أكتب اليهم بمثل ما كتب الاستاذ الرياشي الى اليهود •

ثالثا : مما لا شك فيه أن اليهود أنكروا المسيح وحاربوه واضطهدوه حتى قتلوه • انها مشكلة طالما أقلقت المسيحيين وبعض اليهود ، فلا أعتقد أن تبرئة اليهود من دم المسيح هي الحل المثالي الاوحد لهذه المعضلة •

رابعا : بقي الصراع الاسلامي ـ المسيحي وما قيل فيه ويقال •

فمن الفتوحات الاسلامية الى الحروب الصليبية الى دخول الاستعمار بلادنا ، والغاية ، كما أراها ، واحدة ، هي : التوسع والسيطرة والاستثمار والاستغلال والتفرقة والتفتيت •

ما أبغضَ الحروب الدينية إليّ !

* * *

لقد كان من الطبيعي جدا أن تنشأ ، في بلادنا ، حركات تحررية تدعو الى فصل الدين عن الدولة ، وترسّخ

المشاعر القومية والانسانية ، مما يحقق التعايش بين أبناء المذاهب والطوائف ، ممن لديهم التاريخ المشترك واللغة الواحدة والارض الواحدة والمصير الواحد •

فليس مصادفة إذاً أن يكون روّاد هذه الحركات « الجديدة » من المسيحيين ، إذ «خافوا على أعناقهم من الذبح الطائفي فنشروا المبادىء الانسانية ، بلغة حيّة نابضة ، وحملوا لواء الحرية والعدالة الاجتماعية، ورجاؤهم أن يجدوا اخوانا لهم من المسلمين ، يقفون الى جانبهم ، ليشدّوا أزرهم ، ويردّوا عنهم القبضات الفولاذية ... والسيوف اليمانيّة أو المهنّدة » (٣) •

ولكن استمرار القول بأن الاسلام دين ودولة سيبقى مدخلا لكل ما يفرّق أهل هذه البلاد ويوزّعهم ويبدّدهم ويجعل الاقليات على خوف من الاكثرية وبعضهم من بعضهم •

ان موقفي من هذا الصراع ومثله لواضح وصريح • وليس خوفي على المسيحية والمسيحيين الا كخوف المسيحيين

---

(٣) من مقالة لنا مخطوطة عنوانها « الدكتور مروان فارس يكتب سِفر الخروج من التبعية » . (انظر كتابنا «نحن... وصنمية التاريخ » ١٩٨٦ ص ٢٢١) .

أنفسهم على وجودهم الواحد ، المكثّف والمتكامل [٤] .
ولطالما قلت وأردد القول :

ـ أيّ معنى لهذا الشرق ، بدون المسيحيـة ، وأية مسيحية ستتخلّى عن الشرق ؟!

* * *

تلـك هي الاسباب التي تميّز بين « رسالتي الـى المسيحيين » و « رسالتي الى اليهود » .

فاذا كان المرحوم الاستاذ الرياشي قد توخى في كتابه « الموجّه بصورة رئيسية الى اليهود اثبات مجيء السيـد المسيح على الارض متجسّدا منذ ١٩٦٦ سنة (١٩٨٥سنة حتى الآن » [٥] ، فإن ما يرمي اليه كتابي هذا ، الموجّـه بصورة رئيسية الى المسيحيين ، هو التأكيـد علـى حبي

---

(٤) يرى الاب الدكتـور تومـا مهنا ، عميد كلية الفلسفـة واللاهوت في جامعة الروح القدس ـ الكسليك ، ونرى معه « ان الوجود المسيحي ، بمعنى الوجود الواحد ، يفسر الى وجودين : المكثف والمتكامل . فالوجود المكثف هـو أكثرية عددية ، بينما الوجود المتكامل هو الوجود السياسي الذي يتجاوب مع مقتضيات التجمعات الشعبية » (من محاضرة له ألقاها مساء الجمعة ٢٣ آذار ١٩٧٩ في كنيسة مار جرجس ـ عمارة شلهوب ـ المتن ، نشرتها «العمل» ٢٥ آذار١٩٧٩)
(٥) رسالتي الى اليهود ص ٣

لهم،وحرصي عليهم وتمسكي بضرورة بقائهم كراما وأحرارا وأصحاب كنيسة جامعة ومسيحية موحّدة .

لقد استند الاستاذ الرياشي ، لإثبات ما يريد اثباته، الى « مندرجات التوراة المقدسة المحتوية ما أُعطيت معرفته للبشر طيلة أربعة آلاف سنة تبدأ منذ خلقـة آدم وتنتهي بولادة السيد المسيح ، والمحتوية النبوءات عن أهم الاحداث وحتى منتهى الدهر » والى « حتم نصوص التوراة المقدسة بوجوب ولادة السيد المسيح بنهاية الاربعة آلاف سنـة البادئة منذ الخليقة » [٦] .

واستند الاستاذ الرياشي أيضا الى « كون المسيـح الإله والانسان معا المعلَن عنه في الانجيل المقدس هو هو ذات المسيح الإله والانسان معا المعلَن عنه في التـوراة المقدسة وذلك بالمقابلـة بين نصوص الانجيـل ونصوص التوراة » والى « كون الانجيل برمّته حروفا ونقاطا هـو من معطيات التوراة » [٧] ،ناظرا ، عبر النصوص التوراتية، الى « كيفية تسخير الله الازمنة والاحداث وتسيير ممالك الارض في العهد القديم تهيئة لمجيء السيد المسيح ، ذات المجيء العظيم الذي دوّت لتحديد وقته صرخات الانبياء

---

(٦) المصدر نفسه .
(٧) المصدر نفسه .

في أقطار الدنيا » (٨) .

وكذلك استند الى « حتم الله في التوراة وفي خلقه آدم أن الله بذاته حافظ وحارس مملكته الارضيـة أي خـاصته مـن ذريـة آدم حفظا دائما مستمرا الى منتهى الايام » (٩) .

بعد هذا كله ، وقد استهلك أربعمائة صفحة مـن القياس الكبير ، ختم الاستاذ الرياشي كتابه النفيس مخاطبا اليهود قائلا :

« وأخيرا هاكم مضامين الانجيل عن أعمال وأقوال السيد المسيح فقد جاءت ملء معطيات التوراة وأثبتت تمام شريعة الله المجيدة وروعة محبته الفائقة للبشر وضم عبدة الاوثان الى شعب الرب بالايمان بالمسيح حتى زاد عـدد المؤمنين عن المليار من البشر وهو يتزايد والروح القدس يعمل عمله العجيب الى ان يتم نفاذ ارادة الله التي لن ترد » .

أضاف :

« وأقول لكم انكم اذا لم تؤمنوا بمجيء المسيح على

---

(٨) المصدر نفسه .
(٩) المصدر نفسه .

ضوء الانجيل والتوراة فإنكم لن تؤمنوا ولو صح فرضكم المستحيل وجاء المسيح ألف مرة كمجيئه المقرر في التوراة ولكنكم ستؤمنون كما سبق حتم الله لان قول الله حاش أن يُرد ولأن كلمته شريعة نافذة حاش أن تخطىء . فاعدلوا بالتفكير والتقدير واستلهموا الله ليفتح لكم باب النور » (١٠)

* * *

من الواضح أن الاستاذ الرياشي ، المسيحي ـ المؤمن ، مثلما قلنا ، لا يملك سبيلا سابلة الى مخاطبة اليهود ، الذين « كان محتما (عليهم) أن (يقتلوا المسيح) إنْ بعـامـل الانانية العمياء من قبل رؤساء الكهنة والشيوخ وإنْ بعامل الجهل » (١١) سوى ما سمعنا وقرأنا ، فهل وصل فعلا الى حيث شدّ وسار ، أم ان مركبه تحطم على شاطىء تـل أبيب ، وغلبه البحر ، فطمى عليه وضاع كما ضاع الذين من قبله ؟

* * *

مما لا شك فيه أن المشكلة اليهودية ـ المسيحيـة أوقعت المسيحيين ، في مهجوس من الامر ، فكتب الرياشي وغيره ما قد كتبوا . كذلك فعلت المشكلة المسيحيـة ـ

---

(١٠) المصدر نفسه ص ٤٠٢
(١١) المصدر نفسه ص ٤٠١

الاسلامية ، اذ أوقعت المسيحيين أيضا ، في ارتباك واختلاط ، الامر الذي حدا بعض المسيحيين الى مخاطبة المسلمين ، بمثل خطاب الرياشي أو غيره الى اليهود، ولكن السّموم [١٢] أحرقت ما كتبه هؤلاء ، فتساوت هموم المسيحيين وهواجسهم ، كما لو أن اليهود والمسلمين باتوا متفقين على « إزالة » الوجود المسيحي من لبنان والشرق الاوسط .

* * *

لذلك ، يمكنني القول ان « رسالتي الى المسيحيين » ليست مثلها ولا واحدة من رسائل المسيحيين ، على كثرتها، الى أصحاب موسى وأصحاب محمد. أقلام هؤلاء الاساتذة والكتّاب قلقة وخائفة ممن كتبوا اليهم وخاطبوهم ، في حين ان قلمي يغالبهم الخوف ، أو هو أخوف منهم ، على وجودهم ، لا من اليهود والمسلمين فحسب ، بل من كل التيارات والعقائد والاضطرابات المعادية للمسيحية ومنها الانشقاقات والنزاعات التي ضربت الكيان المسيحي ومزّقته

(١٢) السموم : الريح الحارة . وقيل هي الباردة ليلا كان أو نهارا ، والجمع سمائم . عن أبي عبيدة : السّموم بالنهار، وقد تكون بالليل ، والحَرور بالليل ، وقد تكون بالنهار . يقال سُمَّ يومنا فهو مسموم . وفي حديث عائشة ، رضي الله عنها : كانت تصوم في السفر حتى أذلقها السموم ، هو حر النهار . لسان العرب مادة م .

وبعثرته ، فيما كان ينبغي له أن يبقى واحدا موحّدا .

منذ أمد بعيد والمسيحيون هم الذين يكتبون ويخاطبون ، سائلين التفاهم والتعايش والحوار والامن والسلام ، أما معي ، الآن ، فهم المخاطَبون والمطالَبون ، وليست الاسئلة واحدة ، لانني غير خائف منهم ، بل الخائف عليهم ومعهم .

هل ان خوف « الكافر » لا يشبه خوف المؤمنين ؟!

* * *

لا تبحث « رسالتي الى المسيحيين » في الله والخليقة وخلقة الانسان والمخلّص . ولا شأن لها في « فعل الخطيئة» والشيطان ومقتل هابيل والطوفان وابراهيم واسحاق ويعقوب . ولا هي أُعِدّت لتقارن بين الانجيل والقرآن، أو التثليث والتوحيد ، أو اللاهوت والفقه ، أو القداسة والنبوّة ، ولا بين الجنة والنار ، أو الايمان والإلحاد . ان هذه الامور قد تجاوزتها ، وإلى الابد ، كما في كتابيَّ : « محنة العقل في الاسلام » و « الخميني يغتال زرادشت»، فلن أنازع ، بعدهما ، أحدا ، أيا كان موقعه الفكري ، في الله والسماء والجحيم .

ألا تكفي الارض وما فيها وعليها ؟!

* * *

ان « رسالتي الى المسيحيين » هي الى كل مسيحي شرقي • الى الموارنة والارثوذكس والكاثوليك • الى الاقباط والارمن والإنجيليين • الى السريان والكلدان والآشوريين • وإلى سائر الاضلاع المسيحية السائبة •

أتراهم يفكرون في مسيحية بلا مذاهب ؟

لست أدري •

* * *

من بعض الاديار والكنائس انطلقت « رسالتي الى المسيحيين » ، لتنتهي الى الاديار والكنائس •

هي ، إذاً ، في الاعمال لا في الافكار ، بل هي مشاهدات وتحقيقات ، قُدِّر لي – خلال سنة ١٩٧٩ – أن أقوم بها ، شملت السريان ، وكيف حصل الانشقاق بينهم ، ومقر البطريركية للسريان الكاثوليك ، قرب المتحف – على طريق الشام ، ودير الشرفة في درعون ، وشملت أيضا الاب يوسف الشدياق ، مؤسس المعهد الانطوني ومجلة «كوكب البرية » ، والمطران يوحنا حبيب ، مؤسس دير الكريْم و « جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة » ، والأسقفين : عبدالله قرآلي (قرعلي) وجبرائيل حوّا ، معهما الراهب يوسف البتن ، مؤسسي الرهبانية اللبنانية المارونية ، ودير

« سيدة اللويزة » ومدرسته ومركزه العالي •

وتتضمن « رسالتي الى المسيحيين » حكاية الراهبة الأم كاترينا كركبي وكيف أسّست دير سيدة الدخول للروم الارثوذكس في « كرم الزيتون » – الاشرفية ، وقصة « جمعية زهرة الإحسان » التي بعثتها الأم الحاجة مريم جهشان بمساعدة المحسنة الكبيرة المرحومة السيدة إميلي سرسق •

وفي « رسالتي الى المسيحيين » دراسة مختصرة في البطريرك الراحل مار اغناطيوس يعقوب الثالث ، الرئيس الاعلى السابق للكنيسة السريانية الارثوذكسية ، ومقالة في القديس شربل مخلوف ، كتبت بمناسبة اعلانه قديسا ، ومقالة في الاب يعقوب الكبوشي ، بمناسبة تطويبه ، ومقالة في المطران الراحل كيريوس نقولاوس نعمان ، ومقالة في أيقونات الاخت بلاجيا تبشراني عنوانها « الأيقونة في خطر » ، و « بيان الزيارة » ، تلك الخطبة العزيزة على قلبي ، التي ألقيتها ، بعد ظهر الثلاثاء ٢٣ تشرين الاول ١٩٨٤ ، في كنيسة مار يعقوب السروجي ، السبتية – المتن ، بمناسبة الزيارة الرسولية للبنان التي قام بها صاحب الغبطة مار أغناطيوس زكّا الاول عيواص ، الرئيس الاعلى الحالي للكنيسة السريانية الارثوذكسية في العالم •

ولقد كان من الضروري أن يُضم ، الى ما تقدّم ،

بحث في « الصراع على المسلّمات بين ابن المحرومة (المسيحي) وابن كمّونة (اليهودي) » ، كتبته تعليقا على كتاب «حواشي ابن المحرومة (على كتاب) تنقيح الأبحاث للملل الثلاث ... لابن كمونة » ، الذي حققه ، ووضع له مقدمة (دراسة) تحليلية غنية بالمعلومات والملاحظات المفيدة ، المطران حبيب باشا ، متروبوليت بيروت وجبيل وتوابعهما للروم الكاثوليك . اذ ان كتاب « حواشي ابن المحرومة » هذا ، هو في غاية الاهمية، ولا سيما أن المسيحيين اليوم هم على خوف عظيم ، كما وان أسباب هذا الخوف لكثيرة ومعقّدة .

* * *

تلك هي موضوعات « رسالتي الى المسيحيين»، التي قد لا يبرر جمْعَها ، في كتاب واحد ، سوى حبي للمسيحيين وخوفي عليهم وتحسسي حاجتهم الى كنيسة جامعة ومسيحية موحّدة .

انني لا أدّعي الكمال في أي من التحقيقات أو الدراسات أو المقالات ، التي ضمها كتابي « رسالتي الى المسيحيين » ، ولكنني أشكر للذين أمدّوني بالمصادر والمراجع الصالحة المختصة ، التي مكّنتني ، من انجاز هذا العمل المتواضع، مساعدتهم لي وتعاونهم معي، ولا سيما

المطران ثاوفيلوس جورج صليبا ، والمؤرخ الآباتي بطرس فهد ، الرئيس العام السابق للرهبانية اللبنانية المريمية ، والمونسنيور ميخائيل الجَميل، سكرتير غبطة البطريرك انطون الثاني حائك ، والاب جورج مصري السرياني الكاثوليكي، الرئيس السابق لدير الشرفة ، والاب يوحنا العنداري الرسولي ، والقس عبد المسيح توما خوري السرياني الارثوذكسي ، والاب الدكتور أغناطيوس سعادة الرسولي، والاب يوسف ملْكي ، الرئيس الحالي لدير الشرفة ، والحاجة بربارة أبو ابراهيم ، من « راهبات جمعية زهرة الاحسان»، والأم الحاجة مارغو تبشراني ، رئيسة دير سيدة الدخول للروم الارثوذكس ، والاب الدكتور توما مهنا ، والاب حارس مطر، مدير مكتبة جامعة الروح القدس، والاب ميخائيل معوّض ، والاب سليم رزق الله الكبوشي، والاستاذ الياس المر ، والاستاذ متري نعمان .

على أنني سأبقى محتفظا بالشكر العميق للجميل الذي جاد به ، عليّ ، الاصدقاء ، وهم كثيرون ، على كل حال ، ومتواضعون ، وذوو صفات حميدة وأخلاق كريمة .

٣ شباط ١٩٨٥

مصطفى جحا

حديث مع المسيح

يحملُني ، الى حيث أنتَ ، الشوقُ والحبُّ،لأعفّرَ جبيني بترابك .

الجراحُ [1] تذكّرني بيوم مولِدك

الجراح تذكّرني بيوم موتك .

يرتسم الصليب للإنسان مكبّرا وداعيا

على حدوده ، يتبادل العالمُ النظريات ،

ويحتدم الصراع لحظة ثم لحظة .

لا أحد يعرف من أنت

وتبقى على الصليب « مسمَّرا » من أجل هذا العالم المضطرب أبدا

نسيل بسمْعِنا ، الى الجلاّدين ، كلّما سَئِمنا النحيب والبكاء

---

(١) الجراح :الآثام ، والاستجراح:النقصان والعيب والفساد . وفي خطبة عبد الملك : « وَعَظْتكم فلم تزدادوا على الموعظة الا استجراحا (أي فسادا) » وقيل معناه الا ما يكسبكم الجَرْح والطعن عليكم . (لسان العرب م ٢ ص ٤٢٢/٤٢٣) .

اختلفتْ عليك الاحزاب
أوافِقُ من ؟

* * *

اذا كنتَ إلهاً فأنت النبي والانسان
وحده الانسان يستطيع أن يكون هو الله والنبي
وذاته .

من الذي يحفظ « سرَّ التجسّد » ؟
أحزاب بلا عقول ... وأحزاب بلا قلوب
صليبك ملأ عليهم الارض ، فأخلفتْ المشانقُ التي
كانت حُطاما .

جعلوا الدينَ إرثاً وهوية ولحما وعظاما
أيّنا له الحق أن يرفض أو يقبَل ؟
الاعتراف بألوهتك « طريق الى جهنم »
الاعتراف بموتك على الصليب « خطيئة فاحشة »
كما الأغنام نولد ونحيا ونموت
ماذا نفعل إذاً ؟
اختلفت عليك الاحزاب
ماذا أقول لأمتّي ؟
ماذا اقول للدين — الإرثْ
القيامةُ مجدُكَ ؟
أين هي سعادتي ؟
أين حرّيتي ...؟

من قيَّد بالأصفاد يديّ ؟

* * *

أنا مثلك . لا مجد لي بدون القيامة
ولكن القبر لن يتفجَّر !
إنسانيّتي تموت . تنحلّ . تصبح لا شيء
لا أريد هذا الموْلد . لا أريد هذا الموت
بدونك تتساقط الارقام أصفارا
بدونك تنتصرُ القبور
قيامتُك تنقذ الناس من الموت والوَهْم

* * *

أيتها الحرية أعطيني يدَكِ !
لا أحب الوقوف على القبور
يُكرهونني على الاعتراف ...
ويُكرهونني على الكذب ...
كيف نكذّب حدثا غير عادي ؟!

* * *

أيتها الحرية ،
نريد أن نولَد مخيَّرين
نريد القيامة
زمنُ الموت طال
زمن القبر طال
متى القيامة ؟

متى الحق ؟
متى الحرية ؟

* * *

أيتها الارض ـ الصمت
تكلّمي !
يُكرهونني على الاعتراف ...
ويُكرهونني على الكذب ...
بيد أني وُلدتُ « إنسانا » !

* * *

أيها المسيح ،
ماذا أدعوك ؟
أإله أنت أم نبي ؟
ان هذه ما عادت مشكلتي
لقد ثبت لي انك وُلدتَ إنساناً
وثبت لي أيضا أن الانسان وحده يستطيع أن يكون
هو النبي أو الإله أو الشيطان أو ذاته
ووحده الانسانأيضا يستطيع أن يكون هؤلاء جميعا

* * *

ليبقَ صليبُك ، أيها المسيح ، هو الطريقُ إليك
إليك أنت ،
يا أيها الحق والطريقُ والحياة !

١٥ ـ ٤ ـ ١٩٧٩

الفصل الأول

السريان :
شعبٌ ومواقِف

« السريان ولبنان توأمان لا يفترقان وصنوان لا يختلفان ، مصيرهما واحد . فمنذ خلق الله الكون وأتحف العالم بهذه الشريحة الجميلة الرائعة من الأرض حطّت عليها اقدام السريان . فارتبط اسم لبنان بتاريخهم بل هم أطلقوا عليه اسمه السامي (لبنان) تعبيراً عن جماله وحفظاً لنعمه العظمى التي خصّه الله بها » .

ثاوفيلوس جورج صليبا
مطران جبل لبنان للسريان الأرثوذكس
من محاضرة له ألقاها مساء الأحد ١٧ شباط ١٩٨٠
في « النادي السرياني اللبناني » . أنظر « العمل » ٢٠ شباط ١٩٨٠

بيان الزيارة (*)

صاحب الغبطة مار أغناطيوس زكّا الاول عيواص

أصحاب السيادة

أيها الحفل الكريم

البيان ، في اللغة العربية ، هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ .

وقيل : انه من الفهم وذكاء القلب ، وأصله الكشف والظهور [1] .

(*) القيت ـ يوم الثلاثاء ٢٣ تشرين الاول ١٩٨٤ ـ في كنيسة مار يعقوب السروجي ـ السبتية ، بمناسبة الزيارة الرسولية الى لبنان ، التي قام بها غبطة مار اغناطيوس زكا الاول عيواص ، الرئيس الاعلى للكنيسة السريانية الارثوذكسية في العالم . نشرت في مجلة « الاسبوع العربي » العدد ١٣٠٩ / الاثنين ١٢ تشرين الثاني ١٩٨٤ ص٥٦ . وفي مجلة «البطريركية» ، التي تصدرها بطريركية انطاكية وسائر المشرق للسريان الارثوذكس ـ دمشق ، العدد ٤٠ / كانون الاول ١٩٨٤ السنة ٢٢ ص ٥٣٤/٥٣٥/٥٣٦/٥٣٧/٥٣٨ .

(١) أنظر كتاب « تفسير النصوص في الفقه الاسلامي » للدكتور محمد أمين صالح ، المكتب الاسلامي ، بيروت =

صاحب الغبطة ،

حريٌّ بنا أن نعرِف أن لهذا البيان ،عند الاصوليين، أنواعا هي : بيان التقرير وبيان التغيير وبيان التبديل وبيان التفسير ، ويضيف البعض : بيان الضرورة [٢] .

ها أنذا ، اليوم ، أكتشف بيانا خامسا ...أو سادسا، فكأنه وحي ... أو نداء من مكان غير منظور .

من هنا ،

من هذا الصرح « اليعقوبي ـ السروجي »[٣] أطلق بياني وما هو بجديد ...

عهدي به أنه من قبل أن وُلدتُ ...

ولطالما غنّت له الارض في مواسم الهجرة الى الشمال والغرب ، فكان النشيد ، يومذاك ، مثلما الجرح ، في

= لصاحبه الشيخ زهير الشاويش ، طبعة ثالثة ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م ، المجلد الاول ص ٢٣

وقال الجاحظ : « والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير » .
وقال الإمام الشافعي : « والبيان اسم جامع لمعاني مجتمعة الاصول متشعبة الفروع » .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) كاتدرائية مار يعقوب السروجي ، بناها سيادة المطران ثاوفيلوس جورج صليبا .

الخاصرة أو الصدر ... ولم تتهيَّج الذاكرة برغم الغناء الحزين .

إني أسميه : بيان الزيارة ... وهو محفور ، في اللوح المسطور ، بأحرف من نور ...

صاحب الغبطة ،

لأن زيارتكم لبيروت قد أتت في الوقت المناسب،الى المكان المناسب ، فهي البيانُ ... وإن من البيان لسحراً.

أيها المسيحي البولسي البطرسي اليعقوبي ـ السرياني [٤] ،

---

(٤) اطلق الخلقيدونيون على السريان الارثوذكس اسم « اليعاقبة » ، نسبة الى مار يعقوب البرادعي (ت ٥٧٨) . واذ نتفق مع المطران ثاوفيلوس جورج صليبا القائل متسائلا: « .. . فاذا كان (مار يعقوب) البرادعي مؤسس كنيستنا ومنشىء عقيدتنا ، فما علاقتنا اذاً بقديسينا وآبائنا الذين سبقوا ولادته أو رقدوا قبل أن يلمع اسمه وينتشر ذكره ، أو بالأحرى اين كان البرادعي عندما قاوم آباؤنا بدعة نسطور، وطومس (رسالة) لاون الروماني ، وأعمال المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١ ، والخلقيدونيين فيما بعد ؟ » نذكّر بأن الكنيسة السريانية التي تعتز بمار يعقوب البرادعي انما تعتز هي أيضا، وبالمقدار عينه ، بسائر قديسيها ومجاهديها الصادقين ، الذين منهم مار يعقوب السروجي ، والأخير قال فيه المثلث الرحمة البطريرك مار افرام الاول برصوم ما يلي :
« عالم نحرير أوحد زمانه وواحد قطره ، وشاعر مفلق مطبوع لا يلحق غباره ولا تدرك آثاره ، ومترسل من امراء الكلام يتأنق ويبدع تحفزه الفطرة وتمده السجية . غلب عليه =

أيها المشرقي الأصيل ،

= الشعر فسارت قصائده سير الرياح. وطارت في الآفاق بغير جناح . وشعره يهجم على القلب بلا حِجاب يلذه من يسمعه، لا تقرأ له ميمرا حتى تألفه وتعشقه الى حد الشغف ، فمن روائع وبدائع تبهر العقول ، ومحاسن تأخذ بمجامع القلوب، الى جزالة في الكلام وحسن في اللفظ وحلاوة في المذهب ، ودقة وعذوبة في المعنى وبراعة في التعبير وإحكام في السبك على صفاء في الرونق . هو بلبل المعاني لا يمل تغريده والشاعر الموهوب المديد النفس الذي ابتكر البراعات المأثورة فما بلغ شأوه بالغ . يقصّد القصائد الطوال وقد تبلغ أبيات بعضها الالفين والثلاثة أو تزيد ، وهو مع بواهر فواتحه ونفائس خواتمه يجول في كل قصيدة جولة الفارس المغوار فيكل قارءه وهو لا يعتريه كلل . وكلما تعمق في الموضوع الذي يعالجه كلما زاده بيانا عذبا ، وطلع عليك بألفاظ مستحدثة وتعابير رقيقة وأفانين مستملحة تذهب السأم والملَل وتنبه القارىء انه حيال يم ّ عباب ملؤه درر وطرائف الآداب » .

أضاف :

« اقرأ ميامره في المواعظ والتزهيد في الدنيا والتوبة وأنت تبغي منها رشداً ، فلا تخرج مما أنت فيه الا وقد سرت الى قلبك الزهادة في الدنيا الغرور وتمكن فيه حب التقى والعبادة ، ومهما تجافى جنبك عن الصلاح فانه يعطفك الى قرع باب الله والتمسك بأهدابه ـ فلله دره ما أخبره بأمراض النفوس وحسن علاجها ، وما اسلس أسلوبه في أسر القلوب الجافية ، فكيف به اذا صادف قلوبا واعية ونفوسا وادعة . ذلك أن الله أعانه بالهامه فكان لسانه ينبوع حكمة واصابة ، وهو من أصفياء الله وأشهر قديسي زمانه ، عصر الايمان والبطولة والمبادىء الدينية القديمة التي كبتت المضللين . سقى الله عهدا انجب جهابذة تثنى بهم الاصابع وتعقد عليهم الخناصر ، كالمنبجي وبولس والرقي والتلي والمدلي وابن افتونيا وسويريوس الانطاكي ، وأضرابهم من الثقات الاثبات وان الدهر بأمثالهم لضنين . فلذلك أحسنت البيعة السريانية =

لبنان يسأل عنكم ذوي الوجوه « السريانية » التي أرهقتْها « الهجرات » والحروب والنكبات •

= نعْته بالملفان على سبيل الاطلاق وكنارة الروح الالهي وقيثارة البيعة الارتدكسية واكليل الملافنة وزينتهم وفخرهم » .

وعن سيرته قال برصوم :

« وُلد مار يعقوب في قرية (كورتم) الواقعة على ضفة الفرات . وقيل في بلدة (حَوْرا) من عمل مدينة (سروج) [مدينة في جنوب تركيا . فتحها العرب في ايام عمر ٦٣٩م. بقيت تحت حكم الصليبيين مدة]عام ٤٥١ وتخرج من مدرسة الرها فأصاب من علومها اللغوية والفلسفية واللاهوتية السهم الاوفى . وترهب وتنسك . وحين بلوغه من العمر الثانية والعشرين ارتجل قصيدته المشهورة في مركبة حزقيال ، في محضر خمسة أساقفة اقترحوها وهو ماثل في بيعة بطنان سروج أو في رواية ضعيفة ، في بيعة نصيبين فأقروا له بالشاعرية الممتازة وأجازوه واثقين ان الله سبحانه مازه بفضله وهو الوهاب الكريم . واستمسك من السيرة الفاضلة بحبل متين حتى تميز بالورع ، وسيم قساً ثم قلّد رتبة الزائر (البيريودوط) لبلدة حورا . فطفق يطوف على اديار بلاد الفرات وسورية المجوفة ناهضا بعبء مهمته ، حتى نزل من نفوس مئات بل آلاف من الرهبان أجمل منزلة ثقة وأمانة وتقى وعلماً . وفي أواخر عمره سُقّف على ابرشية بطنان سروج عام ٥١٩ فأحسن القيام بأمر رعيته سنة وأحد عشر شهراً ومضى الى جوار ربه في ٢٩ من تشرين الثاني عام ٥٢١ وهو أخو سبعين فعيِّدت له البيعة . وبعد دهر طويل نقل بعض رفاته الى هيكل خاص به في مدينة ديار بكر .

قرأ على الملفان السروجي خلق انتفعوا به عرف منهم كاتبه حبيب الرهاوي وناسك يقال له دانيال . وقال ابن العبري ان سبعين ناسخا كانوا يكتبون قصائده التي جمعت فبلغت سبعمائة وستين أولها في مركبة حزقيال ، وآخرها في الجلجلة ، وحالت المنية دون انجازها وكلها على البحر =

فامسحْ ، بكفك ، ما شقّ عليهم ومنعَهم عن مرادهم

علّمهم كَيف يصبر القديسون على القهر والجوع

والحرمان !

ذكّرْهم بشهداء كنيستكم ... شهداء الحق !صلّ

لهم !

= الاثني عشري الذي استنبطه وعرف بالسروجي نسبة اليه، وهذه الميامر تتناول شرح أهم أحداث العهدين العتيق والجديد ، والبحث في الايمان والفضائل والتوبة والبعث وحمد الله على المائدة ، والموتى وتقريظ العذراء والانبياء والرسل والشهداء . وخص بالذكر القديسين بطرس وبولس وتوما وأدّى ويوحنا المعمدان وزكريا وشامونا وحبيب ، وسرجيس وباخوس وأهل الكهف وجرجس وشهداء سبسطية وافرام وسمعان العمودي ، والبيعة السريانية تردد في الاصباح والامساء طائفة من ميامره المختارة في تسبيح رب الكون فتخلد ذكراه » .

وقال برصوم أيضا :

« وفي خزائن كتبنا الزعفرانية [نسبة الى دير الزعفران الكبير العامر الآهل ، الواقع شرقي ماردين ، أنجب هذا الدير واحدا وعشرين بطريركا وتسعة مفارنة ومئة وعشرة أساقفة] والقدسية وماردين وغيرها وفي الواتكانية ولندن ما يزيد على أربعمائة ميمر منها أكثرها على رقوق . واذا علمت ان الراهب بولس بيجان نشر مئتي ميمر في خمس مجلدات ضخمة قدرت ان مجموعها يجيء في تسعة عشر مجلدا » .

(اللؤلؤ المنثور ، الطبعة الثالثة ، قدّم لها البطريرك زكا الاول عيواص ، عندما كان مطرانا على بغداد والبصرة ، ونائب رئيس مجمع اللغة السريانية ١٩٧٦/٥/٢٧ ، من ص ٢١٩ الى ص ٢٢٢) .

أعطهم يدك المباركة !

لقد أوشكت القافلة المحمّلة بالمسك والبخور والميامر والأناشيد أن تـُضلـِّها أرضُنا التـَّيـْهاء .

هل لِـعَصاك أن تفجـِّر صحراء الخوف أمنا واستقرارا!

وسلاما !

اني لأرفضُ أن أتصوَّر شرقا بدون السريان واخوانهم أبناء كلدو وآثور .

ويؤلمني أن أرى الغربَ يستدرج هؤلاء ، فكأنهم الجياد المهزومة أو الغزلان تطاردها الإبل ، التي أصابها داءُ الصاد ، فسالت أنوفها وسَمت برؤوسها بسبب هذا المرض اللعين .

صاحب الغبطة ،

كنتُ أسمع ، وأنا فتى صغير ، مثلا ، تعرفه العامة، يقول : « كلّ صليبه على قدّه » فلم أدرك ، آنذاك ، ما معناه ، انما اعتقدتُ أن صليب الفقير هو غير صليب الغني ، فإن كان الاول من خشب أو حديد ، فالثاني لا بدّ أن يكون من ذهب أو ألماس .

وظلَّت كلمات أحمد شوقي « ليس الصليب حديدا كان بل خشبا » كأنها قد نـُزّلت تنزيلا ، حتى طالعتُ

تاريخ الكنيسة الشرقية ، فبان لي الصليب رمزا للعذاب والتضحيات، ورمزا أيضا للنضال في سبيل الايمان والمحبة حتى الاستشهاد (٥) ! وهكذا صرت أنظر الى المسيحي كما أنظر الى الصليب .

وكبر اعجابي أكثر فأكثر عندما قرأتُ لمحات من تاريخ شعبكم العظيم ، وما قدّمته كنيستكم الخالدة من اللاهوت والعلم والادب والفلسفة والتاريخ ، وكذلك ازدادت ثقتي بمن خرّجتهم مدارسكم ومساكن رهبانكم المنتشرة في الرها (اورهوى) ونصيبين وقنشرين (٦) .

---

(٥) ولطالما حدثني سيادة المتروبوليت نرساي دي باز ، المسؤول عن الآشوريين في لبنان وسوريا وأوروبا ، عن معاناياتهم في بلاد كردستان . حتى ان صمودهم في تلك المناطق الوعرة هو نوع من الاستشهاد ... اذ كان غالي الثمن ... وما أكثر الذين شاركوا في قهر هذه الطائفة وتبديد شملها وتدمير بلادها ومعالمها وكنيستها . وقد عقدنا فصلا في هذا الموضوع ، عنوانه « الآشوريون والنساطرة الى أين ؟ »انظر كتابنا « نحن ... وصنمية التاريخ » الطبعة الاولى ١٩٨٦ من ص ٣٤٢ الى ص ٣٥٩ ، وعقدنا أيضا فصلا في موضوع « الكلدان بين الامس واليوم » ضم الى فصول هذه الطبعة .

(٦) قنشرين بلدة صغيرة من اعمال حلب تقع على ضفة الفرات . وهي كلمة سريانية مركبة تعني عش النسور . وقد أسس هناك القديس مار يوحنا ابن افتونيا ديرا عام ٥٣٠ ، تحول الى مدرسة مهمة جدا لمدة أربعة قرون . وقد تخرج من هذه المدرسة نخبة نادرة من العلماء . (المطران ثاوفيلوس جورج صليبا ـ المنارة : المصدر المذكور سابقا) .

فلا عجب اذا ما امتدّ هذا النّور الى بلاد الهند ، حيث تكثر المذاهب والاديان والمعتقدات .

وفي ذات يوم ، بينما البلاد تشهد المجازر الطائفية والويلات ، أعلنتُ ، على السريان ، حبي ، في دراسة متواضعة ستبقى تحتفظ بالفضل والتقدير لسيادة المطران ثاوفيلوس جورج صليبا ، يومة كان لا يزال راهبا ، ولأصدقاء كرام ، أساقفة ورهبانا ، في دير الشرفة ، وبطريركية السريان الكاثوليك ، حيث يجلس سعيدا مار أنطون الثاني حائك،اذ فتحوا لي خزائن الكتب والمخطوطات في ذلك الدير الذي يشبه التاج على رأس درعون ـ كسروان ، ولكن عتبي كان كبيرا وأنا أراجع سيرة أولئك الاساقفة الاحبار ، ممن بلغ الصراع بينهم حداً عظيما ،حتى انقسمت الكنيسة السريانية على نفسها ، فانقسم معها الشعب السرياني ، ليبدأ مرحلة أخرى من الشتات والتمزق والانهيار .

صاحب الغبطة ،

يوم انتخبتم رئيسا أعلى للكنيسة السريانية الارثوذكسية في العالم ، اجتاحني فرح كبير ، فآمنت بأن مستقبلا سريانيا عظيما سيتحقق على أيديكم ، وأن الوحدة السريانية لا بد أن تُبعث في عهدكم،ليعود مشرقنا الحبيب

الى أبنائه الأصيلين وإلى اعتزازه بهذه الكنيسة الصامدة الصابرة ، فأرجو أن يكون ذلك هيّناً عليكم .

صاحب الغبطة ،

في منزل الصديق الكريم سيادة الحبر المطران ثاوفيلوس جـورج صليبا ، كان لي ، غير مرة ، شرف اللقاء ببعض أساقفتكم ورهبـانكم ، أتـوا زائرين من حلب وحمص والجزيرة والشام والعراق والهند وأوروبا وأميركا ، على الأخص سيادة المطران الجليل جرجس بهنام ، وسيـادة الحبر الكريم اثناسيوس يشوع صموئيل مطران الولايات المتحدة وكندا ، صاحب كتاب « كنز قمران — مـدارج البحر الميت » الشهير [٧] ، ومار غريغوريـوس يوحنـا ابراهيم مطران حلب وتوابعها ، ومـار طيمثاوس افـرام عبودي مطران السويد والـدول السكندنافية والمملكـة المتحدة ، ومار ملاطيوس برنابـا مطران حمص وحمـاه وتوابعهما ، فإذا أنا أمام أحبار وعلماء صالحين يجاهدون

---

(٧) ٢٥٥ صفحة من القياس الكبير مع ملحق مجموعة صغيرة من الرقوق ، ترجمه عن الانكليزية الدكتور الفونس شوريز ، راجعه ونقحه المطران ثاوفيلوس جورج صليبا ، طبعة ١٩٨٥ ، ولنا في هـذا الكتاب دراسة عنوانهـا « كنز قمران » وهي منشورة في كتابنا « نحن ... وصنمية التاريخ » من ص ٥٦٧ الى ص ٥٧٢ .

الجهاد الحسن ، لكي ينقذوا أمتهم من العثرات والأزمات التاريخية الممتدة ، بعنف وشراسة ، الى عصرنا هذا الضارب لونه الى السواد .

وممن عرفتُ أيضا المنـاضل الكبير والحبر الجليل اثناسيوس افرام برصوم ، مطران بيروت وزحله ، الذي له عندي منزلة عظيمة جدا ، بمثابها أحتفظ لمساعديه الكهنـة ولأولئك القيمين على ثانوية مار سويريوس في المصيطبة — بيروت ، مديرا وأساتذة ، الساهرين على مجد ثانـويتهم وسمعتها وكرامتها ووطنيتها بأمانة فائقة وإخلاص لا حدود لـه .

كـذلك ، اتصلتُ بسائر مجالسكم ومـؤسساتكم وجمعياتكم في لبنان ، مسؤولين وأفرادا ، ولا سيما المطران فيلكسينوس متى شمعون ، الذي يرعى ، في العطشانـة ، شؤون أطفال قست عليهم الحياة وظروف العيش .

جميع هؤلاء وأولئك على خلق كريم ، وقد عَمَرت قلوبُهم ونفوسهم بالحب والايمان ، وما تراجعوا عـن المصاعب ولا هم لانوا ، وانّ ثقتي بهم لكبيرة .

صاحب الغبطة ،

إن كان لا بد من كلمة أخيرة ، فهي للثناء على كـل

السريان الذين التقيتُهم أو مررتُ بهم ، لما أظهروا
ويُظهرون من سمات حميدة ، وصفات كريمة ، وتفهم ،
امتدادا لما كان عليه آباؤهم وأجدادهم ، واحتراما منهم
لتاريخهم المجيد ومبادئهم العالية والراقية ، التي لن يتنازلوا
عنها أبدا مهما يتآمر المتآمرون • (*)

صاحب الغبطة ،

مرة أخرى أقول : ان زيارتكم الرسولية الاولى الى
لبنان ، هي ، في نظري ، بيان رائع ، سيتوِّج ، حتما، تاريخ
الكنيسة السريانية المعاصر بأعظم الانتصارات وأهم
الانجازات •

صاحب الغبطة ،

تحية مني الى دمشق — الشام ، عاصمة كنيستكم
المقدّسة ، وإلى كل مدينة وقرية حضنت وتحتضن سريانيا
وآشوريا وكلدانيا بالعطف والحنان والتكريم •

(*) تعرف « الرابطة السريانية » — اليوم — وبفضل رئيسها
الصديق الشاب الاستاذ حبيب افرام ، ازدهارا ملحوظا ، اذ
أنشأت اذاعة سميت « صوت السريان » ومجلة . كما تقوم
الرابطة بنشاطات اجتماعية وثقافية تستحق الذكر .

لمحات من تاريخ السّريان

ان الذي يعرف تاريخ السريان وما جرى لهم في
سوريا وبلاد ما بين النهرين ، لا بد أن يتذكر ، كلما التقى
سريانيا،أخبار الاضطهادات الدينية والسياسية والاقتصادية،
التي لقيها هؤلاء ، منذ بدأت المجادلات اللاهوتية حول
طبيعة المسيح وحتى الثلث الاول من القرن العشرين الحالي•

فعلى وجه كل سرياني ، كما في عينيه ، حكايات عن
سياط الجلاّدين ، التي أكلت من أجساد السريان وأفئدتهم
وحريتهم • أما أيديهم وأرجلهم فعليها آثار للاحقاد
الفولاذية ، البيزنطية والفارسية والعثمانية ، التي ما زالت
أخبارها تدوي ، حتى اليوم ، في أقبية التعذيب وقلاع
الأباطرة والامراء والسلاطين والولاة •

أولئك (السريان) كانوا يداهَمون في بيوتهم
ومحلاتهم وحقولهم ، ليُسْحبوا جماعات ، رجالا ونساء،
فتيانا وشيوخا ، وأطفالا في بعض الاحايين ، الى حيث كان

يجري عليهم الحساب الشديد ، وتنفَّذ فيهم شتى أنواع العقوبات ، فمنهم من قضى حرقا ، ومنهم من قُتل بالسيف، وآخرون ماتوا إما قهرا وإما جوعا ، أو خوفا ، أو إثر مرض حلّ بهم من بعد التحقيق والترهيب والتحقير •

من الساحات العامة كانوا يساقون كما الاغنام • والويل ثم الويل لمن قاوم أو احتج • وترى النار تشتعل في المنازل والمتاجر ، ومنها كانت ألسِنة هذه النار تمتد الى بساتين النخل والزيتون والرمان ، لتشمل حقول الارزّ والقمح والقطن والحنطة • ويدخل الأوباش زبانية الامبراطور أو الامير أو السلطان ، بخناجرهم على المواشي، ليبْقروها ، فتمتلىء السماء دخانا ، والارض يختلط فيها دم الانسان بدم الحيوان ، ليرخص سعر الآدمي عن سعر البهيمة •

ذنبُ السريان انهم يريدون أن يثبّتوا على عقيدتهم • فكنائسهم يجب أن تبقى كنائسَهم ، وأديارهم وجدت لتظل شامخة على القمم • ولهؤلاء شعائر وطقوس ولغة وتراث وتاريخ ، لا يتنازلون عنها لأحد ، بل يتمسكون بها، ويحافظون عليها ، فإما الحياة وإما الفناء •

لقد ملأ السريان أرض المشرق طولا وعرضا ،وكانوا

يُعَدّون بالملايين • فمن أدنة (أطنة) (١) الى أورفا (الرّها) (٢)، الى ديار بكر ، على دجلة الأيسر، الى طور عبدين ، الى ماردين • ومن القامشلي الى حلب الى انطاكية ، وإلى حماه وحمص والنبْك والشام والقدس ، حتى بغداد والموصل ، وأبواب بلاد فارس • على هذه المساحة الواسعة نشر السريان أروع الاعمال • فالأناشيد الخالدة هي أناشيدهم ، والقصص الساحرة هي لهم ومنهم، والفناقيث (الصلوات الفرضية) (٣) من أعمالهم • كذلك

---

(١) أدنة أو أطنة (Adana) مدينة تركية ، قاعدة مقاطعة سيهان في كيليكيا .

(٢) أورفا أو الرها (Urfa, Edesse) مدينة بين النهرين في تركيا ، اشتهرت بمدرستها اللاهوتية التي انتقلت اليها من نصيبين ٣٦٣ م. بعد فتح الفرس لهذه المدينة. فأصبحت الرها عاصمة الآداب السريانية حتى القرن السابع . من أشهر أساتذتها افرام السرياني ورابولا. فتحها العرب ٦٣٩م.

(٣) الفنقيث ج فناقيث : لفظ سرياني يراد به اللوح والدفتر ومجلد كتاب . ثم أطلق على جزء من الكتب القانونية البيعية. وقد ضمت منها دار المخطوطات السريانية في دير الشرفة عدة مجلدات ضخمة أكل عليها الدهر وشرب وأصبح بعضها لكثرة الايدي التي تداولتها تنقصه بضع أوراق خصوصا في أوله أو آخره . ومن ثم فنكاد لا نرى فيها تواريخ نسخها . وكان العلامة السيد اقليمس يوسف داود مطران دمشق الطيب الذكر قد طلب جانبا منها الى دمشق مستعينا بها على ضبط الطقوس الفرضية وبعد أن صرف في هذا السبيل عشرة أعوام كاملة أعادها الى مركزها . وقد ألغي استعمالها بظهور الفناقيث المطبوعة منذ السنة ١٨٦٦ . أنظر كتاب « الطرفة في مخطوطات دير الشرفة » تأليف الخورفسقفوس اسحق ارملة السرياني ، مطبعة الآباء المرسلين اللبنانيين — =

الصلوات والتسابيح والمواعظ والميامر والارشادات، وكتب التاريخ والطب والصرف والنحو والفلك والهيئة والحساب، والمباحث المختلفة، كلها من عندهم. ولولا هذه المحفوظات لضاع قسم كبير من تاريخ الشعوب المشرقية في مواخير الذين أفسدوا في هذه الارض وكانوا من الضالين.

حاولوا ابادتهم

كم حاولوا ابادة هذا الشعب الجبار الصابر على المذابح والمجازر والسحل والتنكيل!

إلى هذا الحد تكون القلوب قاسية والعواطف متحجرة والاحقاد ثابتة؟!

كيف استطاع الفرس والبيزنطيون والعرب والصليبيون والمماليك والاكراد والتركمان والعثمانيون أن يُعملوا سيوفهم وسكاكينهم في نحور رجال السريان وأطفالهم ونسائهم؟

= جونيه ١٩٣٦ ص ١٠٩.
ويمكن النظر الى كتاب « تاريخ كلدو وآثور » للمطران ادي شير الكلداني، مجلد من جزئين، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، في بيروت ١٩١٣، الجزء الاول ص ١ حيث يحدد جغرافية آثور وكلدو أي أرض ما بين النهرين.

لماذا الانسان عندما يتعرى من انسانيته يصبح وحشا، بل أخطر، على أخيه الانسان، من وحوش الارض جميعها؟

لقد أكلت هندُ كبد حمزة فضُرب بها المثل: « آكلةُ الأكباد »! وكأني بهم قد فاتهم أن هندا هذه هي بنت المآسي والنكبات التي حلت بقومها وأهلها، قبل أن أصبحت « آكلة الاكباد » ثم الصحابية العالية الشهرة؟!

ومهما يكن، فماذا عسانا ندعو أولئك الذين كانوا يتفرَّجون، من نوافذ قصورهم البائدة، على السريان يُذبَحون في الساحات كالخراف؟!

هبْ انهم كانوا عصاة برابرة أو قُطّاع طرق، بينما هم ليسوا كذلك، فمن الذي أجاز ذبحَهم وتشريدهم من بلادهم ومطاردتهم وتفقيرهم؟

مخطوطاتُهم، التي تفخر مكتبات العالم أن تحتويها، تشهد لهم بأنهم أهل حضارة وثقافة وتُقى ومجد. فكيف نسكت عن المظالم التي حلّت بهم فأذلَّتْهم بعد أن كانوا هم النجوم والكواكب في سماء هذا المشرق، مثلما أناروا ظلمات الغرب وأقاصي الشرق، بالعلوم والفلسفة والفن والادب؟!

ألا قلنا لمغتصبي حقوق السريان: اذا كنتم تريدون

أن تكونوا رواد السماء ، فالأفعال الهمجية التي بادرتم بها
هؤلاء تؤكد أنكم لا تستحقون هذا الشرف ، حتى ان
الارض التي سقيتموها من دماء السريان تعيّركم ، بل هي
ترفضكم موتى ثم ترابا !

من الذي قال لكم إن السماء تستقبل الظالمين والمستبدين
والسفّاحين ؟

كلاّ ! السماء هي ميدان للشهب والشمس والقمر ،
وليست ميدانا لذئاب الليل وثعالبه الغادرة .

أي حياد تطلبون ؟

هل عرفتم لماذا قاتل السريانُ في لبنان ؟

ماذا كنتم تنتظرون من هؤلاء الذين شرّدتهم الاطماع
والعصبيات (...) ورمت بهم هنا ، في هذه الارض التي
كأنها البركان ؟

تطالبونهم بالحياد ؟

من الذي حدّثكم هكذا ؟

ألم يقل المثل : « من زرع الريح حصدته العاصفة »؟

اقرأوا جيدا تاريخ هذا الشعب وتاريخكم ، قبل أن
تحكموا عليه وترجموه وتحمّلوه الأوزار والآثام !

لقد قاتل السريانُ ، في لبنان ، دفاعا عن وطن منحهم
المأوى والحرية ، ودفاعا عن وجودهم .

فما أروعهم أوفياء للبنان الذي فتح لهم قلبه عندما
لجأوا اليه هاربين من جَوْر لا يوصف وظلم لا يطاق
واستبداد جاهل وخبيث !

قد يسأل البعض ، وهو على حق : لماذا الذبح على
الهوية ؟

حقا نقول إن النزاع ، لا يكون الا كما يمارَس
اليوم على أرضنا وأجسادنا ، عندما تسود المجتمعات ، أو
بعضها ، شريعةُ الغاب ، وتتحكم فيها الاهواء والشهوات
والطائفية العمياء اللئيمة . ولسنا بعيدين عن هذه المعايب
والمصائب ، بل هي فينا ونحن فيها ، منذ تلك العهود التي
خَوَت .

كيف نفهم الحياد ؟

اذا كان «كل وعاء ينضح بما فيه» حقا ، فإن هذا
الشرق ، الذي زرعناه ظلما ورعبا وخوفا وبؤسا وشقاء
وقلقا ، باسم الله ، ومن أجله ، لا بدّ أن تكون « مواسم

القطاف » ، فيه ، هي مواسم الذبح على الهوية ، فيا ليتنا
ندرك ما نحن فاعلون .

... ونغازل الله

ما أغبانا وما أقلّ حياءنا !

نغازل الله آناء الليل وأطراف النهار غزلا إباحيـا .
وكلما فرغت رؤوسنا حشوناها بالخرافات والادعـاءات
الكاذبة الباطلة ، لنتنادى الى المبارزة ، فكأن الله علَم على
جبل يستحقه من وصل اليه قبل غيره ، ولو على الجماجم .

صديق يأكل أُذُنَ صديقه ؟
طفل يخنق ثعبانا !
أُم تقتل أطفالها !
شاب ، في مقتبل عمره ، ينتحر برصاصة مسدّسه !
صبيّة كاعب حسناء تلْعق السم !
مدينة تقفل على نفسها الابواب لتتحول رمادا وجثثا!

كاتب أو شاعر أو فيلسوف ينتقم من مطبوعاته
ومخطوطاته فيقذفها الى النار ويجلس ليغشّي بصره بدخانها
وقد هيأ حبوبَ الأبدية !

عصابة أبطالها مراهقون تخطف طفلا لتبتزّ من ذويه

المال ، وقبل ان يتعانق عقربا الساعة ، ساعة الوعد ،تطرحه
صريعا وترفق طيّه رسالة موجزة جدا تقول : « لم نكن
لنرغب بقتله ، وإنما هو القرار فحسب » !

قائد جماعة يقيم وليمة مميتة لأعضاء فرقته وعائلاتهم
وأطفالهم وذويهم ، وإذا ما اطمأن الى نجاح « العملية »
تبسّم وانتحر !

الكبار المُتخَمون يسرقون مال الوطن ....ويعاقبون
الصغار الجياع الذين يسرقون ليأكلوا ؟!

أسئلتنا ، هذه ، الكثيرة المتزاحمة ، متى تلقى الجواب؟

ربما لا جواب .. ولا حل .. ولا سعادة .. ما دمنا
نغازل الله ونكذب عليه .

كلما جئتُ صديقي الربّان (المطران) جورج صليبا،
وجدتُ منزله (انتقل مكتبه الى المطرانية) في السبتية ـ
المتن ، يغص بالبائسين من أبناء طائفته ممن أتوا يكاشفونه
بقضاياهم المتعددة وبخاصة الاجتماعية منها. هذا من القامشلي،
وذاك من ماردين ، وذلك من طور عبدين، وآخرون من
دمشق ، أو الرّها أو الحسكة أو حلب أو العراق ، يبدو
عليهم ما يحرّض على الاستفسار عن أوضاعهم ومشكلاتهم،
ولطالما راودني السؤال : لماذا حالُ هؤلاء هكذا ؟

غير مرة قلتُ لسيادة المطران صليبا الودود ، الذي يستقبل ضيوفه معانقا : ان في طائفتكم ، يا سيدي، بائسين لو كنا سنبحث عن مثلهم ، بين فقراء الشيعة ، ان في لبنان وان في البلاد العربية أو إيران ، على ضوء قنديل «ديوجين»، ربما لن يصادفنا «النجاح ».

وكلما ذكّرته بهذا القول يحتل الحزنُ وجهه الممتلىء حيوية وعافية ، ليقول لي ، ودائما : « إنها حصيلة أكثر من ألف وخمسمائة عام من الحروب الدينية والسياسية التي جرت على أرضنا » ويتابع قائلا : « وليس لك الا أن تعود الى تاريخنا ان كنت تريد الجواب القاطع والحاسم » .

الخلافات السريانية

عزمتُ على قراءة ما أمكنني من تاريخ السريان ، فقادتني الطريق الى غبطة البطريرك انطون الثاني حائك ، في مقره الشتوي ببيروت ــ طريق الشام ــ قرب المتحف، فاذا عنده ، خزائن الكتب النفيسة والمراجع المختصة .

كرّرتُ الزيارة للبطريركية .. ثم لدير الشرفة ، فأخذت معرفتي بغبطته تنمو وتكبر . وهكذا مع الأسقفين:

فلابيانوس زكريا ملكي ، وغريغوريوس افرام جرجور ، والآباء : يوسف ملكي وجبرائيل كاتو (كلاهما من ماردين ــ بلاد الشهداء) وميشال الخوري (من حلب) وجورج المصري (من دمشق) (٤) والمونسنيور ميخائيل الجميل (من العراق) . هؤلاء جمعتهم المسيحية فإذا هم اخوان في المسيح والعقيدة ، وقد نذروا أنفسهم لله والكنيسة .

لا أستطيع أن أخفي ذلك الوجع الذي انتابني وأنا أطالع « تاريخ سيدة النجاة ــ أي دير الشرفة » (٥) لمؤلفه الخورفسقفوس إسحق أرملة السرياني ، و « عناية الرحمان في هداية السريان » (٦) و « السلاسل التاريخية في أساقفة الأبرشيات السريانية » (٧) و « المجلة البطريركية

(*) [illegible]ي .

(٤) كان آنذاك رئيس دير الشرفة . وعلى اثر التشكيلات الاخيرة انتقل الى منطقة سد البوشرية ــ جديدة المتن، فيما أخذ محله الاب يوسف ملكي اذ عين رئيسا للدير .

(٥) ٦٢٦ صفحة من القياس الوسط ، مطبعة الآباء المرسلين اللبنانيين ــ جونية ــ لبنان ــ ١٩٤٦

(٦) ٦٦٨ صفحة من القياس الوسط ، جمعه العبد الفقير الى ربه تعالى ديونوسيوس افرام نقاشة ، رئيس أساقفة حلب على السريان الكاثوليك ، طبع بمطبعة صبرا في بيروت ١٩١٠

(٧) ٤٨٢ صفحة ، من القياس الوسط ، بقلم الفيكنت فيليب دي طرازي ، عفي عنه . المطبعة الادبية في بيروت ١٩١٠

السريانية [8] وبعض الاعداد من مجلة « الكرمة » [9] وكتبا أخرى . فهنا قدح بالسريان الارثوذكس من قبل اخوانهم السريان الكاثوليكيين ، وهناك رد مثله من السريان الارثوذكسيين على السريان الكاثوليكيين . تماما كما هو بين السنّة والشيعة ، والشافعيين والمالكيين ، والحنابلة والحنفيين ، والعلويين والإسماعيليين ، أو قل بين أي فريق من هؤلاء والآخر ، وعلى مدى قرنين أو أكثر ، استمرت الانتقادات اللاذعة والقاسية التي يسودها الانفعال والغضب . فإذا بُعد بعيد بين ابناء الطائفة السريانية الواحدة : فريق يرفض مبايعة البابا رئيسا على كل المسيحيين في العالم ويعتبر أن الأصالة هي لديه وفي مشرقيته وعقيدته المستقيمة الرأي ، وفريق يأبى الا أن

---

(٨) السنةالسابعة ١٩٤٠،العدد الثالث. صادرةعنالبطريركية السريانية في دير مرقس للسريان بالقدس ـ صاحبامتيازها الاب الراهب يشوع صموئيل (هو نفسه الحبر الجليل اثناسيوس يشوع صموئيل مطران الولايات المتحدة وكندا للسريان الارثوذكس) ما زالت هذه المجلة تصدر ، ولكن عن بطريركية انطاكية وسائر المشرق للسريان الارثوذكس،دمشق ـ سورية،مديرها الحالي ورئيس تحريرها سعيد عبدالنور، ويتولى الشؤون الادارية نيافة المطران سويريوس اسحق ساكا النائب البطريركي العام .

(٩) نشرة فصلية اخبارية مصورة ، تصدر عن مؤسسة الراهبات الافراميات ببيروت ، صدر العدد الاول منها في كانون الثاني ١٩٧١

تكون الكنيسة الرومانية أم الكنائس العالمية ، وكل منهما يتهم الآخر بـ « الانحراف » و « الهرطقة » !!

إن هذه النزاعات الحادة هي ، بكل تأكيد ، حصيلة المؤامرة على السريان وتراثهم .

ففي بداية القرن الثامن عشر استطاع خصوم السريان (...) والطامعون في تفتيتهم وتهجيرهم أن يؤلبوا بعضهم على بعض ، فإذا هم في صراع سرياني ـ سرياني رهيب .

لقد كان الوالي التركي وزبانيته ، من جهة، والقناصلة الإفرنج ، في حلب وسائر العواصم المشرقية ، من جهة أخرى ، هم الذين حرّضوا على هذا الصراع وشجّعوه بما أنفقوا عليه من أموال طائلة ، في زمن أسْود لئيم ، فتواصلت الفتن ، وتفاقم الخلاف الغامض ـ الواضح ، مما سبّب بالإنشقاقات التي ستبقى من معانيات الكنيسة السريانية ما بقيت قائمة .

يقول المطران نقاشة :

« ولبث مسيحيو حلب منقسمين الى الفرقتين اللتين انتشرتا في بلاد سوريا وما بين النهرين منذ القرن السادس أعني الملكية وهي التابعة لتعليم المجمع الخلقيدوني

واليعقوبية وهي القائلة بالطبيعة الواحدة في المسيح . وكان لكل منهما كنائس وأساقفة خصوصيون بحلب يترأسون كلاً من الطائفتين على حدة الواحد بعد الآخر » .

أضاف :

« وورد في الفهرست الذي ألحقه ميخائيل الكبير بكتابه التاريخ المطوّل [١٠] أسماء أساقفة حلب السريان اليعقوبيين منذ عهد البطريرك قرياقوس (٧٩٣ – ٨١٧) الى أيامه أعني الى آخر القرن الثاني عشر » وفي « سنة ٧٢٧ تشعبت في مدينة حلب من الفرقة الملكية شعبة ثانية انحازت الى الضلالة (المونوثيلية) [١١] وطال الخصام بين

---

(١٠) هو « كتاب الحوليات في تاريخ الكنيسة والشرق » او «كتاب التاريخ الديني المدني العام » المستفيضة شهرته من أول الخليقة حتى سنة ١١٩٣ (كما يصفه افرام برصوم في اللؤلؤ المنثور ص ٣٩٤) . مرجع قيم وضعه البطريرك ميخائيل الكبير (١١٢٦ – ١١٩٩) الرئيس الاعلى للكنيسة السريانية الارثوذكسية .

(١١) المونوثيلية : أصحاب المشيئة الواحدة . ظهرت في القرن السابع . حرمها المجمع القسطنطيني الثاني (٦٨١ م) وكان قد سبق هذه الفرقة جماعة قالت بطبيعة واحدة في المسيح، وهي (المونوفيزية) . ظهرت في القرن الخامس . أهم قادتها: أوطيخا في القسطنطينية وديوسقورس في الاسكندرية . حرمها المجمع الخلقيدوني الرابع (٤٥١ م) . أدخل عليها ساويروس الانطاكي تعديلات هامة، على ان عقيدة ديوسقورس هي غير عقيدة أوطيخا . والكنائس التي تؤمن ان للمسيح =

الفريقين ثم أذعنت الفرقة المونوثيلية للملكيين » .

وقال أيضا :

« وكان الملكيون مستولين على الكنيسة الكبرى وقد وصفها بعض المؤرخين بقوله : (ان موقعها كان اتجاه الجامع الغربي المعروف بالجامع الكبير وهي الكنيسة التي ابتنتها هيلانة أم قسطنطين وكانت معظّمة عند النصارى حتى قيل انه كان يقف على بابها يوم الاحد كذا وكذا بغلة لرؤساء النصارى من الكتاب والمتصرفين) » .

و « من أهم الاخبار ما ورد في كتاب تاريخ ابن

= طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة من مشيئتين وأقنوما واحدا من أقنومين هي الكنائس السريانية والقبطية والارمنية ، وهذه جميعها قد حرمت وتحرم أوطيخا وعقيدته. ومما قاله البطريرك يعقوب الثالث في أوطيخا : واذ لم يكن متعمقا بالعلم اللاهوتي، هفا في نقضه ذلك المذهب (النسطوري) الغريب ، وقال بطبيعة واحدة الهية استحالت اليها الطبيعة البشرية ، فاختلطتا وامتزجتا حتى تبلبلت خواصهما . بل علّم ان كلمة الله لم يتخذ جسدا بشريا من طبعنا لكنه خلق له في أحشائها جسدا كما شاء ووحّده معه طبيعيا ، وذلك كما يجمد الماء بواسطة الهواء القارس . وقد اقتبس هذا الرأي من المبتدعين : والنطينس وماني وابوليناريوس » (تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية ، الجزء الثاني ١٩٥٧ ص ٩٩/١٠٠) .

الشحنة ـ نشره يوسف أفندي اليان سركيس السرياني [١٢] ـ

(١٢) يوسف اليان سركيس (١٨٥٦ ـ ١٩٣٢) وُلد في دمشق . استوطن القاهرة ونشر « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب » لابن الشحنة ، المترجم له أدناه ، له « معجم المطبوعات العربية والمعربة » .

ـ « ابن الشحنة الصغير (٨٠٤ ـ ٨٩٠ هـ = ١٤٠٢ ـ ١٤٨٥ م) هو : محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازي الثقفي الحلبي ، ابو الفضل بن أبي الوليد ، ابن الشحنة . مؤرخ ، فقيه حنفي ، من الرؤساء في أيام الاشرف قايتباي ، من أهل حلب . ولي قضاءها سنة ٨٣٦ هـ وانتقل الى مصر فولي بها كتابة السر (سنة ٨٥٧ هـ) وأقام أقل من سنة ، ونفي الى بيت المقدس ، فأقام الى (سنة ٨٦٢ هـ) وأذن له بالعودة الى حلب ، فعاد ، ثم الى مصر ، فأعيد الى كتابة السر (سنة ٨٦٦ هـ) وأضيف اليه قضاء الحنفية . ثم صرف عن العمل (سنة ٨٧٧ هـ) ومرت به محن وشدائد . وفلج ، وأصابه ذهول في آخر عمره ، ومات وهو شيخ « الخانقاه » الشيخونية ، بالقاهرة . وكان آية في سرعة الحفظ . له تصانيف منها « طبقات الحنفية » عدة مجلدات ، و « نزهة النواظر في روض المناظر ، خ » جعله كالشرح لتاريخ ابيه (محمد بن محمد ، المتوفى سنة ٨١٥ هـ) ، و « المنجد المفيث في علم الحديث » ، و « نهاية النهاية في شرح الهداية ـ خ » جزء منه ، فقه قال السخاوي : كتب منه الى آخر فصل الغسل في خمس مجلدات أو أقل ، و « ترتيب مبهمات ابن بشكوال على اسماء الصحابة » ، و « مجموع ـ خ » بخطه ، في موضوعات مختلفة ، و « ثبت مروياته ومسموعاته وشيوخه ـ خ » بخطه ، في ٢٥٩ ورقة عند الاستاذ مسعد محمد حسن بالقاهرة . وينسب اليه « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب » ورجح الطباخ ، في أعلام النبلاء ، انه من تأليف ابي اليمن (محمد) بن عبد الرحمن البتروني .

انظر الاعلام ـ الزركلي ، دار العلم للملايين ، المجلد السابع ص ٥١ .

عن كنائس الفرق الثلاث ما تعريبه : (في سنة ١١٢١ مسيحية لما أقبل غوسلين (جوسلين) [١٣] يحاصر مدينة حلب أولاً في جبل جوشن غربي حلب وأخرب الجامعين اللذين فيه ... وبعد أن خمدت الحرب استدعى أبو الحسن حاكم حلب مطرانيها أعني غريغوريوس شمشون مطران السريان ومطران الملكيين مع جملة من المسيحيين وأمرهم ببناء الجامعين . فلما عادا لمشاورة وكلاء الكنائس قرّ رأيهم على أن لا يجيبوا الى ذلك الطلب لئلا يفتحوا على المسيحيين باباً جديدا وهو القيام برم الجوامع كلما خربت ، فلما سمع الحاكم بذلك أمر ألوفا من المسلمين فأسرعوا يوم الجمعة الى الكنائس ودمروها ودخلوا كنيسة مار يعقوب وكانت للسريان وكسروا البيم وكاروبي المذبح ومزقوا الصور وفتحوا في الجهة الجنوبية محرابا صلوا فيه وصنعوا كذلك ببيعة والدة الله وكانت للملكيين وبكنيسة النساطرة ، ونهبوا الكنائس وقلاّيتي المطرانين فهرب مطران الخلقيدونيين الى انطاكية ومطران السريان الى قلعة جعبر » [١٤] (*)

(١٣) جوسلين (Josselin) : اسم ثلاثة زعماء من الافرنج ذكروا في الحرب الصليبية . أولهم أمير طبرية صاحب الرها توفي ١١٣١ . هو نفسه الذي ذكره ابن الشحنة .

(١٤) عناية الرحمان في هداية السريان ص ٢٨/٢٩

(*) أما عن قلعة جعبر ، فهي قديمة سماها العرب دوسر . تقع على الفرات بين الرقة وبالس . احتلها الصليبيون ١١٦٨م ثم استرجعها نور الدين ولا تزال قائمة وفيها قبر سليمان جد العثمانيين وولديه ارطغرل ودوندار .

وهل أوجع من أن نقرأ أيضا :

« ... وكان مفريان اليعاقبة منذ بلغه صدور الفرمان في حق الكاثوليكيين قد سارع الى العاصمة وشرع يترقب الفرص الموافقة لينتقم من الكاثوليكيين فبينما هو كذلك، اذا بكتب من قسوسه الحلبيين يخبرونه فيها بما جرى لهم في المحكمة . وكان السفير النمساوي الذي أبرم مسألة الصلح مع الدولة العلية قد عاد الى فيينا . فاغتنم الخصم هذه الفرصة وشكى (كذا) الكاثوليكيين وقاضي حلب مساعدهم الى فضل الله شيخ الاسلام فهيجوا الى الغضب فأمر باعادة الدعوى والحكم ، وكتب الى قاضي حلب يوبخه قائلا :

« كيف جاز لك أن تعطي البطريرك بطرس إعلانا أنه ليس بفرنجي وقد جاء برفقة سفير النمسا من فيينا الى دار السعادة فلا بد أنه شاطرك بالمال الذي أخذه من السفير حتى أثبت له الدعوى . فأعِدْ الفحص عاجلا وعاقب الإفرنج بما يمكنك من الشدة » .

« ولم يبطء أنصار الكاثوليكيين أن أوصلوا الخبر الى قنصل حلب فأراد أن يهزم البطريرك الى لبنان ولكن حال دون ذلك وصول أوامر شيخ الاسلام الجديدة الى القاضي في ١٤ آب ١٧٠٠ م فألقى القبض على البطريرك

بطرس فزج في سجن عميق عند باب قنسرين (قنشرين) . والحجة ، في ذلك ، أن أربعماية شخص اشتكوا عليه انه يذكر البابا في صلواته ولا يذكر اسم السلطان وانه يبذل المجهود مع المرسلين الفرنج ليؤلف حزبا سياسيا مضادا للسلطان . وطرح معه أيضا في السجن المطران رزق الله أمين خان ، والقس نعمة الله قدسي ، والقس سلمان بن سفر خور ، وأخاه القس ارسان ، والربّان سفر عبدالنور، والمطران يشوع بن عبد الاحد ، ويوحنا أخا المطران رزق الله من العوام » .

« وكان قد أقبل في اليوم نفسه الربّان عبد النور بن شكر الآمدي بكتب من يوسف الاول بطريرك الكلدان(*) يقول فيها للبطريرك بطرس : (ان حامل كتابنا الربان عبد النور كاثوليكي حقيقي فأقمه مطرانا على ديار بكر) وكان وكيل البيعة يشوع بن صنيعة رجلا شرسا منافقا قد تزوج في حلب وزوجته الشرعية في الحيوه بماردين . فلما وصل عبد النور الى دار البيعة وهو لا يدري بما جرى،

(*) للاطلاع على سيرة هذا البطريرك انظر الى كتاب «ذخيرة الأذهان في تاريخ المشارقة والمغاربة السريان» للقس بطرس نصري الكلداني ، طبعة ١٩٠٥ الموصل ، الحلقة الرابعة من ص ٢٢٧ الى ص ٢٣٣ ، وكذلك دراسة المطران روفائيل بيداويد ، مطران بيروت على الكلدان ، عنوانها «الكنيسة الكلدانية» ، مجلة « المنارة » المذكورة سابقا من ص ١٨١ الى ص ١٨٤

هجم عليه يشوع وأخذه الى المحكمة سحباً حيث فتشوه وأطلعوا على ما معه من الرسائل فسجن مع الآخرين »[15]

ان الشعب الذي يُسحب أساقفته وقسوسه الى السجن ليُهانوا ويُعذَّبوا لا يعرف الاستقرار ولا الامن ولا الحرية . « فالاضطهاد دفع الحلبيين (المسيحيين) الى الالتجاء الى لبنان »[16] ومنه الى أوروبا وأميركا (*) وكما الحلبيون كما غيرهم ممن يسكنون الجزيرة والشام وحمص والعراق .

---

(15) المصدر نفسه ص ١١٢/١١٣

من يرغب في المزيد من التفاصيل فليراجع أيضا كتابَي إدي شير : « تاريخ كلدو وآثور » وبطرس نصري « ذخائر الاذهان » .

(16) البطريرك انطون الثاني حائك ، من سلسلة مقالات له نشرت في مجلة « الكرمة » السنة الرابعة العدد ١٤ /نيسان ١٩٧٤ ص ٨٤

(*) يقول المطران رابولا انطون بيلوني السرياني الكاثوليكي ، النائب البطريركي في لبنان : « ان العائلات السريانية الكاثوليكية بمجيئها الى لبنان ، كانت تنوي الاقامة نهائيا في ربوعه ، والعيش فيه مثل بقية الطوائف بذات الحقوق والواجبات ، ونسيان الازمنة الصعبة والنزوح والاضطهادات. ولكننا نتساءل اليوم ، بأسى وقلق ، عما اذا كنا على أبواب نزوح جديد . فهناك العديد من هذه العائلات عيونها محدقة الى ما وراء البحر ، لتلحق بالذين سبقوها الى بلاد وفرت لهم سبل الامان والاستقرار » (مجلة المنارة ـ العدد ذاته، ص ١٦٣/١٦٤) .

ان هذا القول ينطبق أيضا على السريان الارثوذكس والكلدان والآشوريين .

ان هؤلاء وأولئك قد سيموا أقسى العذاب من احتقار وإهانة وضرْب بالفلَق وجوع »[17] . ومن الاساقفة والقسوس أيضا من « حكَم عليهم في ١ تشرين الثاني سنة ١٧٠١ فضلُ الله شيخ الاسلام في اسطنبول بنفْيهم الى أدنة وطرْحهِم في سجن قلعتها الرهيب المظلم »[18] .

فلولا الايمان الذي كان يملأ صدور من ذكرنا من الاساقفة والقسوس لقدموا الطاعة والولاء للدولة المستبدة وممثليها . وانه لمن دواعي الاعتزاز التذكير بأن « مرارة الوحشة وفداحة العذابات (كذا) »[19] التي قاساها المسجونون ، في سجن أدنة ، قد فتقت عندهم عبقرية الصمود والصبر . حتى إن أحدهم القس نعمة الله قدسي ألف ، داخل السجن ، كتابه « شرح الأجرومية للملة النصرانية »[20] ، « سابقا بذلك المطران جرمانوس فرحات

---

(17) المصدر نفسه .

(18) المصدر نفسه .

(19) المصدر نفسه .

(20) جاء في « الطرفة في مخطوطات دير الشرفة » ما يلي : « ألف هذا الكتاب عام ١٧٠١ م السيد غريغوريوس نعمة قدسي مطران دمشق الشام (١٧٣٠ ـ ١٧٤٥) والرئيس على دير مار يعقوب ومار افرام الكائن في مدينة رومية العظمى لطائفة السريان ... » كما ورد عنوان هذا المخطوط النفيس الذي الفه ناسخه نفسه يوم كان مسجونا في قلعة ادنه مع السيد مار اغناطيوس بطرس شاهبادين (١٦٧٨ ـ ١٧٠٢) بطريرك السريان الانطاكي ومع المطران رزق الله أمين خان =

العلامة الماروني الحلبي ، واضع قواعد التصريف والنحو في العربية » (٢١) .

= وسبعة قسان سريان كاثوليك. واليكما أثبته المصنف عينه في المقدمة اذ قال ما ملخصه : « ... ولما بقي ثلثمائة لتمام الالفين من تاريخ سني سيد الكونين ... أوقدوا نار هواهم واعتصموا بالدولة السلطانية ... وأتوا بشهادات باطلة مزيفة ... ليأسروا كل من اعتقد في سيد البرية بوتر قنومه الروحاني وشفع كيانه الالهي والانساني ... فشرعوا في هذا الطلب مجدين ... واسلموا البعض للجلد والاسر في الحبس والهوان . والبعض للنفي والقتل والكفران . حتى انهم أقاموا البطريرك بطرس السعيد .. وكهنته أمام القضاة والموالي والعبيد . واسلموهم للجلد والسجن المظلم . ثم اوثقوهم الى حصن مدينة ادنه منفيين .. وفي تلك الليلة نفسها توفي المطران رزق الله .. وبعد مدة انتقل الى رحمة ربه البطريرك المنتخب . فأضحينا نحن رعية بغير راشد يرعانا .. ومن شدة الملل والضجر .. سألني بعض اخواني أن نصرف مدتنا في النحو شارعين .. فأخذنا في شرح الاجرومية .. وأتينا بشواهد الكلام من الالفاظ الالهية الانجيلية والرسولية والنبوية ... » (ص ٤٣٦) .

(٢١) مجلة الكرمة ، المصدر نفسه ص ٨٧

ويضيف كتاب « الطرفة في مخطوطات دير الشرفة » فيقول :

ويستنتج من ذلك ان السيد غريغوريوس نعمة قدسي صنف كتابه هذا في قلعة ادنه عام ١٧٠١ — ١٧٠٤ اذ كان بعد قسيسا . وانه هو اول من طرق هذا الباب من ايمة المسيحيين . على ان السيد جرمانوس فرحات لم يؤلف كتابه « بحث المطالب » الا ست سنوات بعد تأليف السيد نعمة قدسي . وقد انتشر كتاب السيد نعمة هذا في اوائل القرن الثامن عشر انتشارا عظيما كما يتضح من النسخ العديدة المصونة الى اليوم في دور الكتب ومن جملتها خمس نسخ =

الا راجعنا حساب الربح والخسارة ، اذا كنا سنعرف أين أصبح السريان اليوم ..؟ وما الذي يجب ان يفعلوه من أجل مستقبل سرياني أفضل ؟

= كتبت احداها عام ١٧٣١ محفوظة في دير المخلص للروم الكاثوليك نسخها اكليمنضوس الحلبي مطران صيدنايا الملكي . ونسخة في مكتبة المطرانية بحلب ونسخة في مكتبة الآباء اليسوعيين ببيروت . أما نسخة الشرفة التي نصفها فمكتوبة بخط مؤلفها عينه كما ذكرنا أعلاه » (ص ٤٣٧) .

البطريرك ميخائيل جروة

استمر السريان الكاثوليكيون يصارعون اخوانهم الارثوذكسيين من جهة ، والاتراك من جهة أخرى ، فكانت النواة التي بذرها البطريرك اغناطيوس اندراوس أخيجان المارديني [٢٢] ، وتولاها ، بعده بالعناية والاهتمام، خليفته البطريرك بطرس الرهاوي [شاهبادين — كما مر ذكره في شرح الاجرومية للملة النصرانية (١٦٨٧ — ١٧٠١)] ، الذي قضى اثر التعذيب في سجن أدنة ، فصارت غرسة الا انها أخذت تقاوم وتعاند، بينما بقيت البطريركية الانطاكية للسريان الارثوذكس مستمرة رغم الضغوط المادية والسياسية التي مارستها عليها فرنسا والنمسا واسبانيا وغيرها، في حلب والجزيرة السورية . ومن بين رؤسائها العظماء الحبر الكبير اغناطيوس جرجس الثالث [٢٣] ، الذي لم يعر اهتماما

(٢٢) اخيجان (اندراوس) (١٦٢٢ — ١٦٧٧) : اول بطريرك للسريان الكاثوليك ١٦٥٩ . ولد في ماردين ، اعتنق الكثلكة ١٦٤٥ . رقاه البطريرك الماروني الى الدرجة الاسقفية ١٦٥٦ في دير قنوبين .

(٢٣) جلس على الكرسي الرسولي في بيعة آمد — ديار بكر — الاحد في ١٣ تشرين الاول ١٧٤٥ وتوفي سنة ١٧٦٨ .

للمحرضات التي استقطبت ، باتجاه رومة ، أساقفة وقسوسا وشعبا ، بل استمر على اخلاصه لعقيدة آبائه وأجداده ، وفي عهده « تمت عمارة دير مار مرقس بأورشليم ورممت بيعة مار إيليا في قرية جفتلك بقرب ماردين سنة ١٧٦٢ » [٢٤] ، مع ان « قحطا شديدا وغلاء فاحشا قد أصابا في السنتين ١٧٥٧ — ١٧٥٩ ، بلاد ما بين النهرين وسوريا فأعقبا وباء هائلا هلك فيه خلق كبير » [٢٥] . حتى ان « أشجار التين والزيتون والرمان قد يبست ثم جاء الجراد وأكل الزروع فهاج الناس من الجوع » [٢٦] .

وكان أغناطيوس جرجس الثالث « تقيا معروفا بصلاحه، وقد سام بعض القسوس والشمامسة ثم قدس الميرون في دير الزعفران» [٢٧] الكبير(*) ،شرقي ماردين في تركيا اليوم ،

(٢٤) المجلة البطريركية السريانية ، العدد الثالث ص ٢٥ . ويعرف دير مرقس بدير السريان ، وهو دير قديم ترقى عمارته الى المئة الخامسة أو السادسة للميلاد، يشهد بهذا أكثر من سرياني اسطرنجيلي ظهر في بيعته عام ١٩٤٠ . وهو كرسي مطرانية السريان الارثوذكس ومسكن رهبانهم من سنة ١٤٧٢ وفيه خزانة كتب نفيسة ومطبعة ونشأ منه سبعة مطارنة، عنه كانت تصدر مجلة « البطريركية » ، كما مر معنا .

(٢٥) المصدر نفسه .

(٢٦) المصدر نفسه .

(٢٧) المصدر نفسه .

(*) ويدعى هذا الدير أيضا دير مار حنانيا. وهو من أشهر الاديرة السريانية . كان لأول عهده قلعة لملوك الروم ، =

الذي يرتقي عهده الى القرن الثامن ، وفيه آثار قديمة ومقبرة لبطاركة السريان . و « سام اثني عشر مطرانا وأسقفا منهم مفريانان لكرسي المشرق وللمبار الهند »[٢٨] .

ولكن المطران ديونسيوس ميخائيل جروة [٢٩] هو الذي قلب الامور جميعها وأحدث ذلك الزلزال العنيف ، اذ تمكن من ترسيخ قواعد الكاثوليكية في الكنيسة السريانية

= ابتاعه مار حنانيا مطران ماردين عام ٧٩٣،وجعله ديرا وحمّله اسمه . أما اسم الزعفران فغلب عليه ، وقد فسّر المؤرخون ذلك بقولهم : ان رجلا يبيع نبات الزعفران حلّ يوما ضيفا بهذا الدير ، فأهدى الى رهبانه هذا النبات ، فزرعوه ونما واشتهرت زراعته في أرضه ، فحمل اسمه . ويقال أيضا ان نبات الزعفران استعمله البناؤون وخلطوه بالكلس عند عمارة بعض أجزاء هذا الدير ، فعرف به .جعله البطريرك اغناطيوس بن وهيب مقرا للكرسي البطريركي الانطاكي عام ١٢٩٣ ، وعاش فيه . واستمر بطاركة انطاكية في اتخاذه مقرهم حتى عام ١٩٣٣ .وقد رفد الكنيسة بكبار رجالاتها ، من بطاركة وأساقفة وكهنة وشمامسة ، وما يزال قائما » . (المطران ثاوفيلوس جورج صليبا ـ المنارة:نفسها ص ١٣٩) .

وكما هو معلوم فان مقر البطريركية السريانية الارثوذكسية قد « نقله الى حمص البطريرك افرام الاول برصوم ، ثم نقله البطريرك يعقوب الثالث الى دمشق وما يزال » . صليبا : المنارة ، ص ١٣١) .

(٢٨) البطريركية ـ المصدر نفسه .

(٢٩) سيم مطرانا في ٢٣ شباط ١٧٦٦ في كنيسة آمد ـ ديار بكر .

واليه يعود الفضل الاكبر ، في الفاتيكان ، كلما ذكر تاريخ الشرق الجديد .

لعل الخلاف الشديد والانقسام الابدي ، بين السريان الارثوذكسيين والسريان الكاثوليكيين ، قد بدآ يتفاقمان ، منذ سيم ميخائيل جروة مطرانا على حلب (*) . ففي مذكراته المحفوظة ، في دير الشرفة ، والتي نشر قسما كبيرا منها الخورفسقفوس اسحق أرملة ، في كتابه « تاريخ سيدة النجاة ـ أي دير الشرفة » ، يسرد لنا بالتفصيل الوقائع التي حصلت له مع البطريركين جرجس الثالث وكوركيس (جرجس الرابع) [٣٠] ، الذي هو أيضا قاوم الاتحاد مع روما ، والوالي العثماني ، والاخطار التي كانت تحيطه، قبل اعلان الايمان الكاثوليكي وبعده ، ولقد جاهر المطران جروة بكاثوليكيته ، بعد مضي ما يقرب من ثماني سنوات، وذلك بين يدي السيد اغناطيوس كريوس (جربوع) مطران الروم الكاثوليك ، في ١٦ كانون الاول ١٧٧٤ ،

(*)بعدما قرأ المونسنيور ميخائيل الجَميل السرياني الكاثوليكي هذه العبارة ، اتصل بي وقال : « أن النزاع السرياني ـ السرياني أمر تجاوزناه منذ زمن غير قريب ، ولا حاجة الى التأكيد على ان السريان ، بطائفتيهما ، هم شعب واحد وحضارة واحدة وطقس واحد .. ويبقى الحب والحنين هما السائدين » فاقتضى التنويه .

(٣٠) جرجس (عبد الكريم بن شمعون) هو اغناطيوس الرابع بطريرك السريان الارثوذكس ١٧٦٨ ـ ١٧٨١ .

بحضور الاب انطون رئيس الكبوشيين وجملة من الاكليروس والشعب » [٣١] .

وجاء المطران جروة ، من البابا بيوس السادس (١٧٧٥ـ ١٧٩٩) ، « التولية الرسولية والانعامات الحبرية ذات القوة والسلطان والشركة المقدسة » [٣٢] ، فشكر له « انعام الله الذي أفاض مواهبه على ضعفه بكل سخاء » [٣٣]

اذ ذاك انطلق جروة يشق الطريق لتعزيز كيان طائفته الجديدة وتحقيق ثقة الكنيسة الرومانية ورضاها .

وبما أن الكلام هنا هو على السريان الكاثوليك في انفصالهم عن الكنيسة السريانية الام، وانضمامهم الى روما في القرن الثامن عشر، يكفينا أن نستلهم أحد أكبر اعلام الكنيسة السريانية المؤرخ الحجة والعلاّمة المثلّث الرحمة البطريرك افرام الاول برصوم ، ونعرض رأيه في البطريرك جروة حيث يقول :

« ... واذ كان رهبان اللاتين في حلب لا يزالون

---

(٣١) تاريخ دير سيدة النجاة ص ١٥

(٣٢) المصدر نفسه .

(٣٣) المصدر نفسه .

ينصبون شباكهم لاصطياد السذّج من سائر الملل الشرقية لاتباع مذهبهم ، متذرعين الى ذلك بعادات طقسية مستحدثة لاتينية المصدر وصادفت عند أكثر الحلبيين منزلا رحبا وكان القنصل الافرنسي بطرس ديبيير دريو يساعدهم بكل جهودهم ويمنيهم باسم دولته بأطيب الاماني ، وكانوا يحرّضون السريان على اقامة بطرك خاص بهم في حلب ، علق المطران جروة بفخهم فأفسدت معاشرتهم عليه مذهبه فكتب اليه البطريرك جرجس الرابع مرشدا وناصحا ثم استقدمه الى دير الزعفران لإصلاحه فأقام فيه زمانا مديدا لم ينجح فيه نصح ولم تقنعه حجة فهرب راجعا الى حلب وخرج من التذبذب الى الغدر فمرق من الكنيسة الارثوذكسية المقدسة وجاهر باتباعه مذهب اللاتين الغربي سنة ١٧٧٤ لأن معظم الشعب والاكليروس السرياني الحلبي تبعوا ذلك جهلا واعتباطا لخميرة عتيقة بقيت في قلوبهم منذ زمن أخيجان المارديني وبطرس بيدين (شاهبادين) الرهاوي في النصف الثاني من القرن الماضي . وناهيك قعود همة القوم عن طلب العلم الديني وجهلهم لغة الآباء في هاتيك العصور المتأخرة فتلاعبت بهم الاغراض فأمسوا طعمة لكل طالب » .

وقال أيضا :

« فلما رأى البطريرك الخطر الذي أحدق بالأبرشية

توجه الى حلب يصحبه بعض المطارنة والرهبان ودخلها في ٢٢ من شهر أيار عام ١٧٧٥ واستولى على الكنيسة وعاقب المطران وحزبه • وتكلف في هذا السبيل ثلاثين كيسا أو خمسة عشر ألف غرش ما يعادل ألفا وخمسمائة ليرة ذهباء ولكن الخصوم استعادوها بما بذلوه من النفوذ الاجنبي والرشى للحكام • ولما عاد البطريرك الى كرسيه وقف المطران عن الخدمة وحرمه • وقدم الى حلب في تلك الاثناء أي سنة ١٧٧٦ زميل لميخائيل يقال له يوسف قدسي كان زعيم الفئة المنشقة الضئيلة ، فأنكر عليه مراوغته ونازعه الامر ولكن القنصل الافرنسي عضد المطران جروة ونفى من ناهضه من رهبان اللاتين أما البطريرك فاستصدر من الدولة فرمانا ينفي المذنب وبعض أتباعه فلاذ بالفرار على عادته وصار الى اللاذقية فقبرص فمصر • وفي اواخر سنة ١٧٧٧ سام البطريرك المطران ديونوسيوس عبدالله شدياق الحلبي ثم قلده كرسي حلب وفي سنة ١٧٧٨ عاد ميخائيل الى حلب وتمكن من التخلص من المنفى بمبلغ كبير من المال أداه الى الوالي وكانت آفة الرشوة عند الحكام العثمانيين ، ودولتهم يومئذ في أسوأ الاحوال ، تقلب الاحكام رأسا على عقب » (٣٤) •

(٣٤) المجلة البطريركية السريانية ، المذكورة سابقا ، ص ١٩٢/١٩٣

وبما أن الفوضى ، في السلطنة العثمانية ، كانت قد بلغت منتهى حدها في عهد مصطفى الثالث (١٧٥٧–١٧٧٣) كما في عهد عبد الحميد الاول (١٧٧٣ – ١٧٨٧) بل تجاوزت أقصى حد يتصوره العقل ، تمادى السريان في النزاع بعضهم ضد بعض • ولما خلا الكرسي البطريركي بوفاة البطريرك جرجس الرابع في ٢١ تموز ١٧٨١ عاد الاساقفة والرهبان الى الانقسام على أنفسهم ، حيث لعبت الرشى الكبيرة أدوارها • ويقال ان الاساقفة والرهبان،من الفريقين ، أخذوا يجمعون الاقراط والعقود والاساور من نساء ابرشياتهم كي يقدموها هدايا للحكام العثمانيين ، في ديار بكر وماردين وبغداد والموصل وسائر انحاء البلاد السريانية لاجتلاب ودّهم ورضاهم ، على ما روى لي الصديق سيادة الحبر الجليل مار ديونوسيوس جرجس بهنام المطران السابق على حلب للسريان الاثوذكس• في هذه الاثناء ، وكانت الظروف المؤاتية في قبضة المطران ميخائيل جروة ، فنصّب بطريركا « يوم الثلاثاء ٢٥ كانون الثاني ١٧٨٢ » ،بل من ذلك اليوم تكرس النزاع « العقائدي » بين أبناء الشعب الواحد ، فصار لأنطاكية كرسيان سريانيان: واحد ارثوذكسي، والآخر كاثوليكي(*)•

(*) عرفت الكنيسة السريانية الانطاكية والكنيسة السريانية المشرقية مثل هذه الحالة غير مرة ، كما ورد في « ذخائر الاذهان » و « تاريخ كلدو وآثور » وغيرهما من المصادر والمراجع السريانية والآثورية والكلدانية •

وهكذا ارتفع عدد كراسي أنطاكية ، في حين ان تلك المدينة العظيمة بدأت بالتقهقر منذ وقعت في ايدي العثمانيين (١٥١٧) وظلت تتراجع وتتقلص ، حتى هجرتها الكراسي جميعها ، فلم يبقَ لأنطاكية سوى ذلك الاسم الجميل والذكريات الرائعة .

على أن المنافسة في تزعّم أمور القيادة الدينية المسيحية هي قديمة العهد . وليست أنطاكية وحدها ضحية الصراع المسيحي ـ المسيحي ، بل هنالك أيضا كنيسة الاسكندرية وكنيسة القسطنطينية وكنيسة روما وكنيسة القدس (أورشليم) وكنيسة روسيا . جميع هذه الكنائس ضربها الشقاق ... حتى تناثرت وتفرقت ، ولم تنقذها لا المجامع ولا النداءات التي طالما أطلقها أصحاب النيات الحسنة .

ورحل الى لبنان

لما عادت الامور تنقلب على البطريرك ميخائيل جروة هرب الى بغداد ، متخفيا ، ومنها الى تدمر والشام ، ومن هناك الى قرية « العدرى » وضيْعة «المازة»،وكما يروي البطريرك نفسه حيث يقول :

« ولما وصلنا الى بلدة تدمر سمع العرب الذين معنا أخبارا عن والي الشام خوّفتهم جدا فامتنعوا عن مواصلة

السفر معنا وأخذوا جمالهم وتركونا هناك . فآيسنا من الحياة بالكليّة وسلمنا الارادة الى الله القدير الرحيم واستغثنا بمريم البتول سيدة النجاة لتنقذنا من هذا الحادث المخطر كما أنقذتنا وحفظتنا في سيرنا اذ كنا نلتجىء اليها دائما » .

وتابع يقول :

« ويا لوفور مراحم الرب ومساعدة هذه البتول العجيبة التي حنّنت قلب أحد العرب علينا . فأركبني جمله وخاطر بنفسه وذهب بي من تدمر الى القريتين . ومن هناك ركبنا الحمير وأخذنا معنا أناسا مسلمين ليوصلونا الى قرب الشام . وبعدما قاسينا المرائر يومين وصلنا ليلة أحد الشعانين الى قرية بعيدة عن الشام سبع ساعات تدعى قرية « العدرى » سكانها جميعهم مسلمون فلم يقبل أحد منهم أن يحوينا عنده . والتزمنا أن نبقى فيها يومين مختفين مع العربي الذي معنا ودفعنا له ما أراده » .

وقال أيضا :

« ومن قرية العدرى أرسلنا ساعيا الى الكاهن السرياني القس يعقوب قدسي وإلى جماعتنا في الشام وأخبرناهم سرّاً بوصولنا . فخافوا خوفا شديدا وردّوا الساعي فارغا

وكتبوا لنا بأنهم يخافون أن يتظاهروا بكونهم من جماعتي .
وبعد يومين حصّلنا مركوبا ومررنا خارج الشام ليلا
ووصلنا الى ضيعة أخرى اسمها « المازة » . وبقينا فيها
كذلك يومين مختفين حتى حصلنا على مكاري يوصلنا الى
جبل كسروان حسب مرغوبنا » (٣٥) .

وكان يوم وصوله، الى « بيت شباب » – المتن، السبت
ليلة أحد القيامة سنة ١٧٨٤، حيث أقام في دير مار انطونيوس
النبع ، ومن هناك أخذ البطريرك جروة ينشىء الصداقات
مع الامير يوسف شهاب ، فاستأجر من آل الخازن حارة
« الشرفة » وكانت بيتا وضيعا مؤلفا من حجرة وغرفة
واحدة ، استأجرها البطريرك لمدة سنتين بمبلغ عشرين
قرشا ، وقبل أن تمضي مدة الايجار أي في ١٥ ايلول ١٧٨٦
– اشترى حارة « الشرفة » بقيمة ألفين وخمسمائة غرش
ذهبا ، سدّدها بالكمال والتمام ، بمساعدة المحسنين الذين
من أبرزهم المغفور له الشيخ غندور سعد الخوري ، امين
سر الامير يوسف ، الى جانب المساعدات الكثيرة المتعددة
التي وردته من الدولة الاسبانية ، ومن محسنين اسبانيين،
ولا سيما « الكونتيسا » مريم دي هرموزا وزوجها يوحنا

---

(٣٥) من رسالة البطريرك ميخائيل جروة الى السيد يوسف بطريرك الكلدان بديار بكر بتاريخ ١ كانون الثاني ١٧٢١ ، انظر « تاريخ سيدة النجاة » ص ٢٦/٢٧

بولس ونجليها الدوق يوسف والدوق يوحنا، و« الكونتيسا »
دونينا أنطونيا روموروزا ، بالإضافة طبعا الى المعونة التي
أرسلها اليه الحبر الاعظم قداسة البابا بيوس السادس (٣٦) .

مَن المستفيد ؟

يؤلمني أن أرى السريان يزدادون تفرقا وتمزقا .
ويؤلمني أكثر أن أراهم يمعنون في الهجرة الى البلاد
« الاسكندينافية » وكل أوروبا وأميركا . فليس أحوج من
هذا الشعب ، الذي تعاقبت عليه النكبات ، الى قياديين
روحيين وزمنيين ، يكونون قادرين على انقاذه من المؤامرات
والدسائس التي تحاك ضده ، ومن الهجرة المستمرة .

عندما صمم البطريرك ميخائيل جروة ، على انشاء
دير الشرفة قال :

« وأخيرا اعتبرت أن أعمالي كلها تذهب باطلة فارغة
ان كنت لا أشتري محلاً وأعمره وأجمع اليه أناسا أعلمهم
وأربيهم بمخافة الله ثم أرسلهم لإسعاف رعيتي . ولذلك
فإني باسعاف بعض المسيحيين اشتريت محلاً في كسروان
وسميته « دير سيدة النجاة » . وأنا الآن مقيم فيه . وعندي

---

(٣٦) المصدر نفسه ، من ص ١٨ الى ص ٥٥

بعض أولاد أهتم بتدريسهم لأرسلهم الى خراف المسيح .
غير أن رغبتي لم تكمل لأني عاجز عن ابتناء مساكن كافية لسكانهم وعن القيام بمعاشهم . ولولا خسارتي لمالي الخصوصي لأمكنني سد بعض حاجاتي » .

وقال أيضا :

« نعم إني وفيت بعض الديون بحسنات مجمع انتشار الايمان المقدس ، ولكن مع ذلك لا يزال عليّ جانب عظيم من الديون . فأتوسل الى المسيحيين الاعزاء ان ينظروا الى شدتي ويسعفوني في تكميل وظيفتي وتعزيز ديري . وألتمس منه تعالى أن يكافيئهم (كذا) في الحياة الزمنية وفي السعادة الابدية . وألتمس من المراحم الإلهية أن تمنّ علي بالصبر والاحتمال وتعينني على نشر الايمان المقدس مضحيا بذاتي حبا للنفوس آمين » (٣٧) .

نحن أيضا نقول : نعم لقد حقق البطريرك جروة ما كان يصبو اليه ويحب .

ولكن انقسام الشعب السرياني ، على نفسه ، وتوزيع خواطره ، بين شيع وأحزاب ، انما هو ، في نظري ، أمر خطير، نتائجه غير محمودة، ولا بد أن تزداد سوءاً وتتفاقم ،

---

(٣٧) المصدر نفسه ص ٣١/٣٠

وربما قضت على من تبقى من هذا الشعب الذي يستحق منا الإكبار والتأييد .

وكما عند المطران اسحق ساكا في « كنيستي السريانية » (ص ٢٥١) فان القرن الرابع عشر هو بداية المآسي والويلات التي حلت بالسريان ، ومنذ سقوط الدولة العباسية (عام ١٢٥٨) ، « دولة العلم والحضارة » ، و « العدل والرحمة » حيث ان العهود التي تعاقبت انما هي « عهود الدمار والتخريب والابادة والتوحش والظلم » ، وذلك ابتداء بالمغول والتتار مرورا بتيمورلنك الذي « أذاب قلوب الناس هلعا » الى زمن المماليك « الاسود » ، والى الحكم العثماني ، حتى الحرب العالمية الاولى .. فهذه العهود قد « تضافرت للقضاء على معظم الابرشيات وابادتها » .

على ان المآسي السياسية ما كانت أكثر خطرا على الابرشيات السريانية من « الحركة الانفصالية الهدامة التي دبت في داخلها في أواسط القرن السابع عشر واستفحلت في القرن التالي حيث مرق من حظيرة الكنيسة الام قسم كبير اكليروسا وشعبا وانضموا الى الكنيسة الرومانية معتنقين المذهب اللاتيني ، وفي مقدمتهم اندراوس اخيجان، وميخائيل جروة » ... و « يعزى ظهور تلك الحركة الهدامة الى أسباب ادارية ومالية وشخصية واجتماعية ليس الا » .

ولقد ألحق الانفصاليون بالكنيسة السريانية « أضرارا بالغة» و « اضطرابات »، كما « أوقدوا نار البغضاء والفتن في العائلة الواحدة » الامر الذي كلف الاكليروس والشعب الثمن الباهظ فضلا عن « الاضطهادات والاهانة » و«فقد (هؤلاء) أشياء ثمينة اختطفها المارقون أمثال ميخائيل جروة الذي أطلق يده في بعض آنية الزعفران الثمينة وأرسل نفائس من مخطوطات خزانته الى حلب » (وبالتالي الى دير الشرفة طبعا) ، و« يعقوب حلياني مطران الشام الذي ضبط كنيسة مار موسى بالشام وغيرها وسلب كل ما فيها » (...) و « المطران متى النقار مطران حمص الذي ضبط دير مار موسى في النبك ودير مار اليان في القريتين »...؟!

لهذا وغيره نسأل : من المستفيد ؟ وربما بقي سؤالنا هذا ينتظر جوابا عنه ليس موجودا .

ومهما يكن ، فإنني لا أحب أن يأتي الرد عليّ من تلك الايام الآتية ، الخبيثة ، التي منها أنا خائف على السريان : المشارقة والمغاربة وعلى تراثهم العظيم .

في البطريركيّة

هناك حوالى مائة ألف من السريان الكاثوليكيين(مع اعتقادنا ان هذا الرقم مبالغ به) (*) وهم منتشرون في لبنان وبلاد المشرق والمهجر ، ولهم أبرشيات في بيروت ودمشق وحمص وحماه والنبْك وحلب والحسكة وبغداد والموصل والقاهرة ، ونيابة بطريركية في ماردين وفلسطين ـ المملكة الاردنية الهاشمية ، والسودان ، ومعتمد بطريركي في روما هو المطران اغناطيوس منصوراتي [٣٨] .

يرعى هذه الابرشية البطريرك أغناطيوس انطون الثاني حائك [٣٩]، الذي يستقبلك في مقره الكائن قرب المتحف ،

(*) بينما يقول المطران رابولا انطون بيلوني انهم « يعدّون اليوم حوالى ٢٠٠ الف نسمة » (المنارة ـ ذاتها ـ ص ١٦)

(٣٨) توفي في دير يسوع الملك ، يوم ١١ آب ١٩٨٢ ، ودفن في مقبرة الكهنة في دير الشرفة . اخذ مكانه الاب جورجو أوريولي الايطالياني .

(٣٩) وُلد في حلب ١٩١٠ ودرس في مدارسها . التحق بدير الشرفة ١٩٢١ حيث مكث حتى عام ١٩٢٦ يدرس اللاهوت والعلوم الشرقية والكنسية. ومن دير الشرفة سافر الى =

بسمة تشبه بسمة الطفل . تنظر الى وجهه الابيض الناصع ونظارته ذات الزجاجات البيض ، خلفها عيناه الخضراوان، فتحسبُه من بلاد المحيط المتجمد الشمالي . ولولا معرفتي بحلب وطبيعتها وسكانها لاستبعدتُ أن يكون البطريرك حائك حلبياً . فهو ، في جبته السوداء ، وزناره الليلكي ، يجمع، على صغر حجمه، ثلاثة أضداد: الابيض والاسود والليلكي.

فأين هو ذلك الشاعر « المغدور » صاحب « القصيدة اليتيمة » القائل :

« ضدان لما استجمعا حسنا
والضدّ يظهر حسنه الضد »

بل أين هو اليوم ليقول في غبطته الذي اجتمعت ، عنده ، الاضداد الثلاثة ؟

الصالونات ، في البطريركية ، كثيرة ومكتظة من

= روما وبقي فيها زهاء تسع سنوات. نال ليسانس في اللاهوت ودكتوراه في العلوم الشرقية والكنسية عن أطروحة قدمها الى «المعهد الشرقي» بعنوان « علاقات الطائفة السريانية اليعقوبية مع الكرسي الرسولي ، من ١١٤٣ الى ١٦٥٦ » استحق عنها التقدير ، وهي باللغة الايطالية (نقلها الى العربية سنة ١٩٨٦) . (لنا مداخلة حولها لا تزال مخطوطة). عُيِّن رئيسا للاساقفة في أبرشية حلب عام ١٩٥٩ فكانت علاقاته حميدة مع جميع رؤساء الطوائف الحلبية ، الاسلامية منها والمسيحية . انتخب بطريركا عام ١٩٦٨

المفروشات الخشبية الانيقة التي ترقى الى ما قبل ١٩٢٩ . أما السجاد فمعظمه من العجمي القديم .

عندما تدخل هذا المقرّ ، الصرح ، يستوقفك ، على اليمين ، تمثال نصفي من الحجر الابيض ، فوق قاعدة رخامية ، هو للمثلث الرحمة الكاردينال جبرائيل التبّوني (٤٠) . سألت عن النحات ، صانع هذا التمثال ، فقيل لي : « انه أرمني » . الا أن أحدا لم يعرف اسمه تماما ؟! كُتب على هذا التمثال ، وهو غير ناجح على كل حال : « تذكار من السادة ميخائيل وجبرائيل وروفائيل حنا الشيخ ، من العراق ، عام ١٩٦٨ » .

خلف التمثال ، لوحة رخامية نقش عليها ستة أبيات من الشعر العربي الكلاسيكي الضعيف ، نظمها المغفور له الفيكنت فيليب دي طرّازي (٤١) عام ١٩٣٠ ، يمدح فيها

---

(٤٠) هو اغناطيوس جبرائيل الاول (١٨٧٩ ــ ١٩٦٨) وُلد في الموصل وتوفي في بيروت . بطريرك السريان الكاثوليك ١٩٢٩ وكاردينال ١٩٣٥ . اشترك في لجنة رئاسة المجمع الفاتيكاني الثاني ١٩٦٢ ــ ١٩٦٥

(٤١) فيليب دي طرازي (١٨٦٥ ــ ١٩٥٦) مؤرخ وأديب لبناني . أسس المكتبة الوطنية في بيروت . له « تاريخ الصحافة العربية » ومكاتيب جمعت في مجلد يحوي اثنتين وثلاثين رسالة ، كتبها الفيكنت فيليب بخط يده من ١٠ حزيران ١٨٩٨ حتى ١٢ آب ١٩٠٢ وجهها الى بعض رؤساء =

المؤسس البطريرك التبوني فيقول :

« كرسي انطاكية أمسى هنا
طورا يكلله وقار الهيبةِ

جبريل جدد عصره الميمون في
بيروت مثل الاعصر الذهبيَّةِ

جبريل تسلسل من بطاركة سموا
خلفا لبطرس في سرير البيعةِ

ولهُ بنو آرام طرّاً فاخروا
لما تقلّد صولجان السلطةِ

شاد هذا الصرح جانب معبد
ترعاه عين العزّة الصمديةِ

صرح لسريان هو مرجع
يبقى مدى تاريخه كذخيرة »

= الطوائف السريانية، يعثر فيها المطالع على ما عرض في تلك الحقبة وما نهض به آل طرازي من الجهود لتحقيق أماني طائفتهم وتوحيد كلمة مطارنتها يلمس الباحث في آخرها ما دعا الطيب الذكر مار اغناطيوس الثاني (رحماني) الى الاستقالة عن البطريركية في ١٠ آب ١٩٠٢ ومجمل القول ان هذه الرسائل تبرهن عن شغف كاتبها وشغف أسرته النبيلة بتعزيز الملة السريانية . وقد وقفه الفيكنت الهمام عينه على مكتبة دير الشرفة في ١٠ ايار ١٩٣٦ . (الطرفة ص ٥١٢)

ليت الفيكنت فيليب دي طرّازي قال ما أراد بلغته النثرية الجميلة التي اشتهر بها ، لكان أفضل له وللصرح والبطريرك المؤسس ، من هذا الشعر التاعس .

على يسارك ، وفي الزوايا ، صُور تاريخية ، أهمها صورة للكاردينال التبوني مع المفوض السامي الفرنسي، لسوريا ولبنان ، الكونت شارل دي مارتل (١٩٣٣ — ١٩٣٨) . وأخرى للكاردينال نفسه مع الجنرال شارل دي غول ورفاقه مأخوذة في كنيسة السريان بباريس .

تتقدم من بعض هذه الصور لتتعرف الى أصحابها البطاركة :

١ — اغناطيوس نعمة الله الاول أصفر (١٥٥٧ — ١٥٧٦)

٢ — أغناطيوس اندراوس الاول أخيجان (١٦٥٩— ١٦٧٧) .

٣ — اغناطيوس بطرس السادس شاهبادين (١٦٧٨— ١٧٠٢) .

٤ — أغناطيوس ميخائيل الثالث جروة (١٧٨٢ — ١٨٠٠) (٤٣) .

---

(٤٢) اثر وفاة البطريرك ميخائيل جروة، وقع اختيار مطران =

٥ ــ اغناطيوس ميخائيــل الرابع ضاهر (١٨٠٢ ــ ١٨١٠) .

٦ ــ أغناطيوس سمعان الاول زورا (١٨١٤ــ١٨١٨)

٧ ــ اغنــاطيوس بطرس السابــع جروة (١٨٣٠ ــ ١٨٥١) [٤٣] .

٨ ــ أغناطيوس انطون الاول سمحيري (١٨٥٣ ــ ١٨٦٤) .

٩ ــ أغناطيوس فيلبس الاول عركوس (١٨٦٦ ــ ١٨٧٤)

١٠ ــ أغناطيوس جرجس الخامس شلحت (١٨٧٤ــ ١٨٩١) [٤٤] .

= دمشق وراشيا، السيد ايونيس نعمة الله والقاصد الرسولي على السيد قرلس بهنام بشارة أسقف الموصل بطريركا الا انه اعتذر ، ثم وقع الاختيار على الخوري ميخائيل ضاهر فرفض ، لكنه عاد وقبل مرغما . وسيم الخوري ميخائيل بطريركا يوم ٤ ايار ١٨٠٢ ، وحصل سنة ١٨٠٥ خلاف بينه وبين بعض الاساقفة والرهبان مما جعله يستقيل يوم ١٠ ايلول ١٨١٠ وفي ١٣ شباط ١٨١١ عاد الى حلب مطرانا(؟!) (تاريخ دير سيدة النجاة ص ١٤٩ ــ ١٥٤) .

(٤٣) من الواضح ان زمنا بعيدا ، حوالى ثمانين سنة، يفصل بين البطريرك الثالث والرابع . ان هذا مرده الى الاحــداث والظروف القاسية التي عرفتها الكنيسة السريانية الكاثوليكية كما مر معنا .

(٤٤) وُلد في حلب سنة ١٨١٨ . سيم مطرانا سنة ١٨٦٢ . انتخب بطريركا سنة ١٨٧٤ . جدد رهبانية مار افــرام . التأم في عهده مجمع الشرفة ١٨٨٨

١١ ــ أغنــاطيوس بهنــام الثاني بَنّي (١٨٩٣ ــ ١٨٩٧) [٤٥] .

١٢ ــ اغناطيوس افرام الثاني رحماني (١٨٩٨ ــ ١٩٢٩) [٤٦] .

وصورة الكاردينال تبوني الذي استمرت ولايته من ١٩٢٩ الى ١٩٦٨

بين هذه الصور أيضا رسم للاسقف اقليميس يوسف داود ، مطران دمشق (١٨٧٩ ــ ١٨٩٠) [٤٧] .

هــذا ، ويوجد في احدى الغرف لوحتان زيتيتــان يُعتقد أنهما من أعمال القرن الخامس عشر . الاول تمثل إنزال المسيح عن الصليب ووضعه في القبر ، وهي تقدمة من

---

(٤٥) وُلد في الموصل سنة ١٨٣١ . انتخب بطريركا عــام ١٨٩٣ . أتقن لغات عديدة واشتهر بمبرّاته في مجاعة الموصل ١٨٨٠ .

(٤٦) وُلد بالموصل ١٨٤٨ . انتخب بطريركا ١٨٩٨ . نقل الكرسي الرسولي من ماردين الى بيروت . له مؤلفات تاريخية وكنيسية أهمها : « الليترجيات الشرقيــة » و « الآثــار الشرقية » وهي مجلة شهرية .

(٤٧) وُلد في العمادية قرب الموصل ١٨٢٩ . سيم اسقفــا على دمشق ١٨٧٨ . تعلم في روما . له « القصارى » في حل مسائل تاريخية تتعلق ببلاد الشام وأبحاث في اللغة الدارجة في أورشليم على عهد المسيح و « نبذة في مختصر تاريخ الطائفة السريانية الكاثوليكية وعلمائها وطقسها » .

السيد افرام رزق الله معمار باشي عن نفس والدته ماري
جنانجي ، في أول كانون الثاني ١٩٥٨ • والثانية تمثل
بشارة العذراء •

وما يلفت النظر،لوحة زيتية معلقة في أحد الصالونات،هي
للقديس مارتان ، الفارس ، على حصانه ، يشطر رداءه
ليكسو فقيرا (٤٨) • وفي زاوية هذا الصالون نفسه صورة
للجنرال دي غول مع رسالة بخطه ، مؤرخة في ١٠/٩/
١٩٤٢ ، يقول فيها : « الى أمير الكنيسة المقدسة رسول
الصداقة بين الشرق وفرنسا الكاردينال جبرائيل تبوني »•

في الكنيسة

عند تمام الساعة السابعة مساء قرع الجرس يدعو
الى العشاء • ألحّ عليّ المطرانان جرجور وملكي أن
أرافقهما الى المائدة فاعتذرت •دخلت مع الشماس طانيوس
صَبحا الى الكنيسة لكي ألقي نظرة على مذبحها الجميل
والصور التي تزين جدرانها والموجودات مثل : الصلبان
الكبيرة والكتب والميامر وعرش البطريرك •

لما فرغ البطريرك والاسقفان ملكي وجرجور

(٤٨) يقال ان المسيح قد ظهر لهذا القديس وقال له « انا هو ذلك الفقير » •

والكاهنان ميخائيل الجميل ويوسف ملكي ، من العشاء ،
دخلوا ، جميعا ، الكنيسة لإقامة الصلاة•قال غبطةالبطريرك
حائك : « اللهم اجعل السنة القادمة (١٩٨٠) سنة خير
وسلام على اللبنانيين ، جميع اللبنانيين ،
وعلى العالم ، شرقه وغربه ، اللهم ثبِّت الايمان في قلوب
بني البشر ، اللهم أعِنّا على مناصرة الحق ! » •

بينما كنا نغادر الكنيسة قلت للمطران جرجور :
«علمتَ أن غبطة البطريرك حائك كان من تلامذتك،أليس
كذلك ؟ » فأجاب بتواضع قائلا : بلى • وإني لسعيد جدا
أن يكون هو الآن رئيسي وبطريركي •

رآني البطريرك أهم بالخروج فقال لي : « لا تنسَ
دير الشرفة ! هناك أشياء كثيرة جديرة بالكتابة عنها
والتحقيق • رئيس الدير هو الأب جورج المصري •سجِّل
عندك ، سيكون باستقبالك » •

فتح لي باب البطريركية وإذا عاصفة قد هبّت ، ثم
هاجت السماء فمطّرِنا • فتخيّلتُني أقف أمام أحد
الاديار السريانية في ماردين أو طور عبدين ، وعندئذ قلت:
ان المسيحية بامكانها أن تطبع الاماكن والمواقع بطابع
واحد ، أما بنو البشر فأمرهم مختلف تماما •

في دير الشرفة

ان دير الشرفة هو واحد من الاديار الخمسة التي أنشأها السريان في لبنان ، ومنها « دير الأم المحزونة »[٤٩] في ذوق مصبح . و « دير الراهبات الافراميات »[٥٠] ، و « دير سيدة الرحمة »[٥١] .

أما أقدم الاديرة السريانية في لبنان فهو « دير مار افرام الرغم » ، وهو كما يصفه البطريرك حائك فيقول :

---

(٤٩) شاده عام ١٧٦٩ المطران غريغوريوس شكرالله جروة، وباعه خليفته المطران يوسف قدسي.

(٥٠) أقامه في ٢٩حزيران١٩٠٣ البطريرك افرام الثاني رحماني على جبل البياض في بطحا . جعله البطريرك اغناطيوس انطون الثاني حائك مدرسة دعاها « مدرسة مار يوسف »وتديرها الراهبات الافراميات .

(٥١) هو الدير الام لمؤسسة « الراهبات الافراميات » التي احياها الكاردينال جبرائيل الاول التبوني . وقد دشن عام ١٩٦٦ . انظر سلسلة مقالات غبطة البطريرك حائك حول دير مار افرام الرغم ، في مجلة «الكرمة» المذكورة سابقا .

« على رابية في سفح قرية الشبانية من قضاء المتن تقوم بقايا دير مار افرام الرغم ، أقدم أديرة لبنان ، وأقدم الاديرة الخمسة التي أنشأها السريان في لبنان ، ويقال انه قد سُمّي بالرغم لانه واقع قرب عين ماء تدعى عين الرغم، منها كان يشرب سكان الدير ويسقون الاراضي المجاورة. والدير مشيَّد وسط غابات من الصنوبر وكروم العنب والتين . وشاده سريان جاؤوا لبنان من حلب في سنة ١٨٠٧»[٥٢] وقد عرف أيضا : « باسم افرام كنارة الروح القدس »[٥٣] .

على أن للسريان كذلك « في سالف الاعصار أديارا جمة في قمم لبنان المبارك وفي سواحله وأريافه حفظت الصحف السريانية الثمينة أسماءها . نذكر منها : ١ — دير الحدث(في الجبة) (الشمال) . وقد ورد ذكره في مخطوطة لندن ١٤٥٤ السريانية المنسوخة عام ٥٠٩ م . ٢ — دير ربولا السميساطي . ٣ — دير القديسة مطرونا . ٤ — دير العمودي . وهذه الاديار السريانية ابتناها الرهبان والراهبات السريان في ضواحي بيروت منذ القرن الخامس. ٥ — دير الفلسفة الحقيقية بطرابلس وقد أورد ذكره زكريا

---

(٥٢) المصدر نفسه . فقد جمع البطريرك حائك هذه المقالات في كتاب .

(٥٣) تاريخ دير سيدة النجاة ، المصدر نفسه ، ص ٧ .

البليغ في سيرة سويرا زميله في جامعة بيروت الفقهيـة (مجموعة الآباء الشرقيين ٢ : ٨١) • ٦ — دير والدة الله وهو دير البلمند الذي شاده رهبان دير مـار بـرنردس الصليبيون ثم سلّموه عام ١٢٨٩ الى الرهبان السريان • ٧ — دير مار يوحنا وقد جاء ذكره في مخطوطة بـاريس السريانية (رقم ١٧١) • ٨ — دير مار سركيس في حردين (البترون) أثبت ذكره ناسخ مخطوطة دير الشرفة (٣ — ٢٥) • ٩ — دير مار يعقوب في اهدن • ١٠ — دير مار جرجس في حدشيت (بشري) • ١١ — دير الغوبة فـي بقوفا » (٥٤) (*) •

والمعروف عن هذه الاديار وغيرها الكثير من أديار السريان « القديمة العهد » أن أثرها « قد عفا »و«انطمس مع كرور الزمان ذكرُها وغابت عنا تفاصيل أخبار مؤسسيها ورهبانهـا » (٥٥) • لكن دير « الشرفة » يُعتبر الـدير

---

(٥٤) المصدر نفسه . نلفت ان العلاّمـة الكبير البطريرك اسطفان الدويهي قد ذكر الاديار الثلاثة : مار سركيس ومار يعقوب ومار جرجس ، في تاريخه (١٢٩—٤١٢ و ٤٤١) •
(*) ونلفت ايضا الى ان دير البلمند ودير مار يعقوب دده كانا من حصة الروم الارثوذكس ، وذلك بأفول نجم السريان في منطقة الكورة ، كما تؤكد بعض المخطوطات الباقية فـي البلمند وبعض الكتب العالمية ولا سيما منها مكتبة بودليان في أوكسفورد(المطران ثاوفيلوس جورج صليبا،المنارة ص١٤٤)•
(٥٥) ولقد أحصى لنا البطريرك افرام الاول برصوم حوالى ثلاثةوثمانين ديرا للسريان،كانت منتشرة في بلادهم، التقط =

الرئيسي عند السريان الكاثوليكيين • ففيه حققت هـذه

= اخبارها «من مصاحف وتعاليق شتى » •• الا « ان أكثر هذه الاديار أقوى على مر السنين وهي بين رسوم مـاثلـة وأطلال تنكرت معارفها ولم يبق الدهر منها الا النزر القليل» من هذه الاديار نذكر :
دير مار ابحاي (او دير السلالم) ، دير مار ابراهيم وهابيل ، دير ابن جاجي ، دير أبو غالب (او دير مائدةالملك في كركر) ، دير اسفوليس ، دير مار أوجين (في سفح جبل الازل المطل على نصيبين) ، شيد بناؤه أواخر المئة الرابعة أو صدر الخامسة،(لم يزل عامرا يقطنه راهب واحد) ،دير مار أوسيبونا ، دير البارد ، دير مار باسوس ، دير باعوث أو بني باعوث (ذكر سنة ١٠٥٧ ، فيه تخرج اربعة أساقفة نهبته طائفة من المسلمين عام ١٢٩٠ ثم اغتصبوه حوالى١٣١١)، دير باقسماط أو فقسماط ، دير مار برصوم (ظل عـامرا آهلا حتى أواسط القرن السابع عشر ثم عصف الدهر بأهله)، دير مار بهنام (يقال له دير الجب ، جنوب شرقي الموصل، انشىء صدر القرن الخامس عشر تخرج فيه مفريانان وسبعة أساقفة وسنة ١٨١٩ تولته الفرقة المتكثلكة وأمسى خاليـا نيفا وستين سنة وهو الآن آهل) ، دير الزعفران أو (دير مار حنانيا ، لا يزال عامرا) ، دير مار زكي (بالرقة ، نزل به هارون الرشيد فاستطابه وبر أهله) ، دير السريان (باسم السيدة العذراء في برية الاسقيط بمصر ، يظن بناؤه في القرن الخامس ، يسكنه في هذا الوقت رهبان أقباط) ، دير مـار شربيل (في كفر شامع) ، دير شيرو (ظل عامرا حتى أوائل المئة السابعة عشرة) ، دير الصليب (في مرعش ، لا تزال بيعته عامرة) ، دير قرتمين (أشهر أديار طور عبدين ، بناه الناسكان مار صموئيل ومار شمعون عام ٣٩٧ ، لا يـزال عامرا آهلا) ، دير القطرة أو الناطف (منقور في الصخر خلا من أهله حوالى سنة ١٩٢٧) ، دير مـار يعقوب الحبيس (بجانب قرية صلح في طور عبدين لا يزال عامرا) الخ• الخ •
(اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٧/٥١٦)

الطائفة ، برغم قلة عدد أبنائها ، نجاحا كبيرا أثار انتباه الدول الاوروبية ولا سيما منها الكاثوليكية .

كان الجبل يرتدي عباءة رمادية ، لما كنت أدخل دير « الشرفة » . الجو يسوده الصمت . شجيرات الارز والشربين ، التي غرسها المطران زكريا ملكي ، ترمق الكنيسة فكأنها تقول : غدا يأتي الصيف وغبطة البطريرك ومعاونوه فتعود الحركة اليكِ يا كنيسة الرب ، فلا أريدك حزينة . الذي يودع الصيف يستقبل الشتاء .

أينما وقفتَ تجد الطبيعة حولك ، بغضبها وهدوئها ، بألوانها القاتمة والزاهية . فأنت هناك على رأس درعون . تحيطك الاديار من كل جانب . وعلى مقربة منك تقع مؤسسة المثلث الرحمة المونسنيور أنطوان قرطباوي ، الكائنة في ملك دير « الشرفة » ، القسم الجديد ، وهو بناء ضخم من الحجر الصخري الابيض ، تحتها بقليل ، على شمالك ، مؤسسة باسيل اخوان التي تمد لبنان والبلاد العربية بأجمل المفكّرات والسجلات التجارية والدفاتر وسائر القرطاسية .

ومن حق القول ان الاخوة باسيل (مخايل وانطون ويوسف والياس) هم خير من يمثل الاخوّة الصحيحة ، في بلادنا ، على الاطلاق . ألا وفّقهم الله وكلّل أعمالهم بالنجاح والازدهار ، ووفّق كل أخوين أو أكثر مثل باسيل اخوان .

الافكار تتكاثر عليك وتتسابق . ولكن هيهات أن

تحصرها . فبين الامس واليوم ما يقرب من مائتي عام . هذا البناء الكبير كان في الماضي غرفتين صغيرتين ، تعهدته الايدي الكريمة المخلصة ، ومع السنين صار واسع الارجاء . غبطة البطريرك حائك كان هناك . هو مدعو ، من قبل السفير البابوي ، الى الغداء . مرّ بدير « الشرفة » يسلّم على الاب الرئيس جورج المصري وجمهور الدير . عرّفني بهم واحدا فواحدا . رئيس الدير دمشقي . حديث العهد . معتدل السمرة والقامة . شعره كستنائي . عريض الفم والجبهة . البسمة على شفتيه دائما . صافي الوجه . في عينيه قرأت فصولا من تاريخ الشام ، فتذكرت أحياء النصارى واليهود و « المتاولة » والطريق التي تؤدي الى « قبر السيدة » (زينب بنت علي بن أبي طالب) . وتذكرت أيضا الامير ، الانسان ، المغفور له عبد القادر الجزائري ، الذي فتح بيته للمسيحيين الهاربين من الذبح الطائفي أيام مجزرة ١٨٦٠ . وقبل أن أدقق في وجهَيْ الماردينيين : الاب جبرائيل كاتو والاب يوسف ملكي ، قال الاب الرئيس : « نذهب الى الغداء أولا . الساعة الآن تقترب من الواحدة » .

بارك المائدة الاب جبرائيل كاتو الماردينى ، أكبر كهنة الدير سناً . أحاديث شتى دارت بيننا . واذ طال الجلوس في غرفة الطعام ، أرسل غبطة البطريرك حائك سائقه ليقول: « سيدنا يريد أن يخرج » فنهض الجميع . وتلا الاب كاتو

صلاة الشكر لله « الذي أنعم عليهم بهذه المائدة » . سلّم البطريرك مفاتيح غرف المخطوطات الى الاب المصري ، وودّعنا وهو يقول : « دعوا الاستاذ يدخل المتحف وغرفة المخطوطات الكنسية » فقال الجميع: «أمْرك سيّدنا » .

المتحف

هو غرفة صغيرة تحتوي على بدلات للقداس . واحدة قدمتها « الكونتيسا » ماريو هرموزا الاسبانية سنة ١٨٩٣ الى البطريرك المؤسس جروة ، وهي من الحرير المقصّب بالذهب . وأخرى تقدمة من الخوري باسيل أيوب الحلبي . والثالثة من الهند ، لبسها الكاردينال تيسران بمناسبة قدومه الى الشرفة عام ١٩٣٩ .

في المتحف أيضا ، المِصْنَفة ، التي يلبسها الاساقفة قبل التاج . مطرّزة . تبدو وكأنها جديدة . توج بها الكاردينال تيسران رأسه . وخزانة فيها بدلة الاب ميخائيل الازرق ، رئيس الدير (١٨٥٦ ــ ١٨٨٩) ، الصديق الخاص للمثلث الرحمة المطران يوحنا حبيب ، مؤسس جمعية المُرسلين اللبنانيين الموارنة ، كما سيمر معنا ، في فصل « أسقف ورسالة » . الى جانب البدلات ايقوتتان تمثلان العذراء والطفل يسوع ، يُعتقد أنهما من روسيا، وصلبان، ومحجرات ، وكؤوس قديمة وثمينة ، وعملات ، وآلتان

للكتابة ، ومراوح ، ومباخر ، وعكاكيز ، وصنوج، وذخائر قديسين ، ومزهريات ، ومذياع ذو اسطوانة يدوية، وأختام بابلية ، وحِقّ بخور ، وموازين بريد من القرن التاسع عشر ، وتماثيل فرعونية صغيرة ، و « سطاتيقون » أي الصك الذي كان يسلمه البطريرك الى الاسقف الجديد (٥٦) .

وترى في المتحف لوحات زيتية ، ايطالية واسبانية ، بدا عليها القِدم وهي تستدعي الاصلاح ، فنرجو من الرئيس الحالي ، الاب يوسف ملكي ، أن ينظر اليها بعين العطف ، قبل أن تتآكل .

المخطوطات

ان مخطوطات دير الشرفة موزعة الى ثلاث مجموعات:

١ ـ المجموعة السريانية والكرشونية .

٢ ـ المجموعة العربية .

٣ ـ المجموعة التي وردت الدير بعد نشر كتاب « الطرفة في مخطوطات دير الشرفة » ، الذي مر ذكره .

---

(٥٦) و « السطاتيقون » أو سوسطاثيقون ايضا هو الصك الذي كان يأتي من السلطان العثماني ، الباب العالي ، الى كل بطريرك ، اثر انتخابه . وفي « اللؤلؤ المنثور » : هو كتاب العهد أي تقليد الولاية للاسقف يكتبه البطريرك .

أسس مكتبة المخطوطات المثلث الرحمة البطريرك اغناطيوس افرام الثاني رحماني ، وهي اليوم تضم ما يزيد على ألفَي مخطوطة تبحث في مختلف الموضوعات. نظّمها الاب اسحق أرملة وأنشأ لها فهرسا ، بعد أن انتدبه الى هذا العمل رئيس الدير الاب اقليميس ميخائيل بخاش . ويُعدّ الفيكنت فيليب دي طرّازي « المحسن الكبير الى دير الشرفة» مما دعا القيّمين على الدير الى الاحتفاظ بصورته، في المكتبة ، عرفانا لجميله واحسانه .

في القسم السرياني والكرشوني مخطوطات ، منها للعهد القديم ، ومنها للعهد الجديد . مجلّدة باتقان. بعضها منسوخ على ورق الرق . ومخطوطات في الليترجية أو النافور [57] . وشرح الاسرار البيعية وقوانين المجامع [58] (Explication des Sacrements de l'Eglise et du droits

---

(٥٧) المراد بالليترجية (Les Liturgies) أو النافورا وأصلها آنافورا جميع الصحف المشتملة على رتبة القداس الالهي وما يتعلق بها . وكلتا اللفظتين يونانيتان اصطلح عليهما كتبة السريان لامتزاج لغتهم باليونانية في عصور الكنيسة الاولى واختلاطهم مع اخوانهم السريان الملكيين خصوصا في القرون المتوسطة . (الطرفة في مخطوطات دير الشرفة ص ٤١) . وقد أفاض السريان في تصنيفها الى حد الاغراق . (اللؤلؤ المنثور ص ٦٣) .

(٥٨) خصص هذا الرقم بجميع مصاحف دير الشرفة التي اشتملت على شروح الاسرار المقدسة وعلى الخطب والمقالات الدينية وعلى القوانين البيعية والمدنية والادبية ككتاب « الهدى » لمؤلفه المفريان غريغوريوس ابن العبري وعلى قوانين المجامع المسكونية (المصدر نفسه ص ٧٠) .

ecclésiastique)

والبيشكازات [59] (Betghaso - Recueuil de Chants)

والصلوات الفرضية (Livres des Offices Religieux)

« الفنقيث » [60] وطقوس الرسامات الكهنوتية وتقديس الميرون والطباليت [61] والكنائس وجناز الموتى والمعيّدات (Pontifical . Consécration du Saints Chrème des autels, des églises . Offices de Morts et diverses (Cérémonies Liturgiques) والخدم الكهنوتية (Le Rituel) واللاهوت والجدل (Théologie et Polémique) نذكر منها « كتاب الرؤوس في اثبات أقانيم الثالوث» [62]

---

(٥٩) يراد بلفظ بيثكاز أي الكنز او المخزن مجموعة الاناشيد والصلوات والقوانين التي يتلوها الاكليروس السرياني على مدار السنة في الآحاد والمواسم والاحتفالات والتذكارات ملتقطة من تصانيف الايمّة ولا سيما من تآليف مار افرام ملفان البيعة الجامعة .

(٦٠) انظر حاشية رقم (٣) .

(٦١) الطبليث : لفظ سرياني منقول عن اللاتيني يراد به لوحة أو رخامة تجعل تحت الكأس أو الطبق أثناء اقامة الذبيحة الالهية بحيث لا يتاح للكاهن أن يقدس بدونها . وتتخذ الطباليث من الخشب المختار أو الحجارة المختارة .

(٦٢) هذا المخطوط الكرشوني يشتمل على ٥٨٠ صفحة طوله ٢١ س وعرضه ١٦ س مجلد بجلد وخشب . وهو ثلاثة وثلاثون راسا أثبت فيها المؤلف حقائق التثليث والتجسد وشرح الاسرار « كمل بيد فرج باسم قس سنة ١٨٧٠ – ١٥٥٩ م في سابع نيسان » و « كتبه فضل الله بن يعقوب الحكيم المكنى بالسرياني من مدينة القدس ، في سنة ١٨٧٢– ١٥٦١ م » .

و « كتاب الكنوز » وهو في علم اللاهوت النظري ويبحث « عن وجود الله تعالى وعن صفاته • وعن السيد المسيح والتجسد » • ألفه يعقوب البرطلّي ، مطران دير مار متى وأسقف أذربيجان ١٢٤١م [٦٣] و « دحض آراء البرتستان» لمؤلفه المعلم نقولا عبد النور الآمدي ١٧٥٥ • وكتب في المنطق والفلسفة (Logique et Philosophie) ومنها «حديث الحكمة»لابن العبري،وكتب في سير القديسين (Hogiographie) منها « البستان في أخبار الرهبان » الذي أنشأه القديس صفرونيوس بطريرك أورشليم المكنى بفم المسيح [٦٤] •

ومن المخطوطات أيضا المعاجم (Dictionaires) منها : معجم حسن بربهلول الذي اشتهر في السنة ٩٣٦م • وكتب في قواعد اللغة السريانية ، منها « المدخل واللمع »

---

(٦٣) المصدر نفسه ص ١٩٣

(٦٤) صفرونيوس (ت حوالى ٦٣٨) ، وُلد في دمشق وتنسك في فلسطين • بطريرك القدس • حارب مذهب المونوثيلية (المشيئة الواحدة) • في عهده فتح العرب القدس (٦٣٨) • وهو نفسه الذي فاوض عمر بن الخطاب في شروط الاستسلام، كما جاء في « تاريخ الكنيسة الشرقية القديمة » تأليف الاب ميشيل يتيم والاب اغناطيوس ديك ، مطبعة الاحسان — حلب ، طبعة ثانية منقحة ، ١٩٦٣ ص ١٣٥ • ويحمل هذا الاسم أيضا بطريرك أورشليم الملكي (١٧٧١—١٧٧٥) صاحب كتاب « قضاء الحق ونقل الصدق » •

لابن العبري ، والتاريخ ، مثل « تاريخ ابن العبري البيعي» و « تاريخ ابن العميد » (جرجس ابن المكين المعروف بابن العميد ١٢٧٣ م) و « سلسلة بطاركة السريان الانطاكيين » و « تاريخ الرومي العجيب من عهد أبينا آدم الى أيام قسطنطين السعيد » (مخطوط كرشوني) ، والطب (Médecine) وعلم الفلك والهيئة والحساب ، ومجموعة نبذ وميامر بعضها لمار افرام وبعضها لعبد يشوع الصوباوي [٦٥] (*) •

وتضم المجموعة العربية بعض الاناجيل والرسائل وشرح الاناجيل ، وكتبا عن المجامع المسكونية ، وتآليف تقَوِيَّة ، وكتبا اسلامية منها : « دلائل الخيرات وشوارق

---

(٦٥) عبد يشوع الصوباوي او عبد يشوع بن بريخا :أسقف سنجار ثم نصيبين النسطوري (١٢٩٠ — ١٣١٨) . له عدة مؤلفات بالسريانية وبعضها بالعربية منها « الفرائد والفوائد في أصول الدين والعقائد » وترجمة مسجَّعة للاناجيل بعنوان « فردوس عدن » التي نشرها الاب جبرائيل قرداحي صاحب « اللباب » ، الذي سيأتي ذكره في فصل « مدينة ليست من العالم الثالث » . جاء ذكر عبد يشوع الصوباوي في اللؤلؤ المنثور » ص ٣٢ ، ٣٥ ، ٦١ ، ١٧١ ، ٤٥٣

(*) ويمكن مطالعة أخبار الصوباوي أيضا في « ذخائر الاذهان » الجزء الثاني ص ٢٥ ، حيث قال فيه مؤلفه : « ورُزق عبد يشوع نصيبا من العلم والحكمة والبلاغة وسمو المعاني ما لم يحزه أحد من زمانه » ، وفي « ادب اللغة الآرامية » للاب ألبير أيونا طبعة ١٩٧٠ ، حيث يرد اسمه عشرات المرات ، وخصوصا ص ٤٤٥ — ٤٤٦

الانوار في ذكر الصلاة على النبي المختار » ، وهو خال من التاريخ ومن اسم الناسخ ، و « فيض الكركي » يرقى عمره الى القرن الخامس عشر ، يشتمل على مباحث في الشرح الحنفي • و « الحمائل » ، أدعيةوصلوات،و« رسائل في مذهب الدروز » و « الرسالة الدامغة في الرد على الفاسق النصيري » و « صحيح البخاري » •

أما مكتبة المطبوعات فهي جناح كبير يضم ما يزيد على ثلاثين ألف مطبوعة وكتاب في مختلف الموضوعات ، وهي تشكل مرجعا كبيرا للذين يرغبون في الاطلاع •

على أن هذا كله انما هو جزء قليل جدا مما في خزائن الكتب السريانية ، بحسب ما اتصل بنا علمه أو مثلما ذكر لنا البطريرك افرام الاول برصوم في « اللؤلؤ المنثور » ، حيث خصص لهذه الخزائن بابا ، هو الاول في مؤلفه الثمين ، وقد بلغ مداه الصفحة الخامسة والثمانين بعد المئة •

جاء الى دير « الشرفة » مستشرقون سمعوا أخباره، ليتعلموا ويطلعوا ، منهم : المستشرق « أوكريلان » الذي وصل الدير عام ١٧٨٦ ، والاب يوحنا باريزو البندكتي (١٨٩٧) ، والاب جوليوس جنان البندكتي (١٨٩٦ م) والاب بروسلان شيدلاك النمساوي (١٨٩٧) والابانطون

الدومينيكي (١٨٩٩) والاب فيلنجر النمساوي (١٩٠٠) والاستاذ لويس ديلابورث الفرنسي (١٩٠٥) والابيوليان بوياد البندكتي (١٩٠٩) والاباتي انسلمس شيباسلاسال (١٩٠٩) والاب يونونتور أوباك الاسباني (١٩٠٨)والاب أوغسطين ميابه الفرنسي (١٩١١) والاب ديموندالفرنسيسي (١٩١١ — ١٩١٢) •

هؤلاء كتبوا أبحاثا ودراسات ومذكرات كان لدير « الشرفة »منها نصيب كبير من الثناء والاطراء والاعجاب•

كنيسة دير الشرفة

فوق باب الكنيسة بيتان من الشعر العربي مؤرخان في ١٧٨٧ يقولان :

« يا حسنها بيعةً قد شادها
البطريرك جرجس خير راع قد رعى
لما ازدهرت أرختها بنشأتها
وعلى الصليب الذي يتصدر المدخل »

تحت هذين البيتين : « بوخ ندافر لبعلدبويين » معناها : بك نناطح أعداءنا •

ندخل الكنيسة فإذا هي تبعث على الخشوع والتأمل. بسيطة . فيها لوحات زيتية وصوَر لا تزال تحتفظ برونقها. استوقفتني لوحة « سيدة النجاة » وفيها المسيح، والعذراء تسحق رأس الافعى ، الى يمين العذراء مار اغناطيوس النوراني ، ومار افرام السرياني . كُتب على هذه اللوحة بالخط السرياني السترانجيلي المنمّق ما معناه : «السلام عليك يا مريم يا ممتلئة النعمة » .

ركع الاب الرئيس فركع الجميع . وبصوت واحد قالوا : « يا سيدة النجاة ، يا أم الله دعي نورك يشع على العالم سلاما في العام الجديد » . شجيرات الارز ضحكت عندما فتح باب الكنيسة ، وكأني بها تقول : حبذا لو تعودون .

الرؤساء العامون

صوَر البطاركة تزين صالون الدير . الاثاث قديم. الغرفة صغيرة . في الدير قناطر ودهاليز ... وأشياء في كل مكان ، على الجدران ، في الردهة الكبيرة الطويلة ، وجوه تشدك اليها . تفتح معها حديثا صامتا . تعرفها من العناوين . وتمضي أنت بسلام دون أن تلقي عليك الاسئلة التي تقابلك على الحواجز : من أنت ؟ ما دينك ؟ ما هو معتقدك السياسي ؟ الخ . الخ .

أولئك ، أصحاب الصوَر ، جاؤوا ، الى هنا ، من أماكن بعيدة ، فمنهم من علّم ومنهم من تعلم . صاروا رؤساء عامين . خدموا الدير بأمانة وإخلاص . مضوا لتبقى صورهم .

١ — المطران يوليوس أنطون — الديار بكري (١٨٠٠— ١٨١٢) .

٢ — الخورفسقفوس [66] ميخائيل الصائغ — الموصلي (١٨١٢ — ١٨١٤) .

٣ — المطران باسيليوس ميخائيل هداية — الحلبي (١٨١٦ — ١٨١٨) .

٤ — المطران غريغوريوس بطرس جروة — الحلبي (١٨١٨ — ١٨٢١) . صار بطريركا كما ذكرنا في الصفحة ٨٤ .

٥ — المطران أثناسيوس جبرائيل حمصي — الحلبي (١٨٢١ — ١٨٢٨) .

٦ — القس أندراوس يغمور — الحلبي (١٨٢٨ — ١٨٤٢) .

---

(٦٦) الخورفسقفوس أو خورابسقوبوس ، أصلها يوناني ، معناها : أسقف الكورة خفف فقيل فيه خوري ج خوارنة يراد به اليوم مقدم كهنة البيعة عند قوم وعند قوم آخرين في بلاد الشام الكاهن على الاطلاق (اللؤلؤ المنثور، ص٤٩٨).

٧ ــ المطران إقليميس بولس صعب ــ الحلبي (١٨٤٢ ــ ١٨٤٩) .

٨ ــ الخورفسقفوس ميخائيل الازرق ــ الحلبي (١٨٤٩ ــ ١٨٥١ ــ و ١٨٥٦ ــ ١٨٧٩) .

٩ ــ المطران قورطيس يوسف حائك ــ الحلبي (١٨٥١ ــ ١٨٥٤) .

١٠ ــ المطران غريغوريوس يعقوب حلياني ــ الحلبي (١٨٥٤ ــ ١٨٥٦) .

١١ ــ الخورفسقفوس يوسف معمار باشي ــ المارديني (١٨٧٩ ــ ١٨٨٥) .

١٢ ــ القس افرام أبيض ــ الحلبي ــ نائب الرئيس (١٨٨٠ ــ ١٨٨٢) .

١٣ ــ الخورفسقفوس باسيل قندلفت ــ الحلبي (١٨٨٥ ــ ١٨٨٦) صار مطرانا فجددت له الرئاسة (١٨٩٣ ــ ١٨٩٥) .

١٤ ــ الخورفسقفوس بطرس بوصيك ــ الماردينى (١٨٨٦ ــ ١٨٨٧) .

١٥ ــ الخورفسقفوس موسى سركيس ــ الدمشقي (١٨٨٧ ــ ١٨٩٣ و ١٩٠٣ ــ ١٩١٢) .

١٦ ــ الخورفسقفوس بولس هبره ــ الدمشقي (١٨٩٥ ــ ١٩٠٢) .

١٧ ــ القس جاورجيوس دلال ــ الدمشقي (١٩٠٣ ــ ١٩١٢) .

١٨ ــ الخورفسقفوس افرام حيقاري ــ من سعرت [٦٧] ماردين (١٩١٢ ــ ١٩٢١) .

١٩ ــ الخورفسقفوس جرجس ستيته ــ من زيدل ــ حمص (١٩٢١ ــ ١٩٢٢ و ١٩٢٩ ــ ١٩٣٣) .

٢٠ ــ المطران اقليميس ميخائيل بخاش ــ الحلبي (١٩٢٢ ــ ١٩٢٦)

٢١ ــ القس بطرس هندية ــ الحلبي (١٩٢٧ ــ ١٩٢٨) .

٢٢ ــ المطران يوليوس بهنام قليان ــ الموصلي (١٩٢٨ ــ ١٩٢٩) .

٢٣ ــ الخورفسقفوس زكريا ملكي ــ من قلعة المرأة [٦٨] ــ ماردين ــ (١٩٣٣ ــ ١٩٦٣) . صار

---

(٦٧) سِعرت أو إسعرد: بلدة على حدود ارمينيا وكردستان. اشتهرت سابقا بصناعة الأسلحة والاقمشة . كانت كرسيا أسقفيا للكلدان . جاء ذكرها في « اللؤلؤ المنثور » انها «مدينة جنوبي بدليس » (ص ٥١٦) .

(٦٨) أو قلعة الامراة ، وهي قرية شرقي ماردين بينها وبين دير الزعفران (اللؤلؤ المنثور ، ص ٥٨١) .

مطرانا .

٢٤ ـ القس يوحنا تولجان ـ المارديني (١٩٦٣ ـ ١٩٦٩) .

٢٥ ـ الخورفسقفوس يعقوب نعوم ـ المارديني (١٩٧٠ ـ ١٩٧١).

٢٦ ـ القس يوسف ملكي ـ الحسكة (١٩٧١ ـ ١٩٧٣) (*) .

٢٧ ـ المطران يوسف المنيّر ـ قطنة ـ الشام (١٩٧٤ ـ ١٩٧٦) .

... وتركت الدير

تركتُ الدير الذي ينتظر الاحتفال بيوبيله المئوي الثاني [٦٩] في صمته ، والآباء ، الى صلاتهم وعباداتهم فيما كان الضباب يهبط من الجبل باتجاه الساحل .

(*) الرئيس الحالي نفسه .

(٦٩) في زيارة للمونسنيور ميخائيل الجميل ، سكرتير البطريرك حائك ، تمت يوم الاحد ١٠/٣/١٩٨٥ ، أخبرني انه قدم مسودة مشروع الاحتفال باليوبيل المئوي الثاني لتأسيس دير الشرفة ، أو المئوي الاول لمجمع الشرفة الشهير ، على أن يقام هذا الاحتفال في سنة ١٩٨٦

لن أضيف شيئا بعد ، لكني سأنقل عن كتاب « تاريخ بعبدات وأسرها » لمؤلفه الخوري نعمة الله ملكي البعبداتي [٧٠] ما يلي :

« ... وأصل عائلة الملكي في بعبدات من قرية معاد (من أعمال جبيل) . أصلهم روم أرثوذكس ، جاء منهم فريق الى الشوير ويُعرفون ببيت « قربان » ، وأقام فريق منهم بالمنصورية ويُعرفون ببيت « الحاموش » ، وظلوا على مذهبهم ، الاول ، والذين في بعبدات حكاية حالهم ، أن جدّهم كان بمرضه الاخير طلب كاهنا من الشوير (أرثوذكسياً) فتخلف عن الحضور اليه (ربما بسبب الثلوج ـ يومذاك) . استدعوا اليه كاهنا مارونيا من بعبدات فاعترف عنده ، وقام الكاهن الماروني بالواجبات اللازمة فمات (الارثوذكسي) مارونيا ، ومن هذه العائلة بيت « عويس » [٧١] .

ويبقى لي أن أسأل كما سأل الخوري موسى داود ، بمناسبة الذكرى المئوية السادسة عشرة لوفاة مار افرام ،

---

(٧٠) نقل هذا الكتاب ونسّقه ولده حنا الخوري الملكي في سنة ١٩٤٧

(٧١) ص ١٥٢

اذ قال : « سبع كنائس سريانية لماذا ؟ » (٧٢) .

وقال الخوري داود ونقول معه أيضا :

«ما نخرته المطامع الأنانية وصدّعته المصالح السياسية المتضاربة، وما زعزعته الخلافات اللاهوتية والنظريات الفلسفية المتشعبة ، هل يرأبه نبي السريان (مار افرام) وترمّمه ذكرى وفاته المئوية السادسة عشرة » ؟ (٧٣)

فماذا تقول هذه الكنائس جميعها ... وماذا يقول الاحبار والعلماء والباحثون المسيحيون المشرقيون والغربيون؟

---

(٧٢) على ان الكنائس التي تعتمد اللغة السريانية في طقوسها هي :

- الكنيسة الآشورية .
- الكنيسة السريانية الارثوذكسية .
- الكنيسة السريانية الكاثوليكية .
- الكنيسة الكلدانية .
- الكنيسة المارونية .
- الكنيسة المبارية .
- الكنيسة الملكنكارية .

(٧٣) مجلة « الكرمة » السنة الرابعة العدد ١٣ كانون الثاني ١٩٧٤

البطريرك يعقوب الثالث

غيّب الموتُ وجهَ البطريرك مار اغناطيوس يعقوب الثالث (١) ، الرئيس الاعلى للكنيسة السريانية في العالم . وبموته فقدت المنابر محاضرا ولغوياً ولاهوتيا ومؤرخا وأديبا ومترجما وناقدا قوي الحجة ، واضحا في معالجاته الفكرية والتاريخية والادبية واللغوية والروحية ، جريئا حتى درجة التصادم والاقتحام ، مخلصا لعقيدته وكنيسته .

وُلد البطريرك يعقوب الثالث في قرية برطلّي جوار الموصل في العراق ، يوم الثاني عشر من شهر تشرين الاول ١٩١٢ ، وفي السادسة من عمره توفي والده توما ماري . ولما تجاوز السنة العاشرة التحق بدير مار متى ، الذي أنشىء أواخر القرن الرابع وعُدّ « أشمخ صرح ديني علمي بل أقدم أثر للنصرانية في وادي الرافدين » (٢) . وفيه

---

(١) توفي الساعة العاشرة من مساء يوم الاربعاء ٢٥ حزيران ١٩٨٠ . وجرت مراسم الدفن ، في دمشق ، يوم السبت ٢٨ حزيران .

(٢) دفقات الطيب، في تاريخ دير القديس مار متى العجيب =

درَس العلـوم الدينية واللغـات السريانيـة والعربيـة والانكليزية .

في ١٩٣١ أوفده رئيس الدير الربّان اسحق الثاني البرطلّي ، الى الميتم السرياني في بيروت ، استاذا للغـة السريانية والدينيات . ولبس الاسكيم الرهباني فـي ٣٠ تموز ١٩٣٣ ، في كنيسة « أم الزنّار » في حمص (*) ، على

= للبطريرك يعقوب الثالث ص٣ . جاء ذكره أيضا في «اللؤلؤ المنثور » (ص ٥١٤) كما يلي :

« ديـر عظيم رُفع بناؤه أواخر المئة الرابعة وصار كرسيا مطرانيا وهو كذلك الى وقتنا هذا . حوى في حقبته الاولى جماً من الرهبان غفيرا وتقلبت به الاحوال حتى جدد عام ١٨٤٥ . أنجب بطريركين وستة مفارنة وثلاثة وثلاثين أسقفا » .

والمفريان (أصلها سرياني) معناها المثمر وهـو اسم لصاحب رتبة كنسية خاصة بالكنيسة السريانية مرادفـة للجاثليق فهو دون البطريرك وفوق الاسقف (المطران) وكان كرسيه في تكريت ثم نقل الى دير مار متى فالموصل (اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٢) .

(*) ان لهذه الكنيسة حكايـة ذكرها البطريرك يعقوب في الجزء الاول ، من كتابه « تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية» (من ص ٤٠ الى ص ٤٣) مفادها ان العذراء لما دنت ساعة خروجهـا من هذا العالم أوعز الروح القـدس الى الرسل الاصفياء ، فركبوا متن الهواء ، واجتمعوا كلوامع البرق الى أورشليم ما عدا توما . وفي اليوم الثالث من دفنها وصل هذا الرسول من الهند الى أورشليم ، فرأى مأتما علويا مجيدا ومشهدا خارقا يخطف الابصار والعقول . رأى واذا العذراء مسجاة على ملاءة بيضاء تطير بها الملائكة الى السماء . فتردد =

يـد المثلث الرحمـة البطريرك مار اغناطيوس افرام الاول

= حائرا ، ثم التمس منها ذخيرة، فرأى واذا بنطاق العذراء يهبط من علٍ ويسقط بين يديه ، فيستيقظ مـن اغفـاءة الشك ، ويأخذه الى الرسل مدللا به على انتقال والدة الاله الى العلاء نفسا وجسدا ، ثم يعود الى الهند يشفي بـه المرضى وذوي العاهات ويبارك المؤمنين . وبعد مدة نقل الى الرهـا فحمص حيث أودع كنيسة السيدة ذخيرة ثمينـة للمؤمنين ، كما نقل رأس القديس يوحنا المعمدان وبعض رفاته من فلسطين الى كنائس دمشق وحمص وحلب الكبرى . ومنذئذ عيدت له الكنيسة .

وهنالك ثلاثة عشر كلندارا (لائحة الفصول والشهور والايام وأعياد السنة) حوت عيد « وضع زنار والدة الاله » أو « تزنير أبويها اياها » تتراوح بين المئة الثامنة والرابعـة عشرة ، أولها كلندار القديس يعقوب الرهاوي (٧٠٨ م) . وقد ذكر في بعضها في ٣٠ آب ، وفي البعض الآخر في ٣١ منه . ولما كان موعد عيد الزنار قريبا من عيد انتقال العذراء في ١٥ آب ، فقد أهمل على تراخي السنين مثلما أهملت أعياد وذكرانات كثيرة تخفيفا على المؤمنين .

وفي نيسان سنـة ١٩٥٣ كـان قـداسة الحبر مار اغناطيوس افرام الاول بطريرك انطاكية وسائر المشرق يتصفح بعض مخطوطـات تخص المرحوم يـوسف عسكر الحمصي المتوفى عام ١٩١٦ فلفت نظره كتاب ظهر ان غلافه مؤلف من أوراق ألصق بعضها ببعض . ولما فكّها وجد ستاً وأربعين رسالة كرشونية وعربية ، وبينها رسالة أنفذها وجهاء السريان في حمص وحماه ودمشق وصدد وغيرها من قرى حمص الى وجهاء مدينة ماردين يعلمونهم بها انهم في أثناء هدم كنيستهم في حمص قصد تجديدها وتوسيعها ، وجدوا فيها الزنـار المريمي الشريف موضوعا في مائدة التقديس ، فتبركوا به دون أن يفتحوا الوعاء الذي حواه ، ووضعوه ضمن مـائدة التقديس في مذبحها الجديد بالحالة التي وجدوه فيها . وكان =

برصوم • ومن هناك سافر الى الهند ، بأمر من البطريرك نفسه ، حيث رسمه المثلث الرحمة مار يوليوس الياس توروس في ١٩ كانون الثاني ١٩٣٤ شماسا إنجيلياً •

= ذلك سنة ١٨٥٢ • فسُرّ قداسته بذلك واهتم بالبحث عن هذا الاثر الديني العظيم ، وأمر بنقب المذبح الاوسط ، فظهر الزنار المريمي وتبرك به الحاضرون ، ثم كتب قداسته الى مديرية الآثار الدمشقية يخبرها بالامر ، فأوفدت الى حمص لجنة قوامها الدكتور جوزيف سبع محافظ متحف دمشق والاستاذ الخبير في البحث رئيف الحافظ • وبعد دراسة الزنار الشريف وكل ما تعلق به درسا كافيا ، كتبت تقريرا في ٦ آب ١٩٥٣ يشتمل على أوصاف الزنار وهي كما يلي :

« جرن من الحجر البركاني ، وقوص نحاسي مزين بدوائر متحدة المركز يغطي حفرة نصف بيضوية تقريبا ضمنها علبة أسطوانية الشكل من المعدن المتأكسد لدرجة انه لم يبق من المعدن شيء • وقد حفظ التأكسد شكل العلبة الاصلي ، وعلى الارجح انها من الفضة الممزوجة بمعدن آخر ، بقي قعر العلبة لاصقا في حفرة الجرن فأخرجه غبطة البطريرك محطما الى عدة قطع ، ووجد ضمن العلبة زنارا ملفوفا حوله قطع من الخيطان والقماش •

« طول الزنار ٧٤ سم وعرضه ٥ سم وسمكه ٢ سم • لونه بيج فاتح وهو مصنوع من خيوط صوفية طولانية في الداخل (أو خيوط كتان) نسج عليها خيوط من الحرير • وطرز الزنار بخيوط من الذهب (المسماة قصبا) وعلى سطحه الخارجي • وقد تآكل من أطرافه وظهرت عليه ملامح وتأثر بتأكسد العلبة المعدنية • وكان معلق في جانب العلبة المذكورة من الاعلى أسطوانة نحاسية طولها ٦،٥ سم فتحت فظهر ضمنها قطعة عظمية من ساعد انسان بنفس الطول • وظهر ضمن القطعة العظمية ما يشبه رقاً ملفوفاً يتطلب اخراجه معالجة خاصة دقيقة • =

مكث الشماس يعقوب ، في الهند ، ثلاث عشرة سنة يدرس ويخدم ويكتب ويعلم • فتمكن ، الى العربية والسريانية والانكليزية ، من اللغة الملبارية ، نطقا وكتابة ، وكأنه من أبنائها •

وعاد من الهند الى العراق ، فعيّنه البطريرك برصوم معلما للسريانية واللاهوت في إكليريكية مار افرام في الموصل • وكان المطران الذي سرعان ما أعاد الى أبناء الطائفة ثقتهم بكنيستهم ورؤسائهم الروحيين ، اذ رسمه البطريرك برصوم أسقفا لبيروت ودمشق ، في ٧ كانون الاول ١٩٥٠ ، وسماه سويريوس يعقوب •

ونظرا الى ما للفقيد من خدمات في سبيل الكنيسة السريانية الارثوذكسية وشعبها ، وكفايات علمية متعددة

= « ان الزنار يعود الى العهد الروماني ، والجرن والقرص النحاسي يعودان الى العهد البيزنطي •

« يظهر ان العلبة المحتوية على الزنار كانت موضوعة في مذبح الكنيسة السابقة منذ زمن بعيد ربما يبدأ مع البيعة السابقة كما يدل على ذلك تأكسد العلبة الشديد الناجم حتما عن وجودها في أرض رطبة مدة طويلة وتآكل الزنار اثناء وجوده ضمن العلبة وحالة العظمة والرق الموضوع ضمنها » •

« ومنذ اكتشاف الزنار المقدس ، اصبحت الكنيسة هدفا للزائرين من جميع الاديان والمذاهب » •

الوجوه ، انتخبه المجمع السرياني عام ١٩٥٧ بطريركا ، فخلف البطريرك برصوم الذي كان هو أيضا عالما ومؤرخا وشاعرا وبحاثة (٣) ، فنقل ، مباشرة ، مركز البطريركية في حمص الى دمشق ، وانفتح على الفاتيكان في عهد البابا بولس السادس ، ثم على « مجلس الكنائس العالمي » الذي انتسب اليه • وزار البطريرك يعقوب في ١٤ أيار ١٩٨٠ البابا يوحنا بولس الثاني ، مع وفد من المطارنة ، وبحثا في تعاون الكنيستين من أجل مسيحية موحدة وكنيسة جامعة •

هذا ، وفي عهده ، الذي كاد يبلغ ربع قرن ، انتشر السريان الارثوذكس في مختلف أنحاء أوروبا الغربية وأميركا ، تجارا وصناعيين ، مهرة ومعلمين وعمالا ، فنجحوا نجاحا بارزا ، عاد ، لا شك ، بالخير والمنفعة ، على ابناء الطائفة ومؤسساتها الخيرية الانسانية ، وبخاصة الذين هم في لبنان ، خلال سنوات الضائقة ـ الحرب •

آخر أعماله الثقافية

لعلّ آخر ما كتبه البطريرك مار اغناطيوس يعقوب الثالث ذلك البحث اللغوي ، الذي نشرته مجلة «العربي» في عددها ٢٥٦ ـ آذار ١٩٨٠ : « لماذا الإنكار ؟ اللغة

(٣) توفي في حزيران ١٩٥٧

السريانية هي الأم» ردّاً منه على الدكتور ابراهيم السامرائي في مقال له بعنوان : « العربية بين العبرية والسريانية » ، المنشور في « العربي » أيضا (٤) (*) •

في هذا المقال (البحث) دافع البطريرك يعقوب عن السريانية بأسلوب علمي دقيق لم يخلُ من العنف ، وتلك كانت عادته ، في معظم محاضراته واجتماعاته وردوده على الآخرين ، ولا سيما منها في القضايا التاريخية واللغوية • وكم سخر من الدكتور السامرائي القائل عن كتاب «الالفاظ السريانية في المعاجم العربية » لمؤلفه البطريرك مار أغناطيوس افرام الاول برصوم : « ولقد وجدتُ صاحب الكتاب المشار اليه (برصوم) قد جار عن السنن الواضح فتخبط خبط عشواء فكان كحاطب ليل » (٥) •

ومما قاله البطريرك يعقوب :

« وفيه تجنٍّ سافر على بعض الذين كتبوا عن

(٤) العربي ، الكويت ، العدد ٢٤٩ آب ١٩٧٩

(*) وفي سنة ١٩٨٥ اصدر الدكتور السامرائي، عن دار الجيل ـ بيروت ومكتبة المحتسب عمان، كتابا في هذا الموضوع ،عنوانه: « دراسات في اللغتين السريانية والعربية » ويتكون من ٢٠١ صفحة من القياس الكبير ، ويتضمن « مباحث لغوية باللغتين السريانية والعربية » . وجملة مواد هذا الكتاب تدخل في «الابحاث اللغوية المقارنة » .

(٥) الدكتور ابراهيم السامرائي ، المصدر نفسه .

تأصيل الالفاظ العربية ، ومنهم سلفنا الطيب الذكر مار أغناطيوس افرام الاول برصوم (...) مع أن الـدكتور السامرائي لم يستطع أن ينقض لفظة واحدة مما ورد فيه » .

وتابع يقول :

« ولم نستغرب هذا المقال إذ كنا قد استمعنا الى صاحبه يلقيه سنة ١٩٧٣ في مهرجان افرام حنين الذي أعدّه مجمع اللغة السريانية في بغداد . ومع اننا كنا قد انتقدناه في حينه ، فقد عاد الآن ينشره في مجلة « العربي » الوضاءة . غير أنه حذف منه العبارة التالية : (ان الكوفة والحيرة لفظتان عربيتان لانهما تنتهيان بالتاء المربوطة) » .

أضاف :

« إننا بعد أن استمعنا الى خطابه ذاك سألناه : وكيف تكون العبرية أقدم من السريانية الآرامية ، في حين ان التوراة أكدت أن الجد الاعلى لأصحابها العبرانيين كان آرامياً ، كقوله تعالى لموسى الكليم : قل لشعبي ليقول « كان أبي آرامياً تائها فهبط مصر ... » ؟ (تثنية ٢٦ : ٥) [6] .

---

(٦) رجعنا الى سفر تثنية الاشتراع ف ٢٦ : ٥ . وهنا نص الآية كاملا : « ثم تجيء وتقول بين يدي الرب الهك إن أبي كان آرامياً تائها فهبط مصر ونزل هناك في رجال قلائل فصار ثمّ أمّة عظيمة شديدة كثيرة » .

وقال :

«فإذا كان ابراهيم آرامياً ألم تكن لغته أيضا السريانية الآرامية ؟ أجل ، وقد احتفظت التوراة نفسها بنص سرياني من زمن يعقوب أبي العبرانيين ، أطلقه خاله لابان الآرامي على حجر أقاماه نصباً مع كومة من الحجارة ليكون شاهداً بينهما . والنصب هو « يَجَرَ سهدوتا » أي نصب الشهادة (تكوين ٣١ : ٤٥ـ٤٧) [7] وهو أقدم جميع الكتابات الى الآن » .

وقال أيضا :

« أما العبرية فهي في الاصل آرامية احتكت بالمصرية مدة إقامة أولاد يعقوب في مصر كما أيّد الباحثون، فنسبت من ثم الى أولاد يعقوب الذين تمردوا على المصريين بقيادة موسى النبي ، فسمّوهم عبريين من فعل (EBAR) أي متعدّين ، عصاة ، مذنبين ومخالفين . فأجاب الـدكتور

---

(٧) ورجعنا أيضا الى سفر التكوين الفصل ٣١ : هنا الآيات ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ : « والآن فهلمّ نقطع عهداً انا وانت ويكون هو شاهدا بيني وبينك . فأخذ يعقوب حجرا واقامه نصبا . وقال يعقوب لاخوته اجمعوا حجارة واجعلوها كومة واكلوا طعاما فوق الكومة . وسمّاها لابان يجر سهدوتا وسمّاها يعقوب جلعاد . وقال لابان هذه الكومة تكون شاهدا بيني وبينك اليوم . ولذلك سمّيت جلعاد » .

السامرائي : هكذا يقول بروكلمان • فقلنا له : ولكن التوراة التي شهد لصحتها الانجيل الشريف والقرآن الكريم هي أصدق من بروكلمان » •

واستمر البطريرك ساخرا من الدكتور السامرائي اذ روى قائلا :

« والأنكى أننا حين سألناه عن معنى « الكوفة والحيرة » اللتين قال انهما لفظتان عربيتان لانهما تنتهيان بالتاء المربوطة، أجاب : إنه لا يعرف معناهما • فسألناه وهل كان للكوفة اسم آخر ؟ فأجاب ، لا يدري • فقلنا له ألم تسمع باسم « عاقولا » ؟ فقال : بلى • فسألناه عن معناه فقال « شوكة » • فقلنا انه اسم مرادف للفظة « الكوفة » التي تعني هي الأخرى في السريانية « شوكة » • على أن فاءها في العربية ليست فاء في الأصل ، لكنها (V) أي (Kouva) • وقد استعملت كذلك كما استعملت لكتابة « فيينا وجنيف لعدم وجود حرف الـ (V) في العربية كما في السريانية • فلفظة « الكوفة » إذاً سريانية بحتة • ثم بيّنّا له أن لفظة « الحيرة » أيضا سريانية معناها « القصر » أي قصر النعمان • وأخبرناه بأنه كان في بصرى (اسكي الشام) عاصمة الغساسنة أيضا « حيرة » أخرى تعرف بـ « حيرة ابن جبلة » كما أكدت الوثائق السريانية في النصف الاول

من القرن السادس للميلاد • تشهد على ذلك لوحة معلقة في طريق دمشق ــ بيروت مكتوب عليها « قصر الحير » أي أنها تذكر الاسم السرياني الاصلي وإلى جانبه معناه العربي » •

وقال البطريرك :

« ثم قلنا له : أما قولكم ان اللفظتين المشار اليهما عربيتان لانهما تنتهيان بالتاء المربوطة ، فليس من العلم والمنطق في شيء • فما قولكم في لفظة « سورية » مثلا التي نكتبها اليوم بالتاء المربوطة ، فهل هي عربية لاننا نكتبها كذلك ؟ على أن الكوفة والحيرة كانتا تكتبان سابقا بألف الاطلاق « كوفا » و « حيرتا » كما كانت سورية أيضا تُكتب « سوريا » [8] •

ونحن اذ نشير الى العنف الطاغي على بحث البطريرك يعقوب فإنما لنؤكد أنه ما كان الا لرد « العنف » الظاهر في كلمة الدكتور السامرائي الذي لم يتردد ولم يتمهل، كما يبدو ، فضلا عن خطأه ، خصوصا فيما يتعلق بالبطريرك برصوم ، الذي شهد له عارفوه بالعلم والحجة الصادقة والبرهان القاطع والاخلاق الرفيعة •

---

(٨) العربي العدد ٢٥٦ آذار (مارس) ١٩٨٠ ص ٥٣/٥٤

توفي البطريرك يعقوب الثالث عن أربعين كتابا في شتى الموضوعات الدينية والتاريخية والادبية . عندنا منها: « تاريخ الكنيسة السريانية الآنطاكية » [٩] و « دفقات الطيب في تاريخ دير القديس مار متى العجيب » (طبعة ١٩٦١) و « الكندي السرياني » بحث ألقاه في الاحتفالات الألفية لبغداد والكندي في السادس من شهر كانون الاول ١٩٦٢ (طبعة ١٩٦٣) و « اللآلىء المنثورة في الاقوال المأثورة » [١٠] وهذا يتضمن منتخبات من الادب السرياني (طبعة ١٩٦٩) و « صدى المنابر » ، يحوي أربعين موعظة دينية تفسيرية تهذيبية (طبعة ١٩٦٩) و « البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية » ، بحث لغوي في العلاقات الوثيقة بين السريانية والعربية ، وقد ذكَّر المؤلف به الدكتور السامرائي ، حيث قال : « ومن العجيب الغريب أنه (السامرائي) لم يشر الى كتابنا الموسوم بـ« البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية » . مع اننا كنا قد اهدينا اليه نسخة منه فور انتهائه من إلقاء كلمته . ألم نعلّل في هذا الكتاب ما يفي بالمرام ، كيف تسرّب كثير

---

(٩) الجزء الاول طبعة ١٩٥٣ ، الجزء الثاني طبعة ١٩٥٧

(١٠) هو غير كتاب « اللؤلؤ المنثور » للبطريرك مار افرام برصوم .

من الالفاظ السريانية الى العربية » ؟ [١١]

ومن مؤلفات الفقيد أيضا : « تفتّح العبير أو سيرة البطريرك مار سويريوس الكبير » (*) (طبعة ١٩٧٠)

---

(١١) العربي ، المصدر نفسه ص ٥٥ . على ان البطريرك يقول: « وعلى سبيل المثال نثبت هنا ثلاثة ألفاظ لم ترد في هذا الكتاب وهي : زار ، تحيَّل ونحف . ان هذه الالفاظ ليست عربية في الاصل لكنها سريانيةَ دخلت العربية محرّفة ، أصلها : سئعَر اتحيَّل ونحف (NHEV) (هزل) . فاللفظتان الاوليان تحرّفتا بلسان الناطقين بالسريانية العامية الشرقية . أما الثالثة فبلسان الناطقين باللهجة الغربية . ذلك ان حرف الحاء في السريانية العامية الشرقية الدارجة في العراق ، يكون غالبا « خاء » ، وحرف العين يذوب فيها غالبا . والحروف « الاسلية » وهي في السريانية : الزاي ، السين ، الصاد ، والشين ، اختلف لفظ كثير منها في اللغتين السريانية والعربية اختلاف لغات الشعوب الناطقة بهما ، بحيث أضحت الزاي في اللغة الواحدة سينا أو شينا أو صادا في اللغة الاخرى وبالعكس . ولذلك انقلبت السين في لفظة « سئعَر الى زاي وذابت العين حتى أضحت اللفظة « زار »، كما انقلبت في لفظة « اتحيل » الى خاء حتى أضحت اللفظة « تخيَّل » . أما الفاء في « نحف » فهي في الاصل السرياني (V) الفرنجية (NHEV) فانقلبت الى فاء لعدم وجود هذا الحرف في العربية كما أسلفنا » .

(*) ترجم له أيضا البطريرك برصوم في « اللؤلؤ المنثور » من ص ٢٣٨ الى ص ٢٥٠ فقال :

« ولد في سوزوبليس من ولاية بيسيدية في حدود سنة ٤٥٩ ، وكان جده لابيه أحد أساقفة مجمع أفسس المسكوني الذي عقد في أوائل حزيران سنة ٤٣١ حسما للشقاق . وكان قد دعا الى عقده القيصر ثاودسيوس الثاني . قرأ سويريوس النحو والبيان في الاسكندرية باليونانية واللاتينية، ثم درس =

= علمي الفقه والفلسفة في مدرسة الفقه الروماني ببيروت فبرز في الفلسفة ونبغ في الشرائع واعتمد في بيعة طرابلس سنة ٤٨٨ ثم اختار لنفسه طريقة الزهد فترهب في دير مار رومانس في بلدة مايوما بفلسطين ورسمه الاسقف ابيفانوس قساً . ثم أنشأ ديرا وأقام أربعا وعشرين سنة متعبدا لله مترَوضا في فضائل النسك ، منصبا على حرث كتاب الله ودرس تآليف اللاهوتيين . واشتغل بالتصنيف نصرة للمعتقد القويم فذاعت شهرته وبعُد صوته وعام ٥٠٨ رحل مع مئتي راهب الى القسطنطينية في سبيل الدفاع عن المعتقد ، ومكث فيها زهاء ثلاث سنوات حتى سنة ٥١١ وبعد سنة وبعض شهور عزل فلبيانوس الثاني بطريرك انطاكية فانتخب سويريوس بالصوت الحي ليخلفه في الكرسي الرسولي ، وسيم بطريركا في انطاكية في ١٦ تشرين ٥١٢ ففتح ثم كنوز علمه ، وانبرى يلقي الخطب الرنانة بيانا لحقائق الايمان وتقويما للاخلاق ولم يحد ابان رئاسته عن سنن نسكه وزهادته . فأزال من القصر البطريركي أسباب الترف في المعيشة ، وانصرف الى اصلاح الامور وتدبير الكنيسة متفقدا الابرشيات والاديار المجاورة بنفسه وبرسائله الجليلة . وفي سنة ٥١٨ تولى يسطينس الاول الخلقيدوني المذهب خلفا لانسطاس ، فنفى جمهرة من الاساقفة الارثوذكسية متنمرا لسويريوس فخرج في ٢٥ ايلول الى مصر حيث أقام زهاء عشرين سنة وهو يدبر البيعة بنوابه ومراسلته ، ويحبِّر الكتاب اثر الكتاب نقضا للبدع ودحضا للمضللين بهمة لا تعرف الملل ولا تتعثر بأذيال الكلل .. وواقاه الاجل في بلدة سخا (مصر) في ٨ شباط سنة ٥٣٨ وعمره نحو من تسع وسبعين سنة . وله في اصح الروايات مصنفات جدلية وطقسية وتفسير وخطب ورسائل ، فحق فيه القول انه « حبر خطير شمس الائمة وحجة البلغاء وسيد العلماء البعيد الهمة ، أوحد عصره وعين وقته ونضار زمانه ، تاج السريان ، وفخر البطاركة الانطاكيين ، من جهابذة اللاهوتيين وفحول الكتاب المتبحرين » . (اللؤلؤ المنثور ص ٢٣٨) .

و « هيبة الإيمان أو الملفان مار يعقوب السروجي أسقف بطنان » (طبعة ١٩٧١) و « العصارة النقية في تاريخ الكنيسة السريانية الهندية » (طبعة ١٩٧٣) و « أعجوبة الزمان أو مار افرام نبي السريان » (طبعة ١٩٧٤) و « الكنيسة السريانية الأنطاكية الارثوذكسية » محاضرة ألقاها بالانكليزية في جامعة غوتنغن ، ألمانيا الغربية ، يوم ٨ تشرين الاول ١٩٧١ ، و « خطب المهرجانات » (طبعة ١٩٧٧) و « المجاهد الرسولي الأكبر ، مار يعقوب البرادعي » (طبعة ١٩٧٨) .

ولعلّ أهم هذه الكتب ، التي بين أيدينا ، « تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية » و « الكندي والسريانية » و « البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية » والمحاضرة التي ألقاها بالانكليزية في جامعة غوتنغن حسبما تقدم .

ولنا أن نتوقف ، ولو قليلا ، عند بحثه عن الكندي ، وهو دحْض لما ادّعاه الاستاذ أحمد فؤاد الأهواني القائل :

« ان الغموض والتواء التعبير ومجافاة روح العربية الغالب على أدب الكندي ، مرجعها الى طول النظر في الكتب اليونانية والسريانية » (١٢) .

(١٢) من مقدمة الاهواني لكتاب الكندي الى المعتصم بالله في الفلسفة الاولى . نقلا عن « الكندي والسريانية » .

وهو دحْض لما قاله الاستاذ محمد لطفي جمعة في كتابه « تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق والمغرب » حيث يقول :

« إنه كان ــ الكندي ــ ملماً بإحدى هاتين اللغتين : السريانية واليونانية ، الذائعتين لذلك العهد » [١٣] .

يرى البطريرك يعقوب أن الدروس اليونانية « كانت خملت في بلاد الشرق منذ النصف الثاني من المئة السابعة للميلاد » [١٤] بل « ان اليونانية كانت مهجورة منها (بلاد المشرق) في المئة التاسعة عصر الكندي » [١٥] . ومن كان يرغب في هذه اللغة (اليونانية) فعليه « أن يشخص الى بلاد الروم ويحكمها على أصحابها ، كما فعل حنين بن اسحق ، وقسطا بن لوقا ، المعاصران للكندي » [١٦] و « لم يذكر أحد من مؤرخي العرب كابن النديم وابن أبي أصيبعة والقفطي ، ان الكندي فعل ذلك » [١٧] .

لقد استند البطريرك يعقوب ، في كتابه هذا ، الى « اللؤلؤ المنثور » للبطريرك مار افرام برصوم و « زبدة

---

(١٣) نقلا عن « الكندي والسريانية » .
(١٤) المصدر نفسه .
(١٥) المصدر نفسه .
(١٦) المصدر نفسه .
(١٧) المصدر نفسه .

الصحائف » لنوفل نوفل و « تاريخ مختصر الدول » لابن العبري . فنفى فقيدنا أن يكون الكندي متمكنا من السريانية حسبما زعم غير مؤرخ . ومما قاله في هذا المجال:

« وأصدق ما يقال في الكندي ، من هذه الناحية ،انه لخص ترجمات غامضة وأوضحها كما فعل مثلا بكتاب « اثولوجيا » أي الربوبية المنحول لأرسطو ، تفسير برفيريوس الصوري [١٨] ، الذي ترجمه عبد المسيح بن عبدالله بن ناعمة الحمصي سنة ٢٢٦ هـ . ثم أرجعه الكندي وأصلحه لأحمد بن المعتصم بالله » [١٩] .

الا أن البطريرك أنصف الكندي مبينا فضله على السريانية قائلا :

« واذا كان الكندي تأثر بالسريانية وترجماتها ،

---

(١٨) برفيريوس (Porphurios) او فورفوريوس (٣٣٣ ـ ٣٠٤ . ولد في صور . أحد فلاسفة الافلاطونية الجديدة . تتلمذ على أفلوطين،وشرح فلسفته،ونشر كتابه «التاسوعات» أهم آثاره كتاب « أيساغوجي » الذي أشتهر عند المسلمين. ورد به مقولات ارسطو العشر الى محمولات خمس : الجنس والنوع ، والفصل ، والخاصة ، والعرض العام (الموسوعة العربية الميسرة ج ٢ ص ١٣٣٢) .
ذكره برصوم في « اللؤلؤ المنثور » ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .
(١٩) المصدر نفسه .

فالسريانية أيضا بدورها تأثرت ، ولا بدع ، فإن الناس تعير وتستعير • والامم تأخذ وتعطي في كل زمان • ومن أهم آراء الكندي التي اصطبغت بها السريانية ، نظريته في مركز النفس الاصلي قبل اتحادها بالبدن »[20] (*) •

فالضرورة تقضي ، في رأينا ، وجوب اعادة نشر هذا البحث ، الذي لا يتجاوز الثلاثين صفحة ، من الحجم الصغير ، لكونه نظرة علمية موضوعية الى فيلسوف اختلف حوله الباحثون •

أما « البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية »[21] فمن الأهمية بمقدار ، اذ ان فيه احصاء شبه

---

(٢٠) المصدر نفسه •
(*) حري بنا ، هنا ، أن نتذكر ان من النقلة من السريانية الى العربية عبد المسيح بن عبدالله بن ناعمة الحمصي ، وهلال ابن أبي هلال الحمصي • وزروبا الناعمي الحمصي في القرن العاشر ، وعيسى الرقي المعروف بالتفليسي من أطباء سيف الدولة ابن حمدان ، والاطباء أبو اسحق ابراهيم ابن بكوس وابنه ابو الحسن علي ابن بكوس وعيسى ابن علي ابن ابراهيم ابن هلال الكاتب ابن بكوس المعاصر لابي الفرج ابن الطيب (١٠٤٣م) وجميعهم يحسبهم البطريرك برصوم « سريانا ارثوذكسيين » (اللؤلؤ المنثور ص ١٥٩ حاشية رقم ١) • فلا يستبعد ان يكون هؤلاء النقلة قد ترجموا ايضا الى السريانية بعض الاعمال العربية أو « انهم أعاروا واستعاروا » كما يقول البطريرك يعقوب •
(٢١) ١٢٨ صفحة من الحجم الكبير •

متكامل للالفاظ المتشابهة في السريانية والعربية ، ما يؤكد اواصر الاخوة بين هاتين اللغتين وضرورة السريانية للطالب العربي • على أن « الكنيسة السريانية الانطاكية الارثوذكسية »[22] موضوع آخر • فهو بحث في مكانة هذه الكنيسة ، في التاريخ الكنسي العام ، اذ هي ، عنده ، « تحتل مكان الصدارة في تاريخ المسيحية » وهي « الكنيسة الاولى التي تأسست في أورشليم مؤلفة من الرسل والمبشرين وغيرهم من اليهود المتنصرين ، والتي تطعمت بعدئذ في أنطاكية بالذين تنصروا من الآراميين والعناصر الاممية الاخرى »[23] •

كما يبحث هذا الكتيب في لغة الكنيسة الطقسية واسمها السرياني « المشتق من سيروس أو كوروش ملك فارس (٥٥٩ ـ ٥٢٩ ق•م) الذي أخضع بابل سنة ٥٣٨ ق• م • وحرر اليهود ، آذنا لهم في العودة الى اليهودية • وذكر اسمه إشعيا النبي مقرونا الى اسم المسيح »[24] •

و « الاسم السرياني هو الاسم المسيحي الذي دعي به

---

(٢٢) ٣٤ صفحة •
(٢٣) « الكنيسة السريانية الانطاكية الارثوذكسية » ص ٥
(٢٤) المصدر نفسه •

التلاميذ في أنطاكية أولا ، ذلك ان اليهـود والمتنصرين ، أيقنوا أن كورش ، محرر سبيهم ، كان رمزا الى المسيـح مقرونا الى اسمه اعتزازا وإجلالا ، كما فعل أجدادهم بعد عودتهم الى اليهودية . فلما طرق ذلك مسامع الامية في أنطاكية دعتهم « سريان » أو « كريستيان » نسبة الى الملك سيروس أو كورش . وهي تعني « مسيحيين » (٢٥) .

رجاء ...

ان المثلث الرحمة البطريرك مار أغناطيوس يعقـوب الثالث ، الرئيس الاعلى للكنيسة السريانية الارثوذكسية، هو فقيد العلم وفقيد « مجمع اللغة العربيـة في دمشق » وفقيد غير منبر وكنيسة .فهلا تمخَّضت الكنيسةالسريانية الارثوذكسية عن بطريرك جديد له ما لمار افرام برصوم ويعقوب الثالث من مزايا علمية وأدبية ؟

من المؤكد أن ذلك ليس بعسير على السريانوالكنيسة السريانيـة (٢٦) . الا أن القضيـة الكبرى هي الكنيسة

---

(٢٥) المصدر نفسه .

(٢٦) لقد تحقق ذلك فعلا في انتخاب زكا الاول عيواص خليفة للبطريرك الفقيد . (راجع بيان الزيارة) ، ترجم له نائبـه العام المطران اسحق ساكا ، في كتابه « كنيستي السريانية » ومما قاله : =

= « ولد في الموصل عام ١٩٣٣ ، واقتبل سر المعموديـة المقـدس في كنيسة الطـاهرة الـداخلية بـالموصل وسمي « سنحاريب » ، وفي عام ١٩٤٦ التحق بمدرسة مار افرام اللاهوتيـة بالموصل وسمي « زكـا » . تخرج من المعهد الاكليريكي بدرجة جيد جدا عام ١٩٥٤ وتوشـح بالاسكيم الرهباني وتعيَّن استاذا في المعهد الكهنوتي نفسه . وفي العام ١٩٥٥ نقلت خدماته الى دار البطريركية بحمص ، وصـار سكرتيرا خاصا لقداسة البطريرك يعقوب الثالث الذي نصِّب في ذلك العام أيضا ، حيث رقاه الى درجة الكهنوت وقلده الصليب المقدس عام ١٩٥٩ .وقد رافق الراهب زكا البطريرك يعقوب في معظم زياراته الرسولية الى الابرشيات وأرَّخ هذه الزيارات في كتابين أسماهما الواحد « المرقاة في اعمال راعي الرعاة » والثاني « المشكاة » . وأثناء الزيارة للولايات المتحدة الاميركية تمكن من الحصول على منحة من كلية اللاهـوت العامة للكنيسة الاسقفية . فاستأذن سلفه بالبقاء في تلـك البلاد لمواصلة التحصيل العلمي فانتسب الى جامعة نيويورك وصرف فيها سنتين (١٩٦٠ – ١٩٦٢) حيث أتقن اللغـة الانكليزية وتخصص في اللغة العبرية القديمة وقد حاز على شهادة الدكتوراه في اللاهوت من هذه الكلية تسلمها في ايار عام ١٩٨٣ في احتفال مهيب للغاية .

« في عام ١٩٦٣ رقاه سلفه مطرانا لابرشية الموصل باسم سويريوس . وشهدت ابرشية الموصل في عهده نهضة جبارة شملت ميادين مختلفة روحية وعمرانية وادارية .

« وفي عام ١٩٦٩ نقل الى ابرشية بغـداد ، ثم مطرانـا لأوروبا بالوكالة عام ١٩٧٦ وامتدت جهوده الى اوستراليا . وفي ١١ تموز ١٩٨٠ انتخب بالاجماع بطريركا لانطاكية ونصب في ١٤ أيلول ١٩٨٠ .

« قام بشراء ١٢٠ الف متر مربع من الارض في بلدةمعرة=

الجامعة والمسيحية الموحّدة ، ولطالما دعا فقيدنا اليهما بحماس منظور وإخلاص شديد .

= صيدنايا لتشيد عليها المؤسسات البطريركية (وبفضله استأنف معهد مار افرام الاكليريكية في دمشق بعد أن انتهى امره في لبنان بسبب الاحداث السياسية المعروفة » .

« كنيستي السريانية » ص ص ١٨٣/١٨٥

الفصل الثاني

كاهن ورسالة

الأب يوسف الشدياق

مؤسس مجلة "كوكب البريّة" والمعهد الانطوني"

"ان الأنطوني، وكل أنطوني، لا يعمل لذاته بل لربّه ورهبانيته، والرهبانية لا تعمل في بعبدا وسواها ليعبدها الناس بل ليروا الأعمال الحسنة ويمجّدوا الأب الذي في السماء".

الأب روفائيل الطيف الأنطوني
مجلة صدى المعهد آذار ١٩٦٠

الأب يوسف الشدياق

في دير مار يوحنا ـ القلعة ببيت مري كان الرئيس العام للرهبانية الانطونية ، الأباتي ميخائيل أبو فاضل [1]، يتحدث الى زواره ، الذين جاؤوا من بيروت وبعض قرى المتن ، ومما قاله :

« نحن تعلّمنا أن نبني بيتنا منفتحا على النـاس والشمس والهواء ، لا كهفا أو دهاليز . فللمرء أن يرى ما عندنا بوضوح . نوافذنا كبيرة وهي من الزجاج الشفّاف » .

عندها تكشّف لي سرّ لازمني ، منـذ عرفتُ بعض الاديار المسيحية المنتشرة على التلول ، وفي بطون الجبال والمدن ، انتشار الكواكب في السماء . وعلمت أن الذي يسوق الجماهير المسيحية ، كبـارا وصغارا ، الى هـذه

---

(1) توفي في ٣ تموز ١٩٨٣ ، ودفن في مدفن الكهنة التابع لدير مار أشعيا . خلفه الاب اليـاس عطاالله يوم ١٣ آب ١٩٨١ . وفي ٣ أيلول ١٩٨٤ عيّن الاب نعمان دكاش امينا عاما للرهبانية الانطونية ورئيسا على دير مار روكز ودير مار يوحنا ـ القلعة .

القلوع والصروح ، انما هو انفتاحها على الناس ، كل الناس ، بلا ريب ولا وجل .

من خلف زجاج شفيف نظيف ، في ديرين انطونيين : مار إشعيا ومار أنطونيوس ، نقرأ ، أو نحاول أن نقرأ ، تراثا عظيما تركه لنا كاهن لبناني أنطوني ملأ اسمه البلاد ، كما ملأ دواوين أربعة متصرفين هم : نعّوم باشا الحلبي (١٨٩٢ — ١٩٠٢) ومظفَّر باشا البولوني (١٩٠٢ — ١٩٠٧) ويوسف نصري فرنكو باشا الحلبي (١٩٠٧ — ١٩١٢) وأوهانس باشا الارمني (١٩١٢ — ١٩١٥) ثم وصل الى روما وعواصم أخرى ، هو « المحترم » و « المُدبِّر » الاب يوسف الشدياق ، مؤسس مدرسة القديس يوسف الانطونية ، في بعبدا ، التي قاومت الاعاصير وتصدت للنكبات فصارت معهدا واسع الارجاء والشهرة ، استحدث ، منذ ٥ تشرين الثاني ١٩٧٩ ، فرعي الطب والهندسة التابعين لجامعة لوفان (Louvain) الكاثوليكية البلجيكية ، التي ترقى الى ١٤٢٦ م . وكما قال الأباتي أبو فاضل ، الذي دعا الى قداس احتفالي في يوم الافتتاح ، فإن « الغاية المتوخاة من استحداث فرعي الطب والهندسة (وهذه البادرة شأنها) تحقيق المزيد من ديمقراطية التعليم العالي في لبنان . اذ ان هذه الخطوة ستساعد حتما على الافساح لعدد كبير من الطلاب اللبنانيين الذين لا يتمكنون من السفر الى الخارج للتحصيل ، وعلى تنمية روح الايمان

عند هؤلاء الطلاب الى جانب روح العلم ، لأن روح العلم وروح الايمان لا يتناقضان مهما بلغت ذروة العلم وتطوره في هذا العصر » [٢] (*) .

---

(٢) الاباتي ميخائيل أبو فاضل ، من كلمة القاها في القداس الاحتفالي الذي أقامه في قاعة المعهد ، يوم الاثنين ٢٩ تشرين الاول ١٩٧٩ . وقد أعلن ، من هناك ، بحضور السفير البلجيكي ، في لبنان ، السيد هنري ساجستير افتتاح هذين الفرعين .

(*) اثر لقاء مع الاب لويس رهبان ، وكان يوم ٧ / ٣ / ١٩٨٥ — علمت ان المعهد تعاقد أيضا مع جامعتي بروكسل (Bruxelles) وليبج (Liège) البلجيكيتين . غير ان الدولة اللبنانية لم تمنح المعهد ، حتى الآن ، اجازة بانشاء الجامعة الانطونية ، برغم وفر الشروط المطلوبة (...) وقد جدد طلبه هذا سنة ١٩٨٤

لكن الجامعة الانطونية استمرت تحضّر طلابها لطب الاسنان والطب العام والهندسة ، حتى نهاية عام ١٩٨٣ / ١٩٨٤ ، وذلك بنجاح أدهش الجامعات التي تمثلها ، كما أدهش الجامعة اللبنانية ، مما جعل الاخيرة تعترف بها وتتعاون معها .

نزلت الجامعة اللبنانية ، قسم الطب العام وطب الاسنان « ضيفا » على المعهد الانطوني ، وظلت تمارس أعمالها الاكاديمية في البناء المخصص للجامعة الانطونية المجهز بأحدث الوسائل ، حتى استجابت الدولة لطلب المعهد ، الذي مضى عليه حوالى سبع سنوات . اذ ذاك اتخذت الجامعة اللبنانية لها مقرا جديدا في منطقة جسر الباشا ، فيما واصل المعهد الانطوني عمله الجامعي مستقلا وباجازة حكومية .

ولقد رفع الاب لويس رهبان بالثناء على نائبه الاب سمعان عطاالله (الرئيس الحالي والآباء: بطرس عازار (مدير المعهد) ، لوقا فيسرس ، ايلي عبدالمسيح ، اميل ابو حبيب ، انطوان صعب ، جورج معتوق ، يوسف واكد (مدير المعهد =

لقد أتت هذه الخطوة الجريئة إثر حرب دامت (حتى تاريخه) خمس سنوات ألحقت بالمعهد الانطوني خسائر فادحة ذكّرتنا بمصيبة كبيرة ألمّت بالمعهد نفسه وبرهبانه عام ١٩١٥ ، لتشهد على أن صلة روحية عميقة الغور تمتد بين الأباتي أبو فاضل وأخيه الانطوني المرحوم الأباتي عمانوئيل بعبداتي [٣] ، الذي في عهده « بلغت الرهبانية (الانطونية) أوسع مجدها ، ونما عهد الرهبان فتثقفوا أو تضلعوا بالعلوم اللاهوتية والادبية والموسيقية ..وحفظوا القانون روحا ونصاً . ثم انصرفوا الى الصلاة العقلية والتبشير والتعليم ... وتحولت أديار الرهبانية الى مدارس كانت في طليعة مدارس العصر » [٤] .

فمن هو مؤسس المعهد الانطوني هذا وكيف تم له ذلك ؟

= الموسيقي) ، وشربل غانم .
وأشاد أيضا بالراهبات : لميا اسكندر ، ليلى اسكندر ، نورا ساسين وتريز فغالي .
ذلك لانهم قدّموا ويقدمون للمعهد والجامعة أعظم الاعمال والتضحيات .

(٣) الاباتي عمانوئيل بعبداتي (١٨٤٢ – ١٩٣٢) انتخب رئيسا عاما للرهبانية الانطونية عام ١٩٠١

(٤) من مقالة للاخ انطوان ضو (صار كاهنا ومؤرخا) في مجلة « صدى المعهد » ، السنة الاولى ، العدد الثاني / ٢٩ أيار ١٩٦٠. ص ٢٠

انه الاب يوسف الشدياق ، الذي سنحاول ، هنا ، بقدر ما سمحت لنا الامكانات ، التعرف اليه ، وعسى أن نوفق الى ما نحن طامحون .

يوسف و « حارة البطم »

في عام ١٨٦٨ م. قدّم داود باشا ، الارمني الاصل، المتصرف المثقف ، استقالته ، فقبلها العثمانيون على الفور، فغاب ، عن بعبدا – عاصمة الحكومة الشتوية ، وجه كريم، بذل جهدا كبيرا من أجل أن يلملم البلاد ، التي مزقتها الفتن الطائفية والاطماع الاجنبية ، ويعيد الى لبنان ما سلخ عنه .

وبينما يأخذ محل داود هذا المتصرفُ الثاني الحلبي نصري فرنكو باشا ، وُلد ، في « حارة البطم » – حدث بيروت ، يوسف منصور عباس أبي مروة الشدياق ، امه فتنة ابنة شبل سليمان أبي مروة ، وهي ابنة عم زوجها .

جاء يوسف ولما يمض على وفاة المؤرخ طنوس يوسف الشدياق [٥] أكثر من سبع سنوات .

---

(٥) طنوس يوسف الشدياق (ت ١٨٦١) : مؤرخ لبناني ، شقيق أحمد فارس . وُلد في الحدث (بعبدا) تلميذ مدرسة عين ورقة. عميل الامراء الشهابيين في لبنان. له « أخبار =

كانت « حارة البطم » ، آنذاك ، ممراً للخيول الذاهبة الى عاصمة الحكومة والعائدة منها • فكان الفتى يوسف يجمع صبيان الحي لينظّموا لعبة « الخيّالة » ، فاذا ما عبَر « الحارة » حصان جميل انفرجت أسارير يوسف ورسم اشارة الصليب لئلا يصاب هذا الحصان او فارسه بأذى أو مكروه••فهو يعرف لا شك أن الحسّاد كثر وأنهم لا يخافون الله •

قبل أن ينجز يوسف عامه السابع توفي والده منصور بالتيفوس (Typhus) فتولى أمره عمه داود الشدياق، أحد وجهاء الحدث ، الذي كان منزله مقصدا مثل كرم على درب • وفي بيت عمه تعرف يوسف الى وجوه كثيرة حفظ عنها الحكايات والامثال وأخبار الحكام والامراء وما قيل عن المذابح والمجازر التي حدثت في الشوف بين المسيحيين والدروز خلال فتنتي ١٨٤٠ و ١٨٦٠ •

وفي بيت عمه أيضا سمع يوسف ، بكل تأكيد ،أخبار

= الاعيان في جبل لبنان»، انغمس في السياسة في شطر عمره الاول ثم صرف شطره الاخير في وضع كتابه ونسخ كتب (تاريخ) الطب والتاريخ وعلم الفلك الخ ... على ما جاء في حاشية رقم (١٥) من الفصل الاول من كتاب «أحمد فارس الشدياق: آثاره وعصره » لمؤلفه عماد الصلح ، دار النهار للنشر ١٩٨٠

أحمد فارس الشدياق [٦] شقيق طنوس ، وكيف انتقل الى المذهب البروتستانتي ثم الى الاسلام • وقرأ يوسف في العيون وعلى الوجوه التململ من « أحمد » والغضب عليه ، فأدرك ان الذي يتخلى عن معتقده هو مثل الذي يغدر بعرضه أو كرامته ، و « من لا دين له لا كرامة له » كما يقول المثل •

تعلم يوسف ، في مدرسة « حارة البطم » ، العربية والخط ، « على يد الاستاذ شاهين بلان ، والد سليم بك بلان » [٧] • وفيها تميز يوسف عن سواه بالهدوء والاصغاء التام ، مما سهّل عليه الاستيعاب » ، فحدا العم داود أن يرسله الى مدرسة « مار لويس ـ المزار» في بلدة

---

(٦) احمد فارس الشدياق (١٨٠٤ (والصحيح ١٨٠١ كما أثبت عماد الصلح عنه) ـ ١٨٨٨) : اديب لبناني . من رواد الصحافة العربية الاوائل . وُلد في عشقوت (كسروان) (والصحيح في حارة الحدث انظر كتاب الصلح نفسه ص ٢٣) وتوفي في استانبول . تعلم في مدرسة عين ورقة . سافر الى مصر ومالطة ، وفيها انتقل الى المذهب البروتستانتي ، وتونس وفيها انتقل الى الاسلام وسمّى نفسه أحمد . ثم قصد الاستانة حيث أصدر جريدة « الجوائب » . جال في أوروبا . وامتاز بمعرفته الواسعة في مواد العربية وسهولة أسلوبه في الانشاء . من مؤلفاته « الجاسوس على القاموس» و « الساق على الساق فيما هو الفارياق » .

(٧) صدى المعهد ، المذكورة سابقا ، السنة الثالثة / آذار ١٩٦١

غزير ، حيث بقي ثلاث سنوات ليخرج متأثرا بالقديس الايطالي اليسوعي لويس غونزاغا [8] ، شفيع الشبيبة ، فكان أن صمَّم على دخول الرهبانية ، لكي يعود ، فيما بعد ، الى مسقط رأسه ، كاهنا يخدم بلدته والمنطقة التي كانت تفتقر حتى ذلك الوقت الى مدرسة حديثة .

يوسف الراهب

عندما قرر يوسف السير على طريق القديسين ،اتخذ من القديس أنطونيوس الكبير ، كوكب البرية [9] ، مثله

(٨) Gonzaga , Saint Aloysius (1568 — 1591 , Italian Jesuit Cleric .

(٩) يُعتبر القديس أنطونيوس الكبير (٣٥١ – ٣٥٦) مفتتح الطريقة النسكية ، مع ندّه الأنبا بولس (+ ٣٤٧) الذي اختار الصحراء الشرقية في مصر مقرا له وسكن مغارة هناك مدة تسعين سنة وهو يقتات بنصف رغيف يحمله اليه غراب كل يوم ، شأنه في ذلك شأن ايليا النبي العظيم . وقد كتب القديس اثناسيوس الاسكندري (+ ٣٧٣) حياة القديس الكبير .

ومما جاء في هذه القصة أن أنطونيوس ولد سنة ٢٥١ في حضن عائلة مسيحية ثرية في بلدة « قمن » او قيمان من أعمال مركز الواسطي التي تقع على بعد نحو ٩٠ كلم جنوبي القاهرة المصرية . ولم يكن مصري الاصل ، بل ابن مهاجرين يونان سكنوا مصر ، وأبواه مسيحيان أثريا من التجارة . انظر « تاريخ الكنيسة الشرقية » للاب ألبير أبونا ج١ ص ١٦٧/١٦٨ .

تنسك القديس انطونيوس في الصعيد فجذب الكثيرين =

= الى الحياة النسكية فانتسبوا اليه في قوانينهم، وصاروا يدعون « الانطونيون » وهم :

– الارمن : أسسهم ابراهيم عطار مراديان في أوائل القرن الثامن عشر في دير الكريم (لبنان) .

– الحبش والاقباط : لهم دير في روما أقاموا فيه منذ القرن الخامس عشر .

– السريان : جدد تأسيسهم البطريرك شلحت في ما بين النهرين وفي دير « الشرفة » لبنان حوالى ١٨٨٨

– الكلدان : أسسهم جبرائيل دَبنو في بدء القرن التاسع عشر في بلاد الموصل .

– الموارنة : تأسست رهبانية أولى ١٦٩٥ ثبتها الكرسي الرسولي ١٧٣٢ . انقسمت فيما بعد الى رهبانيتين: اللبنانية البلدية والحلبية ١٧٧٠ . للرهبانية اللبنانية البلدية المدارس الثانوية في لبنان منها (مشموشة ، ميفوق ، بيت شباب ، جونيه ، الجيّة) وجامعة الروح القدس في الكسليك. وللحلبية قسم من رعايا الموارنة في القطر المصري–والسودان والمدارس في لبنان (دير القمر ، اللويزة) (كما سنرى في الفصل الرابع) وفي ١٧٠٠ تأسست في لبنان الرهبانية الانطونية المعروفة أيضا برهبانية مار اشعيا . ثُبِّتت قوانينها في ١٧ كانون الثاني ١٧٤٠ . وظهرت كذلك الراهبات الحبيسات ١٨١٦ ثم جمعية الراهبات المتعهدات تعليم البنات والتمريض ١٩٣٢

وفي « تاريخ كلدو وآثور » دحض المطران أدي شير الكلداني ما أجمع عليه المؤرخون الشرقيون المتأخرون « ان الرهبنة انما على يد أوجين قد جلبت من مصر الى بلادنا» مؤكدا ان رهبان المشرق هم من وراء النسكية أو الرهبانية التي انتشرت انتشارا عجيبا في (الكنيسة الكلدانية) منذ مبادىء الجيل الرابع الامر الذي يدل على ان النسك فيها قبل ذلك العصر بسنين كثيرة » (ج ٢ ص ٢٩) . انظر أيضا « تاريخ الكنيسة الشرقية » للاب ألبير أبونا ، الفصل الرابع عشر من ص ١٧٥ الى ص ١٨٧

الاعلى ، فالتحق بالرهبانية الانطونية ، المعروفة أيضا برهبانية مار إشعيا .

« توشح (يوسف) بثوب الابتداء في دير القلعة»[١٠] اذ ان« مدة الابتداء (كانت) سنة واحدة لا غير ، وكان معلمه الأب طوبيا أبو زيد . ثم لبس الاسكيم الرهباني في ٦ تشرين الاول ١٨٨٤ ، أحد تذكار الوردية المقدسة»[١١] .

ومن هناك «أرسلته الرهبانية الى مدرسة قرنة شهوان الشهيرة في عصرها والتي تخرّج فيها نخبة من الكهنة الموارنة ، الذين خدموا الطائفة خدمات جلى » . وكان أستاذه في اللغة العربية الخوري نعمة الله داغر من بكفيا ، وأستاذ الفرنسية ، نجيب الداي »[١٢] .

ولما أتم يوسف دروسه في قرنة شهوان بنجاح لفت نظر رؤسائه وأساتذته ، « أدخلته الرهبانية مدرسة الحكمة أشهر المدارس اللبنانية آنذاك . فتعمق الشدياق في الآداب العربية وفي المنطق على يد الشيخ عبدالله البستاني الكبير وفي الفرنسية على يد الامير ملحم شهاب من كفرشيما »[١٣] .

---

(١٠) صدى المعهد ، المصدر السابق .
(١١) المصدر نفسه .
(١٢) المصدر نفسه .
(١٣) المصدر نفسه .

بعد مرور خمس سنوات على دخوله الرهبانية «استحق يوسف بركة سيادة المطران يوسف مسعد ، ابن شقيق البطريرك بولس مسعد »[١٤] . و « في ٣ أيار ١٨٨٩ سيم كاهنا في كنيسة بكركي وكان عمره ٢٠ عاما فقط »[١٥] .

يوسف الكاهن

بدأ يوسف الشدياق حياته الكهنوتية في ميتم مار يوسف[١٦] ببيروت ، حيث خدم « راهبات المحبة »[١٧] مدة سنة واحدة . ولما طُلب ، الى القدس ، ليكون مديرا

---

(١٤) بولس مسعد (١٨٠٦ — ١٨٩٠) : ولد في عشقوت (كسروان) وتعلم في روما . بطريرك الموارنة(١٨٥٤—١٨٩٠). عالج بالفطنة الاحداث التاريخية التي مرت عليه. انشأ مكتبة بكركي .
(١٥) صدى المعهد ، المصدر نفسه .
(١٦) يوسف (القديس —) : خطّيب مريم العذراء ومربي يسوع المسيح . كان نجارا يسكن الناصرة (الانجيل). تحمل اسمه عدة جمعيات لها المدارس والمستشفيات والمياتم .
(١٧) هنالك ثلاث مؤسسات لراهبات المحبة وهي :
— المحبة بيزانسون : تأسسن للتعليم خاصة سنة ١٧٩٩ . لهن المدارس في لبنان وسورية ومصر .
— المحبة الدومينيكيات : تأسسن للاهتمام بالمدارس والمستشفيات سنة ١٦٩٦ . لهن الاديرة في الاقطار العربية.
— المحبة اللعازاريات : انشأها القديس منصور دي بول ولويز دي مارياك للاهتمام بالمياتم والمستشفيات سنة ١٦٣٣. لهن المؤسسات العديدة في العالم العربي وايران وافريقيا .

لمدارس الفرنسيسكان ، رفضت الرهبانية أن ترسله الى هناك ورفض هو أيضا ذلك ، لانه كان يطمح في ان يرجع الى بعبدا حيث الحاجة الى كاهن نشيط كانت ماسة . وبطلب من المطران يوسف الدبس [18] عيّنه الرئيس العام للرهبانية الانطونية الأباتي سمعان البلوني مديرا لمدرسة بعبدا ، فبقي فيها من ١٨٩١ الى ١٨٩٣ ، وأظهر براعة ، في الادارة ، وأمانة لرسالته ، واخلاصا لتلامذته ، ومودّة للاساتذة الذين عاونوه . الا أن المدبّر عمانوئيل البعبداتي ارتأى أن يتسلم الاب الشدياق ادارة مدرسة الرهبانية في مار اشعيا [19] ، فكان له ما أراد ، وتولى يوسف ادارة

---

(١٨) يوسف الدبس (١٨٢٢–١٩٠٧) مطران بيروت الماروني . عالِم ومؤرخ . أسس مدرسة الحكمة وشيّد كاتدرائية القديس جرجس في بيروت . له « تاريخ سورية » .

(١٩) اشعيا (القرن ٨ ق. م.) : أحد كبار أنبياء اسرائيل الاربعة . قاوم آحاز ملك اسرائيل وكان من مستشاري حزقيّا ينشّط عزيمته عندما حارب سنحاريب اورشليم ٧٠١ ق. م. قيل انه مات شهيدا في عصر منسّى . له نبوءة امتازت بشدة لهجتها وقوة شاعريتها ، تنبأ عن مولد السيد المسيح من عذراء .

ويذكر لنا « اللؤلؤ المنثور » أن هنالك خمسة أشخاص حملوا اسم اشعيا هم : اشعيا بن حدابو ، اشعيا ناسك الاسقيط ، اشعيا الثاني الناسك ، اشعيا السبريني ، واشعيا النحلي .

بينما يذكر الاب البير ألبونا ، في « أدب اللغة السريانية » ثلاثة من الذين حملوا اسم اشعيا وهم : اشعيا نحلايا (ص ١٨٥) ، اشعيا السبريني (ص ٥٧٨) ، واشعيا الناسك (ص ٣١٤) .

هذه المدرسة من سنة ١٨٩٣ الى سنة ١٩٠١ ، نال خلالها ، اعجاب رؤسائه وزملائه المعلمين ، ومحبة طلابه الذين تعلقوا به ، وبقيت «حارة البطم» وبعبدا هدفه المنشود وأمله الكبير .

وعندما انتُخب المدبّر عمانوئيل بعبداتي رئيسا عاما (١٩٠١) عيّن يوسف أمينا للسر العام ، فاضطر أن يبقى في الوظيفة ، يدير مدرسة مار اشعيا ، الى أن انتهت السنة الدراسية ، ليذهب رئيسا على دير مار بطرس في قطّين — الجنوب — قضاء جزين ، حيث مكث حتى أواخر عام ١٩٠٢ [20] .

— يوسف المدبّر

كان يوسف الشدياق في العقد الرابع . وكان ممتلئا حيوية ونشاطا . حرصه لا يوصف ، وهمته عليّة . فهو مقدام وجريء ومخطّط . في رأسه تتزاحم مشاريع تربوية وعمرانية كثيرة . فانتُخب مدبّرا عام ١٩٠٤ ، وسكن في دير مار اشعيا ، الذي عرفته في ربيع ١٩٧٦ — اذ عرفتُ فيه آباء افاضل منهم الآباتي الياس عطاالله (الرئيس العام الحالي) والاب بولس دحدح والاب فرنسيس يواكيم

---

(٢٠) عن « صدى المعهد » المصدر نفسه بتصرف .

(رئيس الدير الحالي) ، والآباتي روفائيل لطيف ، والاب سمعان عطاالله(الرئيس الحالي للمعهد الانطوني)ـ يخطط ويدرس كيف سينفّذ هذه المشاريع ، فاقتربت المسافة بين برمانا وبيت‌مري وبعبدا . فكان اذا ما غاب المدبّر يوسف عن مار اشعيا وُجد إما في مار أنطونيوس وإما في دير مار يوحنا ـ القلعة .

ست سنوات (١٩٠٤ ـ ١٩١٠) ، من العمل المتواصل والسعي الكريم والجهد الجهيد ، قطعها المدبّر ، كما لو أنها يوم واحد . فالعطاء الذي قدّمه هذا الراهب الكبير، بإشراف الرئيسين العامّين : الاباتي عمانوئيل بعبداتي ، رائد النهضة الكبرى ـ في الرهبانية الانطونية ـ علما وثقافة واقتصادا وتربية ، والاباتي لويس عبيد ، الذي عيّنه المجمع الشرقي أسقفا لكنه توفي في يوم اختياره مطرانا بالذات ، وبمساعدة اخوانه في الرهبانية وبعض المحسنين، هو صفحات خالدة ومشرقة في تاريخ الرهبانية الانطونية الحافل بالأمجاد والتضحيات .

أسّس الاب الشدياق مدرسة ، وأصدر مجلة ،وبنى قرب دير مار أنطونيوس ، في بعبدا ، جناحين كبيرين ، واشترى مطبعة ، وجرّ المياه من « عين الدلبة »الى بعبدا، فروى عطش الساحل المزمن .

عرفه المرحوم يوسف ابراهيم يزبك عن كثب فقال فيه : « احترمه الوجهاء والضعفاء ، وآمن به المحتاجون مصلحا ورائدا . فكاد احترام عارفيه له يغطي على اسمه، اذ بات يُعرف بـ « المحترم » (٢١) ، في بعبدا كما في الجنوب وبيروت ، وهو ، عند رؤسائه واخوانه الرهبان ، الكريم العقل والقلب واليد الاب يوسف الشدياق ، فمتى قيل : « ذهب المحترم » أو قيل « أمر المحترم » ، عرَف السامع أن الذاهب والآمر انما هو الاب الشدياق . وكان يتبادر هو ، الى الذهن مع هذا النعت في حين أن معه في الدير محترمين آخرين . ولعل وقاره ، ورجولته ، وطيبته، وأريحيته ، ووطنيته ، هي السجايا الفذة التي فرضت أن يكون «المحترم» بين المحترمين ، وأن يحصر النعت به»(٢٢) .

أثره الادبي

شاء يوسف أن يترك لنا ، الى جانب المدرسة والمجلة، اللتين سيأتي الكلام عليهما ، أثرا أدبيا غلب عليه الطابع السياسي الوطني ، فلم تشغله المشاريع الكثيرة عن الادب والمطالعة والبحث . ففي دير مار اشعيا كتب «الشاب التائه»

(٢١) « المحترم » لقب المؤسس العميد للمعهد الانطوني .
(٢٢) يوسف ابراهيم يزبك : « من ذكريات تلبيس »ـ صدى المعهد ، المصدر نفسه ص ٤

و«مار اشعيا » • ومن بعبدا سطَّر « المدبِّر » مقـالات سياسية وأدبية نشرها في مجلة « الراصد » خلال الاعوام ١٩٣٠ / ٣١ / ٣٢ / ٣٣ ـ حكى في قسم منها عن منشىء « الراصد » المغفور له الشاعر والاديب والصحافي وديع عقل [٣٣] ، وفي جريدة « العاصفة » كان يكتب بـاسم « شاهد عيان » • ثم انه عرب عن الافرنسية حياة مؤسسة راهبات الراعي الصالح [٣٤] ، ونقّح بعض الكتب خصوصا كتاب « الصادق في خدمة الحقائق » لـلاباتي القـديس عمانوئيل البعبداتي الانطوني [٣٥] •

بعد وفاته [٣٦] عُثر ، في مكتبته التي بيع بعضها الى أحد الكتّاب (؟) على مخطوطات له في تاريخ العيال اللبنانية وموضوعات مختلفة •

---

(٢٣) وديع عقل (١٨٨٢ ـ ١٩٣٣): ولد في الدامور (لبنان). أسهم في جريدة «الوطن» ، ثم انشأ « الراصد » في بيروت. لم نعثر على ذكر « الراصد » في « بانوراما الصحافة اللبنانية والعربية في العالم) (١٨٥٨ ـ ١٩٨٠) ، الـذي نظمه « بيت المستقبل » ١٩٨٣ ؟

(٢٤) راهبات الراعي الصالح : تأسسن في فرنسا ١٨٣٦ • ينصرفن الى تربية الفتيات الابتدائيات وأصلاحهن • لهـن مدارس وملاجىء في مصر ولبنان •

(٢٥) عن « صدى المعهد » المذكورة سابقا بتصرف •

(٢٦) توفي الاب يوسف الشدياق فجر الخميس ٩٤١/٥/٩

عاش الاب يوسف الشدياق رهبانيته تقيّاً وأمينـا ومخلصا وشجاعا وصبورا • حمل الرسالة الانطونية في قلبه وعقله • ومن وحيها عمل « المحترم » في جو رهباني أنطوني، حوالى نصف قرن ، وجاهد أيما جهاد •

مجلة «كوكب البرية»

من دير مار اشعيا انطلقت مجلة جلاتينية كاثوليكية شاملة . صدر العدد الاول منها في أول تشرين الاول من عام ١٩٠٥ . أضاءت الدير بكلماتها وأقلامها ، ثم أخذت تجوب المؤسسات الدينية ، بأدب ورفق وتواضع ، فأحبها كل من قرأها ، وصار يواظب على مطالعتها ، بانتظام ، أهل العلم والفلسفة والادب والتاريخ .

لونُ حبرها البنفسجي ، برغم تراكم السنين ، ما زال يشدك اليها بفرح وثقة . فالخط الجميل من وضع الاب سمعان عاقلي من زغرتا ــ اهدن ، والورق الاملس مثل خد الطفل . كذلك مضمونها بل قل انه أروع من خطها وحبرها وورقها .

سُمّيت « كوكب البرية » على اسم شفيع الرهبان الانطونيين ، القديس أنطونيوس ، تبرّكاً وتيمّناً وتقديساً. ففي العدد الاول يخاطب القس مبارك صقر الانطوني القديس أنطونيوس الكبير قائلا :

« أيها القديس العظيم كوكب البرية الذي أنرْتَ العالم بساطع فضائلك وقاطع حججك ... وشريف مقاصدك فغدوت مشكاة فضيلة وتقى . ومثال رشد وهدى . يتهافت اليك عاشقو الفضيلة ولا تهافت الإبل الى المياه النمِرة (٢٧) ويتألب حوالى فلاتك الميمون فسراط الكمال كالفراشات حوالى النور . استنارة بقلمك . واسترشادا بأوامرك وزواجرك بلوغا الى الطريق المثلى طريق السعادة العليا » .

أضاف :

« وكما كنت أنا قاصدا تكريس هذه المجلة لك أيها العظيم بين القديسين كانت بغيتي الوحيدة أن تتهافت العقول الحاذقة الى مطالعة هذه المجلة فتقطف منها ما يلذ لها ويجديها نفعا . وما يضرم فيها نار خبرة وإكباب ، فتشمّر عن ساعد المطالعة فترقم ما يدور في الخلد من أفكار سامية ، بمقالات مفيدة بعد غوصها في لجج التمعن والتنقيب. التقاطا لدرر المعاني وتنظيما لها بعقود التراكيب. وهذه المجلة تغني ساعتئذ في إذاعتها فتعم الفائدة وتكبر

---

(٢٧) النمِر : جمع أنمار : الزاكي من الماء أو الاحساب . والنمر من الماء : الناجع عذبا كان أو غير عذب . النمير : الزاكي من الماء ومن الحسب . ويقال « ماء نمير وحسب نمير » .

الأمنية بينما اذا توكل على الله مثلك من يكتب ما يكتب مستردّاً منه عزّ وعلا إسفافاً (تقاربا) باطنيا ونعمة دائمة اعانة له في كل موضوع يلجه • ولأنك القدير بالشفاعة لذي العزة القادرة نستشفعك في كل حال ومآل • وبالأخص لندرأ كل مضرة عن ثمين حياة سيادة مخدومنا الجليل الاب عمانوئيل البعداتي الكلي شرفه ، واحترامه فيظل راتعا في حدائق الرغد والهناء ، فخرا وذخرا للانطونية » (٢٨) •

غاية المجلة

أما عن غاية هذه المجلة فقد كتب القس مبارك نفسه يقول :

« حمداً لمن لا يُحمد سواه • الذي أشرق عقول الأنام بضياء نعماه • من خلق الانسان على صورته وعلى مثاله يراه • وزينه بالعقل وبالادارة حلاّه • فيشنن (٢٩) قامته ليتمعن من المعارف دكّاً لأسوار الجهل ومناه • وبعد فلما كان سيادة الاب العام الكلي الشرف والاحترام باذلا

---

(٢٨) كوكب البرية ، العدد الاول ، ص ١/٢

(٢٩) شن : خلق ويبس • تشنن الجلد : يبس وتشنج • تشنن جلد الانسان : تغضن عند الهرم • يقال : « قربة اشنان » اي خَلَت كأنهم جعلوا كل جزء منها شناً ثم جمعوا على اشنان • والمقصود هنا تهزل قامته من كثرة المطالعة والدرس والكتابة •

الهمة والسعي في تقدم طلبة مدرسة الانطونية دينا ودنيا أي فضيلة وأدبا ويودوا أن يحبروا الخطب النفيسة الآخذة بمجامع القلوب • والمقالات المنسقة الجميلة • والعظات الرادعة كل غرور فيهتدي وكل مزعزع فيثبت ، رأيت أن تكون الوسيلة الدائمة لاجتهادهم وتنشيطهم مجلة يبدون فيها نجاحهم وخلاصهم تصدر ما توفرت موادها • فتقرّ بهم عين سيادة المحترم السامي احترامه ويقوون بعد مغادرتهم المدرسة واستلام ما يسمعونه من رعاية • التقوى أو إلقاء الدروس الخ ••• على ايضاح أفكارهم بخطب رنانة دون الخوف من عدم المقدرة والكلفة الشاقة وبذلك يأتون الانسان بخِدَم شريفة عز نظيرها » (٣٠) •

على هذا سارت « كوكب البرية » تنشر المقالات التاريخية والانتقادات الادبية ، الى جانب اخبار الرهبانية الانطونية والمجامع والكنيسة ، وتذيع الابحاث الدينية • وكانت « كوكب البرية » ترصد مجلات عصرها وجرائده • فاذا ما وجدت مقالاً أو بحثا مفيدا ، في احدى الصحف أو المجلات ، نقلته الى قرائها مسبوقا ، مثلما تقتضي الاصول ، بكلمة منها مختصرة تعلل بموجبها الاسباب التي جعلتها تختار هذه المقالة أو القصيدة أو الاقصوصة أو الدراسة •

---

(٣٠) كوكب البرية ، العدد نفسه ، ص ٢

عن جريدة « الاهرام » المصرية [31] أخذت «كوكب البرية »[32] ثلاث مقالات ... هي ردود من علماء وكتّاب مسلمين ، في مصر وسوريا ، على الشيخ يوسف النبهاني، الذي كان ، آنذاك ، رئيس محكمة الحقوق في بيروت ، في كتابه « إرشاد المبادي في تحذير المسلمين من مدارس النصارى » ، استنكروا هذا العمل الذي يسيء الى النشء ويفرّق بين أبناء الوطن الواحد،ويحرّك الاحقاد والضغائن ويسهّل انتشار الفتن الطائفية في صفوف المواطنين .

فمن مصر كتب الاستاذان محيي الدين سعيد وحسن الحليوني مقالتين مطوّلتين ، مقالة الاول عنوانها « ما أقبح التعصب » ! ومقالة الثاني عنوانها « فليحيا الوئام»، ولقد اخترنا من مقالة الاستاذ محيي الدين سعيد ما يلي :

«قرأتُ في جريدتكم (الكلام موجّه الى«الاهرام ») إعلاماً لأحد أفاضل مسلمي بيروت يذكر فيه أن أحد المشايخ هناك ألّف كتابا صغيرا سماه « إرشاد المبادي في التحذير

---

(31) العدد ١٩٦٩ ، الصادر في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٠٥

(32) العدد العاشر ، تموز ١٩٠٦

من مدارس النصارى » (*) وانه أفرغ فيه كل ما عنده من بواعث العداوة وإلقاء البغضاء بين المسلمين والنصارى. فلم يكن لكتابه وقع في نفوس العقلاء ولكن كان له تأثير عند الرعاع الذين لا يعرفون أن الدين هو حسن المعاملة.

« وبما أني من الذين يستنكرون أمثال هذه الخطة فافسحوا لي أن أنشر على صفحات جريدتكم ما يدفع تلك الاوهام الراسخة في نفوس كثير من المسلمين والنصارى فأقول :

« انه لا يوجد في العالم الانساني شرعة تأمر أهلها ببسط كف الغدر والاذى الى عباد الله . وقد قيل

(*) وبعد حوالى ثمانية عقود ، يكتب الاستاذ حسن زعرور، في « السفير » (السبت ١٩٨٦/٥/١٠) ، ومن قبل في مجلة « الكفاح العربي » (العدد ٣٨٨ كانون الاول ١٩٨٥) عن « مدارس بيروت الاجنبية والوطنية » محرضا على مقاطعة المدارس الاجنبية متوقعا لها « الانهيار» .. «لأن الدور الذي أعطي الى بعض المدارس الاهلية (انما هو) تغريب العلاقة الاجتماعية عن محيطها الطبيعي » . ولأن هذه المدارس هي « حلقة من حلقات رسمتها الدوائر الغربية الى هذه المدينة (بيروت) وغيرها في المنطقة لتصب بالنهاية في طاحونة المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية والثقافية « فضلا عن دورها» في « تعميق الهوة الطائفية وتشويه نظام القيم الاجتماعية في المدينة » (حسن زعرور ، السفير ١٩٨٦/٥/١٠) .

هل ان هذا يبرر ما تعرض له بعض الاساتذة الاجانب والرهبان والكهنة في بيروت وغيرها من المدن اللبنانية، للخطف أو القتل ؟

لرسول الله إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة
الخلق تؤذي جيرانها بلسانها • فقال لا خير فيها هي من
أهل النار • وان معنى حب الوطن من الايمان ليس الغرض
منه سماء الوطن وأرضه وشوارعه بل الغرض أهل الوطن
مهما اختلفت مللهم ومناهجهم •

« والتعصب خلة ذميمة تنطبع في النفوس الجاهلة التي
لم يكمل تهذيبها فتحملها على ارتكاب كثير من الدنايا
كالاستخفاف بعباد الله والتكبر على مخلوقاته وكثيرا ما
يهيج التعصب بصاحبه فيدفعه الى الحدة والمجادلة
والمشاجرة التي لا تحمد عواقبها » •

وتابع الاستاذ محيي الدين سعيد يقول :

« وبالجملة فإن الشيخ المؤلف لو تدبر مليا في
الحوادث الفظيعة التي تحدث دائما في بلده بين مسلميها
ومسيحييها كلها يراها ناشئة عن تعصب الأوباش من
الفريقين فإن كان الشيخ راضيا بتلك الحوادث الفظيعة
فليتفضل ويوقف نفسه على تأليف وطبع كتب جديدة على
نسق كتابه خدمة لابناء وطنه • أما اذا كان ممن يهمه الامن
والراحة بين أهالي وطنه فليبادر الى كتابه ويحرقه حرقا
ويندم على فعلته التي تسخط الله والناس لكي يكون قدوة

لغيره في اقتضاء الاسباب العائدة على الوطن بالنفع
والاصلاح والله الموفق » •

ومن دمشق رد أحد العلماء المسلمين على النبهاني
يقول :

« وكيف يجرأ لبناني يجاهر بعداوة النصارى وقد
قال رسول الله (ص) وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا في بر
أو بحر في الشرق أو في الغرب والجنوب والشمال وهم
في ذمتي وميثاقي وأمانتي من كل مكروه ولا يكلف أحدا
منهم شططا ولا يجادلون الا بالتي هي أحسن » •

هل سألنا أنفسنا ، نحن اللبنانيين ، شعبا وحكاما ،
لماذا لم تثمر عندنا مثل هذه الكتابات ؟

لقد علم هؤلاء العلماء والكتّاب واقعنا ، وعرفوا
حقيقة مآسينا وأهم أسبابها ، فاستكبروا أن يكون بيننا
من يذكي نار الطائفية، وأسدوا الينا النصائح وأحسن القول،
ودعونا الى الوحدة والوئام ، لعلم منهم ، انّ اعتماد
الاوطان ، في الاساس ، على وحدة أبنائه وتعاونهم واخلاص
بعضهم لبعض ، ولكن عبثا حاول ويحاول المخلصون •
فنحن ، منذ قرون وقرون ، بحاجة الى مسؤولين شرفاء

يعلّمون شعبهم ، أو شعوبهم ، حبّ الوطن والحرية،وليس التفرقة ، والنزاعات الطائفية الهمجية •

استمرت مجلتنا « كوكب البرية » تصدر حتى أواخر عام ١٩٠٨ ، محافظة على نهجها الذي اختطته لنفسها ، متحدية الصعاب والفتن ، داعية الى التفاهم والحوار ، فحققت ثقة قرائها وأصدقائها جميعا •

ولما توقفت أحدثت ، عند أولئك الذين تعودوا ملاقاتها في مطلع كل شهر ، فراغا وحزنا ، مما حدا « المحترم » و « المدبّر » الاب يوسف الشدياق أن يفكر في مشروع شراء مطبعة وامتياز للمجلة يعيد « كوكب البرية » الى الساحة مطبوعة ويوسّع انتشارها ، فكان له ذلك سنة ١٩١١ بمساعدة الاباتي لويس عبيد •

واستأنفت الصدور

مع اطلالة سنة ١٩١١ ، استأنفت « كوكب البرية » الصدور بحلة جديدة ، ولكن ، هذه المرة ، من بعبدا ، وتحديدا من دير مار أنطونيوس ،حيث ركز الاب الشدياق مطبعته (المطبعة الانطونية) ، فأصبح الحلم الجميل ،الذي طالما راوده ، حقيقة ••• وأية حقيقة !

وفي العدد الصادر بتاريخ أول كانون الثاني ١٩١١، أعان صاحبها ورئيس تحريرها ، الاب الشدياق ، فرحته التي لم تعادلها سوى تلك التي كانت يوم افتتح مدرسة مار يوسف الانطونية في الدير نفسه ، وقال معرّفا بالمجلة المطبعية :

« هي المنية التي حملها الخاطر منذ عهد طويل وما زالت الحاجة الماسة اليها تبعث يد العمل على استخراجها من خيال الخاطر الى حقيقة الوجود حتى برزت اليوم والحمد لله الى عالم الصحافة كما تمنتها هذه الرهبانية خدمة (للدين) (للوطن) (للطائفة) (للأدب) » (٣٣) •

على مدى أربع سنوات متواصلة ، ظلت « كوكب البرية » تبشر بالمحبة ، وتحارب التعصب ، وتنشر العلم ، وتنتقد الحاكم ومساعديه ، وتعترض على« البروتوكولات» والنظام ، وسوء التصرف من قبل المسؤولين في الدوائر والمراكز الحكومية •

فلقد جاء في مقالة تندد بالغموض الذي يلف « البروتوكولات » وتدعو الى الايضاح والمصارحة ما يلي:

« إبهام في النظام وإبهام في البروتوكولات وإبهام في

(٣٣) كوكب البرية ، ١ كانون الثاني ١٩١١ ص ١

أوامر أستانة تلك هي مصيبتنا في لبنان .

« كلما احتكمنا الى هذه النصوص القليلة عازنا الايضاح وفاتتنا صراحة النص . والمثال على ذلك ، ما ورد مكررا في قراري تعيين نعوم باشا ومظفّر باشا حيث جاء:

« أولا : يجب أن تجري انتخابات المجلس الاداري بكل ضمانات الاستقلال وأن تحترم حقوق هذا المجلس» .

« ثانيا : ان الضمانات المعطاة للقضاة بموجب المادة الحادية عشرة في النظام يجب احترامها بحيث أن نقل الموظفين أو عزلهم لا يجوز أن يجري الا بعد تحقيق المجلس » (٣٤) .

وحمَلت « كوكب البرية » بعنف على الانتخابات التي جرت سنة ١٩١٣ اذ قالت :

« ان طريقة الانتخاب التي وضعها المجلس ليست بعادلة ولا توافق حالة البلاد ولا هي من معنى البروتوكول » (٣٥) .

انها الرشوة والتزوير والضغوط المختلفة التي رافقت

(٣٤) كوكب البرية ، العدد ١٢ ، أول كانون الاول ١٩١٢
(٣٥) كوكب البرية ، العدد الحادي عشر ١٩١٣

وترافق كل عهد . ولا يُعدّ وضعنا الحاضر الا أسوأ كثيرا مما كان عليه في الماضي .

عندنا ، اليوم ، كما في الماضي ، غير «كوكب البرية» ولكن لا حياة لمن تنادي . مشكلاتنا ورثناها عمّن جاؤوا قبلنا ونورّثها للذين سيأتون بعدنا . انها المصيبة الكبرى . والتبعية هي أخطر الآفات التي تتآكلنا في هذا الوطن .

حبذا لو نصحو يوما ونحرر نفوسنا من شوائب الماضي وعفونته ونكتب لاجيالنا القادمة مستقبلا سعيدا ومجيدا!

وراحت « كوكب البرية » تستعرض هموم ومعانيات البلاد وشعبها فقالت :

« شكونا الى دول الارض حالة لبنان الفادحة فنالنا الارهاق لأننا شكونا . يريدون أن نتألم ونقول اننا تتنعم . يريدون أن نشقى ونقول اننا سعداء . وأن نُعدِم ونقول اننا أغنياء . يريدون الجمرة في قلبنا والابتسامة على ثغرنا لعمر بني الانسان لا طاقة لنا بما يريدون . فنحن بشر انا في الحياة حق مهضوم لا نبغيه بالسيف كما توهّم المتوهمون ولكن لا نمسك عنه لسانا خاطبا وقلما كاتبا وهل أذنب المظلومُ اذا شكا والمرهَق اذا بكى !؟

« شكونا الى دول الارض ولكن نظر الدول العظمى

لا يلمّ بهـذا الوادي التاعس الا متى استلقفته مصلحتها الاقتصادية التي لها في هذا البلد الفقير المنحوس •

« لقد كدنا ندرك المقصلة أفلا يسمح لنا على الموقف الاخير بآخر كلمة نقولها أن نقول ما نفتكر ونعتقد !

« مسكين أنت يـا لبنـان تشقى في الحقيقة وتسعد في الاوهام والاحلام • تظن لاحظة الغرب عليك وهي عنك مشغولة لاهية وقد ضاق بك الدهر فبنوك يهجرونك ألوفا ألوفا حتى أصبحتَ مأوى عجائز النساء وزغب الاطفال •

« ومع ذلك فكل كلمة عنك مأسدة مخيفة كأني بهم يخافون العجائز أن تتحول جحافل والصبيان أن يثوروا فرسانا •

أيْ حاكم لبنان !
اليك نرفع شكوانا » (٣٦)

أهـو التاريخ يعيد نفسه ••• ان لبنان هـو أرض للبراكين السياسية والطائفية والاجتماعية والاقتصادية ؟

تلك كانت افتتاحية بل صيحة العدد الحـادي عشر من « كوكب البريـة » بامضاء « وديع » ••• (١٩١٣)

---

(٣٦) المصدر نفسه •

المغفور له الشاعر وديع عقل ــ فما أقربها الى صيحاتنـا اليوم !

منـذ خمس سنـوات (صار لنا عشر سنـين حتى الآن) (*) ونحن نشكو الى دول الارض ، فلم يسمعنا أحـد من هـذا الفريق أو ذاك • المجازر ، على أرضنا ، تتوالى ، والحرية تُهتك (هُتكت) والتفسخ يتآكلنـا (أكلنا)،والغلاء آخذ في التصاعد (هو الآن ينذر بالجوع الرهيب) • فإلى أين المصير يا دول العالم !

قولوا لنا ماذا تريدون من لبنان ؟
أعلنوها صراحة !

ولكن ثقـوا جيـدا أننا هنا باقون ، ولن يزيدنـا استهتاركم بنا الا تمسكا بأرضنا وحريتنا وحقنا •

نحن،يا هؤلاء،نرفض أن نعيش عبيدا ولو جعلتم العالم كله سجنا •

(*) وفي سنة ١٩٨٦ أخذ الغلاء الفاحش يهددنا •• والجوع ينذرنا بالموت والزوال • وما يردده رؤساء النقابات عندنـا يشبه ما ردده الشاعر وديع عقل منذ ثلاثة وسبعين عـاما ، فانظروا كيف يتكرر الجوع ، في أرضنا ، وكيف تتجدد الآلام والنكبات !!

فمن الافضل أن ترفعوا أيديكم عنا !

أسألك المغفرة عزيزي القارىء . لقد استعرتُ من وديع عقل قلمه ، ومن « المحترم » و « المدبّر » شجاعته.
أليس لبناننا اليوم هو مثل لبنانهم ؟!

تباً للحروب !

لقد هجّرت الحربُ الكبرى الاولى «كوكب البرية» من على الارض الى السماء ، فخسر لبنان منبرا حرا ومجلة ملتزمة . وكذلك في الامس القريب ... اذ خسرنا «لسان الحال » و « الجريدة » و « الزمان » و « الحياة» ... وفقدنا أقلاما جبابرة وعقولا كم أبدعت (*) .

(*) ستبقى الصحافة اللبنانية تتذكر شهداءها الابرار ولا سيما منهم النقيب رياض طه ، والاستاذ سليم اللوزي .

المعهد الانطوني منارة على جبل

جاء في كتاب « تاريخ الرهبانية الانطونية » [٣٧] للآباتي عمانوئيل البعداتي،ما يفيدنا عن دير مار أنطونيوس البادواني [٣٨] في بعبدا ، وبالتحديد عن انشائه قبل تسليمه الى الرهبان ، ما يلي :

« كل ما علِمْتُه هو أن نشأة الدير المرقوم ، لم تكن الا في سنة ١٧٤٥ م. باعتناء أهل الفضل والغيرة آل ياغي من قرية بعبدا وغاية بنائه لاجل سكن بناتهم اللائي يرغبن الدخول في الرهبانية اقتداء ببعض العيل في جبل لبنان كعائلة آل آصاف في عرمون ـ كسروان وآل خازن

(٣٧) ٥٩٩ صفحة من القياس الوسط ،طبع سنة ١٨٩٦بأمر من المطران نعمة الله سلوان ، مطران قبرس آنذاك،والرئيس العام للرهبانية الانطونية ، في حينه ، الاباتي سمعان بلّوني الانطوني .

(٣٨) انطونيوس البادواني (القديس ـ) Antoine de Padoue (١١٩٥ ـ ١٢٣١) وُلد في ليشبونة (البرتغال) . راهب فرنسيسي ، اشتهر بفضائله . علّم في فرنسا وايطاليا .

واسطفان وصفير وغيرهم كثيرين . فأعيان عائلة آل ياغي
عمدوا الى اقامة الدير المرقوم وكل منهم أخذ يتنافس بعمله
الخيري فوقفوا له الاوقاف من أرزاقهم الخاصة ومن ثم
باشروا في العمار في المكان المبني فيه الدير واقتصروا على
ذلك البناء ببعض البيوت الخشبية وكابلاً صغير » (٣٩) .

ومضت السنوات على هذا الدير بصمت كانت تخرقه
رائحة البخور ونوّاسة قاومت الظلام ، الذي كان ينزل على
الدير والمنطقة باكرا ، ولا سيما في ليالي الشتاء . وبصمت
أيضا كانت غرف الدير تتكاثر الواحدة تلـو الاخرى .
فالحجارة الرملية حملَتْها الجِمال والدوابّ مـن « كرم
الزيتون » في الحدث ، الى الدير . وهناك كان يشقعهـا
البنّاء كما تجود القريحة فحسب . وشيئـا فشيئا أزيلت
البيوت الخشبية المحاصِرة ، وأصبح دير مار أنطونيوس
بيتا للطائفة المارونية في منطقتي الحدث وبعبدا .

لا بد أن يكون ليوسف الشدياق ، الطفل والفتى ،
مثلما لغيره من الحدثيين والبعبْديين ، حكاية مـع هذا
الدير . الا أن يوسف هذا ، مذ ضمته الرهبانية الانطونية
الى صدرها ، صار غير أبناء المنطقة جميعا . وما أن سيم
كاهنا حتى أخذت حكايته مع الدير تتحول تاريخا جبّـره

(٣٩) تاريخ الرهبانية الانطونية ص ٣٥٦/٣٥٧

يوسف بعرق جبينه ودموع عينيه ، فأشرق وجه الانطوني
على الساحل الجنوبي يوم لم يكن في القصور سوى القناديل
التي كانت تنطفىء كلما هبت الريح .

مدرسة الدير

و « في عام ١٩٠٦ شرَع المدبّر يوسف الشدياق ، بعد
أن اتكل على الله واستأذن قدس الاباتي عمانوئيل البعبداتي
الانطوني ، ببناء مدرسة قرب دير مار انطونيوس غايتهـا
تعليم الاولاد العلمانيين في تلك البقعة الزاهرة الانيقة بقعة
ساحل بيروت » (٤٠) وكانت هذه الفكرة تراود الرهبانية
« الا أن ظروفها أخّرتها عن ذلك . ولما أخذ « المدبّر »
على عاتقه مسؤولية انشاء مدرسة ، أجّل الاباتي تنفيـذ
فكرته ، وراح يمد « المدبّر » بالتوجيهات والمساعدات .
وقبل أن يمضي عامان دعـا « المدبّر » يوسف الرؤساء
العامين للرهبانيات المارونيات الثلاث ، في شهر آذار ١٩٠٨
الى زيارة المدرسة التي تم انشاؤها ـ سماها مـدرسة
القديس يوسف الانطونية ـ فسُرّ الزوار الافاضل بما
رأوا وأجازوا له خطّياً بأن يبني القسم الثاني الذي كـان
ينوي تنفيذه ... وبنى « المدبّر » في السنة التالية الجناح

(٤٠) كوكب البرية ، أيار ١٩٠٩

الثاني . فإذا هي ترتفع على تلك التلة منارة توزع العلم والنور » (٤١) .

هرع الى هذه المدرسة أبناء ساحل بيروت ، ممن كانوا ينتظرون قيام مدرسة بجوارهم ، تريحهم من عناء الانتقال الى خارج منطقتهم . فجمعت مدرسة القديس يوسف الانطونية ، المنارة ، نخبة من الاساتذة ، وطارت شهرتها في المتن الجنوبي والشوف ،فأقبل عليها ابناءالذوات والعائلات الكبيرة ، يقودها الاعجاب بمؤسسها الذي أحسن ادارتها حتى رفعها الى صف أشهر المدارس آنذاك.

« ومن أبرز الذين علّموا فيها : المدبّر الشدياق (الرئيس) — درّس الخطابة والبيان — الاب انطوان الحاج — كان مدير المدرسة وأشهر من علّم القواعد الافرنسية — الشاعر وديع عقل ، وكان ضمانة لحسن سمعة المدرسة » ، الصحافي زيدان ضاهر زيدان ، القس بولس غصوبه ، القس عمانوئيل عطاالله ،القس عمانوئيل سجعان، القس واصاف أبو جودة ، القس بولس الاشقر (١٨٧٢— ١٩٥٢) (*) — كان مدير الجوقة وأستاذ العربي

(٤١) صدى المعهد ، المذكورة سابقا .
(*) اثر وفاة الفنان عاصي الرحباني (حزيران ١٩٨٦)نشرت مجلة « النهار العربي والدولي » (العدد ٤٨٠/١٤ — ٢٠ تموز ١٩٨٦ ، ص ٤٧/٤٨) خطابين لعاصي ألقاهما في =

والإفرنسي — وفرج الله معوّض — كان أستاذ اللغة الفرنسية » (٤٢) .

وبينما كانت المدرسة آخذة في الارتقاء ، حلّت النكبة العالمية ، الحرب الكبرى الاولى ، لتقطع الطريق على هذه المؤسسة الوطنية الجليلة ، وأقفلت المدرسة عام ١٩١٥على مقاعد وطبقات عليها « حفرت أيادٍ كلمات بعضها بالعربية وبعضها بالفرنسية : جنبلاط ، حلو ، يزبك ، شهاب،تامر، شمعون ، معوشي ، شدياق ، صهيون ، ملاّط ، كرم ، عطاالله ... وغيرها كثير » (٤٣) ، لتعود منطقة ساحل بيروت الى ما كانت عليه قبل سنة ١٩٠٦

= مناسبتين حول استاذه الاب بولس الاشقر. كانت الاولى في صالة سينما كابيتول / بيروت صباح الاحد ٣١ آذار ١٩٦٣ ، والثانية في باحة دير القلعة / بيت مري ، في ١٨ أيلول ١٩٦٦ لمناسبة تكريم أدباء المتن الشمالي وفنانيه . الخطاب الاول بالدارج والآخر بالفصيح . ومما قاله عاصي في خطابه الاول : « ولما مرق بونا بولس (الاشقر) بضيعتنا انطلياس ، ندهلنا من طفولتنا التايهة ، وعلمنا الموسيقى . يوما ، كنا نجهل شو الموسيقى . ندهنا وخبّرنا عن الفن ، عن الدخول لوديان النفس ، للمطارح الغميقة بالضمير الكبير . علمنا النوطه والنظريات الموسيقية ، والالحان الشرقية . علمنا السهر ع الكلمه . علمنا انه قدام بواب الفن منضل تلاميذ . بس أهم شي تعلمناه من بونا بولس هوي فرح الانسان بولادة الجمال » .
(٤٢) صدى المعهد ، العدد نفسه .
(٤٣) الاب ميخائيل معوض ، صدى المعهد ، آذار ١٩٦١

بعد مضي ثلث قرن ، انطلقت عام ١٩٤٦ ، ومن دير مار اشعيا أيضا ، فكرة تدعو الى خلع الاقفال التي علقها العثمانيون على أبواب مدرسة الشدياق • يومذاك ، كان الكاهن ميخائيل معوض (*) يدرّس الادب العربي لصف البكالوريا ، في حين كان معلما « للابتداء » في مدرسة مار اشعيا ، فالتفت الى ضرورة نقل المدرسة الرهبانية من مار اشعيا — برمانا — الى مار انطونيوس — بعبدا — فتقدم باقتراحه هذا الى مجمع المدبّرين ، الذي أقرّه بعد أن عرضه على الرئيس العام الاباتي بطرس لطيف (٤٤) ، الذي

(*) توفي هذا الكاهن والاديب الرصين يوم الاحد في ١٧ آب ١٩٨٦

(٤٤) أسلم الروح في شباط ١٩٨١ ، ودفن في مدفن الكهنة التابع لدير مار اشعيا • رحم الله هذا الراهب الجليل . لقد كان كريم الخلق وعزيز النفس وصديقا أمينا • عرفته شتاء ١٩٧٦ ، في دير مار يوحنا — عجلتون ، يقيم فيه حاليا الاب اقليمس حكيم ، اذ أخذني الى هناك الصديقان : معالي الوزير السابق الاستاذ جورج سكاف ، صاحب « الجريدة » والصحافي والمؤرخ الاستاذ طوني مفرّج ، فكان لي الاباتي لطيف الاب والاخ والصديق • وفي ذلك الدير الكريم عرفت أيضا الاب الدكتور جورج رحمه ، الذي غمرني هو أيضا بمحبته وعاطفته النبيلتين ، ثم الاب سمعان غصين ، رئيس دير مار يوسف بحرصاف ، والاب سمعان خوري رئيس دير مار عبدا المشمّر ، وشقيقه الاب مارون ، والاب اقليمس حكيم نفسه ، والاب يوسف بارود ، والاب طانيوس عون ، والمرحوم الاب نعمة الله سعادة ، والمرحوم الاب يوسف نصار ، وجميعهم من أهل الفضل والعلم والتقوى •

بارك هذه الدعوة وأمر بتنفيذها • ومما قاله الاب ميخائيل معوض عن هذه المرحلة :

« منذ ١٩٤١ ، حين كنا في صف البكالوريا ، تلاميذ وبعدها في الفلسفة واللاهوت ، يوم كانت نزهتنا الى « الأرزة » أو الى « الوروار » أو الى دير مار انطونيوس • وكنا في كل مرة نمر أمام الدير أو نعرّج عليه نتساءل عنه وعن تاريخه ، فنعرف انه كان محط رجالات ومتصرفية لبنان وملتقى سياسييه وانه منذ ما يقرب من الاربعين سنة بني مدرسة كانت في طليعة المعاهد اللبنانية فأعطت الوطن رجالا كانوا وما زالوا أقطاب العلم والسياسة والقانون•• وكانت هذه المدرسة أمامنا بجناحيها موصدة الابواب والنوافذ ، حزينة كالأم الثكلى ترقب الناس وتسمع لهم دون أن تقول كلمة أو أن تبدي حراكا » (٤٥) •

أضاف الاب معوض قائلا :

« وكأني في كل مرة من المرات سمعتها تهمس في أذني تحت ذلك الصمت الثقيل في ذلك الجو المزعج الصدى البعيد: «أما حان لي ان أقوم!أما حان لكم أن تبعثوني» (٤٦)

(٤٥) صدى المعهد ، المصدر نفسه .

(٤٦) المصدر نفسه .

واستجاب الرئيس العام للرهبانية الانطونية ،الاباتي بطرس لطيف ، والمدبِّرون ، لذلك الصوت المخنوق ،الذي انبعث من تحت الركام ، فتحقق حلم الاب معوض ، فإذا سنة ١٩٤٩ هي سنة خير وبركة على بعبدا وكل الساحل ، اذ عادت الحياة تدب في مدرستها ، وعيّن الاب ميخائيل معوض نفسه رئيسا للمعهد الانطوني،فبدأ الدم الجديد يسري في عروق المدرسة التي سرعان ما استردت عافيتها، وبريقها فاستقطبت التلامذة ، من كل مكان ، والاساتذة الكبار ، وهي تنظر الى وطن عظيم وأجيال قوية بنّاءة .

النهضة الكبرى

تعاقب على رئاسة المعهد الانطوني الآباء : ميخائيل معوض (مرتين) ، روفائيل لطيف ، نعمة الله سعادة ، سمعان غصين ، يوحنا دحدح ، الياس عطاالله (الرئيس العام الحالي) وحنّا سليم (٤٧) .

وبمقتضى الرسالة الانطونية ، التي تنص على أن «الانطوني وكل أنطوني ، لا يعمل لذاته بل لربه ورهبانيته،

(٤٧) انتقل الاب حنا سليم ، منذ سنتين ، الى دير مار روكز ، ثم الى دير مار اشعيا . اما رئاسة المعهد فقد أعطيت للاب لويس رهبان ، والاخير تلاه الاب سمعان عطاالله،كما ذكرنا سابقا .

والرهبانية لا تعمل في بعبدا وسواها ليعبدها الناس بل ليروا الاعمال الحسنة ويمجّدوا الاب الذي في السماء » كما يقول الاباتي روفائيل لطيف (*) ، قطع المعهد الانطوني أشواطا على طريق التقدم ، فإذا هو الرزق الحلال ... الذي يتكاثر ويتكاثر خيرا وبركة .

ها قد أصبح المعهد الانطوني ،اليوم، مدينة صغيرة للعلم والروح . أبوابه مشرّعة في وجه الراغبين من كل الطوائف .

وعاد المعهد يمر بأزمات أيضا،لكنه استطاع أن يتخطاها . فلما اشتعلت نيران الحرب الاخيرة ، فتح المعهد الانطوني

(*) ويقول الاب ألبير أبونا : « تبدو الحياة الرهبانية لاول وهلة وكأنها حياة لامنطقية . اذ كيف يرغب الراهب عن العالم ، مع علمه ان العالم شيء حسن بما انه عمل الله ، ولان الله يتراءى للبشر من خلال الحقائق المنظورة . الا ان الراهب بتركه هذا العالم ،يعلن انتماءه المسبق الى عالم آخر افتتحه المسيح منذ قيامته المجيدة : « حيث لا الرجال يتزوجون ولا النساء يزوجن ، وانما هم كالملائكة في السماء» (متى ٢٢/ ٣٠) » .

« فلا يتسنى لنا استيعاب الحياة الرهبانية في العالم الا على ضوء الخبرة الفصحية التي عاشتها الكنيسة :«لكن الله الواسع الرحمة ، وقد أحبنا حبا شديدا ، أحيانا مع المسيح وكنا أمواتا من جراء زلاتنا ، فأقامنا معه وأجلسنا في السماوات في المسيح يسوع » (تاريخ الكنيسة الشرقية ج١ ص ١٦٣ / ١٦٤) .

أبوابه للمهجَّرين ، اللاجئين ، من « المريجة » وسواها ، ماداً لهم يد العون ، اذ تولى رئيس المعهد ، آنذاك ، الاب (الآباتي) الياس عطا الله ورهبانه والطلاب، المبتدئون، الإشراف على سد حاجات الذين شرّدتهم القذائف الهمجية الحاقدة • وأسّس رئيس المعهد واخوانه الرهبان ، ولا سيما الاب ايلي عبد المسيح والاب اتيان بركات والاب ألبير شرفان [٤٨] والاب نعمان دكاش ، والاب لويس الهاشم ، لجنة من أهالي المنطقة غايتها تخفيف معانيات من نكبَتْهم هذه الحرب فنجحوا ، في مسعاهم ، نجاحا كبيرا •

يحتل المعهد الانطوني ودير مار أنطونيوس ، في ساحل المتن الجنوبي ، مركزا مرموقا ، على صعيد العلم والثقافة والمجتمع •

كذلك يهتم جمهور الدير والمعهد ببعض الرعايا التي هي في جوارهما •

---

(٤٨) الرئيس الحالي لدير مار عوكر حيث تتخذ « الجبهة اللبنانية » مقرا لها ، وقد تهدم الجزء الجنوبي من هذا الدير بانفجار شاحنة مفخخة أعدت لاغتيال رئيس « الجبهة » والاعضاء ، وذلك يوم الثلاثاء الموافق ١٢ تشرين الثاني ١٩٨٥ الا ان الجميع نجوا ، وكذلك الاب الرئيس ألبير شرفان الذي كان موجودا آنذاك في مكتبه •

لقد حاولت الحرب الاخيرة صيف (١٩٧٨) [٤٩] أن تحفر الخنادق على طريق المعهد الانطوني ،فقصفته بعشرات القذائف الحارقة ، التي خرّبت فيه ما خربت • الا أنه تحدّى مشيئة هذه الحرب القذرة،وتابع مسيرته فوق « الاسلاك الشائكة » و « الالغام النارية » والخنادق العريضة ـ الطويلة ، ورفع علم الوطن على بوابته معلنا لابناء الجوار متابعة مسيرته ، فهبوا يعانقون جدران المعهد والاشجار التي تتوسطه بمحبة وعاطفة عظيمتين •

نشاطات المعهد

في المعهد،قسم موسيقي أنشأه وأطلقه الاب الفنان ألبير شرفان سنة ١٩٧٩ وهو اليوم بادارة الاب المايسترو يوسف واكد• وناد رياضي ، يُعتبر من أنشط نوادي لبنان الرياضية[٥٠]،

---

(٤٩) كذلك في احداث ١٩٨١ واثر الاجتياح الاسرائيلي (١٩٨٢) وخلال حرب الجبل ١٩٨٣/١٩٨٤ •

(٥٠) تألفت هذه الجمعية في ٢٤ شباط ١٩٧٥ ، من السادة: انطوان منصور بدر ، مارون الخوري ، بطرس الخوري،كليم يوسف كرم ، نعمان يوسف دكاش ، الياس طانيوس عبد المسيح ، وليم حنا ، بركات دياب ، فياض الخوري ، يوسف عطاالله •

وتشكلت الهيئة الادارية الجديدة لسنة ١٩٨٠/١٩٨١ كما يلي :

ـ الرئيس الفخري والاداري : الاب حنا سليم ،الذي حل محله الاب لويس رهبان،وتاليا الاب سمعان عطاالله =

ورابطة قدامى المعهد الانطوني ، ورابطة الهيئة التعليمية ، وهيئة أولياء الطلاب في المعهد الانطوني [٥١] • أما عدد الطلاب للسنة الحالية (١٧٠٩ / ١٩٨٠) فقد بلغ نحو ألف وخمسمائة (*) ، موزعين بين أربع فئات : حضانة، ابتدائي ، تكميلي ، ثانوي • عدا الفرعين الجامعيين اللذين استحدثا مؤخرا مثلما تقدم •
وبالنسبة الى طلاب الرهبانية الذين يتابعون دروسهم التكميلية والثانوية فعددهم يربو على المائة ،وهم يسكنون المعهد •

=
ـ نائب الرئيس : الامير عبدالله شهاب
ـ أمين السر العام : الاب ايلي عبد المسيح
ـ أمين الصندوق : ألفونس عطاالله
ـ محاسب : انطوان صهيون (مدير بنك عودة ـ فرع الحازمية)
ـ مدير علاقات عامة : جوزف حردان
ـ مدير رياضي : سعد شليطا
ـ مراقب عام : الدكتور ميشال نفاع
كما في الكتيب: «المعهد الانطوني الرياضي » الصادر عن المعهد في ١٩٨٠/١١/٢٢ ، والكتيب: « حفلة أسرة رابطات المعهد الانطوني » الصادر سنة ١٩٨٢
(٥١) المصدران المذكوران •
(*) برغم الاعتداءات المتكررة على منطقتي بعبدا والحدث، لم ينقص عدد طلاب المعهد الانطوني والجامعة ، وذلك بفضل رئيسه الاب سمعان عطاالله والرهبان والراهبات العاملين معه ، فهؤلاء قد صمموا على أن يبقى المعهد والجامعة زهرتين في حقل اجتمعت سياجاته •

تتألف الهيئة التعليمية ، في المعهد الانطوني، من حوالى ثمانين معلماً ومعلمة • بينما يعمل ، في الهيئة الادارية عشرون عضواً •

اذا زرتَ المعهد الانطوني تلق عالما من الرهبان والعلمانيين والطلاب في حركة دائمة، يسودها النظام والحق، فيأخذك العجب عندما تعلم أن هذا المعهد كان لسنة خلت (١٩٧٨) مرمى للقذائف والرصاص • وإن رُمْت أكثر فقل انه كان (وما زال) هدفا للمدافع التي ما انفكت تهدّم معالمنا وحضارتنا •

ونحن اذ تتذكر أن هذا المعهد كان سنة ١٩١٥ ثكنة للجيش العثماني ••• فإنما لننظر كيف تُحقّق المعجزات والخوارق •

ألا أكرِمْ أولئك العاملين باخلاص !

انهم أبطال حقا !

الفصل الثالث

أسقف ورسالة

المطران يوحنّا حبيب

مؤسّس جمعيّة المرسلين اللبنانيّين الموارنة

«وكان الأب اسطفان قزاح يردّد: نحن بحاجة الى مشروع رسالة، وانشاء جماعة قوامها كهنة ذوو علم وتقى في محبّة الخير».

الأب الدكتور أغناطيوس سعادة م.ل.
مجلة "المسيرة" العدد ٧٠٥/٧٠٦ أيلول، ت ١٩٨٤ ص ٦٠٣

في معهد الرسل

كنت أدخل على رئيس معهد الرسل في جونيه ،الاب يوسف العنداري [1] ، في مكتبه ، فإذا تمثال نصفي من « البرونز» على قاعدة من « الغرانيت » يشدّني نحوه .

وقفتُ امامه لأتعرف الى ذلك الذي يتصدر ، ليلا نهارا ، تلك القاعة التي تتسع لاكثر من خمسين زائرا ، فقرأت ما يلي :

(المطران يوحنا حبيب . مؤسس الرسالة اللبنانية . وُلد في بيت الدين ١٨١٦ . توفي في دير الكرَيم ١٨٩٤) .

ورحتُ أبحث عمن يكون هذا الفنان الذي أبدع وحلّق ، فإذا هو جوزف غصوب ، من بيت شباب ، وقد وضع تحت توقيعه (السنة ١٩٥٨) فتساءلت :

---

(١) الاب يوسف العنداري من قرية الكفور ، قضاءالبترون، كان رئيسا عاما لجمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة من تموز ١٩٧١ الى تموز ١٩٧٧

— لماذا لا ينطق « سيّدنا » إذاً ؟

— ما به ؟

— أتُراه سعيدا هكذا ؟ أم يكفيه أن يحدّق بالناس ممن يأتون ويذهبون ؟

— لماذا أعصابه لا تتوتر ؟

— لماذا لا يضجر ؟

— ما عساه يفعل في الليل ؟

— أينظر الى « قدموس — حامل الابجدية » المعلّق قبالته ، على الجدار ، وحسب ؟

لا • لا • هو ، في الليل ، يصلّي • يقرأ الاناجيل •• والمزامير •• والاناشيد •• وكتب التاريخ والفقه والاحكام •• والميامر • يراجع الحسابات • يكتب المذكرات •

على وجه المطران ، وقل بين تجاعيد جبهته العالية المنشرحة ، وفي حاجبيه الكثيفين ، وعينيه الواسعتين الحادتين ، كما على أنفه الكبير المستقيم ، وشاربيه المتربعين باعتزاز واباء ، المجدولين بثقة وشجاعة ، المتدين من الخد الايسر الى الخد الايمن ، وفوق لحيته البيضاء الغزيرة الجليلة التي تغطي مساحة كبيرة من صدره العامر ، سِفْر

نفيس ، بل أسفار تجذبك الى مطالعتها والغوص في صفحاتها المشرقة المنيرة •

فالطربوش ، الذي يَعتمر هامة المطران ، «المؤسس» والجبة الواسعة ، والصليب الذي يبدو كأنه تعلق واسترسل من شَعر ذقنه ، ومنكباه اللذان كأنهما الجبلان ، ويده اليمنى تقبض على « الكتاب المقدس » ، والخاتم في بنصره ، والحزام (الزنار) يلف وسطه ، كلها علامات وشواهد تأخذ بك ، الى الهيكل ، خاشعا ، لتتلو عليك آيات من المجد والعطاء والنضال التي حفرها « المؤسس » على الجدران وفي السقوف والمداميك وما تحت المداميك ، لتعيدك الى الخارج ثابت الخطى عزيز النفس والوجدان •

هي لحظات مرّت لاستيقظ على صوت الرئيس الاب العنداري الهادىء ، يودع ضيوفه ، فعلمت ، اذ ذاك ، أن الوقفة قد طالت أو انتهت • فتركت التمثال ، ودخلت ، أنا والاب العنداري ، المكتب الانيق ، جامع الادارة الى العلم ، والكفاءة الى التواضع •

تاريخ حافل

كدت أنسى الغاية التي حملتني الى معهد الرسل • قال الاب الرئيس :

ـ يبدو عليك الانسجام مع التمثال ٠٠أليس كذلك؟

ـ بل كنت في رحلة معه يا سيدي ٠

ضحك ٠٠ ثم صمت ٠٠ ثم قال :

ـ حياة المؤسس ، المطران يوحنا حبيب ،تاريخ حافل بالمفاجآت ٠ ولا بد انه سيستأثر باهتمامك ، عندما تعرف هذه الشخصية الفذة ٠

ـ لقد أدركتُ ذلك ٠ فكيف الوصول الى هذه السيرة ؟

ـ ان شقيقي الاب يوحنا (العنداري) عاكف على وضع كتاب ، في هذا الموضوع ، فبإمكانه ،حسب اعتقادي، أن يطلعك عليه اذا شئت ٠

ـ حسنا ٠ أين هو الاب يوحنا ؟

سأل الاب الرئيس عن شقيقه ٠ قيل له « انه خارج المعهد » ٠

في هذه الآونة كرّت الأسئلة عن : « جمعية الرسالة اللبنانية » ، والمعهد ، والدير الام الذي انطلقت منه هذه الجمعية تبشر بالمسيح وتثقف الناشئة في الوطن والمهاجر ٠

ولكن الاب الرئيس ، المنهمك في أمور ادارية كثيرة مُلِحّة ، اعتذر تاركا الجواب لشقيقه ٠٠ بعد أن أرشدني الى دير الكرَيْم في غوسطا ـ كسروان ، ممـا جعلني

أغادر المعهد (٢) وهو يعج بالطلاب ،الذين تجاوزوا الالفين، والمعلمين (٣) الى غوسطا بلد الكنائس والاديار ٠

الدليل الى دير الكرَيْم

جاء في « بزُمّار عبر التاريخ » (٤) ما يلي :

« ثلاثة أديرة ، أرمنية كاثوليكية كانت تؤلف سابقا مثلثا على سفح الجبل المقدس ٠ في قمة هذا المثلث كان دير بزمّار الحالي ، وفي زاويتي قاعدة هذا المثلث دير الكرَيْم ودير بيت خشباو (*) ٠

« دير الكرَيْم هو الاقدم عهدا بين الاديرة الثلاثة، الإخوان موراديان من حلب هربوا من الاضطهادات الدينية

---

(٢) في هذا المعهد اقام سيادة المطران يوسف الخوري،بعدما هُجِرَ ، عن أبرشيته المارونية ،في صور ، مع مطلع الاحداث. والى المعهد نفسه هُجِرَ أيضا فرع طب الاسنان للجامعة اليسوعية .

(٣) كان عدد المعلمين ، في تلك السنة ، ٩٥ معلما .

(٤) كتيِّب ، صدر في يوم الاحتفال باليوبيل المئوي الثالث (١٩٧٩ ـ ١٩٧٩) لميلاد المثلث الرحمة ابراهام بطرس الاول ارزيفيان ، بطريرك الارمن الكاثوليك .

(*) عن هذا الدير كتب المطران ثاوفيلوس جورج صليبا ، في مقالة له عنوانها « رسالتي الى المسيحيين » أو أصداء المحبة ـ هي حول كتابنا « رسالتي الى المسيحيين » الطبعة الاولى ـ فقال :

« ٠٠٠ فهذا الدير هو للسريان وليس للارمن وقد =

ولجأوا الى كسروان لتأسيس دير • مشايخ آل الخـازن عرضوا عليهم في عـام ١٧١٦ بستانـا كبيرا مـع عريشة ومنزلين وضيعين في منطقة الكرَيْم غوسطا ، هذه الارض تمّ تملّكها في عام ١٧٢٠ • بعد سنتين لجأ اليها المطران ارزيفيان فباشر بتشييد الدير (١٧٣٢) ومن ثم الكنيسـة (١٧٢٦) » (٥)

ويختصر هذا الكتيِّب « بزمّار عبر التاريخ » المراحل التي مر بهـا دير الكرَيْم حتى تملّكـه الاب (المطران) يوحنا حبيب فيقول :

= بناه راهب سرياني في القرن الخـامس عشر هو الراهب (حوشب) (١٤٢٩ ـ ١٤٩٧) باسم القديس مار انطونيوس أبي الرهبان ، ويقع بالقرب من غزير في قرية اسمها شننعير. وبسبب المنافسات والخلافات التي وقعت في العصور الاولى (و) لا سيما في عهـد المقـدمين فقد السريـان معظم كنائسهم وأديرتهم وخاصة في كسروان . وبقي الدير مهجورا ، ثـم تعاقب عليه رهبان ومتوحدون مختلفون الى أن اتخذه الارمن الكاثوليك ثم ما لبثوا أن أهملوه وتملكته عائلة (بيت الخازن) المارونية وصار اسمه خشباو بدلا من حوشب والتعبيران سريانيان يعنيان (الاحد) ومنه اسم عبد الاحد وشابـو وسواهما . وهذا الاسم دارج لدى السريان حتى اليوم. . . واليوم هو ملك الرهبنة اللبنانية المارونية وقد تملكته قبل بضع سنوات بواسطة رئيسها العام قدس الاباتي بـولس نعمان » (النهار العربي والدولي) .

وسيكون هذا الدير مقر الرئاسة العامة للرهبانيـة اللبنانية المارونية ، كما أعلن اثر انتخاب الاب باسيل هاشم رئيسا عاما لهذه الرهبانية .

(٥) بزمار عبر التاريخ

«استُخدم هذا الدير كمركز موقت للمطران ارزيفيان وبذات الوقت كمركز رئيسي لرهبانية الانطونيين الارمن المؤسسة من قبل الإخوة موراديان والمطران ارزيفيان(*)،

(*) هو ابراهام ارزيفيان ، وُلد سنة ١٦٧٩ في عينتاب ، من عائلة مشهود لها بالتقوى ، وكان وحيد أهله . رُسم كاهنا سنة ١٧٠٦ ، ثم اسقفا على حلب عام ١٧١٢ ، بوضـع يد كاثوليكوس سيس . واهتدى الى الايمان الكاثوليكي وهو كاهن شاب في مدرسة ملكون بازبازيان ، أسقف ماردين . نفي عام ١٧١٢ الى القسطنطينية بسبب معتقداته الدينية . وما أن حُرِّر حتى اعتقل من جديد عام ١٧١٥ ، وحكم عليه بالاشغال الشاقة . ثم أطلق سراحه مقابل كمية من المال ، وعاد الى حلب ، ومنها نفي الى جزيرة أرواد في سوريـا . فتقدم ابن اخته الراهب الانطوني الارمني هاغوب هوفسبيان بالتماس الى كل من قنصل فرنسا في طرابلس وترجمانـه اللبناني انطون طربيه راجيا منهما التدخل لـدى السلطات المختصة ، فأفرج عنه مجددا . غادر ارزيفيـان طرابلس ، ولجأ الى دير المخلص في وادي الكريم ، بسبب تهديده بالنفي المؤبد الى القدس .

لما يئس أهل حلب ، اكليروسا ومؤمنين ، من عـودة مطرانهم ، اجتمعوا وانتخبوا ، بموافقته ، نائبا عاما ومساعدا له ، هو المرسل هاغوب مراديان ، وفي عام ١٧٤٠ ، غـادر ارزيفيان دير المخلص متوجها الى حلب للمشاركة في تسقيف هـاغوب مراديـان ، واسحق بارسيجيان ، مطران كلز ، وملكون توحاميان ، مطران ماردين .

اغتنم الاساقفة والكهنـة والمؤمنون هذه المناسبـة ، وانتخبوا ارزيفيان بطريركا للأرمن الكاثوليك ، وجرى حفل التكريس في ٢٦ تشريـن الاول ١٧٤٠ . ورجـع البطريرك الجديد الى كسروان ، الى دير المخلص ـ الكريم . وثبتـه البابا بنديكتوس الرابع عشر بطريركا في ٢٦ تشرين الثاني =

وفي الايام الاولى لتأسيسه كان هذا الدير أيضا ملجأ للمضطهَدين من أجل دينهم ، ونقطة استراحة للحجاج الارمن الذاهبين الى القدس » (٦) .

= ١٧٤١ ، ومنحه الباليوم في ٨ كانون الاول،وكان الترجمان
بينهما العلاّمة الماروني يوسف شمعون السمعاني .
ورقد البطريرك ارزيفيان في أول تشرين الاول من١٧٤٩
ودفن في دير الكريم ، تاركا وصية خطية ، يطلب فيها الى
أساقفته تأسيس دير آخر يكون مقرا بطريركيا ومقاما
للمطارنة والكهنة ، كما يحث المطارنة على انتخاب ابن شقيقته
ونائبه المثقف جدا وذي الصفات الحميدة والمواهب المتعددة
هاغوب هوفسبيان خلفا له .
وقد نفذت وصيته تماما فاتخذوا مكانا جديدا هو
تلة بزمار التي وقفها لهم السيدان مرشد الخازن وانطون
قبلان، فانتخب هاغوب هوفسبيان بطريركا (١٧٤٩–١٧٥٣)
وتلاه ميخائيل كسباريان (١٧٥٥ – ١٧٨٠) ثم باسيليوس
افكاديان (١٧٨٠ – ١٧٨٨) ثم غريغوريوس كوبليان(١٧٨٨–
١٨١٢) ثم غريغوريوس جراهيان (١٨١٢ – ١٨٤١) ثم
هاغوب هولاسيان (١٨٤١ – ١٨٤٣) ثم غريغوريوس دورا
استفازا دوريان (١٨٤٣–١٨٦٦) ..وانتقل المقر البطريركي
الى القسطنطينية عام ١٨٦٩ ، وبقي هناك حتى كانت الابادة
الجماعية للطائفة . فرجع البطريرك بولس طرزيان وبعض
اساقفته الى لبنان عام ١٩٢٩ . وفي بيروت تعاقب على
الكرسي البطريركي : افديس الرابع عشر اربياريان(١٩٣١–
١٩٣٧) وغريغوريوس الخامس عشر اغاجيانيان (١٩٣٧ –
١٩٧١) واغناطيوس السادس عشر باطانيان (١٩٧١ –
١٩٧٦) وهماياك السابع عشر جيديجيان (١٩٧٦ –١٩٨٢)
والبطريرك الحالي يوحنا الثامن عشر كسباريان ، الذي تسلم
سدة الرئاسة في ٢٧ تموز ١٩٨٢
(الاب انترانيك غرانيان ، المنارة ، ص ١١٦ / ١٢١)

(٦) بزمار عبر التاريخ .

أضاف :

« في هذا الدير تم دفن البطريركين الاولين للارمن الكاثوليك لان كنيسة دير بزمّار لم تكن مبنية في حينه .ولذات السبب الخلفان الاولان للبطريرك أرزيفيان تمت رسامتهما في هذا الكرسي البطريركي » (٧) .

و « تمّ بيعُ دير الكريم ، بعد إذْن من بطاركة الموارنة والارمن ، للاب (المطران) حنا حبيب في عام ١٨٦٥ وقد نقل الرهبان الارمن الى دير بيت خشباو في ذلك الوقت » (٨) .

كيف جاء الارمن الكاثوليك الى لبنان ؟

من أين جاء الارمن الكاثوليك الى قلب كسروان ، معقل الموارنة ؟

ان هذه مسألة تستدعي ، منا ، الوقوف ، عندها ، ولو لبعض الوقت . الا أننا لا نستطيع الاجابة عنها ،دون الرجوع الى الكتيِّب « بزمار عبر التاريخ » نفسه ، فهو

---

(٧) المصدر السابق .
(٨) المصدر نفسه .

يحكي كيف تمكَّن ابراهام بطرس ارزيفيان وجمهوره الرهباني من التمركز في هذه المنطقة العصيَّة ، التي كانت لزمان خلا مأهولة بالشيعة .

ولعل كتاب التوصية الذي حمله ارزيفيان ، من البابا بنديكتوس الرابع عشر [٩] الى البطريرك الماروني سمعان عواد [١٠] خير ضمانة لهم . فأمْرُ البابا ، كما هو معروف ، مطاع عند بطاركة الكاثوليك وشعبهم ، حسبما جاء في « توطئة » كتاب « اليوبيل المئوي الثاني » (١٧٥٢ — ١٩٥٢) « لرسالة الرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية » في

---

(٩) البابا بنديكتوس الرابع عشر (١٧٤٠ ــ ١٧٥٨) رقمه ٢٤٨ في قائمة الباباوات . صرف اهتمامه الى تعزيز الكنائس الشرقية وعمل في سبيل الاتحاد .
ويحمل اسم بنديكتوس ١٥ من الباباوات ... والاخير (١٩١٤ ــ ١٩٢٢) توسط بين الدول في سبيل السلام في الحرب العالمية الاولى وعني بالاسرى المسلمين . والمعروف هو ان بنديكتوس أو مبارك (Benoit) (٤٨٠ ــ ــ ٥٤٧ ؟) راهب ايطالي وأحد منظمي الحياة النسكية في الغرب ومؤسس رهبانية البندكتيين في جبل كاسينو ٥٢٩ ، وضع دستورا للحياة الرهبانية لا يزال متبعا حتى اليوم في الكثير من الرهبنات الغربية .
(١٠) سمعان عواد : بطريرك الموارنة (١٧٤٢ــ١٧٥٦) رفض الكرسي البطريركي زهدا بعد انتخابه . فعيَّنه البابا من جديد بعد خلاف نشب على اختيار خلف له . اقام في دير مشموشة (قضاء جزين) حتى مات .

دير القمر ، لمؤلفه الاباتي بطرس فهد [١١] ، ومنها نقتطف ما يلي :

« من الشرق انبلجت أنوار الانجيل وضَّاءة ساطعة ، من الشرق انبعثت النهضة البدائية للرسالة والتبشير . ولكن هذا النور الوهاج أخذ بالأفول ، بسبب البِدع والانشقاق المشؤوم الذي أحدثه فوتيوس [١٢] المبتدع ، فسبَّب فصل الشرقيين عن الغربيين ، إن لم يكن كلهم فجلّهم ، فصار على الكنيسة الكاثوليكية حمل ثقيل جديد ، وأصبح من واجب رئيسها المعصوم (البابا) الاهتمام لا بهداية غير المؤمنين فحسب ، بل بإعادة نصارى الشرق الى الوحدة الرسولية ، فنشأت الرسالات ، ونشرت البلاغات ، وأذيعت المراسيم البابوية ، وعقدت المجامع المسكونية ، وأحدثت المعاهد التعليمية [١٣] والمدارس التهذيبية لنشر

---

(١١) ١١٨ صفحة من القياس الوسط ، مطبعة المرسلين اللبنانيين جونيه (لبنان) ١٩٥٤
(١٢) فوتيوس (ت حوالى ٨١٩) : بطريرك القسطنطينية ٨٥٨ ــ ٨٨٦ . انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية ٨٦٧ . له أبحاث لاهوتية ومجموعة قوانين الكنيسة اليونانية . مات منفيا . ورد ذكره في « اللؤلؤ المنثور » ص ١٦٥ / ١٨٤ / ١٨٥/٢٠٧
(١٣) هذا النص نقله الاباتي فهد عن « اليد المارونية في ارتداد الكنائس الشرقية » للعالم البحاثة الخوري بطرس روفايل ، ترجمة المؤرخ الاب اغناطيوس الخوري الراهب اللبناني ص ٣ ــ ٣٠ وكتاب « التذكار المئوي الثاني لتثبيت قانون الرهبانية اللبنانية » ص ٨

البشارة والمفاهيم الخلاصية » (١٤) ٠

« وعندما استولى الاتراك على مدينة الاستانة سنة ١٤٥٣ ، كانت الكنيسة المارونية وحدها ، بين كنائس المشرق المتحدة مع رومية عصرئذ هي الراكزة حقيقة على قوام مرتب راهن ، والحاصلة على سياق كامل من الدرجات والمراتب الكنسية ، ولم تكن لفظة «كاثوليكي» لتعني غير الماروني أو اللاتيني » (١٥) ، « وقد مر على ذلك أكثر من قرن ، أي عام ١٥٨٣ ، حتى أوفد الكرسي الرسولي الى المشرق السيد ليونار أبيل أسقف صيدا اللاتيني لكي يوطّد دعائم الوحدة البطرسية ، ويعمل على تطبيق الحساب الغريغوري، ونشر التعاليم الإلهية ٠ وقد كان في سوريا ولبنان بعض أفراد بل جماعات كاثوليكية أيضا من مختلف الملل الشرقية ٠ وكان الموارنة وبطاركتهم المنفردون في الشرق الاوسط باتحاد مع رومية ، يشملونهم بالعطف والعناية(٠٠٠) ، ويوجهون أنظارهم الى جميع الكاثوليكيين المقيمين ضمن حدود بطريركيتهم ، وكانوا يجرون ذلك بمعرفة الكرسي الرسولي » (١٦) ٠

---

(١٤) فهد ص ٤

(١٥) المصدر نفسه نقلا عن روفايل ٠

(١٦) فهد : المصدر نفسه ٠

على أن ذلك يؤيد « براءة البابا بيوس الرابع المؤرخة في أول ايلول سنة ١٥١٦ ، وفيها يفوضهم بأن يحدّوا من التأديبات الكنسية ، ويقبلوا في حضن الكنيسة المنشقين والاراطقة والجاحدين من أي طائفة كانوا ٠ وقد نال الكهنة الموارنة من بطاركتهم التفويض بسماع الاعترافات لجميع المؤمنين من غير طائفتهم ٠ وعندما أُنكِر عليهم ذلك الانعام فيما بعد ، رُفعت الى رومية عرائض التشكّيات، وحينئذ أقر مجمع نشر الايمان المقدس نفسه الموارنة على أعمالهم ٠ وكذلك المرسلون اللاتين اعترفوا للموارنة بتلك الامتيازات » (١٧) ٠

وقال الاباتي فهد أيضا :

« انه في سنة ١٧١٧ أخذ الرهبان المرسلون اليسوعيون القاطنون في حلب وفي الشام يعارضون كهنة الموارنة عندما كان هؤلاء يسمعون اعتراف السريان والكلدان والملكية وغيرهم من شرقيين وغربيين ،ويناولونهم الاسرار المقدسة، محتجين عليهم بأن لا سلطة للموارنة في ذلك ، وكانوا أيضا يمنعونهم مدّعين أن ذلك للمرسلين فقط وأن البطريرك الماروني المستمدة سلطتهم منه لا سلطة له في ذلك ، لانها محصورة في الموارنة ولا تتعداها ٠ غير أن الموارنة كانوا

---

(١٧) فهد : المصدر نفسه ٠

يوضحون أن لهم هذه السلطة المطلقة من لدن الكرسي الرسولي أيضا . فأبى اليسوعيون الرضوخ ، ولزم أن رفع الامر الى الكرسي الرسولي من لدن الفريقين ،وكان الكاتب من الموارنة بهذا الصدد الخوري بطرس التولاوي الوكيل على الطائفة المارونية في حلب . فكرادلة الكنيسة بعد وقوفهم على ما كتبه الفريقان حكموا للموارنة وكتبوا للمرسلين ألا يعودوا فيعترضوا للكهنة الموارنة في شيء ،بل يتركونهم وشأنهم في جميع تصرفاتهم البيعية على اطلاقها . وبمثل ذلك كتبوا للبطريرك يعقوب عواد الحصروني(*). ولهذا أمر رئيس المرسلين اليسوعيين مرؤوسه الاب مخايل بلين أكبر معارض للموارنة في حلب أن يذهب الى كهنة الموارنة مستغفرا ، فأطاع رئيسه وفعل ما أمر به ، وانتهت المسألة بحكم المقدس » (١٨) .

إذاً كيف لا يكون أمر الكرسي الرسولي مطاعا عند الكاثوليك الشرقيين ، وقد نزل المرسلون الكرمليون والكبوشيون واليسوعيون والفرنسيسكان واللعازاريون على الموارنة في لبنان إخوانا أعزاء » (١٩) ! وكيف لا «

(*) يعقوب عواد : بطريرك الموارنة (١٧٠٥ – ١٧٣٣). عزله خصومه عن المقام البطريركي فردته روما .

(١٨) فهد : المصدر نفسه .

(١٩) فهد : المصدر نفسه .

يهب الموارنة هؤلاء المرسلين « الاراضي الواسعة والديورة الكثيرة ليمنّعوا فيها على الاخطار أوان الاضطهاد والاضطراب » (٢٠) ! ولقد كتب ، في هذا الشأن ، المؤرخ الاب جوزف بيسون اليسوعي في كتابه « سوريا والارض المقدسة » (في أواخر القرن السابع عشر) يقول : « ان المرسلين في سوريا هم على ثقة أكيدة من أن لهم في ٣٠ ألف ماروني يقطنون بلاد كسروان من لبنان حصنا منيعا يقيهم كوارث الخطوب » (٢١) .

---

(٢٠) فهد : المصدر نفسه .

(٢١) نقلا عن فهد : المصدر نفسه .

هذا ... « ووهب البطريرك الماروني يوحنا مخلوف الاهدني (١٦٠٩ – ١٦٣٣) الرهبان الكبوشيين عام ١٦٢٨ محبسة مار توما ومحيطها في وادي قديشا ، فقالوا في ذلك عام ١٦٣٤ ما حرفيته : « أعطانا البطريرك الماروني مدرسة في لبنان ومنحنا كل ما له من سلطة وأحبَّنا دائما » . و « انعم البطريرك جرجس عميرة الاهدني (١٦٣٣ – ١٦٤٤) على الرهبان الكرمليين سنة ١٦٤٣ بدير مار ليشع قرب قصبة بشراي » . وجاد الشيخ سنتو بن فياض الخازن على الرهبان الفرنسيسكان منذ سنة ١٦٨١ بأرض وسيعة في حريصا – كسروان حيث شادوا ديرهم الحالي على اسم مار انطونيوس البادواني » . و « لما جاء اليسوعيون الى كسروان عام ١٦٥٢ اقتبلهم فيه حاكمه عهدئذ الشيخ ابو نوفل الخازن بكل ارتياح ، فأنزلهم أولا ضيوفا في داره ، ثم وهبهم أرضا كبيرة في عينطورة ، وشيَّد لهم فيها من ماله الخاص كنيسة ومقاما ، وأعطاهم أيضا دارا له في بيروت». و «في سنة ١٧٩٢ حل الرهبان اللعازاريون في لبنان =

بيد أن « منتصف القرن الخامس وبالضبط عام ٤٥١م، كان منعطفا تاريخيا عجيبا في الكنيسة المسيحية عامة ،وفي المنطقة (الشرق الاوسط) خاصة • حيث انقسمت الكنيسة ولعبت السياسة ، كما في كل زمان ، دورا قاسيا مضيفة نقيضة إثر أخرى الى سجلاتها • وانقسم أهل البيت (المسيحي) وبدأ الاضطهاد يحرق الاخضر واليابس• وكانت القرون الخامس والسادس والسابع مسرحا لهذه المهازل على الرغم من ظهور نخبة من أعظم الشخصيات المسيحيةفي هذه الظروف » (٢٢) • ويا ليت هذه الانقسامات توقفت عند تلك الحقبة فحسب •

بعد هذا العرض المفصل لدور موارنة لبنان،أصحاب الفضل على المرسلين الكاثوليكيين ، نعود الى البطريرك الارمني الكاثوليكي أرزيفيان لنرى كيف أتى الى لبنان،وما هي التسهيلات التي أعطيت له •

جاء في كتاب البابا بنديكتوس الرابع عشر الى البطريرك الماروني سمعان عواد ما يلي :

= محل الآباء اليسوعيين بسبب الالغاء الذي نزل بهم بأمر الحبر الاعظم ، بيوس السادس (١٧٧٥ ـ ١٧٩٩) واحتلوا معهد عينطورة المعروف ، ولا يزال بيدهم الى اليوم عامرا مزدهرا شهيرا » فهد : المصدر نفسه .

(٢٢) المطران تاوفيلوس جورج صليبا ، من محاضرة له مذكورة سابقا .

« نطلب اليكم أن تبدوا المودة الحميمة والتكرم اللائق لأخينا بطرس (ارزيفيان) بطريرك كيليكيا للارمن الكاثوليك وستكونون بهذا عند حسن ظننا اذ أننا نكن له جل التقدير » (٢٣) •

فمن المؤكد،والحالة هذه،أن يلقى الارمن الكاثوليك، الهاربون ، يومذاك ، من مشانق العثمانيين ونيرانهم ، وسجونهم ، الضيافة الكسروانية الحسنة عند الموارنة « اخوانهم في العقيدة » (*) •

غير أن « اعتراف روما الرسمي بانتخاب المطران ارزيفيان بطريركا زاد في حدة التوتر الذي كان اعترى العلاقات بين الباب العالي (السلطان محمود الاول ١٧٣٠ـ

---

(٢٣) عن « بزمار عبر التاريخ » عن « دور الموارنة في ارتداد الكنائس الشرقية » (ترجمها البزماريون : « دور الموارنة في رجوع الكنائس الشرقية ») للاب بطرس روفايل، المذكور سابقا ، ص ٤

(*) والحقيقة هي ان الارمن الكاثوليك جاؤوا الى لبنان على ثلاث هجرات متعاقبة ، فاستوطنوه مع سائر الطوائف (...) ومرد ذلك الى الاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي عانتها دول الشرق الاوسط من ناحية ، والى الحريات الديموقراطية والوجود المسيحي الكثيف في لبنان ، من ناحية أخرى ... حتى ان أغلبية العائلات الارمنية التي وصلت الى لبنان فقدت هويتها الاتنية الاصلية واندمجت في صلب الطائفة المارونية . (الاب انترانيك غرانيان ، المنارة ، ص ١١١)

١٧٥٤) والدول الغربية المعتمد تمثيلها في القسطنطينية . وقد أدى ذلك الى اقفال جميع مرافىء الامبراطورية في وجه البطريرك أرزيفيان ولذلك اضطر الى اللجوء الى ديره في الكريم حيث استقبلته سلطات الكنيسة المارونية بكل ترحاب في ٦/١٠/١٧٤٣ » [٣٤] .

هل كان يعلم البابا بنديكتوس الرابع عشر والبطريرك الماروني المثلث الرحمة سمعان عواد أن صراعا قد ينشب يوما بين الموارنة والارمن ؟ أم إنهما كانا يريان ، ان وحدة الدين تستطيع أن تذوّب الفروقات الاجتماعية والفكرية والثقافية والتاريخية والسياسية ، وتستطيع أيضا أن توحد المشاعر المختلفة والاهداف المتضاربة والآمال المتعددة ؟

ومهما يكن ، فإن كسروان كانت وستبقى ملجأ للمتمردين وللمضطهدين ولا سيما اذا كانوا من المناضلين المسيحيين ، الأمر الذي يشجع الدعوة الى الوحدة المسيحية في هذا الشرق المتخم بالاضطرابات الدينية والنزاعات الطائفية .

وما لبث الارمن الكاثوليك أن باعوا دير الكريم اذ بنوا دير بزمار [٣٥] « على أكمة خضراء ترتفع ٩٣٠ مترا

(٣٤) المصدر نفسه .
(٣٥) بوشر ببنائه في عام ١٧٤٩

وتبعد ٣٠ كيلومترا من بيروت وتنحدر حتى شواطىء البحر المتوسط » [٣٦] . وهو « الدار الرهبانية الوحيدة المنشأة في الدول العربية ، بالإضافة الى دير القدس » ففيه « واحة للاستجمام والانعكاف على الدرس » [٣٧] مما يساعد على تهيئة المرسلين على العيش والعمل مهما كانت الظروف وفي أي مكان [٣٨] ، ويساعد أيضا على « تنمية ثقافة الارمن الشخصية » [٣٩] (*) .

ان أقصى ما نرجوه لهذه الطائفة الكريمة ، وللشعب الارمني ككل ، الموجود في لبنان ، اقامة هادئة وفعّالة ومفيدة ، في الربوع اللبنانية ، التي هي ، مذ كانت ، موئل لكل مضطهَد ومظلوم .

ولنا أن نطالب الحكماء الارمن (الكاثوليك والارثوذكس) السهر على استمرار العلاقات حسنة بينهم

(٣٦) «بزمار عبر التاريخ » نفسه .
(٣٧) المصدر نفسه .
(٣٨) المصدر نفسه .
(٣٩) المصدر نفسه .
(*) للارمن الكاثوليك في بيروت والمتن وكسروان حضور ديني واجتماعي وسياسي واقتصادي مؤثر ، فالى الكنائس والجمعيات الرهبانية هنالك المدارس والجمعيات الخيرية ، وخلال شهر كانون الاول ١٩٨٥ تم تدشين كنيسة في الزلقا — عمارة شلهوب ، يديرها ويشرف عليها الاب روفائيل ميناسيان المعروف بنشاطاته المتعددة .

وبين اللبنانيين،ولا سيما منهم الموارنة،لئلا يزداد لبنان خرابا،
ولئلا يصبح الوجود الارمني في لبنان مدعاة للقلق والخوف
على الجميع • وكما قيل في اليوبيل المئوي الثالث لميلاد
المثلث الرحمة ابراهام بطرس الاول ارزيفيان :

« ان دير بزمار كان وسيبقى متحفا مكشوفا تحت
سماء لبنان الصافية ، فيه اقترن النبوغ اللبناني بروح شعب
أصيل ، وكان اندماجهما تحفة رائعة للتاريخ وخير عبرة
للمستقبل » (٣٠) فإن هذه الكلمة الارمنية الواعية الرزينة
يجب أن تظل أمانة غالية وعزيزة في عنق كل أرمني •

---

(٣٠) المصدر نفسه •

مَع الرّهبان الكريميّين

في وادي غـوسطـا ، المسمّى « وادي الكرَيْم »
يستقبلـك رهط من الرهبان المرسَلين اللبنانيين ، بينهم
الفتى والعجوز ، بفرح وسرور • أولئك ، برغم قلة عددهم،
يكوّنون عالما مستقلا وآمنا • لهم عاداتهم••وتقاليدهم••
ومفاهيمهم الخاصة • يتنقلون معك بين « صالونات »الدير
وبين الكنيسة والشرفات المطلة على البحر ، باهتمام بالغ •
يقولون لك بصوت واحد : « الارمن لم يتركوا شيئا الا
وأخذوه معهم ، عندما اشترى « المؤسس »منهم هذا الدير،
ما عدا الجرس والصورة التي في الكنيسة » • ويدلّون
على الحجارة التي تفصل بين طبقات الدير • فكل واحـدة
منها لها حجارتها ، وأقسام البناء واضحة • هذا كان في عهد
الارمن ، وذاك في عهد « المؤسس » ، وذلك حديث العهد
بنَتْه الجمعية • فالطبقة السفلى هي من الحجارة الكبيرة•
وترى في الزوايا مداميك تحمل اشارات متشابهة كأنها المعالم
التي يُستدَل بها •

قال الاب انطونيوس العنداري [٣١] :

« يُعتقَد أن الذين بنوا هذا المعبد ، قبل مجيء الارمن اليه ، كانوا يخبئون داخل هذه الزوايا المتشابهة ،أموالهم وحليّهم • وربما فعل ذلك أيضا الارمن ممن كانوا هنا »•

واستطرد يقول :

« ذات يوم ، عندما كنت رئيسا للدير ، لحظت حفرا في هذه الزاوية ــ وأشار الى مدماك كبير عليه علامـــة في حائط الكنيسة الشمالي من الطبقة السفلى ــ وأغلب الظن أن جماعة (•••) أتت لتأخذ شيئا ما كان موجودا في هذا المكان » •

لم يعلّق أحد من الكهنة على كلمة الاب العنداري • رئيس الدير الحالي الاب موريس بويز [٣٢] انحنى بقامته الممتلئة المستقيمة عندما كان يدخل الكنيسة • جثا علـــى

---

(٣١) الاب انطونيوس ساسين موسى ساسين العنداري :من عبدين ، قضاء البترون ، ولد في أميركا حيث كان والداه ، وذلك يوم ١ كانون الثاني ١٨٩٨ . يحمل دكتوراه في الفلسفة واللاهوت من جامعة « نشر الايمان » ــ روما . انتخب رئيسا للجمعية (١٩٥١ ــ ١٩٥٩) . مثّل الجمعية في الارجنتين. التقيته يوم ١٣ شباط ١٩٨٥ في « دار المسيح الملك » («دير يسوع الملك ») .

(٣٢) لبناني الاصل مولود في القاهرة . وهو يتكلم المصرية .

ركبتيه أمام صورة المسيح [٣٣] ليصلي داعيا : « اللهم ازرع السلام في الارض ووحد القلوب واكثِر من المؤمنين » • طبعا لم يضايقني هذا الدعاء أبدا • فالدنيا فيها مؤمنـــون وفيها كفرة • المهم أن تبقى لنا حرية الفكر والمعتقد • ومتى كانت هذه الحرية محترَمة ومكرّسة فلا خوف على المؤمنين من الكفرة •• ولا على الكفرة من المؤمنين •

ويشدّني تمثال نصفي من الرخام الابيض الساطع النقي المصقول • اقتربت منه لكي أحقق فيه ، فإذا هـــو « للمؤسس » أيضا • لا يحمل تاريخا ولا توقيعا من الفنان النحّات ؟

عن هذا التمثال ــ الآية ، قال لي ، فيما بعد ، الاب الرئيس يوسف العنداري : « أما التمثال الرخامي الموجود في دير الكرَيْم ،المصنوع في ايطاليا ، فهو برأيي ، أجمل من تمثـــال البرونز الموجـــود ، في قاعة الاستقبال (التابعة للمعهد) » •

انه لعمل عظيم حقا • وليس عجبا أن يكون قد استقبله جمهور الدير باحتفال كبير عندما وصل من ايطاليا ، بل

---

(٣٣) قال عنها الاب يوسف خريش : « انها ترقى الى القرن الحادي عشر حسبما قيل لنا . وهي الاثر الوحيد ، ما عدا الجرس ، الذي تركه لنا الارمن » .

ليس عجبا أيضا أن يبقى ، حيث هو ، مخبوءا بعيدا عن الاعين الحاسدة والأيدي الطويلة •

نبقى في الكنيسة نستطلع الضرائح الآتية :

١ ـ المطران يوحنا حبيب : رئيس أساقفة الناصرة ومؤسس الرسالة اللبنانية • ولد في بيت الدين ١٨١٦ • تولى القضاء من ١٨٣٩ الى ١٨٥٥ • ارتقى الى درجة الكهنوت ١٨٤١ • أسس الرسالة اللبنانية ١٨٦٥ • وجُعل رئيسا لأساقفة الناصرة (شرَفا) ١٨٨٩ • توفاه الله ٤ حزيران ١٨٩٤ [٣٤] •

٢ ـ الاب اسطفان قزاح (١٨١٩ ـ ١٨٩٧) الرئيس العام الاول على جمعية الرسالة اللبنانية (١٨٦٧) •

كُتبت على بلاطة ضريحه هذه الآية ، وهي من سِفر أعمال الرسل :

« وكـان اسطفـانوس رجلا ملؤه النعمة والروح القدس » [٣٥] (*)

---

(٣٤) في تلك الايام كان الاساقفة يدفنون جالسين على كراسيهم •

(٣٥) أعمال الرسل ٦ : ٥

(*) القديس اسطفانس : أحد الشمامسة السبعة الذين اختارهم الرسل بعد عيد العنصرة، وأول الشهداء المسيحيين ٣٣م. ذكره البطريرك يعقوب الثالث في كتابه «تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية » الجزء الاول ص ٨١/٨٣

حياة هذا الكاهن الرسولي ألّف فيها المرحوم الخوري ابراهيم حرفوش ، أحد أبناء جمعية الرسالة اللبنانية ، كتابا قيّماً ونفيسا عنوانه « قدوة الصلاح في ترجمة الاب اسطفان قزاح » [٣٦] •

---

(٣٦) صدر عن مطبعة القديس بولس في حريصا سنة ١٩١٥ ومما يجب ذكره أيضا ان الخوري ابراهيم حرفوش نفسه هو واضع كتاب « دلائل العناية الصمدانية في ترجمة معلي منار الطائفة المارونية ، غبطة أبينا وسيدنا الملفان ، مار الياس بطرس الحويك ، بطريرك انطاكية وسائر المشرق » الصادر عن مطبعة المرسلين اللبنانيين ـ جونيه سنة ١٩٣٥

وفي دراسة للاب الدكتور اغناطيوس سعادة ،عنوانها « جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة » ، ذكرت سابقا ، جاء ما يلي :

« وكانت العناية الالهية قد قادت اليه (يقصد المؤسس ـ المطران) الرجل الرسولي الخوري اسطفان قزاح من بكفيا الذي كان يسعى بدوره الى مشروع رسالة للطائفة ، فاختاره رفاقه الجدد رئيسا عاما عليهم ، لان المؤسس رفض الرئاسة زهدا وتواضعا ، وانزوى في دير الشرفة يعلم الاولاد . الا ان الحاح الكهنة حمله على أن يعود فيعيش بينهم ومعهم . ثم اقاموه رئيسا عاما عليهم ، بعد ارتقائه الى الكرامة الاسقفية حتى ساعة وفاته . وأخـذ المرسلون اللبنانيـون يدخلـون الجمعية الناشئة التي راحت تنمو كحبة الخردل في ظـلال غارسها الحبيب •

« ويُعتبر الاب قزاح الذراع اليمنى للمؤسس القديس وشريكه في تأسيس الجمعية التي عمّق فيها ، بمثله وكلامه ، الروح الرسولي والروحانية العالية النابعـة مـن فضائل شفيعها • وقد توفاه الله برائحة القداسة في ١٨ من كانون الاول عام ١٨٩٧ في عينطورة . ودفن الى جـانب رفيقـه المؤسس في كنيسة الكريم • وأجرى الله على يده بعض =

٣ ــ المطران شكرالله الخوري (١٨٦٢ ــ ١٩٣٤) رئيس الجمعية عام ١٩٠٢ . مطران صور للطائفة المارونية، شقيق المطران عبدالله الخوري [٣٧] .

ماذا تقول هذه الضرائح ؟

ماذا يقول الماضي البعيد ــ القريب ؟

رجال من هنا وهنالك ، بنوا وشادوا ... ثم قضوا لتبقى آثارهم شامخة تشهد أن للحق رجالا كأنهم كواكب السماء .

وتركنا الكنيسة لنصعد الى غرفة الطعام . الاب الرئيس موريس بويز بارك المائدة،وحوله الآباء الافاضل: يوحنا سعادة [٣٨] وأنطونيوس العنداري ومنصور يونس

= العجائب والكرامات التي يعود الحكم فيها لسلطان الكنيسة» ... هذا واعيد انتخابه رئيسا عاما للجمعية من عام ١٨٩٤ الى ١٨٩٧ .. بعد أن كان قد مكث في هذا المركز من ١٨٦٧ الى ١٨٨٩

(٣٧) دامت ولاية هذا الاب الرئيس (المطران) ثلاث سنوات (١٩٠٣ ــ ١٩٠٦) . عن الاب سعادة ، المصدر نفسه .

(٣٨) ترجم له الاب الدكتور اغناطيوس سعادة كما يلي : « الاب يوحنا سعادة (١٨٩٧ ــ ١٩٨٤) ، من بيت الدين . هو تلميذ رومية ومن انسباء المؤسس . ادار الرسالة في الارجنتين والبرازيل ، وشغل منصب الرئاسة العامة خلفا للاب نعمة الله مبارك (وذلك من ١٩٤٩ الى ١٩٥١) . وألف كتاب «لبنان في أميركا» ، وكتب تاريخ الرسالة في الارجنتين، لا يزال مخطوطا ، وله مقالات وأشعار رقيقة نشرت في المجلات والصحف . وتولى ادارة راهبات العائلة المقدسة وارشادهن .

(استاذ الابتداء في الدير) وبولس ناصيف .

كان الغداء بسيطا جدا ... بينما الحديث اتسع وتشعَّب حتى شمل قضايا ادبية واجتماعية وسياسية ودينية .

حياة المؤسس الحبيب

ودّعتُ رهبانَ دير الكرَيْم ونفسي تسألني : أليسَ سراً أن يجتمع رجال من شمال لبنان وشرقه وجنوبه وغربه وجبله ، في هذا الوادي ، ليوحّدوا امكاناتهم الروحية والعلمية لخدمة عقيدتهم والعلم والانسان ؟

وتسألني نفسي أيضا : أي رجل هو المطران يوحنا حبيب الذي أتى« الى هذه الارض ومعه ثلاثة كهنة :اسطفان قزاح من بكفيا ، وفرنسيس الشمالي من سهيلة ، ويوسف العلَم من داريا الزاوية ، ثم أصبحوا ثمانية ، ثم ثلاثة عشر، ثم عشرين ، فثلاثين ، فأربعين » (؟)

ثم هذا السؤال : المطران يوحنا حبيب : هذا الرائد الكبير ، من يكون ؟

قلت : الجواب هو عند الاب يوحنا العنداري الرسولي ، الذي سيطل علينا ، الصيف القادم(صيف١٩٨٠) بكتابه الوثائقي «المطران يوحنا حبيب مؤسس جمعية

المرسلين اللبنانيين الموارنة »[٣٩] .

الا أن المؤلف أطلعني عليه ، وهو لا يزال في المطبعة، بعدما أدرك رغبتي في الوقوف على أمر هذا الرجل .

لذلك ، ومن خلال هذا الكتاب أو بعضه ،سنحاول هنا ، كشف أهم الجوانب من حياة هذه الشخصية اللبنانية، التي تخطت الاقليمية والطائفية،فصارت علَماً من أعلامنا، وعظيما من عظمائنا .

عودة الى تاريخ الشوف قبل ولادة المؤسس

قبل البدء بكتاب الاب العنداري ، لا بد لنا من أن نحدد الواقع السياسي والاداري ، الذي كان يسود منطقة الشوف ، حيث مسقط رأس الحبيب ، خلال الفترة السابقة على ولادة يوحنا ، وإلى حين غادر هذه المنطقة . ولكي يتحقق لنا هذا رجعنا الى كتاب « تاريخ لبنان

---

(٣٩) تأخر صدور هذا الكتاب عن موعده حتى ١٤ أيلول عيد ارتفاع الصليب ١٩٨٠ . ٤٩٧ صفحةمن القياس الكبير . . يتضمن بعض الصور والوثائق وتمهيدا من الدكتور فؤاد افرام البستاني . جميع الحقوق محفوظة لجمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة .

الحديث » [٤٠] ، لصاحبه الدكتور كمال سليمان الصليبي، اذ هو ، حتى الآن ، يُعتبر من أفضل المراجع التي يمكننا اعتمادها والاستناد اليها (*) .

ان العودة بالتاريخ الى منطقة الشوف التي عرفها يوحنا الحبيب عن كثب ، انما هي العودة الى القرنين السابع عشر والثامن عشر .. بل الى الامارة الشهابية بالذات . وليتسنى لنا هذا يجب أن نذكر انتقال الحكم من يد المعنيين الى يد الشهابيين . وقد تم كما يقول الدكتور الصليبي :

« في أوائل القرن السابع عشر ، سيطر فخر الدين المعني ، أمير الشوف ، على لبنان كله . وكان قد ورث السيادة على المناطق الدرزية في الجنوب ، ثم تحيَّن الفرص فبسط سيادته هذه على المناطق المارونية في الشمال . وبذلك وضع أساس الائتلاف الماروني ــ الدرزي الذي قام عليه

---

(٤٠) لدينا الطبعة الثالثة ١٩٧٢ . والكتاب صادر عن «دار النهار للنشر » ــ بيروت وهو يقع في ٢٥٣ صفحة من القياس الوسط ، الى فهرس الاعلام والاماكن وفهرس المحتويات .

(*) ويدعونا الواجب ايضا الى التأكيد على اهمية الدراسة التي وضعها الاب بولس صفير (حافظ المكتبة البطريركية المارونية) بناء لطلب مجلة « المنارة » وعنوانها « الكنيسة المارونية في لبنان والعالم » اذ ان فيها ما يثبت صحة استنتاجاتنا بالنسبة الى الوجود المسيحي في الشوف وعاليه.

كيان لبنان كولاية عثمانية » [٤١] فصارت منطقة الشوف قاعدة لبنان ، ونما فيها التعايش المسيحي ــ الدرزي وازدهرت البلاد ، فعمها الامن والرخاء والاستقرار .

ولكن فخر الدين « جذبت سيرتُه الانظار في أوروبا ، فرأى فيه آل مديتشي (*) ، أمراء توسقانية ، سبيلا الى تحقيق ما حلموا به من سلطان على بلاد الشام » [٤٢] .

و « لذلك أعاروا نشاطه اهتماما كبيرا وشجعوه على تحدي أسياده العثمانيين » [٤٣] . حتى انه « تحدى هؤلاء

---

(٤١) المصدر نفسه ص ٣١

(*) مديتشي (Medici) : عائلة ايطالية شريفة حكمت فلورانسا منذ أواسط القرن الرابع عشر . من أهم افرادها: قوزما الاول والثاني وفرديناندو الاول وقد اتصل بهما الامير فخر الدين الثاني فقدَّما له المساعدات الفنية وعقد معهما حلفا عسكريا . ومنها ملكتان على فرنسا هما :

ــ كاترين (١٥١٩ ــ ١٥٨٩) : ملكة فرنسا بعد زواجها من هنري الثاني . والدة ثلاثة ملوك هم : فرنسوا الثاني ، شارل التاسع ، هنري الثالث . أتقنت السياسة ومارستها دون رادع أخلاقي ، فكانت سببا في اضطرام الحروب الدينية والمذابح التي رافقتها .

ــ ماري (١٥٧٣ ــ ١٦٤٢) ملكة فرنسا بعد زواجها من هنري الرابع (١٦٠٠) . ولدت في فلورانسا وماتت في كولونيا . وكانت وصية على العرش بعد وفاة زوجها ، الا ان ابنها لويس الثالث عشر أبعدها عن شؤون الدولة بناء لطلب وزيره ريشيليو .

(٤٢) المصدر نفسه .

(٤٣) المصدر نفسه .

بنجاح ، قاهرا جيرانه من الولاة ، متوسعا في معظم الانحاء الشامية » [٤٤] كما « لو أنه قد فاته أن يلتفت الى خطورة ما هو فاعل ، أو أنه أصبح مغرورا بما منحته اياه دولة توسقانيا البعيدة . وما أن صمم الباب العالي على مقاومته مقاومة فعالة توانى التوسقانيون عن معاونته ، فقهره العثمانيون في ١٦٣٣ وساقوه أسيرا الى الأستانة ، حيث مات خنقا بعد عامين » [٤٥] .

وامتدت مأساة فخر الدين حتى طالت أنجاله الخمسة: « واحد مات في محاربة الاتراك ، وثلاثة قتلوا مع والدهم، وعاش الاصغر ، حسين ، حاجبا في البلاط العثماني،فرئيسا للحجّاب ، فسفيرا في الهند » [٤٦] .

و « خلف فخر الدين في لبنان الامير ملحم ، ابن أخيه . وخلف الامير ملحم ، في ١٦٥٦ ، ابنه أحمد » [٤٧] الذي مات في ١٦٩٧ ، وكان آخر الذكور المعنيين .

وهكذا انقرضت السلالة المعنية ليبدأ العهد الشهابي، حسبما شاء العثمانيون ، بالأمير بشير الاول ، ابن حسين

---

(٤٤) المصدر نفسه .
(٤٥) المصدر نفسه .
(٤٦) المصدر نفسه .
(٤٧) المصدر نفسه .

الشهابي ، ابن أخت الامير احمد آخر المعنيين ، اذ نودي الاعيان اللبنانيون الى انتخابه أميرا على البلاد » [٤٨] .

و « ما أن تم الانتخاب حتى أصرّ العثمانيون على أن تؤول الامارة الى الفتى حيدر شهاب ، سبط أحمد معن ، وأحد أقرباء بشير » [٤٩] و« بعد أخذ وردّ سُوّي الامر بأن يحكم بشير الاول وصياً على الامارة ، حتى يبلغ الامير حيدر سن الرشد » [٥٠] .

وبفضل هذه التدابير « أصبح الشهابيون ، أقرباء المعنيين وأصحاب وادي التيم ، أمراء على لبنان » [٥١] .

صحيح أن الشهابيين « كانوا يدينون بالسنّة » [٥٢] الا أن هذا لم يمنع الامارة من أن تنتهي الى « الاقطاعية الدرزية » [٥٣] ، في حين ان المسيحيين وبخاصة موارنة الجبل « شكوا من الضعف السياسي » [٥٤] ، اذ وقعت

---

(٤٨) المصدر نفسه .
(٤٩) المصدر نفسه .
(٥٠) المصدر نفسه .
(٥١) المصدر نفسه .
(٥٢) المصدر نفسه .
(٥٣) المصدر نفسه .
(٥٤) المصدر نفسه .

مناطق بشرّي والبترون وجبيل (المارونية) ومنطقة الكورة (الارثوذكسية) ، منذ أواخر القرن السابع عشر ، « تحت نفوذ مشايخ آل حمادة الشيعة الذين تولوا أمر هذه المناطق عن ولاة طرابلس » [٥٥] .

لقد كان حكم هؤلاء المشايخ « عنيفا ظالما » [٥٦] ، اذ كانوا بعيدين عن نفوذ الامراء الشهابيين ، بيد ان مشايخ آل الخازن ، في كسروان ، كانوا « قد استعادوا ، بمؤازرة آل معن ، جزءاً كبيرا من الاراضي التي استوطنها الشيعة في تلك المنطقة منذ أواخر عهد المماليك » [٥٧] .

ولكن « منعة الجانب لم ينعم بها النصارى (المسيحيون) الا في كسروان » [٥٨] التي تأبى أن تُضام . وأما في الشوف « حيث اشتد نفوذ الشهابيين والمعنيين ، فبقي الموارنة والملكيون دون وزن سياسي » [٥٩] (*) على أن المعنيين قد

(٥٥) المصدر نفسه .
(٥٦) المصدر نفسه .
(٥٧) المصدر نفسه .
(٥٨) المصدر نفسه .
(٥٩) المصدر نفسه .

(*) الملكيون : يرقون في لبنان الى القرون المسيحية الاولى ، وقد زاد عددهم بقدوم جاليات من الاقطار الاسلامية المجاورة ، لاجئين الى جباله الآمنة . هم طائفتان : أورثوذكسية منفصلة عن رومية نهائيا ، منذ القرن الرابع والخامس عشر ، عددها =

شجعوا نزوح النصارى (المسيحيين) الى هذه المناطق الدرزية [٦٠] ومثلهم فعل الشهابيون « حتى كان عدد كبير » [٦١] من المسيحيين « قد استوطن هناك » [٦٢] .

وبما أن المسيحيين « النازحين » [٦٣] هم « في معظمهم ، من الفلاحين الذين استقروا في مزارع الدروز وعملوا في خدمتهم » [٦٤] كان من الطبيعي أن يصبح (هؤلاء) الاعيان الدروز هم « أصحاب السلطة السياسية في البلاد » [٦٥] ، وليس هنالك ما يثير العجب أو الاستغراب « ان حاول الامراء الشهابيون ، حتى أواسط القرن الثامن عشر ، الظهور

= حسب احصاء سنة ١٩٣٢ : ٧٧،٣١٢ والاحصاء التقريبي لسنة ١٩٥٢ : ١٣٠،٨٥٨ مقيمين في لبنان . الطائفة الكاثوليكية المتحدة برومية ، وعلى رأسها بطريرك منذ سنة ١٩٣٤ ، والبطريرك الحالي هو غبطة مكسيموس الخامس حكيم الذي يلعب دورا توفيقيا هاما وناجحا في تحقيق الوفاق الاسلامي ـ المسيحي في لبنان . تعد حسب احصاء ١٩٣٢ : ٣٨،٥٦٠ ، والاحصاء التقريبي لسنة ١٩٥٢ : ٨١،٧٦٤ نسمة مقيمين في لبنان . (انظر : الرهبانية الباسيلية الشويرية في تاريخ الكنيسة والبلاد ، تأليف الارشمندريت أثناسيوس حاج ، الجزء الثاني ١٩٧٨ ص ٤٠٣) .

(٦٠) المصدر نفسه .
(٦١) المصدر نفسه .
(٦٢) المصدر نفسه .
(٦٣) المصدر نفسه .
(٦٤) المصدر نفسه .
(٦٥) المصدر نفسه .

بمظهر الدروز »[٦٦] (*) .

ظل الشهابيون يتعاقبون على السلطة ، الواحد تلو الآخر . فبعد الامير حيدر الذي حكم من ١٧٠٦ الى ١٧٣٢ جاء ابنه الامير ملحم وحكم من ١٧٣٢ الى ١٧٥٣ ثم تلاه الأخَوان أحمد ومنصور ، وحكَم الاثنان معا من ١٧٥٣ الى ١٧٦٣ . ثم تنازل أحمد لمنصور الذي حكم مستقلا حتى ١٧٧٠ . وجاء الامير يوسف بن ملحم ، فحكَم بلاد جبيل من ١٧٦٣ الى ١٧٧٠ ، ونودي به أمير الجبل في مؤتمر الباروك ١٧٧٠ بعد تنازل عمه الامير منصور .

غير أن ما يهمنا أن نعرفه أيضا هو أن الدروز « منذ أن استوطنوا لبنان ، قد توفقوا الى اقامة نظام اقطاعي خاص بهم »[٦٧] مما مكّنهم من تدبير شؤونهم الداخلية

---

(٦٦) المصدر نفسه .

(*) يبدو ان المؤامرة ، حرب الجبل ، استهدفت الحضور المسيحي ، في منطقتي الشوف وعاليه ، وربما على يد السيد وليد جنبلاط تم تنفيذ هذه المؤامرة ، التي بدات تحاك مذ أصبح للمسيحيين ، في المنطقة الدرزية ، حضور سياسي ينافس الحضور الدرزي السياسي . فهل سيعود المسيحيون الى الجبل مثلما اتوه أول مرة ، ام ان الصفحة الرائعة (الائتلاف الدرزي ــ الماروني) التي كتبها المعنيون وحافظ عليها الشهابيون ، قد طويت والى الابد ؟

(٦٧) المصدر نفسه .

« كفئة مستقلة ، مع مراعاة الظروف الراهنة »[٦٨] بحيث ان « النظام الاقطاعي الاسلامي ، سواء في عهد المماليك أو في العهد العثماني ، لم يكن وراثيا ، ولم يعطِ صاحب الاقطاع أكثر من حق الجباية لمدة محددة من الزمن ، أقصاها مدى الحياة »[٦٩] . و « قد حال هذا النظام ، في معظم ديار السلطنة ، دون نشوء طبقة اقطاعية وراثية »[٧٠] .

وبقي هذا الاقطاع في متناول الايدي ، كما بقي « مباشرة تحت سيطرة السلطة المركزية »[٧١] . ومثلما هو معلوم ، فان « نظام الاقطاع في الجبال الدرزية ، وشمال لبنان ، وبلاد صفد وعجلون ، وبقية الانحاء الوعرة من البلاد الشامية ، لم يطبق بانتظام »[٧٢] . ويمكننا القول « ان الدروز ، كغيرهم من الفئات المعزولة في المناطق الجبلية ، قد توفقوا منذ عهد المماليك الى الابقاء على تقاليدهم الاقطاعية الخاصة بهم . وكانت دولة المماليك راضية ضمنا بذلك ، حتى انها خلعت على كبير زعماء الدروز ، أياً كان في أيامه ، بعض مظاهر النفوذ ، وأوكلت اليه امارة جند الحلقة في

---

(٦٨) المصدر نفسه .
(٦٩) المصدر نفسه .
(٧٠) المصدر نفسه .
(٧١) المصدر نفسه .
(٧٢) المصدر نفسه .

منطقته »[٧٣] . على أن هذا النفوذ « المعترف به من جانب الدولة لم يكن شيئا أمام السطوة والمكانة اللتين كان يتمتع بهما مثل هذا الزعيم بين قومه » [٧٤] . سبب ذلك هو ان هذا الزعيم « كان ، بصفته الامير الدرزي الاعلى ، يرئس نظاما اقطاعيا قائما على حق الإرث ، ويتزعم عددا من الأسر الاقطاعية السائدة على مختلف المناطق الدرزية » [٧٥] .

و « في عهد المماليك ذاك ، كان كبار الامراء الدروز هم من آل بحتر التنوخيين ، سادة الغرب »[٧٦] لا ينازعهم أحد ، ولا ينافسهم من في نفسه توق الى الزعامة والسيادة، حتى اجتاح العثمانيون بلاد الشام،وعندئذ خسر البحتريون مكانتهم العليا لأبنائهم المعنيين ، سادة الشوف »[٧٧]،الذين هم أيضا خسروا بدورهم هذه السيادة للشهابيين ، مثلما تقدم .

وجاء الامير بشير الثاني

من غزير في كسروان ، جاء ،الى دير القمر وبيت الدين

---

(٧٣) المصدر نفسه .
(٧٤) المصدر نفسه .
(٧٥) المصدر نفسه .
(٧٦) المصدر نفسه .
(٧٧) المصدر نفسه .

الامير بشير الثاني (١٧٦٧ — ١٨٥٠) ابن قاسم بن عمر بن حيدر الشهابي ، سعياً « وراء رزقه عند الامير يوسف،ابن عم أبيه ، فأكرمه الامير وأدخله في معيَّته » [٧٨] .

وسرعان ما أصبح بشير « شخصية مرموقة في البلاط الشهابي ، يساهم بنصيبه من الدسائس التي كانت تجري فيه » [٧٩] فتنبَّه لأمر هذه الشخصية خصوم الامير يوسف و « في طليعتهم آل جنبلاط ، فحاول هؤلاء ، وهم كبار خصوم الامير ، أن يستميلوا بشيرا الى جانبهم » [٨٠] وهو الامير « بالنسب » [٨١] و « الطَّموح » [٨٢] و «ذو الحيلة الواسعة » [٨٣] والقادر ، « برغم صباه وفقر حاله »[٨٤] ، على انتزاع احترامه ممن كبروه سناً ، مما جعل الجنبلاطيين يرون فيه « خير منافس للامير » [٨٥] والحليف الطبيعي لهم. ولكن بشيرا « تهرَّب باديء الامر من اجابة طلبهم . وربما كان ذلك لافتقاره الى المال وعدم ثقته بالنجاح »[٨٦] .

---

(٧٨) المصدر نفسه .
(٧٩) المصدر نفسه .
(٨٠) المصدر نفسه .
(٨١) المصدر نفسه .
(٨٢) المصدر نفسه .
(٨٣) المصدر نفسه .
(٨٤) المصدر نفسه .
(٨٥) المصدر نفسه .
(٨٦) المصدر نفسه .

واختلفت الحال عما كانت هي عليه . فأوقع الامير يوسف سنة ١٧٨٧ بخاله ، أحد الامراء الشهابيين المسلمين في وادي التيم وقتله . ولما « كان الامير القتيل ثرياً»(٨٧) أُوفد بشير الى حاصبيا « لتقييم إرثه »(٨٨) . وفيما هو هناك يؤدي مهمته التقى الاميرة شمس ، أرملة المتوفى ، و« كانت هي أيضا على جانب كبير من الثراء »(٩٨) . و«أتت بشيرا الفرصة فاغتنمها ، فعاد الى دير القمر زوجاً لشمس وصاحب ثروة واسعة »(٩٠) .

اذ ذاك وجد بشير نفسه « أكثر استعدادا للسير مع الجنبلاطيين والمطالبة بالامارة »(٩١) ، و « كان قد بلـغ الطغيان والجشع بالامير يوسف ، في ذلك الوقت حداً لم يعُدْ يطاق »(٩٢) فكلما « فرض عليه زيادة في المال كان (يـوسف) يعمـد الى زيـادة الضرائب حتى أرهق بها البلاد »(٩٣) الامر الذي دفع الجنبلاطيين « بتأييد خفي من

(٨٧) المصدر نفسه .
(٨٨) المصدر نفسه .
(٨٩) المصدر نفسه .
(٩٠) المصدر نفسه .
(٩١) المصدر نفسه .
(٩٢) المصدر نفسه .
(٩٣) المصدر نفسه .

الجزار »(٩٤) الى تحريض الشعب عليه . وانفجرت الازمة في ١٧٨٨ ، حين هب مماليك الجزار في عكا الى العصيان. ذلك أن الامير يوسف ، وقد شجعه نجاح العصاة في البلاد، سارع الى تأييدهم . فلما فشلوا ، وجد نفسه في مأزق . فما أن أعاد الجزار الامن الى نصابه في عكا حتى جيَّش عساكره على لبنان ، لتلتقي جماعة الامير يـوسف في قب الياس وتهزمهم شر هزيمة . واضطر الامير ، في الحال، الى التخلي عن كرسي الامارة . وتنادى أعيان لبنان،نزولا عند طلبه،للمناداة بنسيبه بشير،مرشح الجزار والجنبلاطيين، خلفا له ،فهرع الامير الجديد الى عكا لضمان تعيينه»(٩٥) .

ان الغاية من عرض هذه الاحداث جميعها،هي التسليم بأن الامير بشير ، القادم من غزير ـ كسروان ، القلق على امارتـه ، الخائف من حلفائه الجنبلاطيين ، قد استمـال المسيحيين فأمن لهم ، ووثق بهم ، حتى استعان ببعضهم ، ومنهم الخوري يوسف العينكسوري (٩٦) ، الذي «يتصل نسبه الى آل رزق »(٩٧) . و « استقدمه مع أخيه غـانم العينكسوري،وسلَّمهما عودة في بيت الدين قرب الكنيسة،

(٩٤) المصدر نفسه .
(٩٥) المصدر نفسه .
(٩٦) نسبة الى بلدة عينكسور الواقعة بين عاليه وعبيـه .
(٩٧) الاب يوحنا العنداري ، المصدر المذكور سابقا ص ١٧

واستخدم الخوري يوسف كاهنا شرعيا لخدمة شركائه ، فكان يعيش من ريع ما تسلّمه من أملاك الامير » (٩٨) . وقد أدركت الوفاة هذا الخوري « في بيت الدين في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨٣٧ » (٩٩) . وإلى هذا الخوري العينكسوري يرجع نسب المطران يوحنا حبيب رزق .

الحبيب وبيت الدين

وإذا العلاقة ، بين الامير بشير والخوري يوسف، على أتمّها ، وُلد حبيب بن بطرس بن الخوري يوسف العينكسوري ، والدته وردة الحيمري ، في اواسط شهر تشرين الثاني ١٨١٦ في قرية بيت الدين ، مركز متصرفية جبل لبنان ، في بيت ملاصق لكنيسة مار مارون الحالية(١٠٠) وهو الآن ملك لعائلة الطرابلسي ، اتصل بهم بطريقة الشراء من الامراء الشهابيين » (١٠١) ، وكان الامن ، آنذاك، يسود الشوف والربوع اللبنانية كافة .

نشأ الحبيب « على الايمان والتّقى . فأمّه وردة ،

(٩٨) المصدر نفسه .
(٩٩) المصدر نفسه .
(١٠٠) ما حال هذه الكنيسة بعد حرب الجبل ؟ بل ما حال كنائس الشوف وأدياره جميعها ؟
(١٠١) المصدر نفسه .

كانت تسابق أباه ، بطرس ، الى الكنيسة ، بتمام العزم والنشاط للقيام بفروض الصلاة والعبادة » (١٠٢) . ومما يروى عن هذه السيدة التقية انها كانت فضلا عن ذلك « مكرسة جانبا كبيرا من أوقاتها لخدمة الكنيسة وتنظيفها. وحدث أن مرضت ذات يوم ، فأشارت الى كِنَّتِها لكناسة بيت الله ، فأبت الكنة . فذهبت هي رغم مرضها، ونظفت الكنيسة كعادتها »(١٠٣) .

ودخل الحبيب ، مع سواه من أطفال بيت الدين ، المدرسة ، حيث تلقى علومه الابتدائية « على يد سلوم عزيز الجزيني ، والأبوين واكيم الحاقلاّني ويوسف شاهين العوسطاني ، وعن هؤلاء أخذ ما يلائم سن الاحداث من العلم والادب » (١٠٤) وهكذا نشأ الحبيب نشأة مسيحية. وكيف لا ، وأساتذته « كانوا من الافاضل وأهل تقى ودين » ! فالمعلم سلوم الجزيني مثلا « كان شابا علمانيا متدينا ، ثم ارتقى فيما بعد درجة الكهنوت وسمي سليمان وبقي يعلم الاولاد حتى شاخ » (١٠٥) . وعليه قرأ يوحنا السريانية والعربية ومبادىء الخط والتعليم المسيحي .

(١٠٢) المصدر نفسه ص ٢١
(١٠٣) المصدر نفسه .
(١٠٤) المصدر نفسه .
(١٠٥) المصدر نفسه .

ولكن سلوّماً هذا كان « شديد القسوة على تلاميذه،
ولذا كان حبيب يتحاشاه وينفر منه ،أيام تلمذته له»[١٠٦] ،
الامر الذي جعله يميل الى الابوين واكيم ويوسف «فصحبهما
الواحد بعد الآخر ، وأخذ عنهما مبادىء التقوى ومحاسن
الفضيلة »[١٠٧] . وأحبهما وتردد اليهما « حتى أنِس به
القس واكيم وتوسَّم فيه خيرا ، فاتخذه شماسا له ، اذ
كان هذا الراهب يخدم دار الامير »[١٠٨] .

الحبيب في قصر بيت الدين

من المؤكد أن يوحنا ، الصغير ، الذي واظب علـى
صحبة الابوين واكيم ويوسف ، عرف دار الامارة عـن
كثب ، كما عرفها من قبله جدّه وأبوه ، ولا سيما ان الاب
واكيم قد « ولاّه الامير بشير الشهابي شؤون داره الروحية
بعد المطران يوسف اسطفان »[١٠٩] (*) ، وكان هـذا

(١٠٦) المصدر نفسه .
(١٠٧) المصدر نفسه .
(١٠٨) المصدر نفسه .
(١٠٩) المصدر نفسه .
(*) يوسف اسطفان : بطريرك الموارنة (١٧٦٦ - ١٨٩٣) .
ولد في غوسطا وتعلم في روما . أسس مدرسة عين ورقة ١٧٨٩
أولى مدارس لبنان . الف وجدد في الطقوس . كتب العلامة
الخوري بولس عبود كثيرا عن هذا البطريرك وأعماله ومشاكله
ومواعظه ومجامعه الطائفية . وكتب عنه أيضا الاباتي بطرس =

الراهب الجليل يتمتع عند الامير باحترام فائق . و«يُذكر
عنه أن الامير بشير لما امر بقطع الاحراج لمسابك الحديد في
لبنان ، عفا عن أحراج دير حوب (في تنورين) (التابـع
للرهبانية اللبنانية المارونية) ـ حيث اعتزل الراهب ولبس
المسح ـ استجابة لطلبه »[١١٠] .

ناهيك طبعا عن الكاهن الوقور الاب يوسف شاهين
الغسطاوي الذي كان « تقيـا ورعا ، في غاية الدعة وسلامة
القلب »[١١١] ، ما جعله يحظى باهتمام الامير بشير تمامـا
مثلما رفيقه الاب واكيم . حتى انه « تولى الرئاسة الداخلية
على مدرسة عين ورقة مدة ، ثم عيّن فاحصا قانونيا لكهنة
ابرشية بعلبك ، كما عينه الامير بشير قيما روحيا على داره
بعد الاب واكيم، فأدى واجبه بكل أمانة ونشاط»[١١٣] .

ولا نكون قد جانبنا الحقيقة اذا ما قلنـا « ان الفتى
حبيب العينكسوري اعجب بشخصية الامير بشير الـذي

= فهد في «بطاركة الموارنة وأساقفتهم للقرن الثاني عشر» دار
لحد خاطر طبعة ١٩٨٥ ص ٢٧٣ / ٣٧٧ . على ان ما كتبه
الاباتي فهد هو تاريخ للبطاركة الموارنة كافة ، اي منذ نشأة
المارونية والى يومنا هذا . والسلسلة كاملة ،ستة مجلدات،
صدرت عن دار لحد خاطر .
(١١٠) المصدر نفسه ص ٢٦
(١١١) المصدر نفسه .
(١١٢) المصدر نفسه .

حكم البلاد بنزاهة واخلاص وتجرد » (١١٣) . وانه « لما كبر اخذ يقلده ، فلبس مثله الطربوش ، واطلق اللحية الكبيرة ، وجدل الشاربين ولبس العباءة ، مع العلم ان هذا الزي ، عامة ، كان الزي الكهنوتي في ذلك العصر » (١١٤) .

تلك كانت حداثة يوحنا حبيب (رزق) . فلا اعتقد ان كان لديه وقت للعب واللهو . ولو كان غير ذلك ، فعلا ، لما استطاع أن يغادر «بيت الدين» الى مدرسة «عين ورقة»، النائية البعيدة ، التي لا يأتيها سوى القاصد او من له مصلحة فيها . وكيف ينسى فتى ، في مثل عمره ، مسقط رأسه ، وملعب طفولته ، لو لم يكن عنده حب العلم كما وجّهه أساتذته الكهنة ؟

ان ما يؤكد ذلك بعض ذكرياته التي دوّنها الاب يوحنا فرح السبعلي (١١٥) فكانت من أهم المصادر والمراجع التي

---

(١١٣) المصدر نفسه .
(١١٤) المصدر نفسه .
(١١٥) الاب يوحنا فرح السبعلي (١٨٦٠ ـ ١٩٤٣) ، من سبعل ، مؤرخ بحاثة قضى حياته يجوب القرى اللبنانية يعظ ويجمع المستندات عن تاريخها وتسلسل أسرها العريقة . نشر قسما منها في المجلات والصحف ، والقسم الاكبر والأهم لا يزال مخطوطا (سألت الاب الدكتور اغناطيوس سعادة : لماذا لم تبادروا الى طبعها حتى الآن ؟ فقال : سنعمل على ذلك ان شاء الله) في ماجرياته المؤلفة من ثلاثة اجزاء كبيرة . ودوّن =

استند اليها الاب يوحنا العنداري ، ومنها ما يلي :

« اني لما كنت طفلا في بيت الدين شهدت رياضة روحية اقامها هناك احد الواعظين ، القس ارميا خضير ، لابناء الرعية . فكنت اسمع الواعظين ، بغاية الاصغاء والورع ، ولتأثيرها فيّ ، احرقتُ في النار كاغدا (دفترا) كنت جامعا فيه بخط يدي بعض الاغاني العالمية . اقول ذلك لابيّن لك فوائد الرياضات الروحية ونجوعها في النفوس المسيحية . فعليك بذل الجهد في اتيانها واتقانها لنفسك ولغيرك ، فان منافعها تعم الكل كبارا وصغارا ، وانا امتحنت ذلك بنفسي في صغري وفي كبري » (١١٦) .

ومن كان عنده تلك المزايا فأنّى له ان يقعد عن طلبه ويقبل الحصار في قرية صغيرة او كبيرة ويكون مجال التعلم فيها محدودا ؟

= حياة المؤسس، ونسّق أوراقه ومتروكاته في خمسة مجلدات مخطوطة عنوانها « سمط الحبيب » (قلت للاب سعادة ايضا : لو تنشر هذه المخطوطات ؟ فقال : سنرى ذلك) ضمنّها وثائق قيّمة عن تاريخ لبنان والموارنة . وترك ابحاثا اخرى في الطقسيات والتاريخ ، وقصائد دينية ووطنية، ونشر كتاب « المناجاة الثلاثية » و « تأملات شهر حزيران لقلب يسوع » المعروف في القرى والرعايا . عن دراسة الاب سعادة المذكورة سابقا .
(١١٦) المصدر نفسه .

« الى عين ورقة »
أو الرحلة الشاقة

روى الحبيب قائلا :

« دخلت مدرسة عين ورقة نهار الخميس في ٢٤ حزيران سنة ١٨٣١ وانا في سن الرابعة عشرة ، وكان دخولي اليها من باب الصدقة . فاني خطوت الى المدرسة مع معلمي الخوري يوسف شاهين الغسطاوي الذي كان خادما دار الامير بشير الكبير ــ قلت معلمي لانه علمني القواعد السريانية ــ وحضوره كان لزيارة اهله »[١١٧] .

في « عين ورقة » احبه المطران يوسف رزق الجزيني[١١٨] وقبله « بعد أن امتحنه بعدّة أسئلة طرحها عليه »[١١٩] تلميذا في المدرسة ، اذ قال له : « حسنا ، اذهبْ الى بيت الدين ، واحضرْ لوازمك من كسوة وفراش ، وارجعْ عاجلا »[١٢٠] .

---

(١١٧) المصدر نفسه .
(١١٨) هو يوحنا توما أبي رزق .عاون المطران يوسف اسطفان في ادارة مدرسة عين ورقة . رسمه البطريرك يوسف حبيش اسقفا وتسمى يوسف ، وذلك في سنة ١٨٢٨
(١١٩) المصدر نفسه .
(١٢٠) المصدر نفسه .

قد يكون صادف يوحنا ، في بيت الدين ، معارضة من قبل والديه . فلذلك « تأخر حتى التاسع والعشرين من الشهر الثاني (تموز) »[١٣١] والى ان نسمح له والده بالمجيء الى المدرسة ، اشتاق اليه اولئك الذين رأوه مع استاذه الغسطاوي ، في المدرسة ، اول مرة ، او كما يقول البطريرك يوحنا الحاج[١٣٢] في مذكراته :

« دخلت المدرسة في ٢٥ حزيران ١٨٣٠ ، ولما وصلتها كان حبيب مع معلمه الخوري يوسف شاهين هناك . وهو اول من وقع نظري عليه فسألت « من هو هذا ؟ فقيل لي : انه تلميذ الخوري يوسف شاهين » . ومن اللحظة الاولى وقع حبّه في قلبي موقعا عظيما »[١٣٣] .

يتضح لنا من خلال مذكرات المطران الحبيب ان رحلته من بيت الدين الى « عين ورقة » كانت شاقة ومؤلمة . فالمسافة بعيدة ، والمواصلات قليلة وصعبة ، كما وصفها هو بنفسه ، حيث يقول :

« ان المكاري الذي استصحبتُه اذ ذاك أذاقني من

---

(١٢١) المصدر نفسه .
(١٢٢) يوحنا الحاج : بطريرك الموارنة (١٨٩٠ ــ ١٨٩٨) . كان حكيما بعيد النظر . جدد مدرسة روما وفتح دورا لطائفته في القدس وباريس .
(١٢٣) العنداري : المصدر نفسه .

الارهاق أمرّه . فانه كان ينتهرني اذا تأخرت عنه لتعبي ، ويشتمني اذ سبقته ، ولقد تعبت تعبا باهظا بعد المسافة الفاصلة بين بيت الدين ومدرسة عين ورقة ، فقطعتُ كل هذه المسافة على قدمي ، والمكاري كان يفرط في قساوته نحوي بدلا من أن يشفق عليّ ، ويركّبني ولو قليلا في السهل » .

اضاف :

« وما كنت لاجرؤ على أن استميحه الركوب لفظاظة طبعه ، ولاشتراطه عليّ أن يقصر حمل دابته على لوازمي فقط . بل كنت اعدّ سكوته عني منةّ عليّ ، وبالاجمال لم يسلّني على ذاك الطريق الطويل شيء الا افتكاري في نعمة قبولي في المدرسة ... » .

وقال الحبيب ايضا :

« اما القسوة التي عاملني بها ذاك المكاري فكانت حافزا قويا لاشفاقي على غيري . فاني منذ ذاك الحين صرت لا انظر مظلوما او تعبا الا ذكرت مرارة الظلم والتعب مما بُليت به وقتئذ . وبذكْري هذا ، كانت تتحرك في قلبي شعائر الشفقة والحنو تجاه من يعانون الحرمان والالم » [١٣٤] .

(١٣٤) المصدر نفسه ص ٢٩/٣٠ .

وتعلم الحبيب من المكاري ان لا يفكر في الرجوع الى بيت الدين الا بعد ان يكون قد احرز نجاحا بارزا ملحوظا . فكيف كانت سيرة هذا الطالب الذي ما نسي « مآثر » ذلك المكاري الظالم ؟

الحبيب والاساتذة والزملاء

في المدرسة « لم ير حبيب نفسه غريبا وسط محيطه الجديد ، بل انسجم كل الانسجام مع رفاقه وكيّف ذاته بمقتضى قوانين المدرسة ــ ونظامها الداخلي ، واضعا نصب عينيه القيام بواجباته بدقة واتقان ، وتتميم فروضه الروحية والدراسية على اكمل وجه » [١٢٥] ، اذ هو ينظر الى مدرسة « عين ورقة » كأنها « أم المدارس المسيحية الشرقية كافة » [١٢٦] ، رغم الحالة السيئة التي طرأت عليها « بسبب المنازعة الشديدة بين رئيسها المباشر المطران يوسف رزق وبين عائلة بيت اسطفان ، على الحقوق الولائية التي استغرقت مدة طويلة فأثرت جدا على سير المدرسة ، في بادىء الامر ، الى ان نجحت اخيرا مساعي البطريرك والاساقفة وولي المدرسة ، بعد تدخل الكرسي

(١٢٥) المصدر نفسه .
(١٢٦) المصدر نفسه .

الرسولي » [١٢٧] ، فذ َلّلت هذا الخلاف الحاد ، وسوّت الامور بوفاق كان لا بد منه .

أثار الحبيب اعجاب اساتذته وزملائه طوال سبع سنوات ونصف قضاها في تلك المدرسة . فكان لزملائه المرشد والصديق والاخ ، حتى ان البطريرك الحاج نفسه قال عنه :

« لم يمض علينا يوم من ايام المدرسة الا وجدنا انفسنا مع حبيب منكبّين على نسخ الكتب المدرسية ، لقلة المطابع في أيامنا . فكان حبيب يشتغل ويشغل الآخرين معه ، وكنا جميعا طوع ارادته لما لمسناه فيه من الغيرة والاندفاع ، اذ خلق بيننا جوا من الفرح ومتعة في القيام بالواجب ، فتعلقت قلوبنا به ، ورحنا نتسابق في كل صباح ومساء ، الى العمل معه باتقان واخلاص . وما الكتب الخطيّة العديدة التي كتبها بيده ، وتركها من بعده اثرا ثمينا ، الا اكبر شاهد على جَلَده وتضحياته في سبيل العلم » [١٢٨] .

وقال عنه الخوري سمعان ايوب فرح الدلبتاوي :

« ما زلت أذكرُ برضى وارتياح أني عُينتُ مدة من

---

(١٢٧) المصدر نفسه .
(١٢٨) المصدر نفسه ص ٣٧/٣٨

الزمن راعيا لصف حبيب بطرس الخوري في مدرسة عين ورقة ، فعرفت فيه حينذاك الطالب المثالي » [١٢٩] .

على ان حبيب « كان السابع عشر في لائحة تضم خمسة وخمسين طالبا . لكن القسم الاكبر من هؤلاء التلاميذ لم يلازموا رفقته في المدرسة الا مدة وجيزة . ومن بين الاشخاص المعروفين الذين عايشوه في حقبة دراسته ، نذكر: غالب الدحداح [١٣٠] ، الذي نال شهرة واسعة ومكانة رفيعة وكان الصديق الصدوق للحبيب . وبطرس عبدالله

---

(١٢٩) المصدر نفسه .
(١٣٠) آل الدحداح : من مشايخ لبنان المسيحيين . لهم ذكرهم في السياسة اللبنانية والادب العربي . كتب لهم الامير يوسف صكا بمقاطعة الفتوح عهدة لهم وسلمهم محاصيل أرزاق المشايخ الحمدانية فيها . منهم : الشيخ يوسف جرجس . أول من استلم منهم مشيخة العاقورة ١٧٠٠ . والشيخ اسكندر ت ١٩١١ . قانوني ، نقل الى العربية قانون التجارة العثماني . والكونت رُشيد ١٨١٣ - ١٨٨٩ . ولد في عرمون (كسروان) . توفي في باريس . من كبار أدباء القرن التاسع عشر . قضى النصف الاخير من حياته في فرنسا وتونس وأنشأ في باريس جريدة «البرجيس وأنيس الجليس» . نشر معجم جرمانوس فرحات . له مؤلفات في التاريخ والادب وفقه اللغة . الشيخ الدكتور نجيب الدحداح (ت ١١ ايلول ١٩٨٤) . أمين عام وزارة الخارجية . له مؤلفات وكتابات صحفية في جريدة «Le Reveil» كان يوقعها باسم (Libanuis). الشيخ فريد ، قاض ، رئيس مجلس الخدمة المدنية . الشيخ سليم فريد ، رئيس مجلس ادارة كازينو لبنان (سابقا) . الشيخ سمير محام . الشيخ شارل محام . والشيخ لوسيان .

البستاني الذي اشتهر بعلمه وادبه ، ومرعي ابن الخوري يعقوب الحاج من دلبتا الذي رُقّي فيما بعد بطريركا على الطائفة • وحبيب بن يوسف بشارة المرّيض من زوق مكايل الذي سيمَ مطرانا على عرقا شرفا • وشبلي الخوري يوسف البستانـي من الـدبّية الـذي اختير مطرانـا لصور وصيدا » (١٣١) •

الجميع شهدوا له ••• وأثنوا عليه ••• والتفوا حوله• فهو المميز من الكثير من الرجال ••• أو هو « مع هذا الذكاء ، كان (•••) حزما ، نشيطا ، قوي الارادة» (١٣٢) • وقد « احرز لكل سر كمالا » (١٣٣) ، ففي اي ظرف طلبناه وجدناه انسانا نظاميا سالكا في واجبه ، قادرا نعمة ربه وافيا لها » (١٣٤) •

فهل تضيق الدنيا بوجه مثله ؟ أم انه سيكون هو نفسه ذلك العالم الواسع ، فيدعو اصحابه الى محيط عقله وروحه اللامحدود ؟

ان من كانت عنده هذه الطاقة اتسعت له الدنيـا ولو كانت ضيّقة •

---

(١٣١) المصدر نفسه ص ٣٥
(١٣٢) المصدر نفسه ص ٤٠ •
(١٣٣) المصدر نفسه •
(١٣٤) المصدر نفسه •

ونحن اذ نذكر الحبيب ورفاقه ، ممن ذكرنا ، وجميع الذين مروا بتلك المدرسة ، التـي أغنْت لبنـان والمنطقة وبعض البلدان العالمية بمن خرّجت من الاساقفة والكهنـة والادباء والشعراء والمؤرخين والباحثين ، فانما لنحيّي «عين ورقة» بالذات ، التي اوقفتها النزاعات مثلما اوقفت ، مـن قبْل ، مـدرستي « الرّها » و « نصيبين » السريـانيتين العظيمتين •

محاولة جريئة ولكن •••

لم يتسنّ للحبيب ان يترهب عندما هرب من المدرسة « عين ورقة » الى دير ميفوق (١٣٥) • فهذه القصة ، المغامرة الطريفة ، هي كما ذكرها الحبيب نفسه للاب السبعلي ، اذ قال :

« بعد مرور سنة وتسعة اشهر على دخولي مدرسة عين ورقة ، لبستُ زي المساكين الشحاذين ، وهربت ليلا وذهبت الى دير ميفوق ، حيث كان الرئيس العام الاب بليبل (١٣٦)•

---

(١٣٥) ميفوق : قرية لبنانية تقع في قضاء جبيل . والدير المذكور هو للرهبانية اللبنانية المارونية . عقـد فيه مجمع ١٧٨٠ .
(١٣٦) هو الآباتي اغناطيوس بليبل ،الرئيس العام السادس عشر على الرهبانية اللبنانية المارونية ، وهو مـن مواليـد بحرصاف (ـــ ١٨٣٢) .

فاطلعته على امري ، وطلبت اليه ان يرهّبني في دير حوب ، لاكون قريبا من معلمي الحبيس القس واكيم . فأرسلني الرئيس العام الى دير حوب وقال لي : « ابـق هنا حتى اعرض امرك للسيد البطريرك . ثم بعد مرور نحـو نصف شهر ، كتب الاب العام الى رئيس دير حوب كتابا يأمرني فيه بالذهاب الى غبطته . فذهبت رغما عني . فأمرني غبطته بالرجوع الى المـدرسة ، ولم يقبل تضرعاتي وتـوسلاتي الكثيرة . فرضخت للامر ، وعدت الى المدرسة ، وكـانت مدة اقامتي فيها نحو ثماني سنين » (١٣٧) .

او هي كما يرويها البطريرك يوحنا الحاج القائل :

« ان حبيب لم يُخف عني شيئا من اموره الخاصة الا رغبته في الترهّب . فقد أخفاها عني في البداية الا انه اخبرني بها اخيرا . فحدث انه في احدى الرياضات السنوية التي كنا نصنعها عادة في اسبوع الآلام ، تاقت نفس حبيب كل التوق الى الزهد في الدنيا والتكرّس لله تكرّسا مطلقا تحت تدبير معلمه البار الناسك القس واكيم . فصلى واكثر من الصلاة في تلك الرياضة . ولما صمم على هجر المدرسة ، شرع يهيء زاده ، مما كان يوضع امامه على المائدة اذ كان يأكل نصف طعامه ، او اقل ، ويأخذ الباقي الى مخدعه خفية ، حتى جهز بعض ارغفة زادا له في طريقه الطويل الى دير سيدة ميفوق » .

---

(١٣٧) العنداري ، نفسه ص ٤١

وتابع البطريرك الحاج يقول :

« صحونا سَحر يوم من سِبّة (١٣٨) عيد الفصح ، وطلبنا التلميذ حبيب فما وجدناه . بل وجدنا على سريره ثيابه الجديدة وطربوشه الجديد . ترك هذه الامتعة لعله يعوّض على المدرسة شيئا مما انفقته عليه . ولبس ثيابا رثة ، ثم اعتلى سطح المدرسة وقفز عنه ليلا ، وذهب في طريقه الى دير ميفوق . وفي ذهابه تنكّب الطريق من المدرسة الى البحر اخفاء لامره ، وخوفا من ان يلقاه احد فيعرفه . هذا ما اخبرني به حبيب بعد عودته . اما نحن ، فلما لم نجده ، امسى كل منا في أسوأ حال من الحزن ، كأنه فجع باعز عزيز » (١٣٩) .

لماذا كانت هذه المحاولة ...؟

هل كان الحبيب يعرف ما تخبئه له الايام .. فاستعجل الوصول ؟ هو يريد ان يكون راهبا ... ويريد ايضا ان يكون « مُرسلا » ... غير ان الاحلام الكبرى لا تتحقق بدون المتاعب والمعانيات .

ان هذا ما سنعرفه في القسم التالي .

---

(١٣٨) سِبّة ، هنا ، اللفظة السريانية ومعناها الاسبوع . (قاموس) .

(١٣٩) المصدر نفسه .

الحبيب : الفقيه والمؤسس

لما تخرج الحبيب في مدرسة « عين ورقة » كان علمُ الفقه « منحصرا ـ كما في القرون المتأخرة ـ بالمسلمين دون سواهم . فقلما رأينا فقيها نصرانيا في لبنان قبل الحبيب » (١٤٠) . اما « الذين كانوا يتولون القضاء فيه من النصارى في تلك الحقب ، فكان فقههم مقصورا على نتف يحصّلونها من المطالعات الشخصية ، لا من الاخذ عن استاذ » (١٤١) . لهذا « كانوا يعتمدون في اهم احكامهم على فتاوى من مشايخ المسلمين » (١٤٢) .

ومن بين المسيحيين الذين عملوا، آنذاك، في القضاء : المطران يوسف اسطفان ، والمطران جبرائيل الناصري

(١٤٠) الاب يوحنا العنداري المصدر نفسه ص ٤٥
(١٤١) المصدر نفسه .
(١٤٢) المصدر نفسه .

والخوري ارسانيوس الفاخوري والخوري جريس يمين الاهدني (١٤٣) .

على ان لبنان بقي « بموجب نظام شكيب افندي ، مقسوما الى قائمقاميتين ، درزية ونصرانية ، على رأس كل منهما قائمقام يعينه ويقيله والي صيدا » (١٤٤) .

وقضى هذا النظام الجديد « بان يكون في كل قائمقامية مجلس يرأسه القائمقام ، مؤلف من نائب القائمقام ، وقاض ومستشار عن كل من الطوائف الخمس ، السنّة والموارنة، والدروز ، والروم الارثوذكس ، والروم الكاثوليك . واقتصر على تمثيل الطائفة الشيعية في المجلس بمستشار ، لعدم اعتراف العثمانيين بانظمة شرعية خاصة بالشيعة » (١٤٥) .

و « قام شكيب افندي بنفسه بتعيين اعضاء مجلس القائمقاميتين لمدى الحياة . وقضى بان يكون لرؤساء الطوائف المعينة حق تعيين من يملأ المراكز الشاغرة عند الحاجة ، بالاتفاق مع القائمقام واعضاء مجلسه ، وبموافقة

(١٤٣) المصدر نفسه .
(١٤٤) الصليبي ، المصدر المذكور سابقا ، ص ١٠٦
(١٤٥) المصدر نفسه .

والي صيدا . وكان على العضو ، بعد تعيينه ، ان ينصرف بكامل وقته الى اعمال المجلس ، فيتقاضى عن ذلك راتبا شهريا معينا » [١٤٦] .

و « كانت للمجلس ، في كل من القائمقاميتين، مهمتان: الاولى مالية ، وهي تقدير الضرائب وتوزيعها على المناطق وجبايتها ، والثانية قضائية ، وهي النظر في الدعاوى المحالة اليه من القائمقام » [١٤٧] .

وبما ان الفقه الذي قوامه « درس الشرع وتطبيق احكامه تطبيقا عادلا منصفا بين الفرقاء المتخاصمين» [١٤٨] رأى البطريرك يوسف حبيش [١٤٩] « وقد تفانى غيرة على

---

(١٤٦) المصدر نفسه .
(١٤٧) المصدر نفسه .
(١٤٨) العنداري : المصدر نفسه .
(١٤٩) آل حبيش : أسرة من مشايخ لبنان الموارنة . نزحت من يانوح ــ قضاء جبيل وتوطنت غزير ١٥١٥ . اعطت البلاد عدداً من رجال السياسة والدين والعلم منهم : أبو منصور يوسف وأخوه أبو يونس سليمان ، كانا مستشاري الامراء العسافيين . ابو ضاهر يونس ، امين خزانة الامير فخرالدين المعني الثاني . طربيه ،ولاّه الامير احمد معن غزير وجوارها. يوسف بطريرك الموارنة ١٨٢٣ ــ ١٨٤٥ . جعل دير مارعبدا (فتوح كسروان) مدرسة اكليركية وعني بمدرسة عين ورقة ونظّم الاوقاف والقضاء .شديد ، قنصل عام الدولة العثمانية في ايطاليا وباريس ١٩٠٠ ــ ١٩١٠ ثم وزيرها المفوض في تفليس (جيورجيا) ١٩١٠ ــ ١٩١٨ . يوسف يعقوب ١٨٥١ــ ١٩١٣ .له « الفوائد الادبية في اللغتين الفرنسية والعربية». وفؤاد صاحب دار المكشوف .

في لبنان » [١٥٠] ان الامر يحتاج الى « شباب يتخصصون في درس القانون وعلم الشريعة » [١٥١] فاختار « غبطته تلميذين متفوقين من طلاب مدرسته عين ورقة ، هما حبيب البتديني (المترجم له) وبشارة خليل الخوري» [١٥٢] (جد الرئيس الاسبق بشارة الخوري) وأمر بارسالهما الى بيروت لدرس الفقه .

تردد الحبيب في تلبية رغبة البطريرك ، بادىء الامر ، الا انه عاد بعد ان اقنعه المطران يوسف رزق ، فلبى طلب صاحب الغبطة ، فأرسله هو وبشارة الخوري الى بيروت في اول تشرين الاول سنة ١٨٣٨ ، ليدرسا على يد القاضي الشيخ محمد البزري ، والمفتي الشيخ أحمد افندي الغر [١٥٣] ، ولكن بقاءهما في بيروت لم يطل اكثر من شهر

---

(١٥٠) العنداري نفسه .
(١٥١) المصدر نفسه .
(١٥٢) المصدر نفسه .
(١٥٣) الشيخ أحمد مصطفى الغر (١٧٨٣ ــ ١٨٥٧) : قاضٍ ومفتٍ في بيروت . اخذ الطريقة القادرية عن أبي حسن علي الكيلاني . له « الفتاوى الحاوية لوقائع زمانه » و«ديوان». مدحه المفتي عبد اللطيف فتح الله (١٧٦٦ ــ ١٨٤٤) في قصيدة حائية مطولة على البحر الطويل ، ومما جاء فيها :

« ترنم حمام الدوح في أحسن الصدح
فقد هام بي وجدي الى ساكن السفحِ =

واحد ، حيث تفشى الطاعون في المدينة ومـات القـاضي البزري • وبرغم ذلك « نسخ الحبيب وجمع عدة فتـاوى واحكام موقعة بامضاء الشيخ الغر ، واحتفظ بهـا بـين اوراقه الخاصة طوال توليه القضاء » (١٥٤) •

وما حدث لبيروت لم يمنع الحبيب وبشارة من تحصيل ما خسراه هناك ، فانتقل الزميلان الى طرابلس « حيث قرأ الفقه على الشيخ إعرابي الزيلع ، مدة تسعة أشهر ، حتى انتهيا من ذلك في اوائل شهر آب ١٨٣٩ » (١٥٥) ... ثم قفلا عائدين الى الجبل •

= أمـرت ، نسيم السفـح ، فيك ملمـة
شممت لهـا نفحـا ، ففردت للنفـح
صدحت على الاغصان تلهو عن الهـوى
وينمو غرام الصب من ذلـك الصدح
وبـالغ معي في حمد أحمـد جـاهدا ،
وابد معي في حمـد أحمد ابلـغ المـدح
ابد المجد ، طـود العز في كـل مـوطن
وركح العلايا : فخرها فيه من ركح (*)
يميـل الى كسب المعـارف والعلـى
يرى أن هذا الكسب من أحسن الكدح»

انظر ديوان المفتي عبد اللطيف فتح الله ، الجزء الاول، حققه زهير فتح الله ، راجعه محمد الحجيري ، بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ ، يطلب من دار النشر فرانتس شتاينر بفيسبادن ، ص ٤٧٧/٤٨١

(*) فسرها بـ : ركن الجبل •

(١٥٤) العنداري ، نفسه ص ٤٨

(١٥٥) المصدر نفسه •

الحبيب يعيّن قاضيا شرعيا

فور وصول الحبيب الى البطريركية « اطّلع على كتاب من الامير امين بن الامير بشير الشهابي الكبير ، حاكم جبل لبنان ، جوابا على كتاب غبطته ، يقول فيه ان اباه يستدعي حبيبا لينصّبه قاضيا شرعيا » (١٥٦) •

يعود تاريخ هذا الكتاب الى ٢٠ آب ١٨٣٩ ، ونصه كما يلي :

« جناب حضرة المحب الاعز الاكرم البطريرك يوسف (حبيش) المكرّم دام بقاه ،

غب اهداء عاطر المحبة وأداء فاخر المودة ... صدر بتاريخه أمر سعادته (أي ابيه الامير بشير) بأن عزيزنـا الشدياق (١٥٧) حبيب البتديني يُنصَّب قاضيا مع عزيزنـا الخوري ارسانيوس الفاخوري ، موضع عزيزنا الشديـاق جرجس يمّين الاهدني •• فيقتضي أن ترسلوه لهذاالطرف لكي نقفه على خاطر سعادته الشريف • كذلك قبـل أن ترسلوه ، تفهـّموه جميع ما تقتضيه هذه الوظيفة،بحسبما

---

(١٥٦) المصدر نفسه .

(١٥٧) الشدياق ج شدايقة : من كان أدنى من الكاهن درجة واحدة وهي يونانية الاصل (قاموس) .

تراه فطنتكم • وأما أخونا الشيخ بشارة الخوري فسيلزم لخدمة سعادته ببعض أمور • فاقتضى افادة محبتكم بذلك، ودمتم محروسين » •

محبكم أمين شهاب

حاول الحبيب أن يتهرب من هذه المسؤولية (الوظيفة) لانه كان يفكر في غير ذلك • لكنه ، هذه المرة أيضا، رضخ للامر ، و « اعتلى حبيب منصة القضاء ، قبل ارتقائه الكهنوت ، وهو بين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من العمر • أما المدة التي مارس فيها هذه الوظيفة ،فتمتد من ٢٠ آب ١٨٣٩ الى ١٣ تشرين الاول ١٨٥٥ ، أي ما يزيد عن ستة عشر (كذا) سنة » [١٥٨] فيما عمل الشيخ بشارة « في ديوان الاعمال العدلية » [١٥٩] ، كما علّم « الخوري يوحنا الحاج والخوري بطرس منصور ، الفقه » [١٦٠] بأمر من الامير الذي استجاب لالتماس غبطته » [١٦١] • و « قرأ الكاهن على الشيخ بشارة مدة خمسة أشهر • ثم نفي الامير الى مالطة في غرة تشرين الاول سنة ١٨٤٠ ، وفيها نزعت الدولة العلية ولاية سوريا

---

(١٥٨) المصدر نفسه ص ٥٣ •
(١٥٩) المصدر نفسه •
(١٦٠) المصدر نفسه •
(١٦١) المصدر نفسه •

من يد محمد علي باشا ، ونصّبت الامير قاسم واليا على الجبل » [١٦٢] •

تنقّل القاضي حبيب بين غزير ، وصربا ، وبكفيا ، وبرمانا ، ودلبتا ، و « دير العفص » [١٦٣] ، يحكم بالعدل، ويحل المشكلات المستعصية ، فحقق شهرة صارخة أكسبته صداقة المخلصين ، وبخاصة الاب اسطفان قزاح (سبق ذكره) ، الذي أصبح ، فيما بعد ، رفيقا له على طريق « الرسالة » •

وعُرف الحبيب بالقاضي النزيه أو كما يصفه المثلث الرحمة البطريرك الياس الحويك [١٦٤] حيث يقول :

« كان شغله الشاغل ، في توليه القضاء ، الانتصار للحق والنهضة لاحقاقه بكل ما لديه من امكانات حتى دلت

---

(١٦٢) المصدر نفسه •
(١٦٣) يقع « دير العفص » تحت الطريق المؤدية الى دلبتا من جهة غزير • بني سنة ١٧٩٧ م• سكنه رهبان من الرهبنة اللبنانية • لا يزال صالحا للسكن •
(١٦٤) الياس الحويك (١٨٤٣ – ١٩٣١) بطريرك الموارنة ١٨٩٩ • امتاز بحزمه واحسانه ابان الحرب العالمية الاولى فكان مقامه البطريركي موئلا للمنكوبين • انتدبه اللبنانيون الى مؤتمر الصلح في باريس للمطالبة باستقلالهم واسترجاع الاراضي المسلوخة من لبنان •

عليه الايدي ، ونطقت باستقامته الافواه ، وقيل عنه،هوذا الحق » (١٦٥) •

من القضاء الى الكهنوت

أكثر من خمس عشرة سنة ظل الحبيب قاضيا • وقد كان له أن يستمر في القضاء زمنا طويلا ، لو لم يُجْبَه ، من قِبل الامير ، في مسألة يوسف بك كرم • فالامير يريد من الحبيب أن يحكم ابن كرم ••• بينما الحبيب يرفض مجاراة الظالم ••• والقضاء بغير الحق •

ما هي قضية يوسف كرم ؟

الحبيب ، نفسه ، رواها مبيّنا المؤامرة على يوسف بك كرم ••• شارحا موقفه ، من هذه القضية ، الذي لم يتراجع عنه برغم الضغوطات والاغراءات التي مارسها عليه الامير ، فقال :

« في سنة ١٨٤٥ تعيّن الخوري ارسانيوس في المجلس ثم خرج منه سنة ١٨٥٢ بأمر المجمع المقدس • وحينئذ استدعاني القائممقام ، وأمرني بتعاطي وظيفتي بالقرب منه،

---

(١٦٥) اخرجه العنداري ص ٦١

خارج المجلس ، الى أن يتهيأ له نصْب قاضٍ رسمي بدلا عن الخوري ارسانيوس •

« أما الاب الحاج ، فنصّبه الامير حيدر قاضيا رسميا في المجلس ، في شهر تموز سنة ١٨٥٣ ، عوضا عن الخوري ارسانيوس • ثم مات الامير حيدر في ١١ ايار ١٨٥٤،فتولى الامير بشير عساف وكالة القائمقامية • وفي ١٣ آب ١٨٥٤ تعين الامير بشير أحمد قائمقاما ، فجمع أرباب المجلس وأوصاهم بسلوك طريق الحق والانصاف • وأوعز الى الاب الحاج أن يكتب امضاءه « قاضي مؤقت » ، محتجا أن القاضي الرسمي هو الخوري ارسانيوس • فأنكر أبوّته عليه هذا الامر وغادر المجلس • فاستوفى الامير مرامه بالحيلة ، فانه كان يكره ابوته باطنا ، لاتهامه له أنه كان ضلعا مع الامير بشير عساف • فاستدعاني حينئذ وأمرني بأن أكون قاضيا مؤقتا في المجلس ، الى أن يتم سعيه في ارجاع الخوري ارسانيوس الفاخوري الى قاضوية المجلس، ورغّبني في صرف المعاشين ، أي معاش كوني قاضيا خارج المجلس ، ومعاش قاضوية المجلس • فاستعفيتُ ، فلم يقبل• فأخذ يلاطفني ويتملّقني بحلاوة لسانه بقوله:أصير ممنونا، ونحوه • فاعتذرت اليه بحجة ضميري ضيّق ، فأخاف مخالفة الآراء في المجلس • فأبرمني بمعاهدته لي بحضور المطران يوسف رزق ، على انه لا يجري شيئا من أحكام

المجلس ، الا أن يكون على وفق رأيي ، وأنه لا يستخدمني أكثر من شهر واحد . فضاقت حجتي ، فدخلت المجلس في ٨ أيلول سنة ١٨٥٤ ، ثم اعتزلت عنه في ١٢ شباط سنة ١٨٥٥ . ثم عزلني الامير عن قاضويتي خارج المجلس في ١٣ تشرين الاول سنة ١٨٥٥ » (١٦٦) .

على أن قضية يوسف بك كرم هي التي كانت بمثابة ناقوس الخطر ، الذي دق يومذاك في المجلس ، مما قلب الامور حتى انتهت الى ما كان يشتهي الحبيب ويرغب ، بل الى ما كان ينتظره ، منذ طفولته .

وقال الحبيب :

« ان ما أسلفته من سخط الامير بشير أحمد عليّ ، فيعلم سببه مما يأتي شرحه ، وهو أن يوسف بك كرم كان مأمور عهدة اهدن وملحقاتها ، وكان ضلعا مع الامير بشير عساف ، في مدة الوكالة ، بخلاف أكثر مشايخ بلاد الجبّة ، ومنهم أخو يوسف بك كرم ، فانهم كانوا ضلعا معه على الامير المذكور . فلما تولى الامير بشير أحمد القائمقامية هاجوا وماجوا . فمنهم عن طمع بربح انشراح خاطر القائمقام ، ومنهم عن حسد أوجهيّة يوسف كرم ونزع المأمورية منه وتسليمها لاخيه » .

---

(١٦٦) المصدر نفسه ص ٦٦/٦٥

أضاف :

« فحضروا ومعهم الكثير من الاهالي ،وشكوا يوسف بك كرم مدّعين عليه عدّة دعاوى جنائية ، مما يترتب على ثبوتها اهلاكه أو نفيه مؤبدا . فمنها أنه سالب راحة الاهالي ومالهم ، ومنها أنه هيّج الاهالي غير مرة على التمرد على الحكومة ، وسبّب القتل ، الى غير ذلك . فأحال القائمقام دعاويهم الى المجلس ، وبحصر المعنى إليّ لأني أنا قاضي الموارنة ، والغرماء موارنة . وبحسب ترتيبات الدولة يومئذ يتعلق بي وحدي الحكم ، وأما باقي المجلس فليسوا سوى معاونين وشهود . فأقام هؤلاء دعاويهم في المجلس ،وغب أن طال الخصام بينهم ، لم يثبت شيء من دعاويهم . بحسب قرار رأي المجلس بحضرة القائمقام . عندئذ استماحه بعض أرباب المجلس تصفية خاطره على يوسف بك ، فيخدمه حق الخدمة . فأجاب بالإغضاء عن الدعاوى المذكورة ، وإنما هو يريد اقامة الدعوى عليه من حيث انه مأمور متعدّ حد مأموريته . فادّعى عليه في المجلس انه خالف تعليمات الدولة ، باستعماله القاء بعض أهالي مأموريته في السجن ، وربط بعضهم وتقييد بعضهم بالجنازير . فلم تثبت دعواه هذه أيضا لأن يوسف بك نفاها وفنّدها كلها موضحا أنه سلك مسلك عامة المأمورين الجاري في القائمقامين ، في الماضي وفي الحاضر . وطلب حينئذ يوسف بك الى القائمقام

أن يطلعه على التعليمات للسلوك بموجبها ، فأبى . ولما خاب أمله من تذنيب يوسف بك ، استدعاه الى ناديه،وعزله عن مأمورية العهدة . فذهب يوسف بك الى بيروت ينتظر قدوم دي لسبس ، قنصل عام دولة فرنسا في بيروت،حتى يشتكي » .

واستطرد الحبيب يقول :

« وبعد ذهاب البك ، توسلتُ الى القائمقام ليقيلني من المجلس ، فأجاب : اكتب مضبطة باستعفائك واذهب . فكتبتُها وأمضيتُها وتسجلت في المجلس . واذ استأذنتُه بالذهاب قال : اصبر عليَّ يومين ثلاثة . فبقيت الى أن قدم القنصل ، فغضب أشد الغضب على الامير وشهوده.فخاف الامير ، ورجع يكلف المجلس تذنيب يوسف بك ليعتذر للقنصل ، وطال الجدال بينه وبين المجلس . وأخيرا أخذ يتملقهم واحدا فواحدا . فاعتذروا بأن البك ماروني ، فالحكم عليه مختص بالخوري . فأجابهم بأن الخوري لا عائق منه . اذ ذاك استكتب كاتب سره مضبطة ،مضمونها أنه من بعد الفحص والتدقيق والتحقيق ، ثبت لدى المجلس ارتكاب البك القباحات والجنايات ، حسب الدعاوى المقامة ضده ، وأن عزل القائمقام له عن المأمورية واقع في محله ، الخ ... »

وأضاف أيضا :

« ثم استدعاهم واحدا فواحدا مبتدئا من قاضي الاسلام ثم الدروز ، ثم ثم ... وقال لهم : ان الخوري وعدني بامضائها في الآخر ، بعد أن حلفت له على أنني لا أضرّ الغريم . فمالوا الى ذلك ، وكل منهم جرّ الآخر بامضائه ، وبعد ، استدعاني وتملّقني كثيرا ، وحلف لي انه لا يضر البك ، وانما غرضه تخميد غضب القنصل . فاعتذرت بأن الديانة لا تسوّغ الامضاء . وأخيرا تهدّدني بأنه يضرّني . ثم أمر بالترسيم عليَّ — أي بالإقامة الجبرية — داخل مكان المجلس ، وبأن لا أخرج منه حتى أمضي المضبطة أو أردّ عليها . فبقيت الى غروب الشمس مصرّاً على جواب واحد ، وهو طلب الحرية بأن يسمح لي بالذهاب خارج القائمقامية ، في بيروت أو غيرها ، وعند ذلك أردّ على المضبطة . واذ تجسّمت المسألة ،وتداولتها الألسن ، توسط لي الامير أمين وكيله في المجلس ، فرفع الترسيم عني فخرجت » .

وقال :

« وفي اليوم التالي سُمح لي بالسفر ، فجئت الى بكركي في ١٠ شباط سنة ١٨٥٥ ، وعرضت لغبطته ما حدث ، فتكدّر جداً من سوء معاملة القائمقام ، وأوعز

إليَّ أن أقيم على وظيفة القضاء خارج المجلس ، فأقمت
عليها مدة • ثم احتال القائمقام على عزلي ، فكتب الى غبطته
ما ملخصه : أن أتجوَّل في قرى شمالي لبنان لسماع
الدعاوى ، بحجة شفقته على أصحابها • فبلَّغني غبطته
ذلك ، وأنذرني بما سيعقب هذه الحيلة • فقدمت لغبطته
عريضة تتضمن أعذارا مقبولة وشقة أخرى مضمونها اني لا
أبالي بالعزل • فغبطته أنهى اعذاري الى القائمقام فلم يقبلها
بل كلَّف نفسه القيام من برمانا الى الديمان ، حتى يستميل
غبطته الى الرضى بعزلي ، وبابدالي بالخوري بطرس
منصور • وأما غبطته فأنكر عليه مطلوبه • فاستبدّ بنصب
الخوري المذكور مكاني ، فشقّ عزلي على عموم الطائفة
من الخاصة والعامة ، وخصوصا السادة الاساقفة • وبما
ان المطران طوبيا (*) كان صاحب نفوذ ، فانتصب لمقاومته ،
حتى اضطر القائمقام الى أن يعيِّن لي نصف ماهية تقاعد ،
وبقي يصرفها لي الى سنة ١٨٦٠ ، حيث تحولت ولاية الجبل
الى متصرفية » (١٦٧) •

وكما يقول الاب العنداري ، « ترك (الحبيب)

(*) المطران طوبيا عون رئيس أساقفة بيروت • سيم أسقفا في ١٨ آذار ١٨٤٠ وتوفي في ٤ نيسان ١٨٧١ ، ودفن في كنيسة كرسيه في عين سعادة •

(١٦٧) المصدر نفسه من ص ٦٦ الى ص ٦٩

القضاء ، لكنه لم يترك الظالم يتمادى في ظلمه وفي تنفيذ
أحقاده ، بل عكف على توجيه كتاب الى القائمقام الامير
بشير أحمد ، يدافع فيه ويرافع بكل حزم وجرأة عن موكله
يوسف بك كرم » (١٦٨) •

قد يكون فاتنا أن نذكر أن الحبيب رُقِّي في ٥ نيسان
١٨٤١ درجة الكهنوت ، مع بقائه في الوظيفة المذكورة ،
وذلك على يد الاسقف سمعان زوين ، الوكيل
البطريركي (١٦٩) •

فلما عُزل عن القضاء ووجد نفسه بدون مهنة ، عزم
على ترجمة كتاب « مختصر اللاهوت الادبي » للعلامة
غوري ، وقد طبعه فيما بعد بجزأين كبيرين (١٧٠) •

---

(١٦٨) المصدر نفسه ص ٦٩ . أما نص كتاب (الحبيب) الى الامير بشير احمد فمنشور في كتاب العنداري ، وكذلك جواب يوسف بك كرم عليه . (ص ٦٩/٧٠/٧١) .

(١٦٩) سمعان زوين . كان يدعى القس طانيوس زوين . سيم أسقفا سنة ١٨١٦ وتسمى سمعان . وكلّه البطريرك على الارزاق البطريركية في قنوبين ، توفي في ٢٠ نيسان ١٨٤٨ ودفن في بكركي .

(١٧٠) عن الاب اغناطيوس سعادة ، الدراسة المذكورة سابقا بتصرف .

لقد شرع الحبيب بالترجمة ، ابتداء من سنة ١٨٥٥ ، ثم استدعاه الشيخ قانصوه الخازن لتعليم ابنه، الشيخ نوفل، الفقه ، فأقام عنده من أول أيار سنة ١٨٥٧ الى ٢٩ تموز سنة ١٨٥٩ وحدث الهيجان ضد المشايخ آل الخازن، فعمد الى محل سكناه في دلبتا مستأنفا الترجمة •

وفي أوائل سنة ١٨٦١ دعاه صديقه الخوري ميخائيل الازرق ، السرياني الكاثوليكي ، رئيس دير الشرفة ، مثلما ورد معنا ، الى الاقامة عنده على سبيل الضيافة ، فقال له الحبيب « أنا أهوى ذلك ، ولكن كيف لك ولي التثقيل على الدير ؟ » فأجابه بما يريحهما معا ، بأن يساعده على تدريس ثلاثة طلاب هناك، وأن يقيم القداس لجمهور الدير، حين غيابه ، فأقام في الشرفة الى سنة ١٨٦٥ ، أي أكثر من أربع سنوات •

كانت حياة الكاهن يوحنا حبيب «ملؤها الفضيلة والتقوى والتضحيات » كما سجل في حياته القضائية نزاهة قل نظيرها • وأكرم الحبيب والديه وتفانى في خدمتهما ، اذ كان «يحنو عليهما ويخفف عنهما أثقال الامراض والشيخوخة، فبأي عرفان جميل ضمهما اليه يوم الفتنة (١٨٤٠) وكيف وقاهما شر الغوائل ، وبأي نشاط واحترام سهر على

خدمتهما حتى يوم وفاتهما • وبأي اكرام دفن كلا منهما وبأي ارتياح كان يساعد نفسيهما بقداديسه » (١٧١) •

الحبيب يؤسس « الرسالة اللبنانية »

كل هذه المواقف النبيلة هيأت للحبيب رفاقا مخلصين صادقين • فلما كان قد رأس في ٢٥ آذار ١٨٣٩ « أخوية » من الكهنة :

— الخوري يوسف رزي ، من كفرياشيت ـ الزاوية •

— الخوري يوسف عطية الصوري ، من دبل ـ الجنوب •

— الخوري يوحنا الصايغ ، الملقب بالاسلمبولي ، أو الاستنبولي ، لانه نشأ في استانبول ـ من حيّاطة ـ كسروان •

غاية هذه الاخوية «العمل الرسولي في أحضان الطائفة المارونية » ومركزها مدرسة مار الياس الإكليريكية في عينطورة، التي انتزعتها الجمعية من الإرسالية البروتستانتية كما ذكرنا من قبل •

---

(١٧١) العنداري ، المصدر نفسه ص ٢٣

ولما لم تحقق هذه « الاخوية » النجاح المطلوب ...
فكّر الحبيب في تجديد هذه المدرسة « فرفع في ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٦٣ عريضة للسيد البطريرك يسأله تجديد المدرسة واطلاق الحرية لمن يريد دخولها من الكهنة ليبقوا عرضة لأي تدبير أو سلطة تصرفهم عن قصدهم وحاجتهم »[١٧٢] فأذن له غبطة البطريرك ، فكانت التجربة القاسية اذ « زاد في بنائها وجمع لها الاتباع الجدد » لكنه مُني بالخيبة ...

بعد ذلك ، عاد الحبيب من جديد يحث السير ليجد البديل .. حتى علم بأن الرهبان الارمن يريدون بيع دير الكرَيْم في غوسطا ، فأقبل على شرائه من أمواله الخاصة (دفع ثمنه ٩٥٠٠٠ قرش) وفي ١٣ آذار ١٨٦٦ فتح ابواب هذا الدير لاستقبال الكهنة الاولين طليعة المرسلين اللبنانيين بعد مباركة البطريرك وتثبيته « الرسالة اللبنانية » .

ومن دير الكرَيْم أخذت « جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة » تشع على العالم ، متكلة على شفيعيها : العذراء ويوحنا الحبيب،وعلى اخلاص اعضائها وتفانيهم،فاعترضتها أنواع شتى من المعوقات والعراقيل . الا أن « المؤسس »

---

(١٧٢) العنداري ، انظر « العمل » ٤ حزيران ١٩٧٨

صاحب الارادة القوية والماضي المجيد تصدى لكل هذه العقبات وذلّلها واحدة فواحدة .

ثلاثة وعشرون عاما من العمل « الرسولي » في دير الكرَيْم ، مضت فاستدعى البطريرك بولس مسعد ، يوم ٤ كانون الاول ١٨٨٩ الخوري يوحنا حبيب « للمثول بين يديه بأمر الطاعة المقدسة ورقّاه الى درجة الاسقفية ، بعد أن ظل يمانع ويتهرب منها عدة سنوات »[١٧٣] .

و « في ٤ من حزيران عام ١٨٩٤ فاضت روحه الطاهرة في دير الكرَيْم ، محاطا بأبنائه المرسلين الجدد ، ودُفن في احتفال خاشع ومهيب داخل كنيسة الدير »[١٧٤] ، فتعاهد الرفاق على متابعة المسيرة ، بحرارة وايمان .

جمعية المرسلين اللبنانيين

لقد أخذت جمعية المرسلين اللبنانيين انطلاقتها الاولى من دير الكرَيْم — كما سبق وأشرنا — وذلك بعد أن أرسى الخوري يوحنا حبيب أسسها ، وصاغ دستورا نفيسا وقاعدة « حياة رسولية » تدفع بها الى اتمام غايتها

---

(١٧٣) سعادة ، المصدر نفسه .
(١٧٤) المصدر نفسه .

واداء الثمار الوفيرة • فانصرف الآباء دون عائق الى مباشرة
الخدمات الروحية التي تجندوا لها ، وبدأوا يجوبون القرى
القريبة منها والبعيدة ، للارشاد والوعظ والتعليم ، وفضّ
مشكلات الناس ونزاعاتهم •

وسرعان ما تضاعف النشاط بفضل تزايد عدد الكهنة،
حتى أصبح للجمعية مراكز هامة في الوطن وفي المهاجر
النائية • فتتبّعوا آثار المهاجرين اللبنانيين على اختلاف
فئاتهم وطوائفهم ، فوق كل أرض وتحت كل كوكب •
فراحوا يعايشون بني ملتهم ، ويعالجون شؤون الناس
الروحية منها والزمنية • وكانوا سفراء لبنان في بلاد
الاغتراب يوم لم يكن لوطنهم الرسمي ممثلون وسفراء •

ان أول ما وطأت أقدامهم أرض الجمهورية الفضية
(الارجنتين) سنة ١٩٠١ ، حيث أسسوا مدرسة كبرى
ثانوية تمنح باسمها الشهادات العالمية المعترف بها لدى
الدولة • وفتحوا دارا للطباعة وجريدة اسبوعية باللغتين
العربية والاسبانية •

ثم انتقلوا الى الولايات المتحدة الاميركية سنة١٩٢٠
فكان لهم فيها مركزان هامان في كليفلاند وفي اكرون •

وامتد ، من ثم ، نشاطهم الى افريقيا الجنوبية سنة

١٩٢٨ ، فإلى البرازيل سنة ١٩٣١ ، حيث اتسعت دائرة
نشاطاتهم بشكل ظاهر ومثير •

هذا ، ومنذ فجر التأسيس تولى آباء الجمعية تعليم
الاولاد العلوم والآداب،فأنشأوا لهذه الغاية المعاهد الكبرى
كما تسلّموا ادارة مدرسة الحكمة في بيروت (١٩٢٠ —
١٩٣٠) ثم مدرسة عين ورقة (١٩٣٥—١٩٤٠) •

اذ ذاك سعى المرسلون الى انشاء مدرسة خاصة بهم،
فاختاروا لها موقعا وسط مدينة جونيه ، فتمّ شراء العقار
ربيع ١٩٣٩ ، وبوشر العمل حالا ، فأرسي الحجر الاساسي
في ٢٩ حزيران ١٩٣٩،وأنجز الجناح الاول حسب التصميم
الذي وضعه المهندس الروسي — اللبناني الاصل—تبلنكو،
وتحت اشرافه ، فكانت ولادة معهد الرسل •

وكان من ثمار معهد الرسل ، أن عمدت ادارته الى
تأسيس دار للنشر وكوّنت نواتها الاولى ، وعهدت،تالياً،
الى عدد من الاساتذة الاكفاء بوضع سلاسل متناسقة من
الكتب المدرسية في أصول اللغة ومدارج القراءة وفي التاريخ
والجغرافيا • وأتبعت هذه بمؤلفات أخرى منوعة،فلقيت
جميعها قبولا ، وانتشرت في المدارس ، وما زال بعضها
متداولا وبعضها الآخر قيد التجديد •

وتملك جمعية المرسلين اللبنانيين مدرسة ثانوية في جوار النخل بالقرب من مدينة صور ، تدعى « مدرسة قدموس » ، فتحت أبوابها للمرة الاولى في ١٦ تشرين الاول ١٩٦٦ وتهافت اليها الطلاب بأعداد غفيرة في أقسامها الداخلية والخارجية . وتضم « مدرسة قدموس » اليوم ، ٩٥ بالمئة من ابناء الطائفة الشيعية الذين يتلقون فيها العلوم والمعرفة طبقا لتطورات الزمن ومقتضياته (*) .

(*) والذي يؤسف له حقا ، بل يدمي القلب قبل العين ، هو أن رئيس هذه المدرسة ، الاب بطرس أبي عقل (٦٢ عاما) قد اغتيل وهو في طريقه الى مركزه ، يوم الرابع والعشرين من شهر ايار ١٩٨٦ ، وكأن الحرب لم تشبع ، والمؤامرة لم تنته بعد . ونعت جمعية المرسلين اللبنانيين الفقيد . واصدرت البيان الآتي :

« بينما كان الاب بطرس أبي عقل ، المرسل اللبناني ، عائدا في السابعة مساء اليوم (١٩٨٦/٥/٢٤) من زيارة لعدد من المرضى في مدينة صور ، اغتيل قبل وصوله الى مركز رسالته في جوار النخل عند السابعة مساء .. ودعي الى تعطيل الدروس في معهد الرسل-جونيه يومي الاثنين والثلاثاء (٢٦ و٢٧ ايار) اقرارا بأفضاله على آلاف الطلاب من كل أنحاء لبنان وطوائفه .

« ولد الاب بطرس أبي عقل في بلدة بجة ــ قضاء جبيل في ٢٤ أيار ١٩٢٤ . دخل جمعية المرسلين في أول تشرين الاول ١٩٣٨ وتلقى دروسه الفلسفية واللاهوتية في جامعة ستراسبور وسيم كاهنا في ١٢ نيسان ١٩٥٢ في فرنسا وأدى رسالته في ادارة معهد الرسل حتى ١٩٧٧ وعين رئيسا لمدرسة قدموس في جوار النخل ــ صور في تشرين الاول ١٩٧٧ وغادر هذه الحياة شهيدا لرسالته الكهنوتية » =

ان لآباء « الرسالة اللبنانية » كتابات قيّمة ومؤلفات نفيسة تزيّن المكتبات بما حوت من اصالة الفكر والروح .

ولما كانت دور النشر والطباعة هي الوسيلة الافضل ــ في ذلك الزمان ــ لبعث الحياة العلمية والفكرية ، فقد عمدت جمعية « الرسالة » الى شراء آلات للطباعة سنة ١٩٢٨ ، بلغت تكاليفها نحواً من ٣٤١٨٠٠ غرشا سوريا أي ما يوازي ٢٦١ ألف ليرة عثمانية ذهبا في تلك الايام .

وعلى أثر شراء المطبعة المذكورة وتجهيزها بكامل المعدات الضرورية ، بوشر فورا باصدار الكتب والمجلات على اختلافها . وان كنا سنذكر بعضا منها ، فهنالك المؤلفات الادبية التي وضعها أحد آباء الرسالة الاب نعمة الله العنداري سنة ١٩٢٩ : « الادب العربي » و « تاريخ الفلسفة العربية » ، وهذان الكتابان اعتمدتهما الدولة اللبنانية ووزارة المعارف في مناهجها الرسمية ، بموجب

= (النهار ١٩٨٦/٥/٢٥) .

وانهالت برقيات الاستنكار من كل مكان من لبنان وبخاصة من الجنوب ، حيث اقيمت له القداديس ، كما دعي الى تعطيل الدروس ، هناك ، احتراما له واعترافا بخدماته الجليلة .

واستنكر هذه الجريمة أيضا الكثيرون ممن هم في دنيا الاغتراب ، والكل يتمنى للبنان أن يعود الى سابق عهده من الوحدة والتعايش .

مرسوم وزاري صادر بتاريخ ١٧ تموز ١٩٢٩ • وكوفىء المؤلف ، آنذاك ، بجائزة رمزية من قبل رئيس الجمهورية — الاستاذ شارل دباس — قدرها ٣٠٠ ليرة •

أمـا مجلة « المنارة » ، التي تصدرها اكليريكيـة المرسلين اللبنانيين بثلاثة أعداد سنويا ، فهي ، بحق ، من أرقى المجلات الدينية الصادرة في لبنان ، يشرف عليهـا : الاب الدكتور أغناطيوس سعادة (المدير) ، والاب جورج حرب (رئيس التحرير) ، والاب حنون اندراوس،والاخير هو المدير الاداري • واذ تدخل « المنارة » عامها السابـع والعشرين ، تفتح ملف الطوائف المسيحية في لبنان ، الذي أغناه أساقفة ورهبان وعلمانيون بالابحاث والمقالات القيمة والموضوعية ، التي تعالج تاريخ هذه الطوائف كما تلقي الاضواء على حضورها في لبنان ، وقد كتب كل رأيه بحرية تامة ، فيما احترمت ادارة المجلة هذه الآراء جميعها وبادرت الى نشرها مثلما وصلت اليها ، مما جعل « المنـارة » في عددها الاول والثاني من سنة ١٩٨٦ ، مصدرا ومرجعـا وثائقيا لا بد منه •

وقبل أن نختم الكلام عن جمعية المرسلين اللبنانيين، لا يسعنا الا أن ننوه بتلك المكتبة التي عمل الاب الدكتور اغناطيوس سعادة على تأسيسها • فهي تضم بعض الموسوعات

العلمية والادبية والدينيـة والتاريخية الى جانب مئـات المجلدات والكتب والمجلات والدوريات •

ويمكننا القول أيضا ان لجمعية المرسلين اللبنانيـين دورا بارزا في الحقل الاجتماعي ، وان أحدا لا يعرف كيف تصدّت هذه الجمعية للمجاعة المروّعة التي حصدت الالوف من أبناء الوطن ، اثناء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) حين شرّد الكثيرون ، وخيّمت رهبة الموت على قرى الجبل والساحل ، حتى عجز الناس عن دفن موتاهم• فتطوع آباء الرسالة في لملمة أشلاء الموتى والمصابين ، غير مبالين بعدوى التيفوس وسائر الاوبئة الفتاكة •

وليس من عمل يخلّد الرجل الكبير ، المـؤسس ، المطران يوحنا حبيب ، مثل دوام « جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة » وثباتها على هذه الطريق •

الفصل الرابع

مدينة ليست من العالم الثالث

دير سيّدة اللويزة ومدرستها وجامعتها

«كان لبنان قبل نزوح الموارنة إليه جبلاً موحشاً تملأه غابات الأرز والأحراج المختلفة الكثيفة. وكان مخيفاً لوفرة وهاده العميقة وقممه الشاهقة ووعورة مسالكه وحيواناته الكاسرة. ولم يكن فيه من السكان إلا القليل، ومن الكنائس والأديار ما لا يتجاوز أصابع اليد».

الآباتي بطرس فهد

الرئيس العام السابق للرهبانية المارونية المريمية

من كتابه «الكنائس الشرقية عبر التاريخ» (١٩٧٢) ص ٧٦

مع الأب مارون صدقة

حادثتان تذكّرتُهما، عندما كنتُ أنْصت للابمارون صَدَقة، رئيس دير سيدة اللويزة في زوق مصبح — كسروان [1] (*) وهو يقص عليّ حكاية هذا الدير،قبل

(١) اثر التعيينات التي تمت سنة ١٩٨٤ أصبح الاب صدقة رئيس مدرسة سيدة اللويزة ونائب الرئيس العام الاباتي مارسيل ابي خليل. اما رئاسة الدير فقد أعطيت للابالياس كميد.

(*) وما يجب ذكره باعتزاز وافتخار هو ان الآباتي مارسيل أبي خليل، منذ انتخابه رئيسا للرهبانية المريمية، يسعى حثيثا ويجتهد مخلصا، لكي يجنّب دير القمر، حيث للرهبانية المريمية دير ومدرسة، التهجير. وقد زار الاباتي أبي خليل دير القمر غير مرة، فالتقى الوزير وليد جنبلاط وبعض القياديين في «الحزب التقدمي الاشتراكي»، عملا برسالته المسيحية والوطنية، فكانت له مواقف جريئة وواضحة تستحق منا التقدير والتأييد. اذ ان الاباتي ابي خليل، هو توفيقي وهادىء، يهمه أن يتعايش اللبنانيون، على اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم،ويتفاهموا، لا أن يتنازعوا ويتذابحوا.ولكن البلاد، يا للاسف، يسودها الرعبوالعنف والاضطراب الفكري والوطني.

وبعد أن تسلّمته الرهبانية المارونية المريمية ـ الحلبيـة سابقا •

وقتئذ كنا في جولة استطلاعية على الدير القديم ـ الاساسي ، والكنيسة ، والصالون ، والمكتبة ، و « صالون المجمع » ، نستعرض بعض حصائل ثلاثة قرون الا قليلا من السعي والتواصل •

خلفنا الى الجهة الجنوبية ـ الشرقية ، يشمخ قصر منيف ، مـن الحجارة البيض الطبيعية المصقولة ، وقـد اصطفت مئات السيارات في ساحته الوسيعة ، فيتخيل من لا يعرف أن هذا القصر (مركز سيدة اللويزة العالي) هو مدرسة وجامعة ، نفسه أمام دائرة حكومية ،في بلد لا يقع في العالم الثالث ، مطمئن الى سيادته ، وعدالة حكامـه ، ووحدة شعبه ، واقتصاده المستقر ، وجيشه القوي،وحدوده المصوّنة •

فماذا عن هاتين الحادثتين ؟

الحادثة الاولى

جرت سنة ١٥٦٩ هذه الحادثة للبطريرك المـاروني

المثلث الرحمة ميخائيل الرزي (٢) ، وتفاصيلها أن غبطتـه أوفـد الخـوري لوقـا ، من قبرص ، الى البابا بيوس الخامس (٣) ، ليقدّم خضوعه ويلتمس له درع التثبيت •

---

(٢) الرزي : أسرة مارونية اشتهر منها :
ـ ميخائيل ، بطريرك (١٥٦٧ ـ ١٥٨١) . ارسل طلابا الى روما وسعى لتأسيس المدرسة المارونية فيها .
ـ سركيس ، بطريرك (١٥٨١ ـ ١٥٩٧) . في عهده انشئت المدرسة المارونية في روما .
ـ يوسف ، بطريرك (١٥٩٧ ـ ١٦٠٨) . امر باتباع الحساب (التقـويم) الغريغوري الذي ينسب الى البـابا غريغوريوس الثـالث عشر (Gregoire 13) (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥) ، وهو الخامس والعشرون بعد المائتين في لائحـة الباباوات ، والذي اهتم بالشرقيين وأسس المدرسةالمارونية في روما .
ـ سركيس بن موسى ، ولد في بقوفا (لبنان) . تعلم في روما . مطران دمشق (١٦٠٠) . عاد الى روما حيث اشتغل في تعريبالكتاب المقدس وطبع الكتب الطقسية،وتوفي فيها .

(٣) بيوس (Pius) : الخامس ، القديس (١٥٦٦ ـ ١٥٧٢) رقمه في لائحة الباباوات ٢٢٤ .حرم اليزابيت (Elizabeth) الاولى (١٥٣٣ ـ ١٦٠٣) ابنة هنري الثامن من زوجته آن بولين ، لانها نظمت الكنيسة الانفليكانية ، وقد اشتهرت بأنها قرّبت اليها رجال الادب والفن . تحالف (Puis) الخامس مع البندقية واسبانيا فكسروا الاتراك بحرا في ليبانت ١٥٧١ ويحمل اسم (Pius) عدة باباوات أهمهم الى الخامس : الثاني (١٤٥٨ ـ ١٤٦٤) : من علمـاء النهضـة ومشجعيها .حاول عقد محالفة مع ملوك اوروبا ضد السلطان محمود الثاني. السادس (١٧٧٥ ـ ١٧٧٩) : اضطهده =

فمر الخوري لوقا بقبرص حيث اضطر أن ينتظر سنة كاملة، دونما أن تعرف ما هي الاسباب ، فأرسل البطريرك الى البابا عريضة ثانية مع الاب ايرونيموس دي فساتوس الفرنسي من رهبان القدس بالمعنى نفسه . فقدّمها الاب

= وسجنه رجال الثورة الفرنسية فمات في المنفى . السابع (١٨٠٠ – ١٨٢٣) وقّع الكونكوردا مع فرنسا ، لتنظيم الشؤون الكنسية . توّج نابوليون امبراطورا سنة ١٨٠٤ . لكن هذا (نابوليون) اغتصب دولته وسجنه .

والكونكوردا هي معاهدة بين البابا والدولة لتنظيم الشؤون الكنسية .

Concordat : An agreement between a Pope and a sovereign or government for the regulation of ecclesiastical matters . (W. N. C. D. P. 222)

– بيوس التاسع (١٨٤٦ – ١٨٧٨) : في عهده تمت الوحدة الايطالية ففقد الكرسي الرسولي ممتلكاته ، وانعزل في الفاتيكان وكذلك خلفاؤه من بعده . اعلن عقيدتي الحبل بلا دنس ١٨٥٤ والعصمة البابوية ١٨٧٠ . عقد المجمع الفاتيكاني الاول .

– بيوس العاشر ، القديس (١٩٠٣ – ١٩١٤) : حارب البدعة « العصرية » .

– بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ – ١٩٣٩) : وقّع معاهدة اللاتران (Latran) التي أنهت الخلاف بين الكرسي الرسولي والحكومة الايطالية فأصبح الفاتيكان دولة ذات سيادة . نشط حركة العمل الكاثوليكي والرسالات .

– بيوس الثاني عشر (١٩٣٩ – ١٩٥٨) أعلن رسميا عقيدة انتقال العذراء الى السماء نفسا وجسدا ١٩٥١ . أوثق عرى الصداقة وحقق تبادل العلاقات الدبلوماسية مع الدول العربية والاسلامية .

المذكور الى الحبر الاعظم بواسطة الكاردينال كارفا (محامي الطائفة بروما) . سُرّ البابا بهذه العريضة وهمّ بتثبيت السيد البطريرك واجابة ملتمَسه ومطالبه . الا أن كتابات من قبرص وردت آنذاك، على روما ، تتهم البطريرك باليعقوبية ،خلافا لشهادة الموفد الاب ايرونيموس المعهود. فكتب البابا والكاردينال والاب ايرونيموس الى الاب جان فرنسيس موركانتي رئيس « القدس الجديد » ليمضي عاجلا الى لبنان ويفحص جيدا عن سيرة البطريرك الماروني وايمانه (٤) . فقام الاب موركانتي بالمهمة « قياما مدققا مدركا عظم المسؤولية والنتائج المتوقفة على ذلك وأطلع السيد البطريرك على رسائل الكرسي الرسولي بهذا الصدد فأمر البطريرك ميخائيل الرزي الغيور فورا بالتئام رؤساء الطائفة المارونية وعلماء الامة ، فتمّ ذلك في أواخر تشرين الثاني ١٥٦٩ (٥) .

أعلن المجتمعون « أن تلك التهمة الشنعاء لا أصل لها

---

(٤) رسالة البابا هذه مؤرخة في ٨ حزيران ١٥٦٩

(٥) أخرجه الآباتي بطرس فهد ، في كتابيه :«مجموعة المجامع للطائفة المارونية عبر التاريخ » طبعة ١٩٧٥ ص ٣٤/٣٣ و « العلامة المطران يوسف سمعان السمعاني » طبعة ١٩٧٣، ص ٤٩/٥٠ ، عن « حقيقة الموارنة » للاب اغناطيوس طنوس، و « الحق القانوني عند الموارنة » للخوري اسقف جرجس منشى الحلبي ، والفغالي ، وعن مستندات أثبتها المطران بطرس ديب ، محفوظة في كاتدرائية مار بطرس بالفاتيكان .

البتة ، وأن السيد البطريرك جزيل التقوى صحيح المعتقد والعقيدة » (٦) ورفعوا في هذا الامر تقريرا مطوّلا وقّعه الاب موركاتتي نفسه والاساقفة : داود من الحدَث ، وسركيس الدويهي من اهدن ، وجرجس بن خرواحي من بشري ، وسركيس الرزي من عرقا ، وأثبتوا فيه أن السيد البطريرك « ما زاغ عن ايمان آبائهم قط وأنهم اكرهوه على قبول البطريركية »(٧) . حتى ان البطريرك نفسه كتب قائلا : «ان كنتُ غيّرتُ عادة من عوائد الكرسي الرسولي فأكون مؤاخَذا أمام الله والكرسي المقدس » (٨) .

الحادثة الثانية

هذه الحادثة وقعت في شهر ايار من عام ١٩٦٩ .وهي كما رواها لي أحد الاصدقاء ــ من الطائفة السريانية الارثوذكسية ــ ان الربّان (المطران) جورج صليبا ، قد نظّم في أحد الايام من شهر أيار المذكور ، رحلة الى وادي قاديشا (٩) ، شارك فيها طلاب المدرسة الاكليركية للسريان

---

(٦) المصدر نفسه .
(٧) المصدر نفسه .
(٨) المصدر نفسه .
(٩) قاديشا : واد في لبنان الشمالي .معناه الوادي المقدس. دعي كذلك لكثرة النساك والرهبان الذين أقاموا فيه منصرفين الى العبادة في مغاوره . كان ملجأ للموارنة في أيام الشدة . أهم أديرته : قزحيا وحوقا وقنوبين ومار اليشع ومغارة مارينا .

الارثوذكس ، وبعض وجهاء الطائفة ، الذين منهم الصديق الراوي .

وفيما كان هؤلاء يهمون بالدخول الى احدى المغاور ، قابلهم على الباب راهب جليل طاعن في السن ، ولما ألقوا عليه السلام بالعربية لم يعرْهم اهتماما ، الى أن وصل الربّان (المطران) صليبا (١٠) ، وخاطبه بالسريانية فردّ عليه بأحسن ، وقد ظهرت على وجه هذا الراهب الجليل العتيق علامات السرور والفرح ، اذ رأى الربان صليبا بثيابه الكهنوتية السريانية الشرقية . ومما قاله الراهب الماروني لزواره ، بالسريانية طبعا ، ما معناه : « ولدتُ سريانياً ، وأعيش سريانيا ، وسأموت سريانيا ، واذا لم يرض البابا فليرسلْ أحدا من قِبله يأخذ له جبتي هذه » وقد أمسكها بإصبعه ، على ذمة الراوي ، كأنها لا تعني شيئا .

في القبو

أقول: تذكرتُ هاتين الحادثتين ربما لا لسبب. فلعلّ الجو الذي خيّم على القبو ، المستطيل ، المعقود بعضه الى بعض ، والكنيسة ، هو الذي أوحى لي ذلك . فالسريانية، على كل حال ، كانت لغة سكان هذا الجبل ، أيام كانت

---

(١٠) أكدها لي المطران صليبا عندما سألته عنها .

اللغة التركية تحاول القضاء على العربية ، في بلاد المسلمين، وتترّك العرب •

في هذا الجو الذي يعبق بالطيب ، جمح الخيال وذهب بي لا ينثني ، الـى قنوبين [11] ، حيث تراءى لي الاب موركاتتي يُعمِل النار في أكوام من المخطوطات عثر عليها في مكتبة البطريرك ميخائيل الرزي ، أثناء تنفيذ المهمة ــ التحقيق في التهمة ــ المؤامرة • ولما لم أطق النظر الى تلك النكبـة التي حلَّت بهـذا التراث ، صحوتُ على الاب الرئيس مارون صدَقة ، يقـول : في هذا القبو كان يقيم الكاهن اغناطيوس سلهب الحاقلاّني ومعه أربعة رهبـان وغيرهم من المبتدئين • وقال أيضا : هنا كانت كنيسة • انظر الى هذا السقف فإنه يختلف عن سقف الدير (القبو)• لكن الترميم أزال الحيطان الداخلية اذ كانت تقطع الكنيسة عن الغرف الخمس التي كانت موزعة في القبو •

الى « الصالون »

تترك القبو الى الكنيسة • فوق بابها الذي يفتـح

---

(١١) قنوبين : دير في وادي قاديشا (لبنان) .معناه معبد . كان مقاما للبطريرك الماروني منذ القرن الخامس عشر . فيه مدافن البطاركة . عقد فيه مجمعان : ١٥٨٠ و ١٥٩٦

على الغرب كلمات متشابهة قرأها الاب صدقة كما يلـي : « بسم الله الحي الازلي بنا (بُني) هذا الهيكل المبارك على اسم أم الله الطاهرة مريم على يد أحقر عبيدها وطالب منها أن تكون شفيعة فيه وفي كل من له تعب وشوْتفـة (عناء) تحريرا مسيحية سنة ا ش ت » •

أما الباب الشمالي ، فقد ثبتت فوقه رخامة كتب عليها: « في هذا المعبد أعلن تثبيت قانون الرهبانية اللبنانية١٧٣٢، وعُقدت فيه المجامع اللبنانية • رُمِّمَ من الخارج والداخل ١٩٦١ » •

ندخل الكنيسة • الاب صدقة يركع • يصلي • يقف منتصبا • الكنيسة تمتاز ببساطتها • الابواب ما زالت كما هي •الجدران كشط عنها الكلس فظهرت متراصة متماسكة كأنها أسنان صبية جنيَّة • المذبح تغيّر فصار من الرخام• عليه صورة بالموزاييك تجسد انتقال العذراء • همس الاب صدقة قائلا : « وهنا عقد المجمع اللبناني الكبير ١٧٣٦ • راجع مؤلفات الرئيس العام الآباتي بطرس فهد» (*) •

(*) ولد في عشقوت ــ كسروان في أول ايار ١٩١١ ، دخـل الرهبانية ١٩ أيلول ١٩٢٧ . لبس الاسكيم (...) تشرين الثاني ١٩٢٨ . سيم كاهنا في ١٢ تموز ١٩٣٧ على يد نائب الحبر الاعظم ، كاردينال روما . عين رئيسا عاما على ديـر مار انطونيوس في روما١٩٦٩ .وكان نائبا عاما للرهبانية =

ثم ركع وصلّب مستأذنا العذراء التي فوق المذبح .

= المريمية لدى الكرسي الرسولي. انتخب رئيسا عاما يوم ١٠ تموز ١٩٧٥ . بعدما انتهت ولايته سكن دير مار ضوميط ـ فيطرون . زرته في هذا الدير الذي يشهد استحداث بناء ضخم سيكون مدرسة ، يوم الخميس ٢١ آذار ١٩٨٥ ، فوجدته في صحة وعافية تامتين . انه هناك يقرأ ويكتب ويحقق . رئيس الدير هو الاب برنار يزبك . ومدير الطالبية فيه الاب بولس فهد . ويسكن الدير ايضا الاب يوسف شهوان ، الذي يعمل على تأليف كتاب « حياة المسيح » كما قال لي :

أما مؤلفات الآباتي فهد فهي :

ـ كتاب الهدى : دستور الطائفة المارونية في الاجيال الوسطى .
ـ كتاب الملكية والمارونية .
ـ ترجمة الاباتي جبرائيل الشمالي الرئيس العام الاسبق .
ـ رد مسهب على منتقدي كتاب الهدى .
ـ حول كتاب الهدى وتاريخ الطائفة المارونية .
ـ اليوبيل المئوي الثاني لرسالة الرهبانية في دير القمر .
ـ مختصر عن المجامع المسكونية منذ الابتداء الى يومنا هذا .
ـ الذكرى القرنية الاولى لدير مار ضوميط فيطرون ومخطوطاته .
ـ لمحة عن مذاهب تحديد النسل .
ـ تاريخ الرهبانية المارونية بفرعيها (١٢ جزءا) .
ـ القديس يوحنا مارون البطريرك الاول على الطائفة المارونية .
ـ اقوال الراهبة هندية وترجمة حياتها .
ـ ردود ونبذات تاريخية . =

انطلقنا الى الباب العلوي ، الى الجهة الشمالية منه. حيث « الصالون » المتلىء بالارائك ، والذي يغطي أرضه السجّاد الفاخر. على جدرانه وُزّعت سبع صوَر زيتية لفنانين ايطاليين (...) عليها آثار ريشة فنان لبناني (؟) حاول اصلاحها فلم يفلح ، كما أُخبرت .

الى المكتبة و « صالون المجمع »

نسير في المشى ، بين الغرف ، نحو الجناح الجنوبي.. ليواجهنا تمثال نصفي من البرونز ، هو للمطران عبدالله

= ـ الكنائس الشرقية ، عبر التاريخ .
ـ العلامة السمعاني الشهير .
ـ اطروحة للمطران شديد بالايطالية ، ترجمة الاباتي فهد .
ـ كتاب الشرح المختصر للبطريرك الدويهي (جزءان عربي ولاتيني) .
ـ ترجمة المثلث الرحمة المطران بطرس صفير (عربي وايطالي) .
ـ تاريخ الازمنة للبطريرك الدويهي .
ـ فهارس المخطوطات في روما ولبنان .
ـ مجموعة المجامع والطائفة المارونية عبر التاريخ .
ـ الموجز التاريخي للرهبانية اللبنانية المريمية .
ـ البطريرك يعقوب عواد في الميزان .
ـ سلسلة البطاركة الموارنة وأساقفتهم ، منذ نشأة الطائفة المارونية والى يومنا هذا .

قراعلي الحلبي [12] . يمكنك ، من خلاله أن تتعرف الى ذلك العالِم الكبير ، الطويل القامة ، النحيل الوجه ، الفولاذي الارادة . ولكنك ستنزعج مثلي ، ربما ، عندما تعلم أن هذا التمثال لا يحمل تاريخا ، حتى ولا اسم النحات الموهوب ؟!

لقد تساءلتُ وأنا أتحسس هذا التمثال الرائع :أإلى هنا يتحكّم التواضع في الفنان فيجعله ينسى أن يوقّع عملا عظيما مثل هذا ؟

على يمين التمثال ثلاث لوحات زيتية ايطالية أيضا هي :

(١٢) قرآلي أو قراعَلي (عبدالله) (١٦٧٢ ـ ١٧٤٢) : ولد في حلب . من مؤسسي الرهبانية اللبنانية المارونية .اسقف بيروت ١٧١٦ . له « المصباح الرهباني في شرح القانون الرهباني » و«مختصر الشريعة » و « مواعظ »و«مذكرات» . جاء في كتاب « اليوبيل المئوي الثاني ١٧٥٢ ـ ١٩٥٢ لرسالة الرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية ، في دير القمر،» لواضعه الآباتي بطرس فهد ما يلي :

« أما المطران عبدالله قراعلي، فخر المارونية وصاحب الفضل في وضع المجمع اللبناني ، وأحد المؤسسين القديسين لرهبانيتنا العزيزة فخبِّر عن أعماله الرسالية وتضحياته العديدة في سبيل الدين والعبادة ، ولا حرج . وقد استعاض بنشر جلال أعماله ، وعظائم أفعاله في سبيل الدين والدنيا والقضاء والاصلاح الطائفي ، المأسوف على علمه التاريخي البحاثة الخورأسقف بولس قراعلي ، في ثلاثة مجلدات كبيرة دعاها « اللآلىء .. » (ص ١٤) .

١ ـ المسيح مع الام الحزينة وإحدى المريمات .

٢ ـ لوقا ومار يوسف .

٣ ـ الملوك الرعاة ـ المجوس ـ يقدمون الهدايا للطفل : يسوع .

هذه « الزيتيّات » الاخاذة أفسدها كذلك ، ويا للاسف ، « الفنان » اللبناني نفسه ، الذي تعهّد اصلاح لوحات الدير . ومن كان يهوى الفن الاصيل لا يمكنه، أبدا ، أن يتمالك دموعه عندما يتأمل في تلك اللوحات الشهيدات ، ضحايا غطرسة « فنان » مدّعٍ مغرور .

يمضي بي الاب صدقة الى المكتبة ، فاذا انا في حضرة توما الأكويني [13] ، معلم الكنيسة وحجتها في اللاهوت والفلسفة المدرسية « سكولاستيك » ، القائل فيه المطران ميخائيل ضومط :

(١٣) توما الاكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) : راهب دومينيكاني ولد في ايطاليا وعلّم في جامعة باريس . اطّلع على آراء ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) والغزالي (ابو حامد محمد) (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) وابن رشد (ابو الوليد محمد بن احمد) (١١٢٦ ـ ١١٩٨) عن طريق الترجمات اللاتينية وانتقدها. أشهر مؤلفاته « الخلاصة اللاهوتيـة » و « الخلاصة ضد الامم » .

« ان تآليف القديس توما أوفر من ان توصف بل أوفر من أن تحصر في مثل هذه الدراسة السريعة . كيف ، والقديس توما رهَن العمر ، ولو قصيرا ، على النحت والتأليف . وقد سهل عليه الامر تمرّسه بالجهد العقلي وانصرافه التام اليه . كما أنه كان يرى في التعليم والتأليف جهادا في سبيل الحق أجدى من أي سعي آخر.ولم يخطئ في رأيه هذا ، لان تآليفه ما زالت ، الى يومنا هذا ، دليلا ومعينا لكل طالب »[14] .

وفي حضرة القديس أوغسطينوس[15] ، الذي تبعهواه

---

(١٤) قادة الفكر ، توما الاكويني ، بقلم ميخائيل ضومط ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٦ / ص ١٤

(١٥) أوغسطينوس (القديس) (Augustin) (٣٥٤ — ٤٠٣ : اسقف هيبون Hippone (افريقيا) (مدينة ومرفأ في الجزائر ، تدعى اليوم « عنابة » و « يونة » سابقا) . له مؤلفات أهمها : « الاعترافات » ، « مدينة الله » ، « في النعمة » . ورد ذكره فيحاشية رقم (١) ص ١٠٧ من كتاب « اللؤلؤ المنثور » فقط . لان السريان لم يطلعوا علىمصنفات علماء الرومانيين باللاتينية ، فلم يعرفوا شيئا من كتب ترتليان وأوغسطينوس والذي وصل اليهم من امبروسيوس وروفينس وهيرونيمس ولاون ، فهو يسير ، جاءهم بطريق النقل من اليونانية ، ولم نعهد عالما سريانيا اتقن اللاتينيةغير الحكيم ثاوذوري الانطاكي في حدود سنة ١٢٤٠ م حسبما يقول البطريرك برصوم .

في شبابه واعتنق مذهب « المانوية »[16] ، القائل بمبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشر ، النور والظلام . ثم ارتد بفضل أمه مونيكا ، والقديس امبروسيوس[17] ، فأصبح من أشهر آباء الكنيسة ، اذ كان خطيبا ولاهوتيا وفيلسوفا وكاتبا،وقاوم البدع heretical doctrines ولا سيما منها « الدوناتية »[18] و « البيلاجية »[19] . وفي حضرة جاك

---

(١٦) مؤسس مذهب المانوية هو : ماني (٢١٥ — ٢٧٦) . ادخل ماني في التصوير الفارسي نسق التصوير الصيني ورسم الملائكة والشياطين . اليه مرجع اليزيدية ، العقيدة القائمة ، في الاساس ، على الغلو ، في يزيد بن معاوية (٦٤٥— ٦٨٣) ، وعلى تقديس الشيطان وتحريم التعليم . الا اناتباع هذه الفرقة قد انحصر وجودهم في شمال العراق ، في قضائي سنجار والشيخان ، ومنهم شراذم قليلة في جهات حلب وارمينيا والقوقاس ، ويقدسون في العراق مقاما باسم الشيخ علي ، ولهم كتاب ديني يسمى « الجلوة » .

(١٧) امبروسيوس (القديس) Ambrosius (٣٣٩—٣٩٧): من آباء الكنيسة . رئيس أساقفة ميلانو (ايطاليا) . فرض توبة صارمة على الامبراطور تيودوسيوس الاول (٣٧٩ — ٣٩٥) الذي ثار على أهالي تسالونيكي (سلانيك) Salonique — في شمال اليونان — فأمر بذبحهم . لهذا القديس (امبروسيوس) أناشيد دينية وتآليف عديدة في تفسير الكتاب المقدس والوعظ والطقوس .

(١٨) بدعة أنشأها دوناتس أسقف قرطاجة (٣١٥ م .) . عرفت بتصلبها مع « الخطأة » . أحدثت شقاقا وفتنا كثيرة في افريقيا .

(١٩) أنشأ هذه البدعة راهب بريطاني يدعى Pelagius (نحو ٣٦٠ — ٤٣٠) القائل « ان الانسان لا يحتاج الى نعمة الله في سبيل الخلاص » وعرفت باسمه .

بوسويه [٢٠] (Bossuet) والقديس ألفونس دي ليغوري [٢١] احد أئمة اللاهوت الادبي ومؤسس رهبنة الفداء ١٧٣٢ ، والقديس فرنسوا دي سال [٢٢] ، الذي رد الى الروحانية المسيحية ابعادها الانسانية •

أمامنا عشرات المجلدات والمخطوطات [٢٣] وكتب التاريخ والفلسفة والادب ، والقواميس الفرنسية والعربية والايطالية واللاتينية والسريانية والعبرية والانكليزية ، ومجموعة « ألف ليلة وليلة » او الحكايات الخيالية الموضوعة بين القرن الثالث عشر والرابع عشر ، وعددها ٢٦٤ تحكيها السلطانة « شهرزاد » لاختها « دنيازاد » في

---

(٢٠) بوسويه (جاك) Bossuet (١٦٢٧ – ١٧٠٤) ولد في ديجون (Dijon) (مدينة في فرنسا شهيرة بجامعتها وأكاديميتها ومتحفها) • أسقف مو • له مواعظ وتآبين فصيحة ومؤلفات لاهوتية وفلسفية وتاريخية •

(٢١) الفونس دي ليغوري (القديس) (١٦٩٦ – ١٧٨٧) • أسقف ايطالي •

(٢٢) فرانسوا (فرنسيس) دي سال (القديس) (١٥٦٧– ١٦٢١) • ولد في السافوا (فرنسا) • اسقف جنيف • له مؤلفات روحانية منها « مدخل العبادة » •اسس معالقديسة حنة شانتال راهبات « الزيارة » في فرنسا سنة ١٦١٠ ، التي أعاد تأسيسها الاب غينار اليسوعيتحت سلطةالبطريرك الماروني سمعان عواد الحصروني في عينطورة – الذوق(لبنان) ١٧٤٤ •

(٢٣) ان القسم الاكبر من مخطوطات الرهبانية المريمية نقل الى روما للمحافظة عليه •

حضرة الملك « شهريار » خلال الف ليلة وليلة سمر • وهي تنوه بوقائع تاريخية وعوائد واخلاق تلك الازمنة • على ان اشهرها قصة السندباد وقمر الزمان وعلي بابا ، وقد دخلت في الادب العالمي فترجمت الى لغات كثيرة وتعددت طبعاتها•

« اللباب »

من المجلدات الضخمة ، التي تستحوذ عليك ، « اللباب » • فهو كتاب في اللغة الارامية السريانية – الكلدانية • وضعه القس جبرائيل القرداحي الحلبي – اللبناني [٢٤] •

---

(٢٤) جبرائيل قرداحي (١٨٤٥ – ١٩٣١) •راهب ماروني• استاذ اللغات الشرقية في مدرسة « البروبغندا » • وهي احدى مدارس روما للعلوم الدينية ، يتثقف فيها الكهنة من انحاء العالم • تأسست سنة ١٦٢٣ • وبروبغنداPropagenda في الاصل ، هو « مجمع انتشار الايمان اسسه البابا غريغوريوس الخامس عشر Gregoire 15 سنة ١٦٢٢ ، يضم لجنة من الكرادلة مكلفة الاشراف على الارساليات التبشيرية• قال ، في هذا الراهب ، الآباتي بطرس فهد :
« واشهر من انجبت الرهبانية في حقل العلم والتأليف الاب جبرايل القرداحي الفيطروني » • « فكان قطبا من اقطاب العلم في الرهبانية بل في الشرق اجمع ، صرف كل حياته في رومية منكبا على الدرس والتأليف ، له مصنفات جمة منها مطبوع ومنها ما زال مخطوطا ، اشهرها قاموسه في اللغة السريانية والعربية المعروف باللباب » (اليوبيل المئوي الثاني ١٧٥٢ – ١٩٥٢ ، نفسه ، ص ١٦) •

يقع « اللباب » في جزأين ، مجموع صفحاته ١٣٢٠ .
طبع الجزء الاول (٦٢٠ صفحة) سنة ١٨٨٧ في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، « بالرخصة الرسمية من مجلس المعارف في ولاية سورية الجليلة » . وطبع الجزء الثاني (٧٠٠ صفحة) سنة ١٨٩١ في المطبعة الكاثوليكية نفسها ، وبالرخصة عينها ، ذات الرقم ٣٩٢ .

في مقدمة هذا الكتاب اللغوي النفيس ، يقول مؤلفه بعد « بسم الله الحي السرمدي » ما يلي :

« الحمد لله شكرا على آلائه . وأتم الصلاة على رسله الكرام وانبيائه . اما بعد فاني لما رأيت السريانية مع قدمها (وردت قومها) ورفعة منزلتها . وغناها وكثرة منفعتها . يكاد لا يكون لها عند اهلها كتاب لغوي مرتب على حروف المعجم ، يضم اصول الكلم وفروعها من باب واحد على أسلوب محكم . شمرت في وضع هذا الكتاب عن ساقي الجد . حتى انتهيت فيه . والحمد لله ، الى هذا الحد . وقد تحاميت فيه اثبات ما ليس من خالص اللغة مما ادخله المتآمرون فيها ، الا اذا اشتهر استعماله ، او مسّت الحاجة اليه في اماليها . ثم اصطلحت فيه على عدة امور في تحصيل المطلوب منه ، وتعميم الفائدة من لدنه » .

صحح طبع « اللباب » المطران يوسف دريان (٢٥) ، وقدم له شعرا ، مبينا كم عانى مؤلفه (القرداحي) الذي قضى عشر سنوات ، نقدا وتنقيبا وجمعا ، ثم خمس سنوات ترتيبا واخراجا وتصحيحا .

يقول المطران دريان :

« يا أيها السريان هذا الكتاب
قد جاء بالآيات في كل باب
ينشر اللسان بعد البلى
وبعدما هالوا عليه التراب
خوضوا عباب البحر تلقوا المنى
فدون كسب العلم خوض العباب
ثم اشكروا جبريل (٢٦) ذاك الذي
احيا لكم ذكرا بهذا الكتاب

---

(٢٥) يوسف دريان (توفي سنة ١٩٢٠) من الرهبانية الحلبية اللبنانية . اسقف ماروني على مصر . له اناشيد ومؤلفات في تاريخ الموارنة . قال لجورج بيكو عندما جاء البطريرك الحويك ليحمله على التسليم بالحاق لبنان بحكومة دمشق ، في عام ١٩١٨ : « لموتنا في ظل صخورنا خير لنا من الانضمام الى دمشق » (انظر كتابنا : « اية عروبة اية قضية ؟ » طبعة اولى ١٩٧٧ ، حاشية رقم (١) ص ٣٣١ . عن « تاريخ لبنان العام » لمؤلفه يوسف مزهر ، الجزء الثاني ص ٨٧٣) .

(٢٦) يقصد المؤلف : جبرائيل القرداحي .

وقد فداكم بصفا عيشه
وأطيب العمر وشرخ الشباب
وقد قضى عشر سنين به
بالنقد والتنقيب والانتخاب
وبعد ذا خمسا لترتيبه
ونبذ ما قد كان فيه يعاب
حتى اتى في بابه مفردا
يكشف عن وجه المعاني النقاب
لذلك قد ارخته زاهلا (٢٧)
بشرت قرداحي بنشر اللباب »

وطويت « اللباب » لأسأل الاب صدقة : هل لنا عودة الى هذا الكتاب ، في مدارسنا ، فيحيا وتحيا معه اللغة السريانية ذات المجلد التليد والتاريخ الخالد ؟

رد الاب صدقة قائلا : يا ليت ! يا ليت !

في « صالون مجمع الاساقفة »

الى جانب المكتبة ، يقع « صالون مجمع الاساقفة » ، المكتبة والصالون كأنهما صالة عرض . فهنالك صور

(٢٧) الزاهل : المطمئن البال .

الرؤساء العامين المؤسسين عبدالله قراعلي (٢٨) وجبرائيل حوا (٢٩) وجرمانوس فرحات (٣٠) . وصور لاساقفة

(٢٨) انظر حاشية رقم (١٢) .

(٢٩) جبرائيل حوا (١٦٦٨ – ١٧٥٦) : احد مؤسسي الرهبانية اللبنانية المارونية . اقتنى لها ديرا في روما حيث مات . اسقف قبرص ١٧٢٣ . يذكر الآباتي فهد مستندا الى « اللآلىء » لمؤلفه المطران عبدالله قراعلي فيقول :

« ولكن احد المؤسسين ، وهو الاب جبرايل حوا والذي صار مطرانا فيما بعد ، كان يريد ان يجعل غاية الرهبانية الرسالة ونشر التعاليم الخاصة ، دون العبادة التنسكية والزهد المنقطع عن العالم ، بخلاف رفقائه الألى كانوا يؤثرون جعل الرهبانية للنسك والعبادة التوحيدية البعيدة عن ضوضاء المدينة والعالم .

« ولم يطل الامر حتى اختلطت الفكرتان وامتزجتا ، فنشأت الرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية بفكرتيها الجديدتين : العبادة لله والرسالة الرعوية . ومنذ ذلك الوقت اخذت الرهبانية تهتم بتأسيس الرسالات وتوسيع نطاق التبشير وزرع كلام الله بين الموارنة ، في لبنان ، وبين مختلف الطوائف الشرقية ، وخارج لبنان خاصة ، مع العلم بأن هذه الحياة الجديدة القائمة على التضحية ، وبذل الجهد ، واحتمال مشاق الاسفار واخطارها لنشر البشارة الانجيلية ، لم تكن معروفة في لبناننا العزيز ، منذ اول عهد البطريركية المارونية الى مغيب القرن السابع عشر في شكلها الحالي المنظم الذي نعرفه في ايامنا الحاضرة ، ونراه في رهبانيتنا الحلبية المارونية وفي الرهبانيات القانونية الشرقية والغربية » . (فهد: اليوبيل المئوي الثاني ، نفسه ص ٣) .

(٣٠) جرمانوس فرحات (١٦٧٠ – ١٧٣٢) مطران حلب على الموارنة . اديب وشاعر ولغوي . جدد الحياة النسكية في لبنان وكان في أس النهضة الادبية . له « بحث المطالب » =

= و « القاموس » أو « باب الإعراب عن لغة الاعراب » و « ديوان » . اسس ، في حلب ، المكتبة المارونية الشهيرة بمخطوطاتها .

عن هذا المطران يقول الآباتي فهد : « ولا بد ان نذكر بفخر واعتزاز ، فريد عصره وعلامة دهره ، الراهب الحلبي اللبناني جبرايل فرحات احد نوابغ الطائفة المارونية الذي تولى رئاسة الرهبانية العامة طوال مجمعين كاملين ، من سنة ١٧١٦ الى سنة ١٧٢٥ . ثم سامه البطريرك يعقوب عواد مطرانا على حلب باسم جرمانوس فرحات في ٢٩ تموز سنة ١٧٢٥ » .

اضاف :

« فهذا الراهب العظيم ذهب الى دمشق عام ١٧١٩ وعكف هناك على الوعظ والرسالة ، ملقيا المحاضرات الدينية مساء كل يوم ، شارحا التعاليم الخلاصية ، سامعا الاعترافات العديدة ، واضعا القوانين لتأسيس الاخويات لعبادة الوردية ، وثوب السيدة ، بموجب تفويضات نالها من رومية . فكانت الجماهير الغفيرة تتهافت على سماع عظاته واقواله باقبال باهر من جميع الطوائف » .

وقال ايضا :

« وقد كتب البحاثة الاب بليبل في تاريخه عن الرسالة التي اداها المطران فرحات في سبيل الارتداد فذكر الكتابة التي حررها الوكيل العام للرهبانية عام ١٩٢٧ الى رئيسه العام الاب مخايل اسكندر الاهدني الذي كان عهدئذ في رومية، فقال فيها : « ان الديانة الكاثوليكية في حلب لعلى نمو مطرد مزدهر ، اوصلها اليه اهتمام المطران جرمانوس فرحات وعنايته حتى اضحى الاعتقاد راسخا بان جعل اقامته في حلب انما هو تدبير رباني اراده تعالى عز وجل ليحيي الايمان والورع في تلك المدينة.وقد تحققت تلك العناية الصمدانية =

البستاني . حبرائيل صفير العجلوني . يوسف سمعان السمعاني . يوسف دريان . اسطفان الخازن . الويس البستاني رئيس عام سابق . جناديوس العضم (رئيس عام سابق) يوحنا معربس (متقاعد) وغيرهم ، وغيرهم .

تضم هذه « الصالة » ايضا خزانتين . في الاولى عشر بدلات للقداس ، معظمها من القرن السابع عشر ، لا تزال تحافظ على رونقها .ومتانتها. بين البدلات واحدة مشغولة ، في اسطنبول ، من خيطان الفضة والذهب .

في الخزانة الثانية ، جمعت كؤوس قديمة ، ونسخة عن القانون العام للرهبانية المارونية الحلبية ، الصادر سنة ١٧٠٠ ، وهو بخط المؤسس عبدالله قراعلي ، مصدقة من غبطة البطريرك اسطفان الدويهي ، وممهورة بختم الكرسي البطريركي ، (١٧٠٠) ... معها طابية الاب الرئيس قراعلي .

وتجد في « صالون المجمع » ايضا وايضا لوحات زيتية تتمنى ان تحفظ جيدا وتصان ، لما تجسده من فن عظيم يعز نظيره اليوم ، ومنها :

= بارتدادات الارثوذكس العديدة التي أوجدها فرحات بجهاده وغيرته وعلمه » (فهد : المصدر نفسه ص ١٤/١٣) .

ـ انتقال العذراء الى السماء • كانت في الكنيسة قبل الترميم •

ـ المسيح مصلوبا •

ـ مار مارون في خلوة •

ـ لوحتان لمغارة الميلاد •

ـ هيرودية تتسلم رأس يوحنا المعمدان •

ـ عرس قانا الجليل وتحويل الماء الى خمر •

ـ مار بطرس مصلوبا رأسا على عقب •

وقفة في الساحة

رن جرس الهاتف في الممشى ، فدخل علينا احد الرهبان (•••) يقول لرئيس الدير الاب مارون صدقة : « أبونا الريّس مطلوب ع الخط » • عندئذ اعتذر الاب صدقة قائلا : « الآن صار بامكانك ان ترجع الى مؤلفات الرئيس العام الاباتي بطرس فهد ، فهي المراجع الصالحة المختصة التي يمكنك الاعتماد عليها » •

كان التناغم بين البحر ونهر والكلب يُسمع ، من دير سيدة اللويزة ، كأنه دفق الحليب من ثدي أم عامرة الصدر الى فم طفلها الجائع ، وقد بدت تنساب على وجهه دموع ليس البكاء وحده الذي أسالها • قلت : لنتعرف الى «مركز

سيدة اللويزة » [٣١] ، قبل الابحار في مؤلفات المؤرخ والمحقق فهد •

في ساحة الدير وقفت لاقول : من هنا طلعت شمس الرهبانية المارونية المريمية ، فألقت أشعتها على شاطىء « بحر الروم » (البحر المتوسط) فحملها فوق أمواجه رسالات لها ، حيث حطت ، شأن ونفوذ روحيان جليلان •

ثم التفتُّ الى « جناح الطالبية » [٣٢] الذي فيه يتم اعداد الطلاب الى سنة الابتداء في الاكليريكية ، فاذا عند زاوية المدخل تمثال نصفي من الرخام الابيض يجرني نحوه حاسبا انه سيكون للعالم الكبير جرمانوس فرحات ، رائد النهضة العربية ، واحد مداميك هذه المؤسسة الكبيرة • ولما اقتربت منه وجدتني أمام البابا بيوس (Pius) العاشر •

---

(٣١) في شباط ١٩٨٥ زرت الاستاذ ادوار باخوس ، المدير الاداري لهذا المركز في البناء الجديد ، الذي يبتعد عن الدير ٥٠م ، فافادني ان اسما جديدا قد اعطي للمركز وهو « كلية اللويزة للتعليم العالي » ويدير هذه الكلية الاب أنطوان صفير. سألت الاستاذ باخوس عن عدد الطلاب والطالبات عنده فقال: حوالي ١١٠٠ . اما الاساتذة والاداريون فهم ٨٠ معلما ومعلمة .

(٣٢) مديره الاب فيليب الحاج وهو الرئيس الحالي لدير مار سركيس وباخوس ـ عشقوت .

سألت : لماذا هنا هذا التمثال ؟ فقيل لي : « كان هناك على
المدخل ، قرب غرفة الاستعلامات • وفي بداية الاحداث نقل
الى هنا • ان الآباتي جناديوس العضم [٣٣] ، الوكيل العام
لدى الكرسي الرسولي ، كان يحب هذا التمثال ، وبناء على
طلبه جيء به الى دير سيدة اللويزة » •

ساحة دير سيدة اللويزة متى ستحتفل بنصب تماثيل
مؤسسي الرهبانية المارونية ؟

الاساقفة : جبرائيل حوا وعبدالله قراعلي • جرمانوس
فرحات ، والراهبان العظيمان : أغناطيوس سلهب الحاقلاني
ويوسف البتن ، الذي لم يعمر طويلا ، هل يتصدرون هذه
الساحة ؟

بلى !

---

(٣٣) احد الرؤساء العامين للرهبانية الحلبية اللبنانية (١٩٦٤) وفي هذا العام وتماما في التاسع من شهر شباط (١٩٦٤) اذن بطبع كتاب « تاريخ الرهبانية اللبنانية بفرعيها الحلبي واللبناني » للآباتي بطرس فهد ، اذ كان المؤلف ، آنذاك ، مديرا عاما للرهبانية .

هؤلاء يستحقون أن يعودوا الى هنا،وعسى أن تكون
عودتهم خيراً لجمهور الدير وزواره واصدقائه ، بل خيرا
للرهبانيات اللبنانية المارونية بكل فروعها •

مقابلة رئيس « مركز سيدة اللويزة العالي » ، الاب الدكتور بشارة الراعي [٣٤] ، (*)،ولو على موعد مسبق، امر صعب ، فكيف لو جئته فجأة !

المسؤوليات الواقعة على عاتقه كثيرة وجسام .
« فالاتفاق بين الرهبانية المارونية المريمية وكلية بيروت الجامعية بشخص رئيسها الدكتور البير بدر ــ يولي

---

(٣٤) الاب بشارة الراعي : رئيس المحكمة المارونية الروحية، استاذ الاحوال الشخصية في الجامعة اليسوعية . نقل اثر تعيينات ١٩٨٤ ، الى مدرسة سانت ريتا ــ ضبية .

(*) وبعد ظهر يوم الخميس الواقع في الخامس من شهر حزيران ١٩٨٦ ، اعلنت دوائر الصرح البطريركي في بكركي موافقة الكرسي الرسولي في الفاتيكان على مقررات المجمع الماروني الذي انعقد اخيرا في بكركي ، ومن بينها تعيين الاب بشارة الراعي معاونا بطريركيا في بكركي ، الى تعيين المونسنيور انطوان طربيه مطرانا على اللاذقية ، والمونسنيور اميل سعادة مطرانا على البترون ، والخوري عبدالله البار مطرانا على جبيل . (مجلة « الفجر » الصادرة عن مدرسة سانت ريتا ــ ضبيه ١٩٨٦ ص ٣) .

المسؤولية الاكاديمية : اختيار المعلمين ، تحديد المناهج ، ادارة الدروس ، منح الشهادات ، الى الكلية المذكورة ، والمسؤولية الادارية الى الرهبانية [٣٥] مما يجعل وقت الاب الراعي غاليا ودقيقا .

واذ تعلم ان « مركز سيدة اللويزة العالي » (للفروع الجامعية) ، قد افتتح « الفصل الاكاديمي الاول من السنة الجامعية ٧٩ ــ ٨٠ ، باحتفال تعارف اقيم في قاعة محاضرات المركز ــ بحضور الاب (المطران) الراعي نفسه ، وعميد كلية بيروت الجامعية الدكتور رياض نصار ، والاساتذة المحاضرين ، والموظفين في المركز ، والاهالي ، والطلاب ، يوم ٢٨ تشرين الثاني ١٩٧٩ » [٣٦] ، وان « امتحانات الدخول الى كافة الجامعات الاميركية ــ الانكليزية ، التي لا تجري الا في دائرة الامتحانات في الجامعة الاميركية،وحسب» [٣٧] قد « سُمح لها بان تقام ، هنا في هذا المركز « الفريد في المنطقة» [٣٨] وذلك « تجاوبا مع ما يبغيه من تخفيف أعباء ومشقات الانتقال عن كواهل الطلاب، ونظرا للظروف

---

(٣٥) من رسالة للاب (المطران) بشارة الراعي ــ موجهة في ١٧٩/١٢/٦ ــ الى رئيس واعضاء جمعية الصناعيين في زوق مصبح ، معرفا بالمؤسسة الجامعية المستحدثة ، ومقترحا بعض المشاريع المستقبلية بالتعاون معهم .
(٣٦) الانوار ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٩
(٣٧) ادوار باخوس ، الانوار ١٩٧٩/٩/٣٠
(٣٨) ادوار باخوس : المصدر نفسه .

الامنية الراهنة » (٣٩) ، فمن المؤكد انك ستدرك أي جهد عظيم يبذله ، بسخاء، الاب (المطران) بشارة الراعي ، (*) ومعاونوه ، ولا سيما الاستاذ ادوار باخوس ، لتدرك أيضا ان لا داعي للـوم او العتب ، اذا ما رفض هـذا الراهب الديناميكي استقبال من جاءه عشوائيا ... فالزمن قـوة وطاقة لا يجوز هدرهما رخيصين !

كم استرخصنا الوقت في هذا الوطن الجميل ؟

كنا نحسب ان الآتي مثل الحاضر ...

فلا الوظيفة ... هي الوظيفة ... ولا الواجب هـو الواجب .

يوم كنا نقبل على مكاتبنا غير راغبين الا بـالوجاهة والنفوذ ... كان الوطن ينحدر ، من مكانه ، شيئا فشيئا .

ثم انفجر البركان ...

وحدث الذي ما ظننا يوما انه سيحدث ...

لقد ضاع منا الوطن ...

هل ينفع البكاء بعد ؟

---

(٣٩) ادوار باخوس : المصدر نفسه .

(*) ان مثل هذا الجهد يبذله اليوم الاب الدكتور انطـوان صفير ـ الرئيس الحالي لـ « مركز سيدة اللويزة العالي » الجديد ـ الذي حقق نجاحا بارزا في ادارة الجامعة .

مصيبتنا العظمى ... اننا ما زلنا نغتال الزمن ... بقايا الزمن .

مكتبة المركز والمختبرات

ومهما يكن ، فان الاستاذ ادوار باخوس ، المسؤول الاداري ، ينوب عن الاب (المطران) بشارة الراعي ، في أمور شتى (*) .

قال لي الاستاذ باخوس :

« ان اعمال المركز ومشاريعه كثيرة ومتميزة . فنحـن نعد الطالب الثانوي الى الجامعـة ، بمعنى نوجهـه الى الاختصاص ، اذ نضع بين يديه دليلا يرشده الى الكلية التي تناسبه ، كما نطلعه على الاختصاصات واهميتها ، الـى ان يأخذ هو طريقه . فعندما يكون لديه المعلومات الكاملة عن الحياة الجامعية ، فانما يكون قد اصبح مؤهلا لان ينصهر في مجتمـع الكلية التي يختـار دونما ادنى شعـور منه بالغربة » .

(*) انظر حـاشية (*) ص ٣١٢

ودعاني المدير الشاب الى جولة استطلاعية شملت المختبرات وغرف التدريس والمكتبة .

ان كل شيء هناك يبعث على الهدوء والتأمل .

الملصقات تشعرك بالطمأنينة والرضا .

هنا نقرأ : « حيث يكون روح الآب تكون الحرية » .

وهناك : « اذهبوا وتلمذوا جميع الامم » .

يتألف « القصر » او « المركز » من مائة غرفة او اكثر ، مجهزة باحدث الوسائل والمعدات .

المكتبة حديثة العهد . فيها بعض الموسوعات . الا انها ستنمو بسرعة . المختبرات العصرية تقرب النظريات الى الواقع . « لم يعد العلم حبرا على الورق فحسب» قال الاستاذ باخوس . وأضاف : « ان اللغة الانكليزية ، عندنا ، تدرس بواسطة احدث الوسائل السمعية البصرية . يجب ان نواكب العالم المتمدن ... يجب ان نكون عصريين .. لن نترك الزمن يفلت منا » .

يشهد « المركز » اقبالا ملحوظا . الطلاب اتوا اليه من المتن وجبيل ... وكل كسروان . ففي المدرسة والثانوية

١٥٠٠ طالب وطالبة [٤٠] . وفي القسم الجامعي ٢٠٠ . وفي القسم اللغوي (الانكليزي) ٢٠٠ [٤١] . أما الاساتذة والموظفون فعددهم لا يقل عن مائتين وثلاثين استاذا واداريا . ومن الاساتذة الذين اختارهم « المركز » :

– الدكتور نقولا صالحة – لادارة الاعمال .

– الدكتور ريمون ملاط – للاقتصاد .

– المحامي ادوار حنا .

– الدكتور جان سكاف – للادب العربي .

– الدكتور فؤاد رفقة – للفلسفة .

– الاستاذ جورج مغامس .

الوطن النموذجي

لا شيء يخرق الهدوء المخيم على « المركز » سوى رنين الهاتف على طاولة « التليفونيست » السيدة حياة

---

(٤٠) لما أتيت الاب مارون صدقة ، الرئيس الالحالي للمدرسة والثانوية ، يوم ٩ شباط ١٩٨٥ ، وكان يوم عيد القديس مارون ، سألته عن المدرسة وأحوالها ، فقال : تضم مدرستنا اليوم حوالى ٢٥٨٠ طالبا وطالبة .
(٤١) انظر حاشية رقم (٣١) .

فارس [٤٢] ، في صالون «المركز»،وضربات الآلة الكاتبة في غرفة السكرتيرة . جدران « المركز » وبلاطه وزواياه ، وكل ناحية منه ، تشهد على سهر القيمين على « القصر » ، من الرئيس الاب بشارة الى الحجّاب ، مرورا بالاساتـذة والاداريين ، وهي تعترف للطلاب ، صغارا وكبارا ، بوعيهم وتفهمهم روح النظام وجدوى الانضباط .

اما ملاحظتي الوحيدة ، فهي أن ليس لهذا « المركز » ، حتى اليوم ، مجلة تدرب الطلاب على الكتابة والتفكير ، ويشارك فيها الاساتـذة فينشرون الدراسات والابحـاث الادبية والعلمية والتاريخية ، التـي يحتاج اليها الطلاب ، ولا سيما الثانويون والجامعيون .

---

(٤٢) حياة فارس : أرملة المرحوم جورج فارس الذي اغتيل صيف ١٩٧٩ ، قضاء وقدرا ، يوم انفجرت على طريق جونية ـ عند مفرق «أدونيس» قنبلة ، وكان المرحوم الشيخ بيار الجميل ، الرئيس الاعلى لحزب الكتـائب اللبنانيـة ، يمر بسيارته من هناك ، معه مرافقوه ، الى دير المخلص ـ صربا ـ جونية ، حيث كان من المقرر أن يُعقد اجتماع بين «الجبهة اللبنانية » من جهة ، وممثلي الطوائف المسيحية من جهـة اخرى . كان جورج ، المغدور ، ساعتئذ ، يعبر الطريـق بالاتجاه الآخر ، فأصيب بشظايا قاتلة .

اثر هـذا الحادث المفجع تم تعيين هـذه السيدة في « المركز » . لم أنس أن أسأل الاب مارون صدقة عنها . . الا انه قال لي : « لقد تركت . . لا أعرف لماذا ؟ ولا أعرف أين صارت » .

بينما كنت الملم اوراقي استعدادا للعودة الى البيت ، استيقظت على الواقع الذي كان ينتظرني . وكم كان حزني عميقا وانا اعبر حدود « مركز سيدة اللويزة العالي » الـى الوطن ـ لبنان . . . بل الى الفوضى والخراب والانتحار !

على الطريق الممتـد بين « مدينـة ليست من العالـم الثالث » ، وبين بدارو . . . أرض المعارك والمتقاتلين ، طالما رددت والالم يعصرني :

أيها المسؤولون

ماذا فعلتم بوطنكم ؟

ألم يكن باستطاعتكم ان تبنوا وطنا نموذجيا . . . كما بنى الرهبان المريميون « مدرسة سيدة اللويزة . . . » ؟

الى أين ذهبتم بالنظام . . . والدستور . . . والامن ؟ لقد ضحى هؤلاء الرهبان ، كما ضحى اخـوان لهم ، رهبان وراهبات بلديون [٤٣] وانطـونيون ومـرسلـون

---

(٤٣) لهم جامعة الروح القدس ـ الكسليك ، والمركزية في غدير وجونية ، وفي الجية ودير مشموشة وميفوق وغيرها .

وعازاريون [٤٤] وبولسيون [٤٥] ويسوعيون [٤٦] وباسيليون شويريون وغيرهم [٤٧] ، فأنشأوا مدارس

(٤٤) مدارس راهبات المحبة في الاشرفية وكليمنصو وذوق مكايل . مدرسة مار يوسف في عينطورة ،مدرسة مار يوسف المهنية في ضهر الصوان .

(٤٥) مدرسة القديس بولس للمرسلين ـ حارة صخر .

(٤٦) مدارس راهبات القلبين الاقدسين في الاشرفيه (شارع القلبين الاقدسين والسيوفي) والحدث والحازمية وجديدة المتن ومنصورية المتن وحريصا وغدير وكفرحباب وجبيل وبكفيا وقرنة شهوان وبيت مري وبكاسين ومروج وسوق الغرب والبترون وعاريا وعاليه وحدث الجبة ودرعون وصيدا وتعنايل وطرابلس وزحلة وعيناب وحمانا وضهور الشوير ومزرعة كفرذبيان ومشغرة .

(٤٧) نذكر بصورة خاصة مدارس الفرير .. في الجميزة وفرن الشباك ومون لاسال ـ عين سعادة (مع تقديري بصورة خاصة للاخ الرئيس برنار حبيقة) وطرابلس وزغرتا وبرج البراجنة . ونذكر بالمثل مدارس الراهبات المارونيات ـ العائلة المقدسة في عبرين وجبيل وساحل علما والاشرفية والزلقا والفنار ، ومدارس الراهبات الباسيليات الشويريات ، والراهبات المخلصيات ، ومعهد البلمند ، وكلية البشارة الارثوذكسية ومدرسة زهرة الاحسان ، ومدرسة الثلاثة أقمار ، ومدارس راهبات دير الصليب ، في جل الديب ودير القمر وبرمانا ، ومدرسة شانفيل ، وكلية مار الياس بطينا ، ومدارس الحكمة في الاشرفية وكليمنصو وجديدة وبرازيليا ـ بعبدا ، ومدرسة سيدة الرسل ـ البوشرية ، ومدرسة سيدة الفنار ـ الفنار ، ومدرسة سيدة السلام ـ الدورة ، ومدرسة النجاة للراهبات المخلصيات ـ الحدث ، ومدرسة مار يوسف ، ومدارس الدومينيكان والفرنسيسكان ، ومدرسة الراهبات الكرمليات ـ رأس بيروت ، ومدرسة البطريركية ـ ميناء الحصن ،ومدرسة =

ومعاهد وجامعات ، راقية ومحترمة ، فكان عطاؤهم عظيما لا يجارى ، وروائعا لا ينافس ، ومجدا لا يضاهى .

اما على صعيد الدولة وادارة البلاد ... فان شيئا من هذا لم يأت به المسؤولون ، فانزلق منهم الوطن مثلما ينزلق الزيت من بين الاصابع .

= راهبات سيدة المعونة الدائمة في فرن الشباك (انتقلت الى جسر الباشا) وزحلة ، ومدرسة مار يوسف قرنة شهوان ، التي يشرف عليها المطران الياس فرح (خلفه المطران يوسف بشارة) ، وثانوية مار سويريوس للسريان الارثوذكس في المصيطبة .

مؤلفات الآباتي بطرس فهد تتجاوز الثلاثين كتابا ، كما ذكرنا . وهي تختصر لك مراجع لا تحصى ، فتضعها بين يديك ملخّصة ، لتمدك بمعلومات وحقائق تاريخية ، ان شئت ان تتقصصها او تتبعها ، في المجلدات والكتب القديمة، أفنيت العمر كله ، او اكثره ، وهيهات ان تجد الى ذلك سبيلا .

من كتابه « الموجز التاريخي للرهبانية المارونية المريمية ــ الحلبية سابقا » (طبعة ١٩٧٩) تتعرف الى تاريخ دير سيدة اللويزة ، بخاصة ، والى اديار هذه الرهبانية عامة ، المنتشرة في لبنان والعالم .

يقول الآباتي فهد :

« ومما لا ريب فيه ان الحياة الرهبانية انما هي أسمى واكمل مما يصبو اليه المسيحي على الارض لبلوغ الكمال الانجيلي الذي عاشه المخلّص الحبيب مع تلاميذه ، وطلب

منهم وممن يريدون أن يكونوا مثله مجدّين في طلب هذا الكمال ان يتقيدوا بالمنشورات الانجيلية » .

اضاف :

« فالحياة الديرية ما نشأت عن الحياة النسكية ، لان المؤسسات والقوانين الرهبانية تفترض وجود مرحلة اولى في تاريخها قبل الوصول الى حالة الترهب ، بل يلزم الجزم بأن الحياة الرهبانية ، انفرادية كانت أم اجتماعية ، ظهرت الى حيز الوجود يوم ظهرت الكنيسة المقدسة ، يوم وجد اول مسيحي عاش الانجيل الطاهر » .

وقال أيضا :

« فالراهب هو المسيحي الذي يسعى ليعيش الانجيل على اكمل وجه ، مستخدما انجع الوسائل للبلوغ الى الاتحاد به روحيا ، فروحانيته والحالة هذه انما هي روحانية الانسان المسيحي الذي وعى اهمية خلاصه ، ولكن الراهب يتميز عنه بحفظ العفة طوال حياته الرهبانية ، منعزلا ما امكن عن المهام العالمية حافظا قانونه ، ليبالغ في اعمال الروح تقديسا للنفس وتمجيدا لله وحبا لخير الانسانية » [(٤٨)] .

---

(٤٨) فهد : الموجز التاريخي للرهبانية المارونية المريمية ــ الحلبية سابقا ، طبعة ١٩٧٩ ص ٤

واذ يستعرض الاباتي فهد ،، لنا ، الحياة الرهبـانية الجماعيـة في مصر ـ مع القديس بافوسيـوس (حوالي ٣٤٦) ، مؤسس الحياة النسكية المشتركة ـ وفلسطين ـ مع القديس ايلاريون ، تلميذ القديس أنطونيوس الكبير ـ وسوريا ، حيث جعل يوليوس سابا (٣١٥ ـ ٣٢٥) مـن جبـال الرها مركزا لاقامته النسكيـة ، وكذلك الناسك يعقوب ، اسقف نصيبين المتوفي سنة ٣٣٨ ـ وفي بلاد فارس ـ مع القديس ميثاي ، الذي اقام ديرا شرقي المـوصل خـلال سني (٣٦١ ـ ٣٦٣) ، وارمينيـا مع القـديس باسيليوس العظيم ـ واليونان ـ حيث جبل آتوس ، الذي يعتبر من اهم المناطق التي انتشرت فيها الحياة الرهبانية ، ويدعى هذا الجبل بالمقدس ، لكثرة ما انشىء فيه من اديار وما أقيم فيه من مغاور كرست لعبادة الله (٤٩) ـ يصل، بنا ، أخيرا ، الى لبنان ، وهنا ـ كما يروي التاريخ ـ ظهر أول ناسك ، كان يدعى : المطران ايرسموس ، في ايام الامبراطور ديوفلسيسانوس ، احد كبار أباطرة الرومان المتأخرين (٥٠) ، الذي اشعل الاضطهاد على المسيحيين سنة ٣٠٣م • فانزوى هذا الناسك ، في المغاور اللبنانية ، وانكب على الصوم

---

(٤٩) المصدر نفسه . بتصرف : ص ٥،٦،٧،٨
(٥٠) حكم هذا الامبراطور من ٢٨٤ الى ٣٠٥

والعبادة والتأمل ، ولكنه بالهام الهي ترك العزلة ••وذهب الى انطاكية لتشجيع المؤمنين ••• الا انه ما لبث ان مـات شهيدا (٥١) • الامر الذي يثبت بالادلة والبراهين ان الحياة الرهبانية ، في لبنان ، لم تكن ، قبل القرن السابع عشر ، سوى « الزهد والانفراد والعمل والصلاة » (٥٢) ، فـلا رسالة ، ولا انسجام مع المجتمع مثلما اليوم • بـل « كان الرهبان يشتغلون في الحقول والزراعة ، ويقومون بصلوات النهار والليل ، ويمتنعون عن حضور الافراح وركـوب الخيل ، ويصومون اغلب ايام السنة لا يأكلون لحمـا ولا يقتاتون الا مما تنبته الارض عفوا ، وما كانوا ينـذرون النذور الرهبانية المعروفة ، بل كان المتقدم في الدين يتلـو على طالبي الكمال بعض صلوات ويوشحهم بـالاسكيم الملائكي ، ويتشحون بثوب خشن رديء ويناموون به» (٥٣)

••• وجاء الحلبيون

آنذاك كان الاقبال على الحياة الرهبانية القـاسية ، بالنسبة الى ذوي الرهبان ، كأنه الرحيل من هـذه الدنيا • فالراهب ، في ديره ، او قل في القبو ، هو بنظر أهل قريته

---

(٥١) المصدر نفسه ، ص ٨
(٥٢) المصدر نفسه .
(٥٣) المصدر نفسه .

او عشيرته ، كأنه من سكان القبور .

ظلت الحياة الرهبانية ، في لبنان ، هكذا ، حتى «قيّض الله لها سنة ١٦٩٤ ثلاثة شبان من ابناء حلب الشهباء متحلين بالعلم والاخلاق وحسن التدبير ، هم : جبرايل حوا وعبدالله قراعلي ويوسف البتن ، أتوا جميعهم الى لبنان الشمالي ، الى الوادي المقدس في قنوبين مركز البطاركة المارونيين ، بعدما زاروا القدس الشريف وتباركوا من قبر المخلّص الحبيب ، وسنة ١٦٩٥ لحق بهم ابن مدينتهم جرمانوس فرحات رائد نهضة اللغة العربية ، وعرضوا رغبتهم في تأسيس رهبنة جديدة على غبطة البطريرك العظيم اسطفان الدويهي (٥٤) ، في دير قنوبين بالشمال ، فقبلهم غبطته بعطف ، وبشر بهم واستبقاهم لديه مدة لكي يختبروا انفسهم ، مقدما التوجيهات والمساعدات اللازمة »(٥٥) .

واستطاع هؤلاء الحلبيون ان يزرعوا في الجبل اللبناني نواة لرهبنة شرقية منظمة « دون ان يهملوا القديمة المعروفة

(٥٤) اسطفان الدويهي (١٦٣٠ ـ ١٧٠٤) : بطريرك الموارنة ولد في اهدن (لبنان) ، تعلم في روما وعاد الى بلاده يعظ ويعلّم . عُين أسقفا على قبرس ثم بطريركا ١٦٧٠ ، له مؤلفات دينية وتاريخية أهمها « منارة الاقداس » و « رد التهم » و « تاريخ الازمنة » .
(٥٥) المصدر نفسه .

برهبان دير مار انطونيوس كوكب البرية »(٥٦) ، وقرر الرهبان الاربعة ان تكون رهبانيتهم مؤلفة من رئيس عام واحد واربعة مدبرين ورؤساء اديار ومراكز ، يخضعون جميعا لقدس الرئيس العام بقوة نذر الطاعة ، احد النذور الثلاثة : الطاعة والعفة والفقر ، بحيث يقدر الرئيس العام ان ينقل رهبانه من دير الى اخر ، وان يتدبر شؤونهم ويوجههم عن بعد التوجيهات العامة ، لكون الاديار جميعها مستقلة، وجعلوا هدف الرهبانية الاول هو الزهد والخورس والانقطاع عن العالم ، دون اهمال سائر الاعمال الكهنوتية، وسموا رهبانيتهم بالرهبنة الحلبية ، لكنهم في سنة ١٧٠٦ غيروا اسمها ودعوها باللبنانية ، تذكارا لتأسيسها في جبل لبنان ، وقبلها السيد البطريرك وباركها راضيا مرتاحا » (٥٧) .

من بشري الى زوق مصبح

نال المؤسسون الحلبيون عطف أهالي بلدة بشري وثقتهم فتملكوا منهم دير ما إليشع النبي ، في الوادي

(٥٦) المصدر نفسه .
(٥٧) المصدر نفسه .

المقدس المنقور (٥٨) .

ولما أخذ عدد ابناء هذه الرهبانية يزداد ، تسلم المؤسسون في سنة ١٦٩٥ ، من اهالي مدينة اهدن ، بواسطة السيد البطريرك الدويهي، دير «مرت مورا» (٥٩)،

---

(٥٨) كان هذا الدير ، آنذاك ، مسكنا للاباء الكرمليين. يعود تاريخه الى سنة ١٣١٥

وفقا لما ذكره المؤرخ العلامة البطريرك الدويهي في « تاريخ الازمنة » الذي نشره الشرتوني ، ص ١٢٧

والكرمليون رهبانية تأسست على جبل الكرمل (فلسطين) حيث يقع دير مشهور يعود الى القرن الثالث ، سنة ١١٨٥ ثم انتقلت الى روما بعد ١٢٣٨ حيث تأسس فرع النساء سنة ١٤٥٢ . اشتهر بين ابنائها :

ـ يوحنا الصليبي (Jean de la Croix) (١٥٤٢ ـ ١٥٩١) وهو قديس اسباني ومصلح رهبانية الكرمل . ويعد من علماء التصوف المسيحي . له « انشودة الروح »و«الليلة الظلماء » .

ـ القديسة تيريزيا الابلية ـ الافلية (Thèrese d'Avila) (١٥١٥ ـ ١٥٨٢) ولدت في آبلا (اسبانيا) . اصلحت رهبانية الكرمل وأسست اديارا كثيرة . لها مؤلفات في التصوف المسيحي (انظر الفصل الثاني عشر) .

ـ القديسة تيريزيا الطفل يسوع (١٨٧٣ ـ ١٨٩٣) : قبرها مزار شهير في ليديو (فرنسا) لها كتاب « حياة نفس » .

هذا ، وللرهبان الكرمليين اديار في الشرق منذ القرن السابع عشر : حلب ١٦٢٧ ، بغداد ١٧٢٢ ، ماردين ١٧٤٧، حيفا ، بشري ، طرابلس ، القبيات ، عكار ،الحازمية ـ بيروت .

(٥٩) يقع دير مرت مورا في أسفل أهدن .

الذي كان خرابا ، فرمموه وجددوا بناءه وانفقوا عليه مالا كثيرا ، أو كما يقول المؤسس عبدالله قراعلي :

« إنهم (الرهبان) لما تسلموه كان مهدما كله الا الجزء القليل منه ، وكان راهب واحد غير كاهن ، كبير السن اسمه انطونيوس دخل فيما بعد في شركتنا (اي رهبانيتنا) واخذنا في البناء وترميم الدير مدة شهرين ، واحاطوه بسور، وكانت النفقة من مال القس جبريل (الحوا) ، والشماس يوسف البتن ، وانا لم أكن املك شيئا من المال البتة ... وكان المصروف على الدير وعمار كنيسة وقلاّية (٦٠) وغير ذلك مبلغ ٦٨٣٢ غرشا »(٦١) .

في هذه الاثناء ، كان يرابط « الاب التقي اغناطيوس سلهب الحاقلاني ، في دير صغير أنشأه على صدر زوق مصبح كسروان،المشرف على بحر الروم »(٦٢) . « وكان هذا الكاهن الورع راهبا عابدا تقيا فطنا يرغب في التعبد لله وفي عمل الخير لمواطنيه ، وكان عنده اربعة رهبان من الاسكيميين وغيرهم من المبتدئين » (٦٣) .

---

(٦٠) القلاية : مسكن الاسقف أو رئيس الدير :وهي يونانية الاصل .

(٦١)من كتاب « اللآلىء » ص ٢٨ ، أخرجه الاباتي فهد .

(٦٢) فهد : المصدر نفسه ص ٢٦

(٦٣) المصدر نفسه .

على ان هذا الدير « كان مؤلفا من قبو مستطيل لكنه قليل الارتفاع والاتساع اي غرفة واحدة مستطيلة ملاصقة للكنيسة »[٦٤] .

ولما تناهى الى الاب الحاقلاني خبر تأسيس الرهبانية الحلبية اللبنانية ، انضم اليها سنة ١٧٠٧ و « ابرّ نـذوره ووقف عليها ديره هذا وجميع أملاكه » [٦٥] و « كان للدير عقار وافر لكنه فقير بالبناء والامتعة اللازمة » [٦٦] كما انه مثقل « بجملة ديون » [٦٧] . وقـد صدق « في كـلامه جدا » [٦٨] ... اذ حقق وعده دون تردد .

بعد ذلك ، احدثت الرهبانية على هذا الدير « الارزاق والاثـاث » [٦٩] وعينت عليه أول رئيس الاب اروتـين الحلبي » [٧٠] الذي عرفوه « عابدا عاملا متضلعا من اللغة السريانية وحاذقا بصناعة الخط العربي والسرياني » [٧١]، فاخذ يعمل على توسيع الدير وتسديد الديون الكثيرة .

---

(٦٤) المصدر نفسه .
(٦٥) المصدر نفسه .
(٦٦) المصدر نفسه .
(٦٧) المصدر نفسه .
(٦٨) المصدر نفسه .
(٦٩) المصدر نفسه .
(٧٠) المصدر نفسه .
(٧١) المصدر نفسه .

غير ان الرهبان الحلبيـين عادوا ليشهدوا ضغوطـات واضطهادات من قبل بعض الشماليين (...) مما حتم « نقل مركز الرئاسة العامة للرهبانية»[٧٢] ، من هناك ، « الـى دير سيدة اللويزة » [٧٣]،وقد تمذلك عام ١٧٣٢ » [٧٤] .

الامتداد والانقسام

انطلقت هذه الرهبانية وتوسعت نحو دير القمر ومصر وروما وافريقيا والبرازيل وكندا ، فتملكت الاراضي وبنت الاديار والكنائس، فدخلها شبان لبنانيون امتازوا بالحيوية والنشاط ، فكثر عدد الرهبان اذ كثرت الاديار والارزاق، الا ان « عدو الخير (...) لم ترقه هذه الاعمال الزاهرة ، فزرع الحسد في بعض العقـول لاختلاف في العقليـة ، والعلم ، وحب الرئاسات ، فذر خلاف شديد بـين افراد العائلة الرهبانية الواحدة ، واستمر حتى انقسموا فريقين غير متساويين في العدد والحقـوق : الرهبانية الحلبيـة المارونية والرهبانية اللبنانية المارونية »[٧٥] .

---

(٧٢) المصدر نفسه .
(٧٣) المصدر نفسه .
(٧٤) المصدر نفسه .
(٧٥) المصدر نفسه ص ١١ .

ولما لم يعد من مجال للعودة الى ما كانوا عليه « اصبح لكل فئة رئيس عام خاص ومدبرون عامون ورهبان خاضعون »[٧٦] فعلم الكرسي الرسولي بالامر ، فأصدر « الامر السامي المبرم سنة ١٧٧٠ بالقسمة نهائيا »[٧٧] ، اذ كان الرهبان البلديون [٧٨] يصرون على القسمة طوال سنين على الرغم من المداخلات الكثيرة المتنوعة »[٧٩] .

لكن القسمة التي شطرت هذه الرهبانية العريقة لم تقعد الحلبيين عن تحقيق الرسالة ، بل جددوا كل اديارهم ومراكزهم ورسالاتهم وزادوا عليها ، حتى اصبح لديهم في لبنان وسواه « عشرون ديرا ومركزا ، وعدة مدارس ابتدائية مجانية ، واربع مدارس ثانوية : واحدة في دير سيدة اللويزة بمصبح كسروان ، وثانية في دير القمر[٨٠] .

(٧٦) المصدر نفسه .
(٧٧) المصدر نفسه .
(٧٨) يكفي الرهبان البلديين فخرا انهم انشأوا جامعة الروح القدس ـ الكسليك .
(٧٩) المصدر نفسه .
(٨٠) زرت هذه المدرسة في شهر ايلول ١٩٨٢ ،وكان رئيسها آنذاك الصديق الاب بولس الراعي ... وفيها التقيت بعض العائلات المسيحية والدرزية ، اذ ان هذه المدرسة شأنها شأن جميع المدارس المسيحية في الجبل وغيره ، هي للدروز كما للمسيحيين كما للمسلمين . وكثيرا ما سمعت من رهبان وراهبات ،من هنا وهناك وهنالك ، أطيب الكلام وأعذبه عن طلاب وطالبات من الطائفتين الاسلامية والدرزية ممن تعلموا =

وثالثة في بلاد الاغتراب الاوروغواي ، حيث تدرس اللغة العربية ايضا ليظل اللبنانيون مرتبطين بلغة الوطن الاول ، وجملة مدارس تكميلية في الوطن والمهجر »[٨١] .

وانشأت الرهبانية اللبنانية المريمية (اتخذت لها اخيرا هذا الاسم) « في القطر المصري رسالة مؤلفة من ثمانية مراكز كبيرة عامرة ، ورسالة ثانية في الارجنتين ، وثالثة في أكرا ـ غانا الافريقية ، ورابعة في كندا »[٨٢] .ولها ،في روما ، دير « معروف مشهور ترسل اليه طلابها ليتلقوا العلوم الجامعية في مدرسة لاتران (Latran) البابوية وتخرج فيها أجيالا يحملون الشهادات العليا ويتقنون الى ذلك اللغة الايطالية ويطلعون على المخطوطات النادرة في مكتبة الفاتيكان الشهيرة ، ويكتشفون كنوز الفكر

= في مدارسهم وكلياتهم ،وكثيرا أيضا ما سمعت هؤلاء المرسلين يتحسرون على لبنان الموحد ، لبنان المدرسة .. والجامعة والقرية .. لبنان المدينة .. لبنان الانسان .. لبنان الاخوة والوفاق .. لبنان المسيحي ـ الاسلامي . ولطالما قالوا بضرورة التفاهم والتعايش ، الا ان السياسة الضعيفة من جهة ، والمصالح الاجنبية من جهة أخرى ، أبت الا أن تمزق لبنان .. هذا الوجه الانساني الحلو ، فكان الذي كان .حل مكان الاب الراعي الاب جورج موراني ، أما المدرسة ،هناك، فشاغرة بسبب حرب الجبل .
(٨١) المصدر نفسه .
(٨٢) المصدر نفسه .

ويزيحون الاستار عن الحقائق » [٨٣] (*) .

قلنا ان القسمة التي شطرت الرهبانية المارونية لم تقعد الحلبيين وهـي ايضا لم « تتـخم » الرهبانية البلديـة ، والاخيرة اتخذت من هذا الحـدث ـ الانفصال منعطفـا جديدا ، فراحت تكد وتتعب لا مـن اجل الحفاظ عـلى « حصتها » فحسب ، بل من اجل الاستمرار في الخلـق والابداع ، وما لبثت ان صارت اكبر الرهبانيات اللبنانية . وها هي اليوم ، بفضل تماسك ابنائها ، تتصدر الميـادين

---

(٨٣) المصدر نفسه .

(*) يمثل الرهبانية المريمية في مصر : الآباتي الياس أبي خير (مركز شبرا) ، والاب جوزف نمر (مركز مصر الجديدة)، والآباتي لويس الخازن (مركز المنصورة) ، والاب انطـوان زغيب (رعية الاسكندرية) ، والاب يوسف نعمة (مـركز الخرطوم ـ السودان) . ويمثلها ، في الارجنتين ،الاب لويس قبيطر . وفي الاورغواي ، الاب الياس سلامة . وفي غانا ـ افريقيا ، الاب عبدالله مارون . وفي البرازيل ، الاب انطوان صدقة . فيما عيِّن الاب بطرس طربيه رئيسا على ديـر القديسة تريزيا ـ سهيلة ، والاب سعد نمر رئيسا عـلى انطوش الصعود ـ ضبيه ، والاب جورج خليل رئيسا على دير سيدة النجاة (الوطى) ـ زوق مكايل ، والاب منصور أبي خليل رئيسا على دير مار انطونيوس ـ دلبتا ، والاب جرمانوس الخويري رئيسا على دير مار شليطا ـ كفرذبيان، والاب نقولا سيف رئيسا على دير مار بطرس وبولس كويم التين ـ بيت شباب ، والاب ايلي صفير رئيسا على دير مار الياس شويا ، والاب الياس زخيا رئيسا على دير مار اليشاع بشري .

الرهبانية والثقافية والاجتماعية ، ولها دور مؤثر وفعال في حقل السياسة الوطنيـة ، وعندها اربعـة وستـون ديرا ومدرسة وأنطوشا وجامعة وارسالية [٨٤] .

---

(٨٤) ظهر يوم الثلاثاء ٢٦ آذار ١٩٨٥ جئت دير مار شربل ـ حريصا ، حيث الرئاسة العامة حاليا ، أسأل قائمة بأديار الرهبانية اللبنانية المارونية ومراكزها في لبنـان والخارج ، فالتقيت الرئيس العام الاباتي بولس نعمان وبعض الآبـاء ولا سيما الاب الدكتور توما مهنا . وفي يوم الخميس ٢٨ آذار ١٩٨٥ ، تسلمت من الاب مهنا هذه اللائحة وفيها :

١ ـ دير مار انطونيوس ـ بيروت ، رئيسه الاب يوحنا الحاج ، ٢ ـ دير الروح القدس ـ الكسليك ، رئيسه الاب باسيل باسيل ، ٣ ـ جامعة الروح القدس ـ الكسليك ، رئيسها الاب يوحنا ثابت ، ٤ ـ دير مار انطونيوس ـ قزحيا، رئيسه الاب شربل شينا ، ٥ ـ دير مار انطونيوس ـ شكا ، رئيسه الاب دانيال ديب ، ٦ ـ دير سيدة النجاة بصرما ، رئيسه الاب مخايل الخوري ، ٧ ـ دير مار انطونيوس ـ الجديدة ، رئيسه الاب مبارك سكر ، ٨ ـ دير مار جرجس ـ عشاش ، رئيسه الاب انطونيوس الشالوحي ، ٩ ـ دير مار يوسف ـ بان ، رئيسه الاب شربل سويد ، ١٠ ـ دير مار جرجس ـ دير جنين ، رئيسه الاب الياس كوسا ، ١١ـ دير سيدة المعونات ـ جبيل ، رئيسه الاب الياس العنداري، (أصبـح المـدبر الثـالث للرهبانيـة منذ ١٩٨٦/٨/٢١) ١٢ ـ انطوش مار يوحنا مرقس ـ جبيل ، رئيسـه الاب مارون غاريوس ، ١٣ ـ دير مار مارون ـ عنايا ، رئيسه الاب لويس خليفة ، ١٤ ـ دير مار سركيس وبـاخوس ـ قرطبـا ، رئيسه الاب لويس زيادة ، ١٥ ـ دير القـديسة ترازيا ـ طورزيا ، رئيسه الاب بولس ضاهر ، ١٦ ـ دير مار شليطا ـ القطارة ، رئيسه الاب نبيه خوري ، ١٧ ـ دير مار انطونيوس ـ حوب ، رئيسه الاب جورج طربيه ، ١٨ ـ دير سيدة ميفوق ، رئيسه الاب نعمة الله يونس ، ١٩ ـ دير =

= مار عبدا ـ معاد، رئيسه الاب حارس مطر، ٢٠ ـ دير مار
قبريانوس ـ كفيفان ، رئيسه الاب انطوان حيدر ، ٢١ ـ
دير مار يعقوب الحصن ـ دوما ، رئيسه الاب طوبيا خليل ،
٢٢ ـ دير سيدة النجاة ـ بصا (تنورين) ،
رئيسه الاب جورج كيروز ، ٢٣ ـ دير سيدة طاميش، رئيسه
الاب يعقوب السقيم ، ٢٤ ـ دير مار يوسف ـ البرج ،
رئيسه الاب ميخائيل ناكوزي ، ٢٥ ـ دير قلب يسوع ـ
جونيه ، رئيسه الاب جوزف قمر ، ٢٦ ـ دير سيدة النصر
ـ غوسطا ، رئيسه الاب جورج كميد ، ٢٧ ـ دير مار روكز
ـ مراح المير ، رئيسه الاب مرتينوس سابا ، ٢٨ ـ دير مار
بطرس وبولس ـ العذرا ، رئيسه الاب بطرس فرح ، ٩٢ ـ
مدرسة مار شليطا ـ عجلتون ، رئيسها المحترم بولس
مسعد ، ٣٠ ـ دير مار شربل ـ حريصا ، رئيسه الاب
اغوسطين عازار ، ٣١ ـ دير مار انطونيوس ـ حمانا ،
الاب جورج توما ، ٣٢ ـ مدرسة مار يوسف المتين ، رئيسها
الاب يوسف الحاج ، ٣٣ ـ دير مار مخايل بنابيل ، رئيسه
الاب الياس اندري ، ٣٤ ـ دير مار موسى ـ الدوار ، رئيسه
الاب مبارك فرحات ، ٣٥ ـ دير مار مخايل ـ بحرصاف ،
رئيسه الاب الياس الحسيني ، ٣٦ ـ دير مار انطونيوس ـ
بيت شباب ، رئيسه الاب جورج كرباج (اصبح
المدبر الثاني للرهبانية منذ ١٩٨٦/٨/٢١) ، ٣٧ ـ دير مار
جرجس ـ الناعمة ، رئيسه الاب عزيز قزي (مهجر بسبب
حرب الجبل) ، ٣٨ ـ دير مار انطونيوس ـ النبطيه ، رئيسه
الاب جرجس نصر ، ٣٩ ـ دير المخلص ـ البرامية ، رئيسه
الاب نعمة الله الحلو ، ٤٠ ـ دير سيدة مشموشة ، رئيسه
الاب باسيل ناصيف ، ٤١ دير مار شربل ـ الجية ، رئيسه
الاب بولس مرهج ، ٤٢ ـ دير مار مارون ـ بير سنين ـ
مجدل المعوش (رهبانه مهجرون بسبب حرب الجبل) ، ٤٣
ـ دير مار يوحنا ـ رشميا (رهبانه مهجرون بسبب حرب
الجبل)، ٤٤ ـ دير مار انطونيوس ـ سير (رهبانه مهجرون =

= بسبب حرب الجبل)، ٤٥ ـ دير مار الياس ـ الكحلونية
(رهبانه مهجرون بسبب حرب الجبل) ، ٤٦ ـ دير مار
يوحنا ـ قبيع (رهبانه مهجرون بسبب حرب الجبل) ، ٤٧
ـ مدرسة وادي شحرور ، رئيسها الاب نعمة الله عون ،
٤٨ ـ انطوش مار انطونيوس ـ زحلة ، رئيسه المحترم
انطونيوس حويس ، ٤٩ ـ مدرسة مار انطونيوس ـ عين
زبدة ، رئيسها الاب يوسف زلزل ، ٥٠ ـ انطوش مار
جرجس ـ المعلقة ، رئيسه الاب كميل شمعون ، ٥١ ـ
(أخذ مكانه الاب نعمة الله الحلو)
انطوش سيدة المعونات ـ بعلبك ، رئيسه الاب شربل خوري،
٥٢ ـ انطوش مار جرجس ـ ابلح ، رئيسه الاب ميخائيل
الحاج .

اما الارساليات الموجودة خارج لبنان فهي :

١ ـ البرازيل ـ سان باولو ، رئيسها الاب فرنسيس
نصر ، ٢ ـ الارجنتين ـ مندوسة ، رئيسها الاب بطرس
سعادة ، ٣ ـ الارجنتين ـ التوكو مان ، رئيسها الاب مبارك
سلامة ، ٤ ـ المكسيك ـ فلوريدا ، رئيسها الاب يعقوب
نجم ، ٥ ـ السنغال ـ دكار ، رئيسها الاب بولس سلامة ،
٦ ـ مالي ـ باماكو ، رئيسها الاب ادوار ناكوزي ، ٧ ـ
شاطىء العاج ـ ابيدجان ، رئيسها الاب بولس خوند ، ٨ ـ
اوستراليا ـ سيدنه ، رئيسها الاب انطوان حرفوش ، ٩ ـ
اسرائيل ـ يافا ، رئيسها الاب اغوسطين حرفوش ، ١٠ ـ
ايطاليا ـ روما ، رئيسها الاب باسيل هاشم (انتخب
رئيسا عاما للرهبانية في ١٩٨٦/٨/٢١) ، ١١ ـ قبرس ـ
نيقوسيا ، رئيسها الاب اندره فرنكو ، ١٢ ـ كندا ـ
مونتريال ، رئيسها الاب انطوان سليمان .

وبانتخاب الاب باسيل هاشم رئيسا عاما انتخب الاب
بولس عيسى نائبا عاما ومدبرا أول ، فيما انتخب الاب الياس
كرم المدبر الرابع . وينتظر تشكيلات جديدة ...

سبعون كاهنا وعشرون دارسا إكليريكيا ، والباقون مبتدئون وطلاب .

ومن الكهنة « خمسة وعشرون راهبا يؤمنون الرسالات ، والرياضات الروحية ، والتعليم المسيحي والارشاد في حركات الشبيبة وما اليها من الاندية ، والسهرات الانجيلية » [٨٥] . بينما يعمل الباقون «في الاديار ويقومون بالصلاة الخورسية » [٨٦] .

وكما سائر الرهبانيات اللبنانية فتحت الرهبانية المريمية مركزها واديارها للمهجرين ممن اكلت الحرب منازلهم وقراهم ومؤسساتهم . فكانت لهم عونا كبيرا مما جعلهم يستعيدون الامل وحب الحياة .

... وبعد

كلما وقفت في ساحة « دير سيدة اللويزة » حملتني الذاكرة من على قمة « سيدة الوطى » [٨٧] ، حيث الاب الاديب الياس نجار ، لادخل على « سيدة التلة » في دير القمر ، رئيسها الاب بولس الراعي [٨٨] ، ومن هناك تلف بي على مصر وروما واكرا والارغواي ، ثم تعيدني الى

---

(٨٥) المصدر نفسه .
(٨٦) المصدر نفسه .
(٨٧) رئيس هذا الدير ، اليوم ، الاب جورج خليل كما ذكرنا .
(٨٨) رجع الى الدير الام ، وأخذ مكانه الاب جورجموراني.
(٧٨) المصدر نفسه .

مصر وروما واكرا والارغواي ، ثم تعيدني الى حلب ، بلد المؤسسين ، وسيف الدولة الحمداني ، والشاعر أبي فراس، بل الى حيث للمتنبي ذكريات ومواقف لا تنسى . وفي قلعتها أقرأ ، عن تلك المدينة العظيمة ، في الكتابات الحثيّة — من الالف الثاني ق.م. أيام كانت عاصمة لمملكة « مجهاد » — والكتابات الآشورية ، حينما استولى عليها تغلات فلاسر الثالث (٧٣٨ ق.م.) ، وفي تاريخ الاسكندر المقدوني الذي فتحها سنة ٣٣٣ ق.م، وتاريخ السلوقيين ، الذين دعوها « بيرويا » بعد ان احتلوها . لأقرأ ايضا كيف انتقلت الى ايدي الرومان ، ثم كيف خرّبها الفرس سنة ٥٤٠ م. وأقرأ ايضا وايضا تاريخ العرب ، وقد جعلوها سنة ٦٣٧ م عاصمة جند قنّسرين ، وتاريخ الحمدانيين وهؤلاء قد ازدهرت على ايديهم، ثم قصتها مع البيزنطيين في النصف الثاني من القرن العاشر ، ومع الفاطميين ، ومع السلاجقة ، ثم مع صلاح الدين الايوبي ، الذي جاء بعده المغول وقد اجتاحوها سنة ١٢٦٠ فاحرقوها او دمروها ، وهكذا حتى اصبحت ولاية عثمانية ... والى يومنا هذا . وكل القراءات تثبت ان حق حلب في الحياة والحرية هو اقوى من اولئك المحتلين المغتصبين .

واذ تنتهي هذه الجولة — الرؤيا ، لاعود ثانية الى الدير الام ، في زوق مصبح ، فيتنفض ذلك « المجمع اللبناني »

الشهير الذي عقد هنا « في كنيسة القديسة مريم ، الثلاثين من ايلول والاول والثاني من تشرين سنة ١٧٣٦ » [٨٩] ،

---

(٨٩) المجمع اللبناني الذيعقده في جبل لبنان السيد السامي الاحترام بطريرك طائفة السريان الموارنة الانطاكية يوسف بطرس ضرغام الخازن ، بمؤازرة السيد الفائق الاحترام يوسف سمعان السمعاني ، قاصد الكرسي الرسولي، ترجمه عن النسخة اللاتينية المطبوعة في رومية بمطبعة انتشار الايمان المقدس ١٨٢٠. المطران يوسف نجم مطران عكا ، النائب البطريركي . طبع في مطبعة الارز جونيه سنة ١٩٠٠. ص ١ .

واذ نذكر البطريرك يوسف ضرغام الخازن ، انما نذكر ما لاسرة الخازن اللبنانية العريقة من فضل واحسان ، باعتراف الكثيرين من الاساقفة والرهبان اللبنانيين وغير اللبنانيين . فهذه الاسرة انجبت رجال السياسة والحكم والاقتصاد والقانون والمطارنة والبطاركة .

اشتهر من سلالة سركيس الخازن المعروف بالشدياق سركيس الذي توفي سنة ١٥٧٠ : ابنه الشيخ ابو صقر ابراهيم ١٦٠٠. مربي الامير فخر الدين المعني واخيه الامير يونس ثم مدبر فخر الدين . والشيخ ابو نادر ، ابن الشيخ ابي صقر(ت١٦٤٧)، من مدبريالامير فخر الدين تولى فيايامه بلاد كسروان وجبيل والبترون وجبة بشري والمرقب . قبض عليه مع سيده في مغارة جزين ١٦٣٣ . اتصف الشيخ ابو نادر بفطنته وشجاعته . الشيخ ابو نوفل نادر . ت ١٦٩٧ . وهو ابن الشيخ ابي نادر من ثقاة الامراء المعنيين . ولاه المديرية الامير حسن بن فخر الدين ثم ولداه الاميران احمد وقرقماز . عين قنصلا لفرنسا في بيروت سنة ١٦٥٩ ،ووكيل قنصلية البندقية . يوسف ضرغام (المذكور اعلاه) طوبيا بطريرك الموارنة (١٧٥٦ ـ ١٧٦٦) . يوسف بطريرك الموارنة (١٨٤٥ ـ ١٨٥٤) . والشيخ فيليب (١٨٦٥ ـ ١٩١٦) . انشأ جريدة « الارز » مع اخيه الشيخ فريد (١٨٦٩ ـ

مذكرًا بأيام الرهبانية اللبنانية الحلبية المارونية الموحدة، وكيف كان أولئك المؤسسون ، الاساقفة والرهبان والبحاثون والعلماء،يلفون الدير من كل جانب،وكأني بهم يقولون بصوت واحد : ليس للرهبان المشرقيين الا ان يكونوا متحدين ٠٠٠ومن انقسم على نفسه ضاع أو اندثر!!

١٩١٦) . ولدا في عرمون ـ كسروان وجاهدا معا في سبيل استقلال لبنان حتى استشهدا اذ أعدمهما جمال باشا. لهما كتاب « لمحة تاريخية في استقلال لبنان » وترجمة «المحررات السياسية» . يوسف ت ١٩٤٤ . صحافي عاش زمنا في مصر وساهم في تحرير صحف عديدة انشأ جريدة « الاخبار » ١٨٩٦ ثم مجلة « الخزانة » ١٩٠٠ ثم جريدة « بريد الاحد » ١٩٠٢ ، وعاد الى لبنان فاصدر جريدة « الارز » ١٩٢٢ ثم « البلاد » ١٩٣٣ . ومن الخازنيين ايضا : النائب الشيخ الياس الخازن والاقتصاديان رجلا الاعمال : الشيخ رشيد صالح الخازن وشقيقه الشيخ هيكل ، المحامي الشيخ وليد الخازن ، والشيخ نمر الخازن ، صاحب « عرق الخازن » .

الفصل الخامس

نساء الإحسان

الأم مريم جهشان
السيّدة إميلي سرسق

"أحببتَ البرَّ وأبغضتَ الإثمَ فلذلك مسحكَ إلهكَ يا أللهُ بدهنِ البهجةِ أفضلَ من شركائِكَ".

من رسالة القدّيس بولس الى العبرانيّين ١-٩

عجلة الزمان

عجلة الزمان تسرع الخطى . تمر من امامنا كلمح البصر . ترفض رجاءنا . تتجاهل استغاثتنا . واذا ما التفتت ، نحونا ، فبسخرية او شفقة . تقذف ، على الارصفة آخر ملابسها القديسة . دخانها يكثّف الاجواء ، ويحتل وجه الشمس . صوتها قريب بعيد لا يحاكي العواطف ، ولا يُهيِّج الاشجان .

على متن هذه العجلة التقى « العبثيون » ، ذوو اللحى الطويلة الفوضوية ، وقد علقوا ، في رقابهم « احذية » و « قباقيب » من الذهب او الفضة او الخشب او التناك ، نسبوها الى ملوك الحداثة والابداع . يحمل هؤلاء ادوات الرسم والنحت والموسيقى والشعر . وفي جو صاخب مضطرب ، يضع كل فنه على هواه ، ويلقي به ، من على سطح العجلة، ملطّخا، وعاريا حتى من اسمه، والويل لمن يسأل عن هذا « الفن » ... أو عن هويته .

زبانية هذا الزمان يمنعون التفسير والتأويل ،

ويستنكرون البحث والتدقيق • يتسللون الى خزائن تراثنا عبثا واستهتارا ، كأن لهم معاثا ا ومنتدحا [١] • ومثل هؤلاء لا اعرف الى أين تشحنهم عجلة الزمان ••• فلربما خدعتهم لكي تصرفهم عن صناعة تاريخهم • فهل تنبّه المعنيون للامر قبل فوات الاوان ؟

ان هذا ليس نقدا لاحد ، من الناس ، بالاسم • وانما هي خواطر تزاحمت على لساني ، عندما كنت اجول مع الام تيودورا جبيلي ، رئيسة « راهبات زهرة الاحسان الارثوذكسية » [٢] ، (توفيت في ١٢/٣/٩٨٦) والحاجة

---

(١) المعاث : المذهب والمسلك . والمنتدح : مذهب . ويقال « ان لي عن هذا الامر لمعاثا » اي مندوحة فيمكنني تركه . ويقال « لك منتدح في البلاد » اي مذهب واسع عريض . والمثل يقول : « ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب » . المعاريض جمع معراض وهو التورية بالشيء عن شيء اخر . والمندوحة : السعة . يضرب لمن يحسب انه مضطر الى الكذب . (قاموس) .

(٢) تيودورا هو اسم امبراطورة بيزنطية (٥٢٧ – ٥٤٨م.) زوجة يوستينيانوس – امبراطور بيزنطي (٥٤٧ – ٥٦٥ م.) – الذي حاول توطيد الامبراطورية البيزنطية في السياسة والدين والقانون ، وامر بتدوين القوانين الرومانية ، وكمل ، في القسطنطينية ، بناء كنيسة اجا صوفيا . حارب الفانذال والفرس ، واستعاد ايطاليا والاقاليم الافريقية . ساعدت تيودورا زوجها .. وكان من مشجعي المونوفيزية . طلب منها النجدة مار يعقوب البرادعي،اذ انها ابنة كاهن سرياني =

الاخت بربارة ابو ابراهيم [٣] ، والارشمندريت نقولا بدوي [٤] ، ذات مساء ، في مدرسة « زهرة الاحسان » وكنيستها ، بالاشرفية – بيروت •

= من منبج، فاستجابت لطلبه (كما جاء في كتاب «كنز قمران مدارج البحر الميت » للمطران اثناسيوس يشوع صموئيل – الترجمة العربية ، المذكور سابقا . الا ان يوستنيانوس عاد الى اضطهاد الكنيسة الارثوذكسية اثر وفاة زوجته (كنز قمران ، المصدر نفسه) .

(٣) القديسة بربارة : عذراء شهيدة كرمها المسيحيون منذ القرن السابع . يحتفل بعيدها في ٤ كانون الاول بأفراح شعبية يشترك فيها الاولاد .

(٤) يحمل اسم نيقولا خمسة باباوات منهم نيقولا الاول الكبير (٨٥٨ – ٨٦٧) والثاني (١٠٥٨ – ١٠٦١) وقيصران روسيان وهما نيقولا الاول (١٧٩٦ – ١٨٥٥) ونيقولا الثاني (١٨٦٨ – ١٩١٨) ، وراهب بيزنطي يدعى نيقولا الراهب الذي نقل الى العربية مع الطبيب الاسرائيلي مسداي بن شبروط مخطوطة ديسقوريدس في المواد والعقاقير الطبية اهداها قسطنطين السابع (٩٠٥ – ٩٥٩) الى عبد الرحمن الثالث اول خليفة اموي في الاندلس (٩٢٩ – ٩٦١) ، واسقف ميرا القديس نيقولاوس ، الذي حضر المجمع النيقاوي (٣٢٥م.) ، وتكرم ذخائره في مدينة باري في ايطاليا، ويدعى ايضا زخيا او الظاهر . ونيقولاوس الشامي : مؤرخ وفيلسوف ولد في دمشق نحو ٦٤ ق.م. علم ابناء انطونيوس كتاب « التواريخ » . وفي « اللؤلؤ المنثور » ورد نيقولاوس الخطيب (٠٠٠) ص ٣٦٥ – ٣٨٩ .

كثيرة هي العناوين والاشياء التي وقفنا عندها نقرأ ونتأمل، ولا سيما ان هنالك اربع أيقونات جاءت هدية من البطريرك جراسيموس الاورشليمي الى مدرسة باكورة الاحسان للبنات في بيروت ، وهي تصور لنا ، بمنتهى الدقة والاتقان، مراحل حياة المسيح العجائبية : الميلاد ، العماد ، الصلب ، والقيامة .

في الكنيسة ، على تواضعها ، ايقونات روسية وغير روسية ، دبت فيها الرطوبة ، وصوَر ، معظمها بريشة الحاجة بلاجيا تبشراني ، قدمها للكنيسة محسنون (...) اشتروا بمالهم ذكرا عطرا ورحمة وصلاة .

وفيما انا انظر ، الى هذه الاعمال الفنية القيّمة الخالدة، باعجاب ، تخيلت ، او قل رحل بي الخيال الى ما يسمى بالفن الحديث ، وحاولت أن أقارن بين هذا العطاء الانساني العظيم ، وبين تلك الهلوسات الغشيانية ، ثم عدت عن هذا ، لما رأيت ان لا مجال ابدا الى المقارنة بين ما تخلده الايام والسنون وبين ما هو مائت قبل ان يولد .

ونخرج من الكنيسة باتجاه « الميتم » ، الذي يضم اكثر من ستين يتيمة من مختلف الطوائف ، تتراوح

اعمارهن بين خمس سنوات وعشرين سنة ، كن يتهيأن ، الى الصلاة ، صفوفا منسقة ، على رأسهن الراهبة الاخت صوفيا نعمة ، التي بدت كأنها واحدة منهن ، براءة وتواضعا .

فوق ابواب بعض غرف هذا الميتم اسماء وتواريخ :

❋ وقف ابراهيم يوسف سعد وعائلته لمدرسة زهرة الاحسان (١٩١٣) .

❋ تقدمة جمعية « البنفسجة » المؤلفة من تلميذات مدرسة زهرة الاحسان (١٩٣٤) .

❋ تقدمة من ادما امين شكور طراد ارملة جرجي مخايل فراية (؟)

❋ وقفية السيدة اميلي عن نفس المرحوم تيودور برهر المسكوني ـ عائلة روسية (١٩٣٤) .

❋ وقفية السيدة حنة والدة نجيب خليل فرنيني عن نفس ابنتها المرحومة ماري (١٩١٠) .

وينتهي المر الى المختبر ، الذي « هو تقدمة البطريرك

ألكسي ـ بطريرك كنيسة موسكو وكل روسيــة » • لا يعرف القيمون على المدرسة تاريخ وصوله الى هنا •

ذكّرني اسم هذا البطريرك بالقديس ريشا (يُسمّى هو أيضا ألكسي) الذي قيل انه هجر بيت أبيه في روما ليلـة عرسه ، وساح في بلاد الشام ، وعاد بعد ١٧ سنة متنكّرا، ولم تعرف هويته الا بعد موته في القرن الخامس• وذكّرني أيضا بأولئك الاباطرة البيزنطيين ممن حملوا اسم ألكسي او ألكسيس (٥) • كم تحمل الاسماء دلائـل وارشادات

---

(٥) نذكر هنا اشهرهم :
ـ الكسيس الاول / كوفينوس (١٠٤٨ ـ ١١١٨) • ارتقى العرش سنة ١٠٨١ تصدى لهجمات الاتراك السلجوقيين في الاناضول والنورمـان في الابيروس • يعتبر اول مـن اعطى البندقية مركزا اقتصاديا في الشرق • استفاد من الحملـة الصليبية الاولى لاستعادة قسم من آسيا •
ـ الكسيس الخامس / دوكاس ، تولى السلطة سنة ١٢٠٤ في عهده احتل الصليبيون بيزنطية واسسوا فيها امبراطورية لاتينية •
ـ ومن اباطرة طرابزون (Trabzon) في ارمينيا التركيـة على البحر الاسود :
ـ الكسيس الاول / الملقب بالكبير وهو امبراطور من ١٢٠٤ الى ١٢٢٢ • احتل طرابزون بعد استيلاء الصليبيين علـى بيزنطية واسس فيها امبراطورية بيزنطية واحتل شبه جزيرة القرم •
ـ الكسيس الثالث • (١٣٣٨ ـ ١٣٩٠) تقرب من بيزنطية ومن الاتراك فزوج بناته لامراء منهم •

وبراهين ! الذين يوالون الكنيسة الغربية يستوردون اسماء من الغرب • والذين يوالون الكنيسة الشرقية يستـوردون الاسماء من الشرق • اما المسلمون ، اينما كانوا، فأسماؤهم يأخذونها من العرب ! وبهذا يصبح الذبح ، على الهوية ، أو الخطف ، امرا بسيطا ، لا لبس فيه ولا تعقيد ولا اشكال • وغالبتني الاسئلة : لماذا لا تتحرر من اسمائنا ؟ لماذا لا ننقذ ابناءنا من خطر الهوية •••؟ لماذا لا نشطب الدين عن تذكرة النفوس ؟ من أين جاءتنا الحرب على الاسماء ؟ (*)

لتسقط الاسماء التي تجرنا الى المهلكة !

بل لتسقط الاسمــاء التي تفرق بين الانسان واخيـه الانسان !

في الصالون

عدنا الى « الصالون » لنستذكر الام الرئيسة تيودورا

(*) في كتاب « سليمان الغزي » (شاعر وكاتب مسيحي ملكي من القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد) يؤكد محققه المطران ناوفيطوس ادلبي، راعي ابرشية حلب للروم الكاثوليك ، على ان اسم الحسن، اسم والد الشاعر سليمان ، «كان شائعا بين المسلمين والنصارى في عصره على حد سواء ، كغيره مـن الاسماء العربية التي بطل استعمالها عند النصارى في ما بعد، فبدت اليوم وكأنها مقصورة على المسلمين دون سواهم » (التـراث العربي المسيحي ، طبعـة ١٩٨٤ ، الجزء الاول ص ١٢٠) •

جبيلي ، التي صار لها نصف قرن او اكثر في المدرسة ، وقد كرسها المتروبوليت غفرائيل الصليبي رئيسة في ٥/٤/١٩٧٩،فراحت تلملم لنا أشتاتا كان يجب أن تجمع في حينها •

في « الصالون » صور لراهبات وسيدات مجتمع — أين منهن نساء اليوم ؟ — وُزِّعت على الجدران،لتحكي لنا قصة مؤسسة خيرية ومدرسة وجمعية رهبانية • تتقدم الى هذه الصور • انها اكبر من الكلمات • واكبر من ان نفكر في قراءتها •وجوه مشرقة وخالدة : الام مريم جهشان،الام كاترين خير ، الام حنة الخوري المعلوف ، الام ماري عازار، الام ناتالي شويري ، السيدة اميلي سرسق ، السيدة فريدة طراد، والسيدة ليندا سرسق • نساء تجاوز صيتهن الحدود، فاذا صداه ، في كل مكان ، الاريج وريح المسك •

تقف في « الصالون » خزانة للكتب ، من خشب الجوز ، عمرها زاد على الثمانين عاما ، مكتوب عليها : « تقدمة المحسن المرحوم الياس جرجي سيوفي — عام ١٩٠٢ » • عن هذا المحسن قالت الحاجة بربارة ابو ابراهيم: « انه يستحق ان يذكر دائما بالخير • لقد وهب المدرسة المفروشات والخزائن الثمينة » •

فلنتذكر اذاً أي فرق بين أثر وآخر • بين عطاء وعطاء• القضية ، على كل حال ، هي جمالية انسانية • المهم ان نحسن الاختيار ••• ونعرف الغث من الثمين • هنا كنوز

تاريخية حملتنا اليها عجلة الزمان وانزلتها كواكب مضيئة ، فبرز الفرق عظيما وشاسعا بين محمول ومحمول • على ان العجلة الدهرية العجيبة تحتمل الكثير الكثير وتشحن الكثير الكثير • ودائما نحتاج الى الذوق كما الى المقدرة على التمييز • فمتى خسرنا هذه الطاقة خسرنا كل شيء جميل ومفيد •

في باحة « الزهرة »

يحتل باحة مدرسة زهرة الاحسان — البناء القديم — تمثالان رخاميان • الاول للسيدة اميلي خليل سرسق ، يتصدر ، منذ عام ١٩١٤ ، المدخل الرئيسي مكتوب عليه : « تذكار شكر وامتنان من الاخت مريم جهشان رئيسة رهبنة مدرسة زهرة الاحسان ومن اعضاء الجمعية ومتخرجات المدرسة » •

فالحياة اذاً دينٌ ووفاء ، على ما يقولون •

كيف لا تكون السيدة اميلي سرسق هنا في هذه الباحة ، وهي التي أعطت « زهرة الاحسان » الوقت والصبا والمال ؟

زهرة في حديقة • وكما الجمال له مكانه ومناخه ، كذلك الاحسان له اهله وذووه • اميلي منحت المدرسة جمالها والمدرسة حافظت عليه ، وفاءً بالوعد والعهد •

يرابط التمثال الثاني تحت شجرة في الزاوية الشمالية ـ الشرقية من الباحة • هو للمؤسسة الام مريم جهشان صار له هناك منذ سنة ١٩٢٥ • الايام تأتي ••• وتذهب • والحديقة هي الحديقة • زهرتان لن تؤثر فيهما العواصف ••• ولا الازمنة ••• ولا الاحداث •

اميلي ومريم ••• وجهان لحديقة واحدة اسمها «زهرة الاحسان» •

ما اعظم عطاء مريم واميلي !

مجد اميلي •••

لقد تراءى لي ، وانا اتنقل بين هذين التمثالين ، كيف كانت تقام الحفلات والمهرجانات : هنا ، في هذه الباحة الوسيعة ، ذات الحكايات الرائعة وقد بدأتها سنة ١٨٩٠ مع مشاهير الرجال ، من الحكام والاحبار ، والمحسنين ، والادباء ، والشعراء ، ممن وردوها مهنئين او خطباء او معظّمين •

هنا قلّدت المحسنة الكبيرة اميلي سرسق «البراءات» ومُنحت الاوسمة • فهي تحمل :

١ ــ براءة الجمعية الامبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية موقعة في ١٩/١٢/١٨٩٣ •

٢ ــ براءة سلطانية بنيشان الشفقة من الرتبة الاولى• من الغازي السلطان العثماني عبد الحميد بن عبد المجيد خان [٦] ، ١٣١٨ هـ ــ ١٩٠٠ م•

---

(٦) عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ ــ ١٩١٨) : جلس على العرش السلطاني سنة ١٨٧٦ . قاوم الدستور بشراسة لقب بـ « السلطان الاحمر » لكثرة ما سفكه من الدماء خلع سنة ١٩٠٩ ،

« كان حزب تركيا الفتاة قد خلع عبد العزيز ، واجلس مكانه مراد ، اخا عبد الحميد . ولكنه انزل قبل دستور مدحت باشا . ولكنه ما لبث ان الغاه . حكم البلاد حكما قاسيا ، كثرت فيه العيوب ، واختلت موازين الامور ، واقصى مدحت باشا ، ثم سعى الى قتله . كان عهده طافحا بالحروب فحارب صربيا ١٨٧٦ وروسيا (١٨٧٧ ــ ٧٨) ، وانتهى القتال بعقد معاهدة (سان ستيفانو) التي عدلها مؤتمر برلين ١٨٧٨ . حارب اليونان ١٨٩٧ ، وحدثت مذابح الارمن (١٨٩٤ ــ ١٨٩٦) ، التي قتل فيها عدد كبير من رعاياه الارمن . تقرب الى المانيا ، وعين كثيرين من الضباط الالمان لتدريب الجيش العثماني واعادة تنظيمه . وحصل منه الالمان على امتياز رد سكة حديد بغداد . ثار عليه ١٩٠٨ الضباط الشبان المنتمون الى حزب تركيا الفتاة ، واكرهوه على منح دستور للبلاد ١٩٠٨ ، ثم خلعوه ١٩٠٩ حين لمسوا نواياه السيئة . احتفظ به سجينا ، اولا في سالونيك ، ثم في جهة قريبة من ازمير » .

(الموسوعة العربية الميسرة ، دار النهضة لبنان ، الجزء الثاني ص ١١٨٠) .

وفي حفلة من حفلات الدستور ، القى امين الريحاني (١٨٧٦ ــ ١٩٤٠) خطبة جاء فيها :

« ايها الوطنيون

انتم المستضعفون في الارض وانتم ان شاء الله =

= الوارثون. ويشهد على ذلك نير ماضيكم وحرية حاضركم. يشهد على ذلك ظلام امسكم ونور يومكم . فانتم المعلمون والمحررون بفضل زعماء الاراء الحرة وبفضل الجند العثماني الذي سيبرهن لاوروبا اليوم ان الشرق لم يزل منبت المعجزات . ففي الماضي كانت معجزاته دينية واليوم معجزاته سياسية . بالامس دهشت دول اوروبا بالمعجزة التي اتتها اليابان واليوم تدهشها المعجزات السياسية والاجتماعية في دولة بني عثمان . فاوروبا لا تعرف حتى الان معنى الثورة السلمية ، وما رأت بين شعوبها المتباينة عناصرها السياسية والمتضاربة مذاهبها الاجتماعية مثلما يسود اليوم في امتنا من التساهل والمساواة والاخاء . وهذا هو النور الذي ينشق من الظلام . هذه وردة الوئام التي تنبت على ضريح الشقاق والخصام هذه هي الحرية التي تشيد هيكلها في روضة الالفة والسلام » .

وجاء ايضا :

« بالامس كان خطيبكم يتسنم المنبر فيجمجم الكلام ويوريه ويلفز ويرمز . ويعقد مقاله ويلويه . لتخفى على جواسيس الحكومة معانيه . واليوم نراه كما لو كان في باريس او في نيويورك يصدع بالحق (يتكلم به) ويجاهر مصرحا بآرائه ومبادئه . والفضل في ذلك عائد الى زعماء النهضة الاصلاحية النظريين . والى زعمائها العلميين . بل الفضل عائد الى كل من حرك قلما لبث روح الحرية والدستور . والى جلالة السلطان الذي كلل النهضة بالنور فصان الدولة من الخطوب والمحن وخلص الامة من الهزاهز والفتن . فالامة التي كانت امس اسيرة ظلمه اصبحت اليوم اسيرة فضله . وقد يكون الاسر اكبر من الاسير ولكن العاتق يا سادة اكبر من الاثنين فالسلام على عبد الحميد ، والسلام على عهده الجديد سلام على عصر الحرية المجيد » .

(من كتابه « الريحانيات » الجزء الثاني، المطبعة العلمية =

٣ ـ رسالة البطريرك دميانوس (دومبتيانوس) (٧) بطريرك أورشليم ـ عن المدينة المقدسة ، في ٢٣ حزيران ١٩٠١ .

= ـ بيروت، ١٩٢٣) نقلت هذه الخطبة التي عنوانها « الحرية والتهذيب » الى كتاب « حصاد الفكر العربي الحديث في قضية الحرية » مؤسسة ناصر للثقافة ، الطبعة الاولى (١٩٨٠ ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٩) .

على ان الريحاني قد علق قائلا : « وذنبي صغير بالنسبة الى ذنوب الشعراء في هذا المقام . ثلاث تسليمات (يقصد : السلام على عبد الحميد ، والسلام على عهده الجديد ، والسلام على عصر المجيد) يغفرها الله ولكن الثلاث مائة قصيدة .. سبحان من لا تخدعه الحوادث سبحان العالم بذات الصدور وبخفايا الدستور » (المصدر نفسه ـ حاشية

(٧) على اسم :

Domitian (Domitien) A. O. 51 — 96, Titus Flavius — Domitianus Augustus . Rom. emp. (18 — 96) .

وورد في « اللؤلؤ المنثور » (ص ٢٦٩) « ان بطرس الثالث القلونيقي ، الذي اختير سنة ٥٨١ لمكان فضله وعلمه ورسم بطريركا لانطاكية في دير مار حننيا ، اشتهر بمحاورته دميانس السرياني بطريرك الاسكندرية الذي خلط في شرح عقيدة الثالوث الاقدس ، في اثناء نقضه بدعة مثلثي اللاهوت ، لا تشيثا ببدعة ولكن لقصر نظره في العلم . ولما لم يذعن الى مشورة بطرس وحاول التملص من البحث والدفاع عنادا ، ناقضه (هذا) الحبر في كتاب الفه باليونانية ينطوي على اربع مقالات (او ثلاث) في مئة فصل دعمه بشواهد من الائمة » .

٤ ـ طِرْس بطريرك بعـود الصليب (٨) ، مـن البطريرك دميانوس (نفسه) عن المدينة المقدسة فـي ٢٣ حزيران ١٩٠١ ٠

٥ ـ وسام صليب القبر المقـدس ، من البطريـرك دميانوس (نفسه) في ٢٧ تموز ١٩٠١ ٠

٦ ـ أمبراطور ألمانيا وزوجته (الاولى) (٩) يأمران

---

(٨) الطرس جمـع اطراس وطروس : الصحيفة عمـوما ، الصحيفة التي محيت ثم كتبت . والمقصود هنا ان البطريرك دميانوس كتب الى السيدة اميلي سرسق ، رسالة ، بمثابة « بركة » ، على عود الصليب .

(٩) هو : Wilhelm II (1859 — 1941) . امبراطور المانيا ، وملك بروسيا (١٨٨٨ ـ ١٩١٨) ٠ ابـن وخلف فريدريك الثالث ، وحفيد وليم الاول ، كما كان حفيد الملكة فكتوريا ، من ناحية امه . كان شديد الايمان بحق الملوك الالهي ، محبا للمظاهر العسكرية ، شديد الاندفاع ، اكمـل دراساته بجامعة بون . سعى وليم كامبراطور ان يجعل المانيا دولة تجارية وبحرية واستعمارية ، عزيزة الجانب ، رفيعة المكانة ، وسرعان ما اصطدم ببسمارك (Bismark) فارغمه على الاستقالة ١٨٩٠ ، واصبح القوة المسيطرة على حكومته حاول في سياستـه الداخليـة التهوين مـن شأن الاحزاب الاشتراكيـة ، بسن القوانين القمعية ، والقيـام بالاصلاح الاجتماعي . ولكنه ركز اكبر اهتمامه في السياسة الخارجية، غير ان نصيبه كان الاخفاق الذريع في هذا الميدان ، فقد فشل في تجديد معاهدة تأكيد التحالف مع روسيا عام ١٨٩٠ . ومع انه كان يرغب في المحافظة على العلاقات الودية مع بريطانيا ، =

في ١٠ تشرين الثاني ١٨٩٨ جرجي أفندي موسى سرسق

= الا ان برنامجه البحري ،ومطامعه التجارية والاستعمارية حالت دون عقد تحالف بين الدولتين ، ودفعت انجلترا الـى تكوين الاتفاق الودي الثنائي مع فرنسا ١٩٠٤ ، ثم الاتفاق الودي الثلاثي ١٩٠٧ ، وازدادت علاقاته مع فرنسا تـوترا بالتدآخل الالماني في الشؤون الاستعمارية الفرنسية في افريقيا، ولا سيما في المغرب ، ولكنه تمكن من ضم تركيا الى جـانب المانيا . كان وليم مغرما بالسياحة ، ويكثر من القاء الخطب الرنانة ، واحدثـت برقيـة التشجيع التي ارسلهـا كرومر (Cromer) أزمة مع انكلترا . وكـان برنامجه الضخم في التسلح برا وبحرا ، ودبلوماسيته (او قلة المامه بالدبلوماسية الاريبة) مسؤولين الى درجة ما عن نشوب الحرب العالمية الاولى وكان الرئيس ولسن (Wilson, T.) قـد اعلن ان نزوله عن العرش شرط ضروري ينفذ قبل البـدء في اجراء مفاوضات الصلح ، فقامت فتن في المانيا أكرهت الامبراطور على النزول عن العرش ، وفر الى هولنـدا (١٠ نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩١٨) ، حيث اقام في عزلة في دورن بقية ايامه

(For more 20 years he lived in comfortable exile at Dorn) .

وقد رفضت الحكومة الهولندية ان تسلمه الى الحلفاء لمحاكمته كمدبر للحرب . وبعـد وفاة زوجته الامبراطورة اوجستا فكتوريا (Augusta , Victoria) تزوج ثانية الاميرة الارملة هرمينه ١٩٢٢ . كتب سيرة لايام شبابه ومذكرات عن سياساته واتصالاته .

انظر :

ـ الموسوعة الميسرة ـ المصدر نفسه .

— The World Book Encyclopedia , Volume 2 , P.P. 255-256 .

ومدامته بمجالستهما على الطعام (١٠) ٠

٧ ــ فارسة حاملي صليب القبر المقدس الارثوذكسيين « شفاليه» عن البطريرك دميانوس ، في ٤ نيسان ١٩٣١ ٠

٨ ــ براءة الاستحقاق اللبناني ــ مرسوم رقم٩٢٣٢ صدر عن رئيس الجمهورية شارل دباس (١١) ،وعن رئيس مجلس الوزراء أوغست أديب ٠ قلّدها اياه وزير المعارف والفنون الجميلة جبران تويني ، يوم ٢٨ نيسان ١٩٣٢ ٠

وبقي التمثالان

رفعت رأسي لابصر ستة أبيات من الشعر محفورةفوق الباب الرئيسي ،سنة ١٨٩٠ ، تاريخ اكتمال بناء هذا الصرح هي :

« هذا المكان لقد بدا كمنارة
في ربع بيروت البهي المصان

(١٠) نشرت هذا الخبر جريدة « لسان الحال » في ١٤ تشرين الثاني ١٨٩٨ ٠

(١١) شارل دباس : اول رئيس للجمهورية اللبنانية ١٩٢٦ ــ ١٩٣٣ ٠ في عهده الغي مجلس الشيوخ ١٩٢٧ ٠ استقال بعد تعليق الدستور ٠

ربات خدر قد أقمن بناءه
وذوات قدر من نسا الاحسان
من مالهن تأسست اركانه
حتى غدا من اجمل البنيان
وقفا على جميع البنات جعلنه
للعلم والتهذيب والاتقان
بر عظيم ما سُبقن بمثله
من شرقنا في غابر الازمان
فلذلك التاريخ جاء مسطرًا
هوذا البنا باكورة الاحسان »

وفجأة انهمر المطر ، فغادرتُ المدرسة ، فيما دخلت الام الرئيسة ، تيودورا جبيلي ، والحاجة بربارة أبوابراهيم، والارشمندريت نقولا بدوي ، الى الكنيسة ليصلّوا مع الراهبات وبنات « الميتم » ٠

أما التمثالان ، فقد عادا الى صمتهما ، وكل واحد منهما يمد نظره الى رفيقه ، كأنهما يتساءلان :

ــ أين الادباء ينثرون الكلم العذب الجميل ؟

ــ أين الشعراء يغنّون القصائد التي تسحر الالباب؟

ــ أين الحكام يجتمعون في بيوت العلم والادب ،

ليتنافسوا في بذل المساعدات لها ومدّها بالمعونات والتسهيلات ؟

— أين الصحافة تشقّ الطريق أمام فاعلي الخير وتحرض على مناصرتهم وتشجيعهم ؟

— أين المحسنون يغذّون بأموالهم المؤسسات الخيرية الاجتماعية ومدارس الفقراء ؟

— أين أنصار الحق والواجب ؟

— أين أصدقاء الحرية والعدالة ؟

— أين دعاة السلام ؟

— أين رجال الدين يطالبون بانصاف المواطنين وانقاذهم من الخطر الذي بات يهددهم ؟

— أين هم أصحاب النخوة والشهامة والكرامة ؟

— أين هي التضحية ؟

— لماذا كانت الحرب ؟

— مَن يقاتل مَن ؟

ظلّ المطر ينهمر حتى غرقت بيروت، وسُدّت الطرقات والمنافذ، بينما عجلة الزمان ما زالت تشحن زبانية «الحداثة» و « الابداع » الى حيث لا يعلمون ، وبدا الدلاّلون يهتفون لتجار الحرب والسلاح :

— شعراء متهتّكون للبيع .

— رسامون مهلوسون للبيع .

— صحافة خليعة للبيت .

— مؤرّخون للبيع .

— فلاسفة للبيع .

— أدباء للبيع .

— ملوك للبيع .

— رؤساء للبيع .

— رجال دين للبيع .

— مقاتلون للبيع .

— نساء للبيع .

— رجال للبيع .

— أخلاق للبيع .

— بيع ... للبيع .

وكان لا بد من البحث في تاريخ هذه المدرسة ومؤسساتها ، ولا سيما « أم المحسنين » المرحومة ، إميلي خليل سرسق « ربة الحسن والكمال وعقد ربات الجمال » كما يقول نجيب داود زلزل (١٢) . فعسى أن يتسلم قيادة عربة الزمان روّاد حقيقيون يحفظون للوطن وجهه وللانسان كرامته .

---

(١٢) خرجه نقولا باز ، في كتابه « املي سرسق ستين عاما محسنة » ص ٢٦ — ٣٧

"شيطانة الشعراء"
اميلي سرسق

لا أعتقد أن في لبنان ، الحديث ، أو غيره من بلدان المنطقة امرأة تنادى الشعراء والادباء والصحافيون ورجال الدين والحكام ، الى تكريمها ، مثل المرحومة إميلي خليل سرسق .

لقد استطاع منشىء مجلة « الحسناء » [١٣] المرحوم الاديب والشاعر والصحافي جرجي نقولا باز (١٨٨٢ — ١٩٥٩) أن يجمع ، حتى عام ١٩٣٧ ، كل ما قيل في هـذه السيدة التي « أضاءت شمعتُها شموعا في أُسرتِها ،شموعا في جمعيتها ، شموعا في ديرها ، في مدرستها ، وفي محيط لا يدرك حدّه ، وهي شموع لا ينطفىء نورُها ، بـل تبقى تتلألأ الى أبد الدهور » [١٤] ، فاذا هو كتاب مـن

---

(١٣) انشئت مجلة « الحسناء » عام ١٩٠٩ .
(١٤) الدكتورة انس بركات باز . اخرجه جرجي باز ، المصدر نفسه ص ٢ .

مائتي صفحة ، من الحجم الكبير ، لا يحمل تاريخ الطبعة الاولى ، وإنما يُعتقد أنه صدر في أوائل ١٩٣٨ ، حوى ، بين دفتيه ، القصائد ، التي نظمها فيها شعراء لبنانيون وغير لبنانيين ، والمقالات ، التي دبّجها لهـا أدباء ووجهـاء وصحافيون ، والرسائل ، الواصلة اليها من أحبـار ... وأباطرة .. وسلاطين .. وحكام .. وولاة ، وكلها تشهد على فضائـل هـذه السيدة وإحسانها وسخائهـا وطيب محتدها .

يقول جرجي باز :

« يعلم الناس فضل المحسنة اميلي سرسق في عـالم الاحسان وينظم فيها الشعراء ويكتب عنها المنشئون،وقد نالت أوسمة الشرف ، ونُصب تمثالُها في زهرة الاحسان، وصارت مضرب مثَل جودها ستين عاما » .

أضاف :

« العائلة والكنيسة ، الجمعية والرهبنة والمستشفى (مستشفى القديس جاورجيوس «مستشفى الروم») [١٥]

---

(١٥) يحمـل هـذا المستشفى اسـم القـديس جـرجس (George, Saint) ، الذي على ما قيل من امراء كبدوقية (Cappadocian) ، الواقعة غربـي تركيا الآسيوية — الاناضول ، استشهد على أيـام ديوقليتيـانوس ٣٠٣ =

= (Diocletianus, Rom. emp. 284-305) ، في نيقوميديا ، ازميت التركية (Nicomedia or Izmit) . يعيِّـــد له النصاري في ٢٣ نيسان . ويكرمه المسلمون باسم الخضر . بيد ان الخضر ، كما جاء في « الموسوعة العربية الميسرة » هو « ايليا بن الياس ، صاحب موسى عليه السلام ، لقيه وقصد معه مجمع البحرين ، حدثت بينهما احداث عجيبة لم يلبثا ان افترقا بعدها (٥٩ ــ ٨١ سورة الكهف) . مضرب المثل في العلم الزاخر والحكمة والاناة والصبر ، هادي السفن في أعالي البحار ، شيخ الزهاد والمتعبدين أو « نقيب الاولياء» عند المتصوفة ، يقدر على التشكل باشكال مختلفة وان كـان بشرا ، معمر وخالد يؤدي الفرائض والواجب » (الموسوعة .. الجزء الاول ص ٧٥٨). وفي سنة ١٣٥٠ رفعه الصليبيون الى رتبة شفيع انكلترا .

« Saint George was highly venerated by the Crusaders, and in 1350 was made patron saint of England » .

(W. B. E. V. 8. P. 111)

في الاول من شهر نيسان ١٩٨٥ ، زرت رئيس الخدمـات العامة لمستشفى القديس جاورجيوس ، الاستـاذ اميـل رحباني ، في مكتبه ، أسأله بعض المعلومات عـن المستشفى وتاريخ تأسيسه ، فقدم لي كتابا صدر ، عن المستشفى سنة ١٩٨٣ بمناسبة مرور مائة عام على انشائه :

« L'Hopital Saint George féte en 1983 , son Premier Centenaire » .

ودعا الاستاذ رحباني السيد سركيس ... الى مرافقتي في جولة على باحـة المستشفى وحديقته وبعض الطبقـات القديمة ، فاذا في الباحة الجنوبية تمثال لرئيسة جمعيـة السيدات للمستشفى السيدة ماري خليل سرسق ، شقيقة اميلي،وأرملة نخله جرجس التويني(١٨٧٢ــ١٩٥٤) . =

= وفي الحديقة تمثال للمتروبوليت ايليا الصليبي (١٩٦٦) ، واخر لغبطة البطريرك السيد الكسي ، بطريرك موسكو وكل الروسيا « اعترافا بفضله وتقديرا لاحسان تبرعه بالمعـدات الطبية لهذه المؤسسة ــ ١٩٦٦ » . ثم « مقام » عـن نفس الرئيس حبيب ابي شهلا ، تقدمة من عائلته ١٩٦٦ ، الـى جانبه تمثال للمرحوم حنا يوسف سياج (١٨٩٤) المتوفي في الاسكندرية . خلف « المقام » ايضا تمثال للمرحوم ديمتري يوسف سرسق المتوفي في ١٩٢٤ .

اما الطابق الاول ففيه لوحات عليها اسماء المحسنين الذين تبرعوا لبناء غرف في المستشفى ، واسماء الذين اوقفوا عقارا له ، واسماء الذين قدموا اموالا . هؤلاء المحسنون هم: مخايل جرجي مجدلاني ، اسكندر سرسق ، اسمـا عرمان (ابنة اسعد سرسق) ، اولاد اندراوس سابـا (يوسف وجرجي ونخله ونقولا) ، مخايل نعمة طراد ، فيودور بـرهر مسكوبي (وقف زوجته اميلي) ، اما غبريل ابو شعر ، امـا امين شكور طراد ، الدكتور اسكندر سركيس ، الآنسة نجلا جبران غاليه ، يوسف متري سرسق ، نقولا صدقة ، يوسف حنا سياج الدمشقي ، خليل متري سرسق (قدم عقارا في حلوان) ، نقولا كسيب (قدم عقاراً في بخعاز) ، نعمة يافث، فريد عماد واخوانـه ، ابراهيم يوسف المخبـاط ، نقـولا ابراهيم سرسق (صاحب متحف نقولا سرسق) ، يـوسف مرزوق الكويت ، المطران صموئيل داود ، عبدالله القسيس، الاخت فروسين بربـاري ، الدكتور كرنيليـوس فانديك ، فيليب جـرجي سرسق ، حبيب بستـرس بستـرس ، قسطنطـين يـوسف غرزوزي ، ظريفـه بسترس ، جرجي نقولا سابا ، بَسعي نظلي اسكنـدر بك التويني ، مخايـل كسيب ، اليـاس بطرس عازار ، الياس جرجـي سيوفي ، يوسف متري سرسق (ثانية) ماري جرجي سابا ، المطران جراسيموس مسرة ، تيودور جبيلي ، اسما جرجي طراد ، ابراهيم يوسف أسعد وأولاده ، ابراهيم طرشا ، نقولا =

ليسرن على نهجهـا ، وللسادة يتمثلون بها ، مـا أعظمها بالنبل والاحسان » [١٦] .

قالوا فيها

في هذه المرأة نظم الشاعر اللبناني خليل الخوري — يوم ٩ كانون الثاني ١٨٨١ — قصيدته « الملاك »ومطلعها:

« هبط المَلاكُ الآن في أوْج العلى
وبلُطفه قصَد المـلاك الاجملا

حسدَ الزهورَ على سماء جبينه
فـأتـاه بالنـور البهي مكلّلا

وأراد أسمى منزل فـي مجـده
فـأقـام في حجب الشعور مظللا

دعْه يحجب فـي العلى بمقامه
وانظر جمال ملاكِنا السامي العُلا» [١٧]

= كسيب(ثانية) جرجي نقولا دخلان ، فيليب نقولا رزوق ، ادال الياس رزوق وفارس سليم شقير .
المدير الحالي للمستشفى هو الاستاذ سلام الريس ، يشاركه الاب جورج ديماس .

(١٦) باز : المصدر نفسه ص ٣

(١٧) المصدر نفسه .

وكتب أديب اسحق [١٨] في جريدة « التقدم » العدد ٢٨/١٢/١٨٨١ يقول :

« أعاركِ البدرُ محيّاه ، وحيّاك الروض بريّاه .
فسرت منك نسيمات الزمن تحمل شيحا [١٩] وثمامـا [٢٠]
وتمشت فيك ارواح الصبا يتأرجن بانفاس الخزامى ، أم

---

(١٨) اديب اسحق (١٨٥٦ — ١٨٨٥) — صحفي واديب وشاعر وخطيب ومترجم وكاتب مسرحي وممثل و سياسي . ولد بدمشق ، واشتغل بالصحافة منذ مطلع شبابه ، فحرر جريدة « التقدم » البيروتية لصاحبهـا يوسف الشلفـون ، واشترك في تحرير مجلة « ثمرات الفنون » . جاء الى القاهرة واصدر ١٨٧٧ جريدة « مصر » بايعاز من استاذه جمال الدين الافغاني ، انتقل الى الاسكندرية واشترك مع سليم النقاش في اصدار جريدة « مصر القاهرة » ١٨٨٠ وكان ينسخهـا بيده لافتقاره الى وسائل الطباعة . عاد الى بيروت ، فالقاهرة واشتغل فيهما بالصحافة كما شغل بعض مناصب الترجمة في مصر . توفي في بيروت . عرف باسلوبه الرصين وحماسته المتدفقة ودعوته الى الحرية والكرامة الانسانية . ترجم عن الفرنسية روايات « اندروماك » و « شارلمان » و « ابنـة رولاند » واقتبس رواية « الباريسية الحسناء » والـف « الدرر » و « تراجم مصر في هـذا العصر » و « غرائب الاتفاق » و « نزهة الاحداق في مصارع العشاق » واشترك مع غيره في تصنيف كتاب « آثار الادهار » . (الموسوعة العربية ج ١ ص ١٠٥) .

(١٩) الشيح : الواحدة شيحة : نبات انواعه كثيرة وكله طيب الرائحة ومنه نوع ينبت في بلاد العرب ترعاه المواشي .

(٢٠) الثمام ، الواحدة ثمامة : نبت ضعيف لا يطول .

انت مخبري بمكارم الكرائم ، ومبشري باحسان الحسان » [٣١] .

وكتبت جريدة « الهدية » في عددها الصادر بتاريخ ١٥/٦/١٨٨٩ تقول :

« ان بعض سيدات الثغر الفاضلات يذهبن كل يوم خميس الى مدرسة باكورة الاحسان الارثوذكسية ويعملن بأيديهن أعمالا متقنة وجميلة من مثل خياطة وتخريم وتطريز وسائر اعمال اليد ، وهذه الامتعة تباع اخيرا ويكون ثمنها للمدرسة » [٣٢] .

ثم كتبت « لسان الحال » ، وسواها من الجرائد والمجلات ، مثل « المحبة » و « صوت الوطن » و« الاحرار» و « الحسناء » و « الاتحاد اللبناني » و« البشير » و « النهار » و « المرآة الجديدة » ومجلة « النّور » في الاسكندرية ، و « البرق » و « الحقيقة » ، في السيدة اميلي سرسق ، التي جعلت مالها في خدمة عقلها حتى سيطرت عليه ، فوجهته ، على طريق الاحسان والاعمار والتربية والتعليم ، أيما توجيه .

---

(٢١) باز : المصدر نفسه .
(٢٢) المصدر نفسه . ومجلة « الهدية » اصدرتها سنة ١٨٨٩ « جمعية التعليم المسيحي الارثوذكسية » في بيروت .

ومن مصر ايضا نظم نخلة قلفاط [٢٣] قصيدة منشورة في مجلة « سلسلة الفكاهات » عدد آذار ١٨٩٤ ، يقول :

« إليكِ يشار يا ملك الكمالِ
لكل حميدةٍ في كل حالِ
يحق بك التفاخر والتباهي
اذا افتخر النساء على الرجال
أرونا يا بني بيروت منكم
ولو شخصا على هذا المثال » [٢٤]

وفي مجلة « الفتاة » المصرية في عدد نيسان ١٨٩٤ ، مقالة بعنوان « السيدة اميلي سرسق » ، كما لسليم سركيس [٢٥] مقالة بعنوان « المرأة الفاضلة ــ ما يجدها

---

(٢٣) نخله قلفاط (١٨٥١ ــ ١٩٠٥) : اديب لبناني وشاعر وصحافي وقصصي . ولد وتوفي في بيروت . انشأ مجلة « سلسلة الفكاهات » في بيروت والقاهرة . سجن وذهب ضحية الاستبداد الحميدي . له « تاريخ ملوك المسلمين » ، « تاريخ روسيا » . وله قصص عديدة وتمثيليات .
(٢٤) باز : المصدر نفسه .
(٢٥) سليم سركيس (١٨٦٩ ــ ١٩٢٦) : صحفي واديب ومؤرخ . ولد ببيروت ، واشتغل محررا بجريدة « لسان الحال » ، التي انشأها عمه خليل سركيس في بيروت ١٨٧٧ . غادر لبنان (١٨٩٢) الى باريس ، فاصدر جريدة « كشف النقاب » ، وسافر الى لندن حيث اصدر جريدة « رجع الصدى» . انتقل سنة ١٨٩٤ الى الاسكندرية حيث أصدر =

ثمنها يفوق اللآلي » منشورة في لسان الحال (٥/٣/١٨٩٤)
باسم مستعار : « مريم مزهر » . ومن الشيخ اسكندر
العازار والاساتذة : فتح الله جاويش وابراهيم الاسود
والياس زخريا ، أبيات من الشعر فيها الثناء على هذه
السيدة والاطراء والتبجيل ...

ولعل ابرز ما قيل فيها شعرا قصيدتين : واحدة للدكتور
نقولا فياض (٢٦) ، وأخرى لتامر ملاط (٢٧) . جاء في

= جريدة «المشير» الاسبوعية،التي جعلت الحكومة العثمانية تصدر عليه حكما غيابيا بالاعدام . نقل « المشير » الى القاهرة ، واصدر « مرآة الحسناء » ١٨٩٦ ، وهي مجلة نسوية نصف شهرية ، اصدرها باسم الآنسة مريم مزهر ، فصدر منها ٢٣ عددا . اصدر « نشرة الكهرباء » ١٨٩٧ ، وسافر الى امريكا حيث اقام خمس سنين ، اصدر فيها « الراوي » و « البستان » . عاد الى مصر سنة ١٩٠٥ ، واصدر مجلته الادبية الشهيرة مجلة « سركيس » (١٩٠٥ — ١٩٢٦) ، وعمل الى جانب ذلك محررا في « الاهرام » « والمؤيد » . له طائفة من المؤلفات .

(٢٦) نقولا فياض (١٨٧٣ — ١٩٥٨) : طبيب لبناني . شاعر واديب وخطيب . له « رفيق الاحوال » .

(٢٧) تامر الملاط (١٨٥١ — ١٩١٤) : شاعر لبناني . مولده ووفاته في « بعبدا » بلبنان . درس الشريعة الاسلامية ، كما المطران يوحنا حبيب وخليل الخوري والبطريرك يوحنا الحاج وغيرهم مثلما مر معنا. اشتغل بالتعليم ثم في المحاكم . له شعر «محكم النسج على طريقة المتقدمين». جمع بعض شعره اخوه « شبلي » في « ديوان الملاط » (١٩٢٥) .

ومن الدوحة الملاطية ايضا فريد امين ملاط ، صاحب « ديوان الفرائد » (طبعة ١٩٨٥) قدم له : نقيب المحررين ملحم كرم ، والمحامي هنري الاسمر . لنا فيه بحث نشر في « البيرق » يوم الاربعاء ٢٧ اذار ١٩٨٥ .

الاولى :

« أين الرجال الأُلى بالغيرة افتخروا
وأين من صنعوا المعروف واشتهروا
هل أدركوا في المعالي شأو سيدة
في كل مأثرة أضحى لها أثر
« يا قوم هذي بلاد الله واسعة
والمحسنون مع الايام قد كثروا
من منهم استأثر الحسن مباشرة
منه ولم يك للتمجيد ينتظر » (٢٨)

وجاء في القصيدة الثانية :

« قلْ ما استطعتَ وما تشاء وغالِ
فلقد وجدت واي أي مجال
وضْعُ العقود من الثناء نضيدة
ان العقود من الثناء غوال
فمن الخواطر للنحور قلائد
ومن الكلام جواهر ولآلي » (٢٩)

ومما قاله شبلي الملاط :

---

(٢٨) باز ، المصدر نفسه .
(٢٩) المصدر نفسه .

« سقى أرض السراسقة القطارُ
ودرٌّ على معاهدها النضارُ
ديار أورقت فيها المعالي
وأمرع في جوانبها الفخار
لسرسق قام في الآفاق مجد
على هام النجوم له منار »

وقال فيها ايضا الشعراء : فارس شقير ونجيب داود زلزل وجرجي قسطنطين صباغة وقاسم أبو الحسن السكستي البيروتي ، ومخايل عبدالله البستاني وسلوى نجيب فياض ونقولا بسترس ونجيب طراد ونجيب بشاره ويوسف مراد الخوري [٣٠] .

أما الذين كتبوا في السيدة سرسق المقالات فهم كثيرون أيضا ، منهم : مصطفى انجا — طرابلس ، ونخلة مطران صباغ ، وسلوى الصائغ [٣١] .

وكان لشاعر القطرين خليل مطران [٣٢] نصيب في تكريم

(٣٠) المصدر نفسه .
(٣١) المصدر نفسه .
(٣٢) خليل مطران (١٨٧٢ — ١٩٤٩) . شاعر لبناني . لقب « شاعر القطرين » ، لانه ولد ونشأ في لبنان ، وقضى معظم حياته في مصر ومات بها . درس العربية على الشيخ ابراهيم اليازجي ، واتقن الفرنسية. هاجر في شبابه من لبنان ، =

السيدة اميلي سرسق اذ غنّى لها ، في مصر ، مرتين، فقال :

= خوفا من بطش الحكم التركي. فأقام سنتين في باريس ، ثم استقر في مصر حيث عمل مدة بالصحافة . تولى ادارة « الفرقة القومية » . ويعد مطران حلقة الصلة بين مدرسة البعث التي بدأها البارودي (محمود سامي) في اواخر القرن التاسع عشر ، وبين الاتجاهات الشعرية الحديثة في فترة ما بين الحربين العالميتين ، فقد كان اكثر من قرينيه : احمد شوقي وحافظ ابراهيم — تحررا من قوالب الشعر القديم . وكان التعبير عن وجدانه — كما صرح في مقدمة ديوانه (١٩٠٨ — ١٩١٠) — هو اهم ما يعنيه . وتظهر وحدة القصيدة بوضوح في شعره القصصي الذي طوع به هذا الفن للادب العربي ، وكان يعبر به احيانا تعبيرا رمزيا عن كفاح الشعوب المستبدة في سبيل الحرية . وترجم مطران للمسرح العربي عدة مسرحيات هامة ، منها « عطيل » (مثلتها فرقة جورج ابيض ١٩١٢) و « تاجر البندقية » و « مكبث » و « هاملت » وغيرها من مسرحيات شكسبير . { الموسوعة العربية ج ٢ ص ١٧١٢ / ١٧١٣) وللدكتور ميشال حجا دراسة في خليل مطران قيمة ، كان لنا مداخلة حولها في جريدة « النهار » اثر صدورها (١٩٨١) لكن هذه المقالة ضاعت مني .. ربما لانها موقعة باسم مستعار « مرتضى علي جمال » .. اذ انني نشرت في « النهار » مقالتين بامضاء: « مرتضى علي جمال » ، وذلك بسبب القضية التي اثارها كتابي « محنة العقل في الاسلام » في طبعته الاولى ١٩٨١ . ولما لم يرق لي هذا الامضاء او غيره ، طلبت العودة الى توقيع مقالاتي ، في الجريدة نفسها ، باسمي المعروف ، كما في الماضي ، فاعتذر آنذاك ، المحرر الثقافي ، الشاعر شوقي ابي شقرا . ومنذ ذلك الحين وانا متوقف عن النشر في هذه الجريدة الغراء ، الامر الذي يدعوني الى ذكر حق «الانوار» والشاعر الصديق رياض فاخوري ، اذ سمحا وما زالا يسمحان بنشر بعض ما كتبته أو اكتبه بعد« محنة العقل في =

« اذا غبت عن دار عليك عفاتها
عيال فما الاحسان عنها بغائب
كذا الشمس ان تغرب فان الذي به
تصون حياة الناس ليس بغارب » (٣٣)

وقال يحيّي محسنة كريمة ، أي اميلي سرسق ذاتها، زارت مجتمعا لمواطنيها السوريين في القاهرة :

« سيداتي وسادتي الاكرمينا
ان أذنتم تفضلا أن أكونا
نائبا عنكم وعن نادينا
لأحيي الضيف العزيز المصونا
قلت يا ربة الجمال النضير
ومثال العفاف بين الحور

= الاسلام»، كذلك مجلة « الاسبوع العربي » الزاهرة ، ولا سيما رئيس تحريرها الصحافي والاديب والناقد الاستاذ خليل الخوري ، الذي يؤمن بضرورة الحوار وحرية النقد والقول . الا ان هذه المجلة ، وبعد ما يزيد عن اربعين بحثا ومقالة كتبتها لها صدرت تباعا ولمدة سنة ، توقفت عن متابعة نشر مقالاتي وابحاثي ، منذ الاسبوع الثاني من آذار ١٩٨٥ ، وذلك نزولا عند رغبة شركة « تهامة » السعودية ، التي توزع « الاسبوع العربي » في المملكة ، مصدر الاسلام ، وحجة هذه الشركة المحترمة « انني غير مرغوب فيَّ عندهم » . « والا تمنع المجلة من الدخول الى المملكة »(؟!) وتوجهت نحو « النهار العربي والدولي » وفيها أخذت أنشر ما أكتبه منذ ذلك الوقت ، مقدرا للاستاذين : جبران تويني وأنسي الحاج ايمانهما بحرية القول والتفكير والنشر .

(٣٣) المصدر نفسه .

أنت شرّفتِنا بهذا الحضور
أنتم بالحضور شرّفتمونا » (٣٤)

فوق هذا وذاك ، ألقى الاديب الاستاذ ميخائيل نعيمه كلمة ، في السيدة اميلي سرسق ، عنوانها « قلب وروح »، وذلك يوم اول كانون الاول ١٩٣٧ ، في احتفال اجري لها، في « نادي مدرسة زهرة الاحسان » ، بمناسبة منحها وسام الاستحقاق اللبناني . وشارك في هذا الحفل الخطباء والشعراء : جرجي نقولا باز ، هكتور خلاط (قصيدة) ابراهيم نجار (كلمة) جبران التويني (كلمة الحكومة) (قلدها الوسام حسبما تقدم) ، نقولا بسترس (قصيدة) (*) ، ماري عطية (كلمة زهرة الاحسان) نبيهة شحادة (هدية البنفسجة) وسلمى الصائغ التي تكلمت باسم السيدة اميلي نفسها (٣٥) .

---

(٣٤) المصدر نفسه .

(*) هو غير الرئيس الاسبق للتشريفات لدى وزارة الخارجية السيد نقولا ميشال بسترس ، امه ليندا ـ شقيقة اميلي سرسق، ووالد الاستاذين ميشال وسيريل (بسترس). له كتاب « Je me souviens » الصادر عن مكتبة انطوان (١٩٨٣) تقديم المرحوم الشيخ نجيب دحداح .

(٣٥) المصدر نفسه .

هذه المرأة من هي ؟

من أين جاءت ؟

ما علاقتها بجمعية زهرة الاحسان ؟

هذه الاسئلة وغيرها سأحاول الاجابة عنها ،حسبما سمحت لي الظروف والمراجع ، على امل ان اكون قد اضفت ولو كلمة واحدة الى ما قاله فيها ذلك الحشد الكبير من الشعراء والادباء والصحافيين ، على ان هؤلاء واولئك قد عرفوها عن كثب وعاصروها واختبروا مواقفها واحسانها ، فما ابعد زماننا عن زمانهم ، وما اسعد حظهم وما أشقاني !

السراسقة

من « البربارة » قضاء جبيل ـ أبحر الى بيروت والاسكندرية رجال ونساء من آل سرسق اللبنانيين . تمت هذه الرحلة في اواسط القرن السابع عشر . عملوا في التجارة فحصّلوا ثروات طائلة ، كانت ، حتى نهاية النصف الاول من القرن العشرين ، حديث الاوساط الارستقراطية في لبنان وسوريا ومصر .

أعطت هذه العائلة رجالا اشتهروا في السياسة والاحسان منهم : الياس جبرائيل ، قنصل ايران لمدة خمس وثلاثين سنة (١٨٤١ ـ ١٨٧٥) . اولاده القناصل : اسكندر وحنا وقسطنطين . وأخوه أسعد شاهبندر دولة ايران في اسكندرون ، ومستشار محكمة استئناف ولاية بيروت [٣٦] . وجورج ديمتري ، ترجمان قنصلية المانيا ومترجم تاريخ اليونان وزعيم الماسون ورئيس محفل لبنان.

(٣٦) كان اسعد سرسق يتقن ست لغات عالمية قراءة وكتابة. كاتب رحلاته الى اوروبا .

ويوسف ، عميد البلد وعضو مجلس الاعيان العثماني . ونجله نجيب ، عضو الجمعية الامبراطورية الروسية الفلسطينية ، والفرد موسى ، سكرتير السفارة العثمانية في باريس ، وميشال ابراهيم عضو مجلس النواب في دولة بني عثمان (٣٧) .

مولد اميلي ...

في منزل خليل بن ديمتري بن نصر الله بن جبرائيل سرسق ، ببيروت ، ولدت اميلي (*) ، امها مهجة بنت عطالله بن يوسف دباس .

ولما « ترعرعت ارسلها ابوها الى الاسكندرية حيث تلقت بعض العلوم في أشهر مدارسها » (٣٨) ومن هناك « عادت الى وطنها وقد افرغ عليها الشباب أبهى حلل

---

(٣٧) عن باز ، المصدر نفسه ، بتصرف .

(*) لم اتوصل الى معرفة تاريخ ولادتها .. فاستعنت بالارشمندريت نقولا بدوي ، ثم بالمختار السيد بشارة انطوان غلام ، ثم بحفيدتها السيدة ماري (زوجة السيد جوي ثابت) (وهذهالسيدة وزوجها لم يقبلا حتىالسؤالعن اميلي سرسق . ولما طرقت باب منزلهما في برمانا لهذه الغاية،رفضا مقابلتي . لقد أظهر السيد ثابت ، آنذاك ، عجرفة وتكبرا شديدين؟!)،ثم بالسيد جورج كساب،وكيل ورثة المرحوم ابرهيم سرسق ، ثم بالاستاذ نقولا بسترس ، فضلا عن اتصالي بادارة مدرسة زهرة الاحسان ، الا ان واحدا من هؤلاء لم يستطع ان يجيب عن سؤالي : متى ولدت اميلي سرسق ؟!

(٣٨) المصدر نفسه .

الجمال فاقترنت بابن عمها جورج أفندي موسى سرسق » (٣٩) لتظهر « الى العالم متوجة باحلى الفضائل والكمال » (٤٠) . فمالت الى « عمل الخير واغاثة البائسين » (٤١) حتى انها « عززت بمالها مدرسة كبيرة في بيروت للبنات تدعى مدرسة زهرة الاحسان » (٤٢) و « جعلت لهذه المدرسة مرتبا من مالها تنفقه عليها مع ما يجتمع لديها من أموال الفاضلات والفضلاء » (٤٣) .

كثيرة الاسفار

عاشت اميلي سرسق « متنقلة بين سوريا ومصر » (٤٤) . و « ساحت في أوروبا » (٤٥) لاجل الاطلاع وكسب المعرفة والخبرة ، مما مكنها من « ادارة اموالها بعد وفاة زوجها » (٤٦) ادارة حسنة وواعية . « ولم تقتصر مآثرها على جمعية ومدرسة » (٤٧) بل « هي جهزت عرائس

---

(٣٩) المصدر نفسه .
(٤٠) المصدر نفسه .
(٤١) المصدر نفسه .
(٤٢) المصدر نفسه .
(٤٣) المصدر نفسه .
(٤٤) المصدر نفسه .
(٤٥) المصدر نفسه .
(٤٦) المصدر نفسه .
(٤٧) المصدر نفسه .

عديـدات » (٤٨) و « انفقت علـى تعليـم المعسريـن والمعسرات » (٤٩) ، و « وَقَتْ مـن شر الفقـر عـدة عائلات » (٥٠) ، و « ساعدت المظلومين » (٥١) كما « خلّصت الابرياء مـن ايدي الظالمـين » (٥٢) . فكم « مـن بائس اسعدته » (٥٣) اميلي سرسق ، وكم من « طريد آوته » (٥٤) اميلي سرسق ، وكم مـن « جائع اطعمته » (٥٥) اميلـي سرسق !

ولكثرة اسفارها وتنقلاتها ، الى هنا وهناك وهنالك ، يرجح ان تكون الاخت مريم جهشان قد التقتها (٥٦) ، في ذات رحلة ، على ظهر الباخرة ، الى القدس ، او في عودتها الى بـيروت . اذ ان الاخت جهشان ايضا كـانت تسافر وتسعى الى حيث استطاعت داعية الى تأليف جمعية خيريـة

---

(٤٨) المصدر نفسه .
(٤٩) المصدر نفسه .
(٥٠) المصدر نفسه .
(٥١) المصدر نفسه .
(٥٢) المصدر نفسه .
(٥٣) المصدر نفسه .
(٥٤) المصدر نفسه .
(٥٥) المصدر نفسه .
(٥٦) بدا لي فيما بعد ان السيدة اميلي سرسق ، عندمـا التقتها الاخت مريم جهشان اول مرة ، ودعتها الى تأسيس « جمعية زهرة الاحسان » ، كانت لا تزال عزباء .

مهمتها تعليم البنات الارثوذكسيات وغير الارثوذكسيـات ومساعدة اليتامى والمشردين .

ولادة الجمعية

واذ فكرت الاخت مريم جهشان « بمن يمكنها الاعتماد عليها » (٥٧) ، تذكرت تلك الآنسة التي كـانت ، على ظهر الباخرة ، محط الانظار ، لرزانتها وكرم اخلاقها ومهابـة جمالها « فقصدتها تسألها المساعدة » (٥٨) ، و « اذ دخلت غرفتها رأتها ترتب ثيابها في الخزانـة ، وحـالا توقفت عن الشغل ، ففاوضتها في الامر ، فوعدتها خيرا ، وكان وعدها فاتحة باب الامل ، بل اول محقق له ، وكأنهما من تلـك الساعة وضعتا حجر الزاوية » (٥٩) .

اذ ذاك استدعـت الاخـت مريـم جهشان النسـاء الارثوذكسيات الى اجتماع في منزل خليل سرسق ، عـلى ان يكون يوم الاثنين ٩ شباط ١٨٨١ . وفي الميعاد المحدد: حضرت آسين الياس فياض (زوجة متري بسترس) واميلي خليل سرسق واميلي ميخائيل شحادة (زوجة اسكندر نقولا

---

(٥٧) باز : المصدر نفسه .
(٥٨) المصدر نفسه .
(٥٩) المصدر نفسه .

سرسق) وهلا متري ملكي (زوجة خليل جرجس فرنيني)
وحنّون متري سرسق (زوجة حنا الجمّال) وروز بولس
طراد (زوجة حنا شكور طراد) وزاهية جرجس تويني
(زوجة حنا الياس سرسق) وزمرد جدي (زوجة لطف الله
غندور سرسق) وسوسن ابراهيم فياض (زوجة اسعد
فاضل فياض) وظريفة بسترس (زوجة لطف الله بك
سرسق) وظريفة خليل تويني (زوجة يعقوب كفوري) (*)
وعفيفة متري عبده (آنسة) وفريدة عبدالله بسترس
(زوجة قسطنطين نمر روزي) وفوتين دباس (زوجة جرجي
سلوم دباس) وفوميا حداد (زوجة فضل الله سيور)
وكاترين نعمة الله كركبي (زوجة جرجس ميخائيل
جهشان) [٦٠] وكاترين نقولا سرسق (زوجة خليل جرجس

(*) لا بد ان نشير ، هنا ، الى عائلة كفوري ، اللبنانية ،
الوسيعة الانتشار ، فمنها في المتن (بولونيا وبتغرين
والخنشارة وبكفيا ووطى المروج) وبيروت ، وكسروان ،
وطرابلس ، وشتورا ، وقب الياس ، وزحلة ، وحوش
الامراء ، وحوش الزراعنة ، وقاع الريم . من ابنائها
المهندسان : رامز ميشال (كاثوليكي) ، وروجيه
(ارثوذكسي) ، والاطباء: انيس خليل وجورج انيس وشوقي
(للاسنان) ونهاد (للاسنان) ، والمحامي نجيب . واما رجال
الاعمال فهم كثيرون . وفي بيروت شارع يعرف بشارع
الكفوري ـ المتفرع من بدارو ـ سامي الصلح .

(٦٠) مؤسسة دير وكنيسة سيدة الدخول للروم الارثوذكس
في « كرم الزيتون » كما سنرى في البحث الاتي .

دباس)(*)وكاتيا الياس سرسق(زوجة اسكندر بولس طراد)

(*) تعتبر عائلة دباس من العائلات الدمشقية العريقة . فهي
أعطت كنيسة انطاكية ثلاثة بطاركة هم : اثناسيوس وكيرلس
واثناسيوس الرابع . والاخير (١٦٨٥ ـ ١٧٢٤) عُرف
بنضاله في سبيل الوحدة المسيحية والكنيسة الجامعة ، مما
أثار حوله الشكوك والانتقادات الجائرة في معظمها .
جاء فريق من هذه العائلة الى بيروت ، على اثر حوادث
١٨٦٠ الدامية. في مطلع هذا القرن برز قيصر ديمتري دباس،
الذي أنار بالكهرباء بيروت ، ومنها امتد نشاطه الى فلسطين
والعراق وسوريا وقبرص ، حتى صار اسم دباس يشع في
كل مكان من المنطقة العربية . ولما توفي قيصر (١٩٥٦) تابع
ولده السيد انطوان المسيرة وحيدا ، الى أن انضم اليه
شقيقاه السيدان فؤاد وروبير ، وهكذا تكاملت الجهود
العظيمة والارادات الخيرة ، فكان الانتشار الوسيع والسريع
الذي حققته مؤسسة « قيصر دباس وأولاده » ، صاحبة
الشعار المعروف والمرموق : « الانارة اختصاصنا » . ومن
أعظم انجازات هذه المؤسسة ، انها اشتركت عام ١٩٦١ في
انارة مدينة جدة العربية السعودية ، وأنارت في عام ١٩٧٥
أماكن الحج في مكة المكرمة بواسطة مصابيح كاشفة مركبة
على مائتي عمود يعلو الواحد منها خمسين مترا . واذ ذاك
تتالت الاعمال في سوريا والكويت والامارات العربية، وصولا
الى باريس حيث تم تأسيس « شركة دباس فرنسا »، لتكون
مركز الخدمات الاوروبي لمجموعة دباس .
عن « Debbas 1910 - 1985 » دراسة بالانكليزية ،
صدرت بمناسبة مرور خمس وسبعين سنة على انشاء
مؤسسة « قيصر دباس وأولاده » .
« Printed on the occasion of the seventy - fifth
anniversary of « Cesar Debbas & Fils » .
والجدير بالذكر أيضا هو ان السيد فؤاد قيصر دباس
قد أصدر كتابا قيّماً ونفيسا موثقا بالصور والبطاقات =

وكاتيا متري سرسق (زوجة جرجس تويني) ولبيبة ابراهيم جهشان (الاخت مريم جهشان) ومرتا (زوجة انطوان ذوقاني) ومريم جبيلي (زوجة جبرائيل الخوري) ومناشة نعمة (زوجة حبيب بسترس) ونظلة قرداحي (زوجة اسكندر بك تويني) وهدلا اسحق طراد (زوجة يوسف جدي)[61] .

انبثقت من هذا الاجتماع النسائي الكبير جمعية « البنفسجة » (زهرة الاحسان) ، ترأستها السيدة ظريفة بسترس ، من ١٨٨١ الى ١٩٠٠ ثم تلتها السيدة اميلي سرسق حتى سنة ١٩٤٣ . فجاءت بعدها ابنتها السيدة ليندا سرسق التي ظلت ترعى هذه الجمعية بقاب كبير وعاطفة صادقة الى ان توفيت سنة ١٩٧٩ ، عن عمر قضته ، كما قضت والدتها عمرها ، في الاحسان وعمل الخير ومساعدة المحتاجين . وتقول قصاصة ، أطلعتني عليها الرئيسة الحالية الام تيودورا جبيلي والحاجة بربارة ابو ابراهيم ، ان اول

= البريدية عن مدينة بيروت خلال نصف قرن (١٨٨٠ ـ ١٩٣٠) عنوانه : (Beyrouth — Notre Mémoire (بيروت ـ ذاكرتنا) ٢٥٥ صفحة من الورق المصقول ، طباعة فاخرة ، توزيع مكتبة انطوان ـ بيروت .

واذ يتطلع اللبنانيون الى السلام والامن ، فانما يتطلعون أيضا الى ساحة الدباس ، التي كانت للعاصمة بيروت مثلما القلب للجسد . فمن هذه الساحة انطلقت الشعلة الكهربائية الاولى التي أنارت لبناننا العزيز والمنطقة المجاورة .

(٦١) عن باز ، المصدر نفسه ، بتصرف .

نائبة لرئيسة الجمعية هي السيدة مناشة نعمة بسترس ... واول امينة على المال هي السيدة اميلي سرسق .

المدرسة والميتم

لما كانت الحاجة ، الى مدرسة تعلم البنات « خير المبادىء واصحها »[62] و « مختلف العلوم واللغات على أقوم الطرق وافضلها »[63] ، ماسة ، التأمت الهيئة العمومية لجمعية « زهرة الاحسان » يوم الاحد الموافق ٢٨ آب ١٨٨١ ، في منزل خليل سرسق ، حيث اتخذت قرارا يقضي بتأسيس مدرسة وميتم .

وعلى الفور استأجرت الجمعية منزل درويش التيان ، في حي « التينة » ، ثم بيت يعقوب الكفوري ، في محلة « حاووز الدحديلة » شمال دير راهبات القلبين الاقدسين اليسوعيات ، التباريز .

بعد اربع سنوات مرت على تأسيس مدرسة « زهرة الاحسان » ، انتزعت هذه المدرسة لنفسها مكانا مرموقا بين المدارس الكبيرة آنذاك مثل : الحكمة وعين ورقة والثلاثة أقمار والعالية في برمانا والمقاصد الاسلامية ، والاخيرة تم تأسيسها سنة ١٧٧٠ بجهد مفتي بيروت المرحوم الشيخ مصطفى نجا . فوجدت الجمعية في هذا الارتقاء ما يشجعها على بناء مركز لها في « اجمل بقعة

---

(٦٢) بيان مدرسة زهرة الاحسان ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ .
(٦٣) المصدر نفسه .

من محلة الاشرفية ببيروت تمتاز بجودة هوائها وجمال مناظرها الطبيعية ، وموقعها الصحي البديع » (٦٤) . وقد أشرف على البناء المغفور لهم : جرجس التويني وميخائيل شحادة وملحم فياض ويوسف عرمان .

من هذا المركز الجديد انطلقت مدرسة زهرة الاحسان «تُرضِعُ بناتها (وأبناءها) لبان الارثوذكسية وتغرس في قلوبهن (وقلوبهم) حب الجامعة الوطنية » (٦٥) و « أخذت تقبل فيها البنات اليتيمات على نفقتها والبنات الموسرات على نفقة ذويهن ، حتى اصبحت في عهد قريب جامعة « لشتات بنات الطائفة في بيروت » (٦٦) .

واذا ما كنا سنذكر اشهر خريجي « زهرة الاحسان » فانما نذكر نقولا فياض وغسان تويني ونجاح سلام (المطربة) وسلمى صائغ ونقولا يني بسترس ونقولا بك رزق الله وماري يني ...

ومن معلميها : أنطوان قازان ونقولا بسترس ولودي

---

(٦٤) المصدر نفسه . كانت الاشرفية يومذاك ، وبخاصة المنطقةالتي شيدت فيها المدرسة،منتزها،وكانت فيها حدائق صغيرة . الا ان هذا الجمال الطبيعي ، يا للاسف ،انقرض.. فقامت مكانه غابة من الاسمنت .

(٦٥) قانون رهبنة زهرة الاحسان ، المطبوع باذن سيادة السيد الجليل كيرلوس كير غفرائيل ، مطران بيروت ولبنان، الكلي طهره ، ص ٢/٣ .

(٦٦) المصدر نفسه .

حبيب متري واسما عبده وروز صائغ ونقولا فياض ونجيب فياض وسلمى صائغ وماري عطية ومتري المر وجورج ملحمة . على ان المديرة الحالية ومنذ عشرين سنة هي السيدة الاستاذة لطيفة صابيا اسمر (٦٧) . وتستقبل « زهرة الاحسان » ، كل يوم ، أكثر من ألف وخمسمائة طالب وطالبة . فيما يحتضن الميتم حوالي مائة يتيمة من طوائف متعددة .

رهبنة زهرة الاحسان

بعد المدرسة والميتم ... تأسست جمعية رهبنية متخذة القديسة كاترينا (٦٨) شفيعة لها ، وذلك في ٢٥ تشرين الثاني

---

(٦٧) الآن يكون قد مضى عليها في الادارة ما يزيد على ست وعشرين سنة .

(٦٨) هي القديسة كاترينا الاسكندرية . يقال انها استشهدت في الاسكندرية حوالي ٣٠٧ . لها دير شهير في شبه جزيرة سينا . زار هذا الدير المطران اثناسيوس يشوع صموئيل عام ١٩٤٠ ، فتحدث عن مكتبته في كتابه « كنز قمران » ومما قاله : « في هذه المكتبة وقعت عيوننا على مجموعة رائعة من التحف الذهبية والفضية المطعمة باللؤلؤ والزمرد والحجارة الكريمة .. وقد لامست ايدينا المخطوطة السريانية الاثرية النفيسة للانجيل المقدس والتي يرقى عهدها الى القرن الرابع وتعتبر اليوم اقدم نسخة له . وهي مصونة في صندوق صنعته خصيصا لها المسز لويس من خشب مدينة كمبردج » . =

١٨٩٧ ، عندما سيمت كاترين خير اول راهبة ، ثم تبعتها الاخت حنة الخوري معلوف ، ثم هيلانة عفيش ، في ٢٥ تشرين الثاني ١٨٩٩ ، ومريم جهشان في ١٨ نوار ١٩٠٠ .

تعاقب على رئاسة الجمعية الام مريم جهشان من ١٩٠٠ الى ١٩٣٢ ، والام كاترين خير من ١٩٣٢ الى ١٩٤٧ ، والام حنة الخوري معلوف من ١٩٤٧ الى ١٩٤٩ ، والام ماري عازار ، والام ناتالي شويري ، والام تيودورا جبيلي .

= وقال ايضا « ولن انسى ان اذكر امرا لفت نظرنا واستغرابنا ، وهو وجود جامع للمسلمين في هذا الدير ، يقصده المسلمون البدويون العائشون في تلك النواحي لاقامة الصلاة في عيد هارون ومهرجان البدو » (ص ٨٥/٨٦) .

هناك ايضا كاترينا السيانية (١٣٤٧ – ١٣٨٠) (Catherine of Seina) راهبة دومينيكية ايطالية ، من كبار المتصوفة المسيحيين ، بدات تصوفها في سن مبكرة ، وما ان بلغت التاسعة عشرة حتى وقفت نفسها على خدمة الفقراء والمرضى (Caring for the sick) رات رؤى كثيرة أملتها وسجّلت لها في كتابي « الحوار » و « العناية الالهية » ، لانها كانت امية . ذهبت ، استجابة لرؤيا ، الى مدينة افينيون بفرنسا واقنعت البابا غريغوريوس الحادي عشر (Gregory 11) ان ينهي الانشقاق الذي مزق وحدة الكنيسة . كانت من اشد أنصار البابوية الرومانية ، وهي شفيعة مدينة روما . عيدها ٣٠ نيسان .

انظر :

– الموسوعة العربية الميسرة ج ٢ ص ١٤١٧ .

— The World Book Encyclopedia V. 3 P. 227 .

في الخامس والعشرين من تشرين الثاني الماضي (١٩٧٩) ، وبمناسبة عيد القديسة كاترينا شفيعة الجمعية والمدرسة ، اقيمت في مدرسة زهرة الاحسان ، « مأدبة المحبة » باركها متروبوليت بيروت غفرائيل الصليبي [٦٩] ، فعم الفرح الجمعية والراهبات والمعلمين والطلاب والطالبات اذ احتفلوا ايضا بمرور اثنين وثمانين عاما على تأسيس الرهبنة .

هل انقرض السراسقة

جئت ذات يوم بيت المرحومة ليندا سرسق الذي يقع بازاء متحف نقولا ابراهيم سرسق [٧٠] ، فوجدت السيد

---

(٦٩) ان متروبوليت بيروت الحالي للروم الارثوذكس ، هو سيادة المطران الياس عودة .

(٧٠) مما لا شك فيه ان الوعي الحضاري عند المغفور له نقولا ابرهيم سرسق ، هو الذي حداه الى التنازل عن قصره الذي بناه سنة ١٩١٢ ، لبلدية بيروت ، بموجب وصية منه (كانون الاول ١٩٥٢) على ان يطلق عليه اسم « متحف نقولا ابرهيم سرسق » ، بشرط ان يكون المتولون رؤساء بلدية بيروت الواحد تلو الآخر . واثر زيارتي لهذا المتحف يوم الاثنين ١٩٨٥/٤/١ ، علمت من الاستاذ صالح سعد ، رئيس القسم الاداري ، ان المتحف قد اتخذ منه ، في عهد الرئيس الاسبق كميل شمعون ، قصرا للضيافة ، وبعدما انتهت مدة ولاية الرئيس المذكور كرس متحفا ، وبدأ نشاطاته بمعرض الخريف الاول (١٩٦١) . ويبلغ عدد المعارض التي نفذها =

جورج بولس كساب ، مدير اعمال ولدها المرحوم ابراهيم غارقا مع مساعديه في تصفية الحسابات ... فسألته :

ـ هذا التراث ما مصيره ؟

رد قائلا :

« ان للمرحوم السيد ابراهيم سرسق خمس بنات يعني خمسة أصهار[71] (*) . ماذا سيقرر هؤلاء ؟ لست أدري » .

= متحف نقولا ابرهيم سرسق حوالى الثلاثين، منها اثنان في باريس : الاول (١٩٨١ ـ ١٩٨٢) ، الثاني (١٩٨٣ ـ ١٩٨٤) . ومن اهم المعارض التي عرفها المتحف : معرض السجاد الشرقي (١٩٦٢ ـ ١٩٦٣) ومعرض منحوتات اوغست رودان الباريسي (١٩٦٩) . على ان قاعة المتحف قد تم افتتاحها ، سنة ١٩٧٤ ، وذلك بعد الترميم والتوسيع ، بمعرض الفن الاسلامي .

تتعهد هذا المتحف لجنة تتألف من : رئيس البلدية الاستاذ شفيق السردوك (المتولي الحالي) ، الوزير فكتور قصير (الرئيس) ، الدكتور فوزي الداعوق (نائب الرئيس) ، الاستاذ كميل نجيب ابو صوان (الحافظ) ، السيدة كلودا ثابت ناصيف (امينة الصندوق) ، والاعضاء السيدة ناديا كتانة ، السيدة جمانة الاحدب ، السيدة رقة بيهم سلام ، السيدة صونيا فرنجيه الراسي ، الاستاذ جان نفاع ، السيد امين بزري ، السيد جورج رياشي ، السيد بيار خوري ، الدكتور لطف الله ملكي ، السيد محمد غزيري ، الذي خلف المرحوم الدكتور عبد الرحمن اللبان .

(71) عدت الى السيد جورج بولس كساب في ٢١ شباط ١٩٨٥ اسأله عن تركة المرحوم ابراهيم سرسق ، فقال لي انها مستمرة مع الورثة .. ولم يحصل تقاسم .. أو ما =

تركت « ورشة التصفية » ... لاقول : قد تحسب عجلة الزمان ان آل سرسق انقرضوا ابدا . ولكن هل توقفت هذه العجلة ، بمن تشحن ، عند مدرسة زهرة الاحسان ، ومستشفى القديس جاورجيوس، ودار العجزة لطائفة الروم الارثوذكس ، ومتحف نقولا ابراهيم سرسق، لنرى كيف يستمر العظماء برغم الموت والسنين ؟

لقد مضى على « زهرة الاحسان » عشرة عقود او أكثر مع الجهاد المتواصل ، في سبيل العلم والتعلم ، فهل تنبه رواد عجلة الزمان واستدركوا ؟

ان هذا ما استطعت جمعه من معلومات عن هذه المؤسسة الارثوذكسية واعمالها ومن هم من ورائها، فأرجو أن أكون قد أتيت بما يحفظ لها بعضا من حقها الكثير ... الكثير .

= يسمى تصفية . أما بنات ابراهيم سرسق فهن : آمال : زوجها افرنسي هو السيد Olivier Gerard . جمانا : زوجها المهندس حيرام شارل قرم . ليندا : زوجها السيد دونالد هوشر . سيلفانا : زوجها الدكتور ناجي فؤاد الخوري ، المتخصص في الاشعة .. وهو موجود في أميركا . ميشيل : زوجها المهندس جبرييل صهيون . هذا وللمرحوم ابراهيم شقيقة هي السيدة ماري ، زوجها السيد جوي ثابت .

(*) أستطيع القول ان اميلي سرسق يجهل حقها وأهميتها أقرب المقربين اليها ممن عرفت .

الفصل السّادس

راهبة ورسالة

الأم كاترينا كركبي

مؤسّسة دير سيّدة الدّخول للرّوم الأرثوذكس في بيروت

"ما أجمل الكنيسة سواء أكان في أيام الأعياد أو غيرها. إذ وضع فيها الصليب ورُصّعت جوانبها باللآلئ. ففي الجانب الواحد ترى الأنبياء والرّسل والشهداء المباركين، وفي الجانب الآخر ترى رسم الأم ابن الله وصليبوته" (*)

مار يعقوب السّروجي

خرجه البطريرك يعقوب الثالث في كتابه
"تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية"
الجزء الثاني - طبعة ١٩٥٧ ص ٣٢٧

(*) صلبوت: كلمة سريانية معناها عملية الصلب

السيّدة حامية الاشرفيّة

على رأس « كرم الزيتـون » حيـث تنتهي ساحـة « ساسين » (١) من الجهة الشرقية للاشرفية ، تتربع السيدة العذراء ، فوق سطح كنيسة تعتبر احدى الكنائس الكبرى في بيروت •

من هناك ، تبسط السيدة ذراعيها ، على الاشرفية ، لتمنح اهلها السلام والطمأنينة • علاقة سكان الاشرفية مع السيدة عميقة الجذور واصيلة • نورها يشع ابدا ، عـلى الفقراء كما على الاغنياء• صدرها مفتوح للزائرين المصلين• الكل ابناؤها ••• فلا فضل ، عندها ، لكبير على صغير ، ولا لقوي على ضعيف •

---

(١) آل ساسين ، عائلة لبنانية كبيرة . من ابنائها : النائب الاستاذ ميشال ، وشقيقه الاستاذ جوزف ، رئيس ومدير عام « مصرف الاسكان » . ميلاد ، طبيب في طرابلس .
وساسين (Sisinnius) قديس احتمل الاضطهاد في سبيل الايمان ايام ديوقليتيانوس (Diocletianus) دافع عن الايمان في مجمع نيقية ٣٢٥

عينا السيدة ساهرتان • فهي تصغي ، بملء سمعها وقلبها ، الى كل لاهف القلب وحزين ومظلوم • تحتضن طفلها ، الاله يسوع ، بحنان مريمي ورحمة عجائبية، فتعلم النساء الامومة والحب والتفاني •

وللسيدة حكايات كثيرة مع المعذبين والبائسين « لا يرقى اليها الشك » • فكم من حزينة جاءتها تشكو وتذرع، فاستلبت منها حزنها لترده اليها فرحا وغبطة وسعادة ! وكم من تاعس عثر وأكبّ على وجهه،فلما قصدها عاد مستقرا مطمئنا !

عجائب كثيرة حققت السيدة وتحقق في « كرم الزيتون » • فمن كان مؤمنا « زاده الله ايمانا » ، ومن لم يصدق « قهرته المحارة وتراجع كئيبا لا يدري ماذا يفعل »•

وجهان يبكيان

ذات مساء حار ، من امسية تموز ١٩٧٦ ، وكانت سماء الاشرفية تمطر موتا سعيرا ، بكت العذراء (السيدة) وبكى معها ابنها يسوع • نبهت الرئيسة الام مارغو تبشراني لهذا الحدث ، فأمرت ان تقرع الاجراس ، وهرع الناس الى هناك غير آبهين للموت الذي كان يسطو على شوارع الاشرفية ومنازلها • وسرعان ما غصت الكنيسة

بالمؤمنين ، على اختلاف مراكزهم والتفاوت في أعمارهم ، جاءوا يسألون : لمن تقرع الاجراس ؟

ارتفعت الصلوات تمجيدا لام الاله ، مريم ، فتبدد الخوف وزال عن الوجوه ، وانطلقت الاهازيج من حناجر الحزن والرعب ، تشق عباب السماء المغطاة بدخان الحرائق، تتحدى الفاجرين ، أينما كانوا ، وايا كانوا • فاذا الصمود، في هذه البقعة من الارض ، « اعجوبة » رعتها السيدة ، من على مكان سيبقى سراج هدى ورجاء للصالحين •

امرأة فرنسية (•••) شهدت هذا الحدث ، فروت قائلة :

« يوم الاحد الواقع في الثامن عشر من تموز ١٩٧٦ ناداني الجيران واخبروني ان في كنيسة سيدة الدخول في الاشرفية ، توجد أيقونة للسيدة العذراء تحمل السيد المسيح وان كلاهما (كذا) يبكيان » •

أضافت :

« توجهت حالا الى الكنيسة لاشاهد هذا الحدث العجيب ، لانه بالفعل كان بالنسبة لي هكذا • رغم الجموع شققت طريقي فوصلت امام الايقونة حيث شخصت جيدا السيدة العذراء والطفل يسوع ، فشاهدت دمعة تجري

على خد مريم الايمن ، ودمعة كبيرة تجري على الخد الايسر ليسوع ، فصعقت لمشاهدتي الامر المستغرب . صليت كثيرا وطويلا وعدت الى المنزل مرتبكة » [٢] .

ما أصعب ان تصدق !

وما أصعب ان لا تصدق أيضا !

ومهما يكن ، فالمحنة التي عاشتها الاشرفية وسواها من المناطق المسيحية ... وبالتالي كل المناطق اللبنانية ، من أقصى الجنوب الى اقصى الشمال ... ومن الشاطىء الى البقاع ، أبكت الحجارة والصخور ، حتى انها جعلت الناس تنتظر « العجائب » و « المعجزات » ... لا من السيدة وابنها يسوع فحسب ، بل من القديسين والائمة والاولياء الصالحين . وكما المسيحيون كذلك غيرهم من اصحاب المذاهب الايمانية،ولا سيما الشيعة.فالشفيع ، عند هؤلاء وأولئك ، هو الذي « يخلّص » من العذابات ... التي قد تستعصي ، وهو الذي « يفرض » الحلول العادلة ... بعدما يكون الظلم قد استفحل وساد . والشفاعة ، باختصار ، هي انقاذ غير منظور وعون غير مرئي . ولا يطلب الشفاعة الا من يكون قد سدت ، في وجهه ، الابواب كلها ، واغلقت دونه المراحم .

(٢) من رسالة وضعتها سيدة فرنسية تسكن الاشرفية ، محفوظة في ملفات الدير .

في أي وقت وقفتَ ، على باب سيدة الاشرفية — كرم الزيتون ، تجد الناس يأتون اليها افواجا افواجا ، كهولا وشبانا ، عجائز وصبايا ، يرسمون شارة الصليب ... ويدخلون الكنيسة . هذه تضيء شمعة عن حبيب غائب . وتلك تركع لتصلي من اجل شهيد او مريض او سجين . وأخرى،في احدى الزوايا،تقبّل صورة، أو تعانق أيقونة ، لسبب او اكثر . وهكذا طوال النهار وفي اول الليل .

ما أكثر الذين رأيتهم يبكون وهم يغادرون الكنيسة !

ولطالما سألت نفسي : لماذا تبكي هذه الحسناء ، أو تلك الام ؟ لماذا دمعت عينا ذلك الرجل ؟ ما به هذا الفتى يدخل الكنيسة خافضا رأسه ؟ ما سر هذا الاقبال اليومي على باب السيدة ؟

وتبخرت التساؤلات فوق نار ايمان الزائرين . ثم فجأة ، ومن حيث لا ادري ، ساقني الاعجاب الى الكنيسة لاضيء شمعة للوطن الذي مزقه الطماعون (...) وجلسوا على جلده يتنادمون ويتشاربون .

لو كان لبوابة السيدة الكبيرة ، التي دخلتها ، اول مرة — يوم السبت ٥ أيار ١٩٧٩ — مع نيافة الحبر الجليل

المتروبوليت جورج خضر ، أن تنطق لاعلنت ، بلغات العالم كلها ، تعبها ووجعها • ولكن هل تتعب بوابة الرحمة والسلام ؟

برغم الزحف البشري المتواصل يبقى الصمت مهيمنا على « عباد الله » • وان انت سألت عن ضجيج المدينة ، فهو خارج حرم الكنيسة • انه ينتظر على الرصيف المقابل• يتصدى للمارة • يتعلق بهم • ضجيج المدينة يريد أن يصرف المؤمنين عن عملهم • تبآ له ما اشقاه ! انه ينفخ نارا وشرا •

ولو قُدِّر لبوابة السيدة أن تحصي زوارها ،لتراكمت الارقام والسجلات • لكنما التواضع هو العنصر المقرر • فلماذا الاحصاء على قارعة الطريق ؟ ثم كيف يكون الاحصاء والشفيعة العذراء نورها يغطي المنطقة كلها ، ويجتاح السدود والحدود ، ويتسرب الى البيوت ليدخل على النفوس الزكية في حجراتها ، فيمنحها سعادة وهناء وأملا جديدا ؟!

صوَر وأيقونات

دخلت الكنيسة مرة اخرى ، أتلمس ما انا جاهله ، فاذا بي في دنيا جديدة : الصور والايقونات ، التي تملأ

جدران الكنيسة وزواياها ، تستحوذ عليّ • لقد احتلت هذه اعصابي ••• وأخذت تجس مني الانفاس • حاولت ان اشبع عيني ، من جمال المعلقات ، ليوم اخر ، ولكن عبثا حاولت ، اذ وقع عليّ الغثيان ، وتهيجت عروقي ، فانتابني شعور غريب ، أرغمني على التفكير في الخروج لانقذ نفسي مما انا فيه • فهنالك ، الى يسارك وانت داخل ، أيقونة تربط منك اللسان اذا ما وقفت امامها ، وتربكك ، وتدخل تحت جلدك ، وتغشي على بصرك ، فتنقلك الى عالم اخر • هيبة الفن والعطاء تفرض عليك الطاعة والانحناء وربما الاستسلام • وان بدا لك ان تسأل عمن زيَّن هذه الكنيسة ، قلن لك باعتزاز وافتخار : «انها الحاجة بلاجيا تبشراني » •

لملمتُ بعضي ، وخرجتُ من هذه الكنيسة الارثوذكسية المشرقية ، التي كأنها متحف للايقونات والصور ، وانا اردد المثل القائل : « اعملوا الخير وأنتم في نفس البقاء » فبرزت عندي رغبة في قراءة تاريخ هذا الدير الذي انتزعني ، من دنيا الانانيات والصراعات المادية الرخيصة ، الى دنيا التقى وسعادة الروح •

بين باب الكنيسة والمدخل الزجاجي ، المطل على الساحة رفعت رأسي ، فاذا فوق الباب ثلاث لوحات رخامية نقشت عليها نصوص وكلمات . فالاولى تحمل خمسة ابيات من الشعر المقفى الموزون ، مؤرخة سنة ١٩١٠ ، غير انها لا تحمل توقيع صاحبها . وقد نظمت لتكون بمثابة وثيقة ولادة للكنيسة والدير التي تمت في عهد المثلث الرحمة المتروبوليت جراسيموس مسرّة [٣] ، وهي كما يلي :

« قد شادها متري الغلام [٤] كنيسة
تحيا بها ذكرى دخول السيده
« ولاجلها سعدى قرينته سخت
بالمال فاشتركا بهذي المحمَدَه
في عهد راعينا جراسيموس قد
تم البناء وعون ربك وطّده

(٣) آل مسرّة : عائلة لبنانية ـ بيروتية ، من ابنائها المحامي ميشال مسرة .
يحمل المتروبوليت مسرة اسم القديس الناسك جراسيموس ، من آسيا الصغرى (ت ٤٧٥ م .) احد منظمي الحياة الرهبانية ، ومؤسس دير بالقرب من نهر الاردن .

(٤) متري اندراوس الغلام وزوجته سعدى ابو الروس هما اللذان بنيا الكنيسة والدير ، كما سيمر معنا .

فزهت وأمّ فناها أهل التقى
ودعا الضعيف بها الاله فانجده
من جاء أرخ سائلا لك قاصدا
يا أم ربك بلغيه مقصده »

اللوحة الثانية وثيقة لولادة ثانية ... تقول :

« لقد تجدد بناء هذه الكنيسة في عهد سيادة الحبر الجليل كيريوس كير ايليا الصليبي [٥] متروبوليت بيروت وتوابعها ١٩٥٤،وذلك بدلا عن(من)الكنيسة التي قد أنفق على بنائها في نفس هذا المكان المرحومان متري اندراوس غلام وزوجته سعدى أبو الروس ١٩٠٩ في عهد المثلث الرحمة المتروبوليت جراسيموس مسرة » .

وتقول اللوحة الثالثة :

« ان اعضاء اللجنة الذين اهتموا واشرفوا على تجديد بناء هذه الكنيسة المقدسة بمعاونة كاهن الدير الاكسرخوس اسبيريدون جبران مسرة وجمعوا التبرعات

(٥) آل الصليبي : عائلة لبنانية . اشتهر من ابنائها المطرانان ايليا وغفرائيل ، الاطباء الياس سبع،جورج وهبي ، شاهين وولده سمير ، نعمان عارف ، المحامي ايلي ، الباحث والمؤرخ الدكتور كمال سليمان .

من ذوي الغيرة والميراث هم الذوات الغيورون : نجيب مخايل غنطوس ، طانيوس متري غلام ، ميشال متري عيد، جبران ابراهيم المتني ، نجيب لطيف شقير ، توفيق نعماز هدايا ، كميل شحادة بريدي ، ألفرد شاكر ابو شهلا • وذلك في عهد رئيسة الدير الحاجة افدوكيا وهبة مجدلاني سنة ١٩٥٤ » (٦) •

ضريح الام المؤسسة

تجرّني الاشارات الى « الصالون الجديد » ، الذي بنته الرئيسة الام الحاجة مارغو تبشراني ، ودشنه في ٢١ تشرين الثاني الجاري (١٩٧٩) ، المطران غفرائيل الصليبي•

---

(٦) ان عائلات غنطوس وعيد والمتني وشقير وهدايا وبريدي وأبو شهلا ومجدلاني جميعها لبنانية • من ابناء هذه العائلات سياسيون وتجار وأطباء ومحامون وصناعيون وأدباء وصحافيون ...نذكر مثلا لا حصرا : جورج سليم وجورج فريد شقير (وكلاء أجواخ وأقمشة) والعصاميين الزحلاويين السادة أبناء نجيب غنطوس أصحاب « عرق غنطوس وأبو رعد » وهم : ايلي وجرجس وجوزف والمحامي ألبير • من آل غنطوس ايضا محقق بيروت الاستاذ جورج غنطوس •

ونذكر : جبران المتني ،والنائب نسيم مجدلاني،والمغفور لهما : الرئيس الاسبق حبيب أبو شهلا ، له مقام في حديقة مستشفى القديس جاورجيوس ، كما ذكرنا ، والصحافي فريد أبو شهلا منشىء مجلة « الجمهور » ، وطوني بريدي رئيس منطقة الاشرفية الكتائبية (سابقا) •

على يمين الممر ارتفعت فوق ضريح الام المؤسسة لوحة رخامية بيضاء ناصعة ، عليها صورة الام المؤسسة المثلثة الرحمة الحاجة كاترينا كركبي ، بلباسها الملائكي البيزنطي، تحمل الكتاب المقدس بيد ، والسبحة بيد اخرى • على وجهها تبدو علامات القداسة • تحت الصورة نقرأ :

« تحيا نفسي وتسبحك واحكامك تغنيني »

الحاجة كاترينا كركبة

* مؤسسة ورئيسة رهبنة ودير سيدة الدخول •

* ولدت في بيروت سنة ١٨٤٨ توحدت على طريق النساك سنة ١٨٨٨ •

* صارت راهبة قانونية سنة ١٨٩٨ : احتفل بتلبيسها اسكيم التقدم في طريق الكمال الانجيلي سنة ١٩٠٠ •

* توشحت بالاسكيم الملائكي ثانية سنة ١٩٠٢ •

* قلدها صليب انكار الذات غبطة البطريرك الاورشليمي داميانوس سنة ١٩٠٥ (٧) •

* استلمت مع تلميذاتها الراهبات هذا الدير الشريف وسميت رئيسة في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩٠٩ •

---

(٧) انظر حاشية رقم (٧) من « نساء الاحسان » •

* انتقلت الى الاخدار السماوية في ١٠ اذار ١٩٠٥ .

نفعنا الله بصلواتها . وجعل ذكرها مؤبدا آمين » [٨] .

ذكريات وأوقاف

وفي دير سيدة الدخول شواهد اثبتت فوق ابواب ما يزيد على عشرين غرفة موزعة بين طبقتي الدير . واحدة من زوجة الى زوجها ، واخرى من أم الى ولدها او ابنتها ، وثالثة من أخ الى أخيه . اسماء غابت عن دنيانا ... فتحولت ذكريات واوقافا : برباري ... ابو شلش ... ربيز ... بشور ... شحادة ... أبو شعر ... تويني ... سرسق ... جدي ... الشماس ... سبط ... شقير ... سابا ... سكر ... عفيش ... محفوظ ... حنّون ... ملكي ... نخله ... فرزلي دبس ... كبوش ... متني ... ابو حلقة ... غبريل ... عبد النور ... شاليش ... فهؤلاء كانوا ، بالامس ، مثلنا ، يجاهدون ويتعبون ويتألمون ويحزنون ويفرحون .

ماذا في القبور ؟

---

(٨) هذه اللوحة هي من اعمال النحات المرحوم ج. ابوسلو. صنعت وركّبت فوق ضريح المؤسسة الام كاترينا سنة ١٩١٦

فريق يقول : لا شيء يبقى سوى العظام ... وهذه مع الايام تغدو ترابا فحسب .

وفريق يقول : من القبر تبدأ حياة اخرى هي أوسع مدى وأرحب من الحياة الدنيا التي ما خلت يوما من فساد أو طغيان ...

ومهما يكن فان لنا في مثل هذه الذكريات والاوقاف وفي صفحات التاريخ نوعا اخر من الحياة ... فهلا عرفنا الى ذلك سبيلا ؟

الدير والحرب والسلام

اكثر من عشرين راهبة يعملن في خدمة دير وكنيسة سيدة الدخول . عطاؤهن دائم مستمر . سخاؤهن على الفقراء والمحتاجين كبير مثير . تواضعهن يجعلك قرير العين، وبساطتهن تجدد فيك الثقة بالنفس والاعتقاد بأن المحبة ما زالت موجودة . فالرئيسة الام الحاجة مارغو تعطي ووجهها الى الارض ، فاذا اعطت باليمين لا تترك اليسار تعرف ، واذا اعطت باليسار فلن تعرف اليمين .

لقد أمّ الدير مهجّرون تهدمت منازلهم ،وتعطلت اعمالهم ، فاستقبلتهم الحاجة الرئيسة وشقيقتها الاخت بلاجيا

والراهبات ، فكن لهم أمهات واخوات • وكما سائر الاديار المسيحية ، اللبنانية ، على الساحل وفي الجبل ، ساهم دير سيدة الدخول للروم الارثوذكس في انقاذ تلك الاسر التي دمرتها الحرب واقتلعتها من منازلها وقراها • ومما لا شك فيه ان دير السيدة في « كرم الزيتون » سيبقى ، في السلم كما في الحرب ، كرما على درب المسيح وامه العذراء مريم•

كيف أنشئ دير سيدة الدخول

نحن لا نعرف شيئا يُذكر عن طفولة مؤسسة دير سيدة الدخول الحاجة كاترينا كركبي (كركبـة) • وانما تشير المرحلة الثانية من حياتها الى انها نمت وترعرعت في بيـت كان يسوده جو مسيحي هادىء•وقد تكون عائلتها من بين تلك العائلات المسيحية الارثوذكسية البيروتية التي اشتهرت بالتجارة والاعمال الحرة [٩] •

---

(٩) عائلة كركبي (كركبة) لبنانية يعتقد أن أصلها من بعلبك مع ان الدكتور حسن عباس نصرالله ، صاحب الكتاب النفيس « تـاريخ بعلبـك » (طبعة ١٩٨٤) لم يؤكد لي ذلك . وانها نزحت ، من هناك ، اثر نكبة ١٨٦٠ م. حـاولتُ الاتصال ببعض أبناء هذه العائلة ، في بيروت ، فلم أوفق الا الى السيد غسان نجيب كركبي ، محاسب ، من سكان فرن الشبـاك ، فقال لي ان هذه العائلة تعود بأصلها الى بعلبك ... مستندا الى سجلات في دائرة نفوس زحلة . غير ان السيد كركبي وهو كاثوليكي لا يحفظ شيئا عن الام كاترينا .. وانما يعرف ان له عمة (...) من راهبات الناصرة توفيت في بيروت..وأرشدني السيد غسان الى المهندس جورج فريد كركبي الـذي لـم أتمكن من الاتصال به . ولدن زيارتي للدكتور ناجي شوفاني، رئيس مركز الدورة للضمان الاجتماعي–بيروت ، في مكتبه، =

يحكى عن هذه السيدة الفاضلة انها تزوجت من رجل من آل جهشان ، وان زوجها نفسه لم يكن ذا عمر طويل ، اذ مات بعد مضي ما لا يزيد على ثلاث سنوات من زواجهما . ويفترض ان يكون زوجها المذكور رجلا فاضلا ومخلصا ، مما جعلها تسلك طريق النساك متعالية عن الاهواء والشهوات ، حافظة لزوجها الود والحب من جهة، وداعية لعمل الخير والاحسان من جهة اخرى .

في بيتها الكائن في الخندق العميق ، من البسطة التحتا، الذي على انقاضه قامت بناية « الاحوال الشخصية » ، أخذت كاترينا تتنسك ، ولما تبلغ الاربعين،فالتزمت الصوم القاسي ، اذ كانت تأكل مرة واحدة كل ٤٨ ساعة، وقاطعت اللحوم والحليب والبيض والسمك ، مكتفية بالحبوب والخضار المسلوقة ، مستعينة بالصلاة وقراءة الكتاب المقدس .

وأكبّت كاترينا على مطالعة سير القديسين وأعمالهم،

= وذلك يوم السبت ١٩٨٥/٣/٢٩،وجدت أمامه كتابا عنوانه « المصارف الاجنبية في لبنان : نظامها القانوني والضريبي » لمؤلفه القاضي الدكتور مروان كركبي ، وبما ان الكتاب لا يحمل عنوان المؤلف .. وبما ان المؤلف هو غير معروف من الدكتور شوفاني نفسه،رجعت الى دليل الهاتف للبنان فلم أعثر على هذا الاسم ، وعندئذ توقفت عند هذا الحد .

فلما اعجبت بحياة هؤلاء واخلاصهم للعقيدة ، صممت على تقليدهم والتقيد برسالاتهم ، فذاع صيتها بين العائلات البيروتية المسيحية والاسلامية ، وراح النساء يتسابقن لزيارتها في منزلها ، وكثيرا ما كانت تدعوهن الى مشاركتها الصوم والصلاة . وواصلت كاترينا العبادة والزهد والتقشف ، الى ان صار بيتها كما المزار يقصده البائسون والمعذبون من مختلف المذاهب والطوائف يسترحمونها ويتبركون بها .

وحين أشرفت كاترينا على الخمسين ، اعلنها المثلث الرحمة غفرائيل (شاتيلا الدمشقي) مطران بيروت ولبنان، يوم الاربعاء في ٤ حزيران ١٨٩٨ ، راهبة قانونية . وبعدها بسنتين سافرت الاخت كاترينا الى القدس ، لزيارة الاماكن المقدسة ، فاحتفل بها رئيس دير مار سابا [١٠] الاب فيلبس مع رهبان الدير . ودعا ، في يوم الفصح المجيد سنة ١٩٠٠، الى حفل كبير في ديره العامر ، فكان يوما مشهودا ، اذ لبست فيه الراهبة كاترينا اسكيم التقدم في طريق الكمال الانجيلي .

---

(١٠) انشأ هذا الدير القديس سابا (٤٣٩ — ٥٣٢ م .) قرب القدس وسمّاه على اسمه . عُرف عن هذا القديس انه تنسك في فلسطين على القديس افتيموس ، وحارب تعاليم اوريجانوس ١٨٥ — ٢٣٠ م . أشهر أساتذة مدرسة الاسكندرية اللاهوتية .

وفي عام ١٩٠٢ وشحها المطران جراسيموس مسرة ،في بيروت ، الاسكيم الملائكي . ومن ذلك الحين بدأت تقتبل الراغبات في مشاركتها بعيشة النسك في بيتها الذي أصبح مقصدا شريفا لحضور الصلوات والمواعظ الدائمة [١١] .

فمن الضهور — المتن ، جاءتها الاخت ماري قربان ، ومن بيروت الاخت ماري غـوث ، ثم الاخت افدوكيـة مجدلاني [١٢] ، ابنة عم الاستاذين نسيم ونعيم مجدلاني ،

---

(١١) عن مطبوعة بمناسبة القداس السنوي الاول عن نفس الام المؤسسة كاترينا كركبة ، محفوظة في الدير .

(١٢) على اسم أفدوكية (Eudexie) زوجة الامبراطـور البيزنطي (Arcadius) (٣٧٧ — ٤٠٨) ابن تيـودوسيوس (Theodossius) أول الأبـاطرة البيزنطيين . والمعروف أن افدوكية قد غضبت على القديس يوحنا فم الذهب (٣٤٧— ٤٠٧) — أحد آباء الكنيسة ومعلميها — واضطهدته فنفته لانه « وبّخ بمواعظه أهل البلاط البيزنطيين على سيرتهم » .

عن هذا القديس جاء في كتاب «تاريخ الكنيسة السريانية» الانطاكيـة ، الجزء الاول ، تأليف سويريوس يعقوب تـوما (البطريرك يعقوب الثالث) ما يلي :

« ولد (يوحنا فم الذهب) في سنة ٣٤٤ في مدينـة انطاكية في بيت موسر . كان أبوه سقوندس قائدا في الجيش الروماني في سوريا ، وكانت أمه انثوسة من ربات الفضيلة ، ترملت في العشرين من عمرها فتولت تربيته غارسة في نفسه أصول الفضائل بارشاداتها المنبعثة من قلبها العامر بالفضيلة حتى شب وترعرع على مبادىء التقوى . درس علمي المنطق والبلاغة على ليبانيوس ، والفلسفة على اندروغوتيس . وفي سنة ٣٦٩ اقامه البطريرك ملاطيوس قارئا في بيعة انطاكية ، =

وغدا منزل الحاجة كاترينا ، في الخندق الغميق « يعرف ببيت الراهبات الارثوذكسيات » .

زارت الحاجة كاترينا القدس مرة اخرى سنة ١٩٠٥ . وهناك قلدها البطريرك الاورشليمي داميانوس الاول الذي سبق ذكره في ٢٠ نيسان من السنة ذاتها — كان يوم الفصح المجيد — صليب انكار الذات .

من القدس عادت الحاجة كاترينا كركبي لتنشىء ، في

= ثم تنسك في دير مجاور وقرأ علم الكتاب المقدس على ديودورس الشهير استاذ المدرسة الانطاكية اللاهوتية . عقد مودة مع باسيليوس الكبير في حداثته وصنّف كتابا في الكهنوت » .. « وكان ثاوفيلوس الاسكندري يحسد مناقب الذهبي الفم بل لم يكن مرتاحا الى رسامته وقد أصرَّ قبل ذلك على رسامة قسيسه وصاحبه ايسيذورس للكرسي القسطنطيني ولم يفلح . ومما زاد في الطين بلة ان الذهبي الفم استمع الى شكـوى الرهبان الاربعة الملقبين بالاخوة الطوال الذين كان قد عزلهم ثاوفيلوس » ... « ولما ركب السفينة ليمضي الى منفـاه (كما شاء ثاوفيلوس وافدوكية واينيانيوس أسقف قبرس وسوريانوس أسقف جبلة وانطيوخس أسقف عكا وأقـاق أسقف بيرية) حدثت زلزلة هائلة كادت تدمر المدينة واهتز لها على الاخص القصر الامبراطوري . فانزعجت اودكسيـة (افـدوكية) وبكّتها ضميرها وطلبت الى ارقاديوس ليعيده ففعل » ... « ثم عادت القيصرة الى كرهه بعـد شهرين فكاشفت ثاوفيلوس الذي أسرع الى اعلان خلعه . وفي ١٥ حزيران سنة ٤٠٤ نفي ثانية بأمر القيصر الى مدينة نيقية » (طبعة ١٩٥٣) (ص ٢٩٦ / ٢٩٧ / ٢٩٨) .

بيتها ، الصومعة ، في شهر كانون الاول ١٩٠٨ ، قانونا رهبانيا سمّته قانون « كوخ العذارى الساهرات » ، وجعلت عنوانه قول السيد المسيح : « اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة » .

كان هذا القانون الرهباني قاسيا جدا وصارما جدا . فالاكل ، مثلا ، مرة واحدة كل ٤٨ ساعة ، على أن يكون خاليا من اللحوم ، والبيض والزيت . كذلك العبادات ... اذ الصلاة متواصلة ، وقراءة الكتاب المقدس مستمرة ، والاطلاع على سير القديسين وشهداء الكنيسة واجب ، بل أكثر من واجب .

مكثت الحاجة كاترينا في الخندق العميق حوالي ستين عاما من البر والقداسة والاحسان . قهرت جسدها بالصلاة والخشوع والتقشف والعزلة . مسحت بالزيت على وجوه المتعبين ممن كانوا يتوافدون اليها . أضاءت الشموع من اجل النفوس المعذبة . وتألمت للذين غيبتهم الحروب والفتن الطائفية عن اطفالهم وعائلاتهم . أنفقت القروش على المساكين الضعفاء . صلت لاجل الاغنياء ليكونوا محسنين، وللحكام كي يعدلوا ، وللملوك كي يحلوا السلام بين الشعوب .

لقد أفنت الحاجة كاترينا صباها ، في « الخندق

العميق » ، تتعبد وتتنسك . ولما فكرت في انشاء دير وكنيسة ، وجدت عند المحسنين المرحومين متري غلام وزوجته سعدى ابو الروس، الاستعداد لهذا الامر،والرغبة في تحقيقه ، ولا سيما بعد حادث كاد يقضي على السيد غلام لولا الحاجة كاترينا نفسها .

وكانت الاعجوبة

اصيب المرحوم متري اندراوس غلام [١٣] سنة ١٩٠٨ بوجع في يده اخذ يشتد يوما بعد يوم . راجع بشأنه أطباء ذلك الزمان ، فلم يوفق الى العلاج الشافي . جرّب الطب العربي وجميع النصائح التي أسديت اليه ولكن عبثا . أقلق هذا الامر متري غلام وزوجته الفاضلة سعدى ، وكادا يتعقدان لولا فكرة خطرت لسعدى فجر احد الايام الباردة . وربما راودتها هذه الفكرة اثر حلم جميل استيقظت عليه اذ رأت فيه زوجها يبني ، في « كرم

(١٣) آل غلام ، عائلة لبنانية ، هاجرت من البربارة ، مع السراسقة. . وسكنت بيروت دون سواها ، عرف منها جورج طانيوس (مدقق حسابات ومستشار مالي) وشقيقه جوزف (مدير عام بنك البحر المتوسط) وكاتينا جان غلام ، أول قاض ـ امرأة في لبنان ، والمحامي بيار شقيق جورج وجوزف المذكورين ، والدكتورة سعاد شقيقة كاتينا . كما عرف من آل غلام أيضا : الارشمندريت اغابيوس والارشمندريت جراسيموس . . حسبما أخبرني المختار بشارة انطوان غلام.

الزيتون » ، على عقار له هناك ، ديرا وكنيسة •

قالت سعدى لزوجها « هات نروح لعند الحاجة كاترينا كركبي في الخندق الغميق • بقولوا عنها فاضلة وقديسة • بلكي الله بيشفيك ع يدها وخلينا ننذر اذا كان شفيت إنّا نبني كنيسة ودير للحجّة كاترينا وراهباتها بأرضنا بكرم الزيتون » •

فلاقت الفكرة استحسانا وقبولا لدى متري الذي أنهكه الالم • وما ان اشرقت الشمس حتى مضى الزوجان نحو « الخندق الغميق » يقودهما ايمان قوي وثابت ••• بل أمل كبير بنجاح هذه الرحلة السعيدة •

سمعت الحاجة كاترينا ما قاله متري غلام وزوجته فقالت « هذا امر بسيط جدا بعون الله وبركة امنا السيدة العذراء والقديسين » ثم اخذت كوبا صغيرا فيه زيت ومسحت له يده المريضة ، ثم شدتها برباط من الصوف ••• وصلّت له ودعت ، فرجع متري وسعدى الى منزلهما والثقة بنجاح « العملية » تملأ قلبيهما •

في الليلة التالية صحا متري من نوم عميق كان قد استسلم له باكرا ، ليجد الرباط المشدود حول يده مرميا على الارض • ارتجف • رفع يده فاذا هي سليمة تماما • حاول مرة اخرى ثم ثالثة ثم رابعة • ولما اطمأن الى ذلك

أيقظ زوجته ، ليطلعها على ما حدث ، ففرحت بما رأت ، وجلسا يصليان حتى الصباح •

وحين طلع النهار انطلقا نحو « الخندق الغميق » ليعلما الحاجة كاترينا هذا الامر العجيب • قبّلا شاكرين يدها ، وأكدا لها انهما سيباشران ، حالا ، بناء كنيسة ودير في « كرم الزيتون » فسُرّت الحاجة كاترينا لهذا الخبر ، البشارة ، وقالت : « لتكن اذاً السيدة العذراء شفيعة الكنيسة والدير • مبارك عملكما • أسأل الله التوفيق والنجاح » •

الى كرم الزيتون

بعد اقل من شهر واحد بدأت حركة البناء في « كرم الزيتون » وبدأ شقع الحجارة • ويوما فيوما كانت الجدران تعلو وتشمخ ، فتهافت ارباب الفضل والتقوى يمدون الزوجين السعيدين : متري وسعدى بالمساعدات •

مع نهايات صيف ١٩٠٩ تم البناء ، فطلب من الحاجة كاترينا ان تنتقل من « الخندق الغميق » الى « كرم الزيتون » فرحبت بذلك ، الا انها اجلت الموعد الى يوم ٢١ تشرين الثاني ، ليكون دخولها الدير والكنيسة يوم تحتفل الكنيسة الجامعة « معيّدة » لتذكار تقدمة القديسة مريم البتول الكلية الطوبى الى هيكل سليمان في مدينة

اورشليم (١٤) من والديها القديس يواكيم والقديسة حنه،

---

(١٤) هنالك مؤلَّف سيصدر (صدر) قريبا، من احدى العواصم الاوروبية ، للباحث والمؤرخ الدكتور كمال الصليبي ، يحمل نظرية تقول بأن أحداث التوراة (التي منها انشاء هيكل سليمان) وقعت في منطقة عسير في الجزيرة العربية وان موسى وسليمان عاشا في تلك المنطقة . ويستند الدكتور الصليبي الى ما ورد في التوراة من أسماء للمدن والقرى هي ذاتها أسماء لمدن وقرى كانت او ما زالت باقية في منطقة عسير .

وما ان تناقلت الصحف العالمية والمحلية بعض الاخبار عن هذا الكتاب ، حتى انبرى الى الرد عليه الدكتور عمر فروخ ، في مجلة « الرسالة » البيروتية ، صاحبها فيصل السمّاك (العدد ٦٤ ، السنة الثامنة ، ربيع الاول ١٤٠٥ هـ كانون الاول ١٩٨٤ م) والدكتور محمود الزايد ، أستاذ التاريخ في الجامعة الاميركية ، بمقالة نشرتها جريدة «الشرق الاوسط» ، التي تصدر من لندن ، في عددها : الخميس ٣١ كانون الثاني ١٩٨٥ . الا ان أيا من هذين الردين لم يكن كافيا او مقنعا ، اذ ان الباحثين فروخ والزايد لم يطلعا على هذا الكتاب المنتظر ،وانما اكتفى كلاهما بما قاله الدكتور الصليبي في أحاديث صحافية عقدها معه صحافيون لبنانيون ، ولا سيما في « السفير » و « الشراع » . وسنظل نأخذ بما قالت به التوراة ، بالنسبة الى هيكل سليمان حتى يثبت الدكتور الصليبي سلامة نظريته وصحة بحثه .. على اننا لا نستبعد وقوع التوراة في خطأ تاريخي فادح مثل ذاك الذي وعدنا الدكتور الصليبي باكتشافه وتصويبه . ان حاجتنا الى تاريخ اكثر جدية .. واقرب الى العقل .. تفرض احترام حرية البحث في مختلف القضايا والشؤون ، والا بقينا على جهلنا او مع تلك « المسلّمات » التي ما لبثت تتحكم في ارادتنا .. وتحول دون تحقيق ما نصبو اليه ، وتتطلعه بأعين مسهدة وقلوب واجفة . =

وذلك مذ كانت بعد حدثة جدا مكرسينها لله » (١٥) ، فكان لها ما ارادت .

وفي اليوم المحدد استلمت الحاجة كاترينا وتلميذاتها الدير الجديد باحتفال ديني كبير ضم اكابر الطائفة واعيانها. الا ان الحظ لم يؤات الحاجة كاترينا لاكثر من ست سنوات ، وبرغم ذلك كانت حياتها الجديدة ، في الدير الجديد ، مليئة بالاعمال الخيرية والنشاطات الروحية حسبما هي سيرتها . فاشترت من مالها الخاص قطعة أرض اضافتها الى ارض الدير ، واوصت جمعيتها بتوسيع المشروع حتى يصبح ذا شأن كبير في المنطقة .

واستطاعت الحاجة كاترينا بفضل تقواها ان تحقق الحلم الجميل الذي طالما راودها.ولما أمِنت على مستقبل جمعيتها وتلميذاتها سلمت روحها « غلس الثلاثاء السادس من الصوم الكبير في ١٠ اذار ١٩١٥ » (١٦) قريرة العين .

= والحقيقة هي ان كتاب الصليبي عندما صدر حرّك قلق بعض الكتاب ، ثم كان لنا رد على جميع الذين تصدوا للصليبي (انظر كتاب : « نحن وصنمية التاريخ » ، طبعة ١٩٨٦ ، فصل «البروتستانتية الشرقية تصحح ما «أفسدته» البروتستانتية الغربية » ص ٥٧٣/٦٠٢) .

(١٥) الكنز الثمين في أخبار القديسين ، تأليف السيد السعيد الذكر مكسيموس بطريرك طائفة الروم الملكيين الكاثوليكيين، المجلد الاول ،طبع ثانية بالمطبعة العمومية خاصة المعلم يوسف الشلفون في بيروت سنة ١٨٦٦

(١٦) عن المطبوعة بمناسبة القداس السنوي الاول ،المذكورة سابقا .

« واحتفل بصلوة الجناز عن نفسها سيادة المطران جراسيموس مسرة مع لفيف اكليروسه الموقر وهيأةمدارس الجمعية الخيرية احتفالا مهيبا اشتركت فيه الاهالي على اختلاف المذاهب . ثم دفنت في قبر جديد بجانب كنيسة الدير » (١٧) حيث رفعت اللوحة التي عليها صورتها ونبذة من حياتها ، كما تقدم ، لتبقى « أتعابها النسكية وارشاداتها الذهبية » قدوة لجميع راهبات الدير ورواده المؤمنين .

عهد جديد

ان حجاج الدير والكنيسة سيفاجأون اذا هم علموا ان هذا البناء الضخم ، الواسعة ارجاؤه ، قام على اكتاف الراهبات والمال والحلال الذي يجمعنه بعرق الجبين ودموع الجهد .

لقد قدر لدير السيدة ان تدخله ، في حزيران ١٩٢٠ ، طفلتان شقيقتان من آل تبشراني ، من بسكنتا ، هما مارغو (مارغريتا مريم) وبلاجيا. ولما رأت الام الرئيسة، آنذاك، الحاجة أفدوكية مجدلاني ، عندهما ، الاستعداد لخدمة الدير ، أبقتهما ، عندها ، بعدما استأذنت والدهما المرحوم عيد تبشراني وامهما المرحومة ميليا معلوف . فاستقرت الطفلتان الشقيقتان حيث طاب لهما البقاء (١٨) .

(١٧) المصدر نفسه .
(١٨) آنذاك كان عمر مارغو تسع سنوات وعمر بلاجيا ست سنوات تقريبا .

ارسلت الام افدوكية هاتين الطفلتين الى مدرسة «زهرة الاحسان» حيث درستا مبادىء اللغتين العربية والفرنسية . ولما ورثت الحاجة أفدوكية مجدلاني عن أهلها ، ألف ليرة ذهبا ، اشترت قطعة ارض في كرم الزيتون تجاور ارض الدير ، فاتسعت مساحته ، مما دفع الراهبات الى زراعة الارض ليبقى على الشقيقتين الصغيرتين ، مارغو وبلاجيا ، بيع ما تنتجه هذه الارض ، للمارة ، على الرصيف . قرب الكنيسة ، وكما في موسم الخضراوات كما في موسم الزيتون .

شاركت مارغو وبلاجيا في خياطة الثياب العسكرية للجيش الفرنسي طوال فترة الانتداب ، اذ كان المتعهد الخياط متري طرابلسي يكلف راهبات الدير تنفيذ الطلبات، تفصيلا وخياطة ، التي كانت تصله من الحكومة الفرنسية .

كبرت مارغو وبلاجيا فألبستا الاسكيم ، وما كان لاحد ان يعلم ان دير سيدة الدخول ، في الاشرفية ، سوف يبلغ ذروة مجده ، بفضل هاتين الراهبتين الصغيرتين . وفيما اتجهت الاخت بلاجيا سنة ١٩٤٥ الى القدس ، لتدرس قواعد الرسم التصويري ، في دير هناك للراهبات الروسيات (١٩) ، بقيت الاخت مارغو تحدق الى المستقبل

(١٩) انظر كتابنا « جزيرة الكلمات » ، الجزء الاول ، الطبعة الاولى ١٩٨٢ ، ص ١٠٢/٨٨ .

الذي لم يكن ببعيد .

واذ سهرت الاخت مارغو ، على الدير والكنيسة ، واخلصت لرسالتها ، استطاعت ان تنتزع تقدير الاخوات وعارفي دير السيدة واحترامهم لها ، مما حدا المثلث الرحمة المتروبوليت ايليا الصليبي أن يعينها ، في ٣ نيسان ١٩٦٤ ، رئيسة عامة على الدير والكنيسة ، لتخلف الرئيسة المرحومة الحاجة تقلا عازار [٣٠] .

ومنذ بداية عهد الام الرئيسة مارغو تبشراني ، والدير مستمر في التوسع والازدهار . ويكفيها انها كانت ، في ايام الشدائد والمحن والاحزان ، أما مثالية لكل من جاء يطلب مساعدتها .

كلما مررت من امام كنيسة السيدة في « كرم الزيتون » انحني واتوقف لأتأمل ذلك الصرح الذي بدأ قبل ثمانية عقود ديرا صغيرا وكنيسة متواضعة ، ثم ما لبث ان اصبح،

---

(٣٠) آل عازار : عائلة لبنانية منتشرة في معظم أنحاء البلاد ، منهم مشايخ أميون ـ الشمال. نذكر مثلا : الشاعر اسكندر ، الشيخ جرجس (توفي ١٩٠٨) ، الشيخ صالح ، الشيخ ناجي أكرم (رجل اعمال) ، الشيخ سليم سامي ، رئيس في محكمة التمييز ، والمحامين : بولس وريمون وهنري ، في بيروت ، وروني ، في طرابلس ، والياس عيد هراوي (عازار) في قب الياس ـ البقاع .

بفضل توجيهات الرئيسات اللواتي تعاقبن ، بعد المثلثة الرحمة الام المؤسسة ، على رئاسته ، ولا سيما الام مارغو تبشراني مد الله عمرها ، وبفضل تجاوب الراهبات وسهرهن ، ومحبة المحسنين ، نجما مسيحيا ساطعا ، في سماء الاشرفية وضواحيها [٢١] .

---

(٢١) في هذا الدير تعقد المؤسسات الارثوذكسية مهرجاناتها الدينية والوطنية . وفي يوم الاحد ١٠ آذار ١٩٨٥ (وكذلك في ١٠ آذار الذي تلاه) اقامت « الرابطة اللبنانية للروم الارثوذكس » قداسا ترأسه سيادة المتروبوليت الياس عودة، وحضره لفيف من رجال الدين والسياسة والمجتمع .

بيروت .. الأيقونة في خطر

الايقونة حلمها الاكبر ...

هي تعيش للفن ... للكنيسة ... للصورة ...

الاخت بلاجيا تبشراني أيقونة الازمنة الحديثة ...

أشياؤها كثيرة ... وألوانها كثيرة ...

على القماش ترسم ... على الخشب ترسم ...

بالذهب تغطي المساحات ...

بالزيت والبيض تلون ...

ودائما لعبة اللـون قبل غـيرها ، وهي عندها لعبة الحياة ...

الشرق المؤمن ، المسيحي، كل ابعاد الصورة والايقونة، في مرسم الاخت بلاجيا ، الكائن في دير سيدة الدخول للروم الارثوذكس في « كرم الزيتون » ـ الاشرفية .

التاريخ على الوجوه ... والثياب ... والصلبان

الجغرافيا كل الشرق ... وكل الغرب .

ليس للجغرافيا ، في ذاكرتها ، مكان محدد ولو صغير .

فنها فوق المكان ... وفوق الزمان ...

لمـاذا ؟

لان الايقونة للكنيسة ... والكنيسة لله .

الاخت بلاجيا تتمسك بالمطلق ...

هي مسيحيـة بالمطلـق ... ومشرقية بالمطلـق ... وانسانية بالمطلق ...

ثلاثة محاور لدائرة واحدة ...

وليس ثمة ما يشير الى ان هذه المحـاور يمكن فصل بعضها عن بعض ...

ومهما يكن ... فالذي يبقى هو العطاء ، ولا سيما اذا ما كان من القلب .

هكذا ترى الاخت بلاجيا الفن ...

وهكذا ترى الحياة ...

لا فرق ، عندها ، بين الحياة والفن .

هي ، اذن ، ترسم لتحيا .. وتصوّر لتحيا .. وتلوّن لتحيا .

ولا بد من القول ان الاخت بلاجيا قد خُلقت لتكون مثلما هي اليوم .

بل قل : خلقت من اجل الفن الكنسي .

تغادر الايقونة أو الصورة مرسمها ... محمّلة بشيء منها .

بعض من عينيها .. وبعض من قلبها وأعصابها .. يذهب الى حيث تذهب أيقوناتها وصورها .

من الشرق الى الشرق ... الى الغرب ...

والعلاقة مشرقية ... تنظر ، دائما ، الى الامام ... الى الذي هو الطريق ـ الحق .

سِفْرٌ من اللوحات الخالدة،يتجدد كما الايمان والحياة والحب ...

وليس الزمن عدو الايقونة .

الاصح ، ان الزمن هو صديق الايقونة وحليفها الدائم والمخلص .

فكلما ابتعدت بك الايام عنها ، كلما تألقت روعة وجمالا

لا الغبار ولا الصدأ يؤثران في أصالتها .

كل شيء يدخل في الماضي وينأى ... ما عدا الايقونة والصورة .

كما المسيح والعذراء كذلك الايقونة .

المسيح فيك ما دمت انسانا ...

والعذراء معك ما دمت على الحب والرجاء .

الماضي في الايقونة ، والمستقبل في الايقونة .

الايقونة حكاية لا تنسى... لانها غير مكتوبة بالحبر .

وعهد لا يلغى لانه لم يُذكر في كتاب .

رائحة الايقونة تنقذ من بلية ...

انها فرح اقتحمنا قبل طلوع الفجر ...

وكنا في جوف البؤس ...

لاجل هذا الفرح كان الصراع ، وما زال ، وسيبقى...

أنت امام الايقونة ... لا تملك سوى الصمت والتأمل .

اغسلْ يديك !

اغسل عقلك !

اغسل قلبك !

امسح عينيك بماء الورد !

أنت في حضرة الايقونة .

يجب ان تكون جميلا ، اذا اردت ان تنظر الى الجمال !

هل تستطيع معي صبرا ؟

حب الايقونة من أعمال الروح ...

اللغة واحدة ... والعلاقة واحدة ...

المسيح واحد ... والعذراء واحدة .

بينما القديسون كثار .

تأمّلْ !

كلما اجتاحني الخوف او الحزن ألجأ الى مرسم الاخت بلاجيا تبشراني .

ماذا هناك ؟

كل شيء لاجل راحة النفس والضمير .

هناك ، تتراجع الآلام كأنك تتعاطى العلاج .

اللون يداوي الاعين والنفوس ...

الشكل يبرّد الحق ...

تأمّلْ !

الذي يأخذ الفرح من الايقونة ، لا يصيبه حزن ، ولا يدخله ألـم .

هكذا تكلمت الاخت بلاجيا .

صار لها حوالي نصف قرن مع الرسم والتصوير ...
قبل الريشة ، كـم « خرطشت » ، عـلى الحيطـان والمقاعد ، بالطبشور واقلام الرصاص والفحم !

بدأت رحلة الاخت بلاجيا مع الفن الكنسي ، فدخـل « كرم الزيتون » عصر الايقونة .

نقطة التحول اوسع من الخيال .

مثل النعمة التي تهبط من فوق ، نزل حب الايقونة على الاخت بلاجيا ... فاهتزت واضطربت .

عاصفة « العبقرية » ضربت الراهبة الصغيرة .

« كرم الزيتون » تحت وطأة الوحي ...
والراهبة الصغيرة تحت وطأة الوحي أيضا .

زهرة الآلام الزرقاء ملأت « كرم الزيتون » ... غطت الارصفة والعتبات . صعدت الى الشبابيك ... ثـم الى السطوح ..

دخلت زهرة الآلام الزرقاء الى البيوت ... فاحتلت الارائك والاسرّة .. والخزائن .. حتى ثياب الاطفال .

كل شيء تغير في « كرم الزيتون » ... لكن احدا لم يعرف أن عصر الايقونة قد بعث من « الكرم ... »

من بيروت الى القدس الى أثينا ... والخط مستقيم أبدا .

القدس ضاعت ...

أثينا ما زالت تذكّر بأبيها زفس سيد آلهة اليونان.. وتذكر ايضا بجدها كرونس اله العواصف والامطار !!

وكأن لا تنفع الذكرى ؟..

رأيت موسكو وكل الروسيا قد هربت الى ما وراء الشرق !!

لعلها تعبت من التأمل ، أو ثقل عليها الفرح .

المشرقية مسؤولية لا يتعهدها سوى النخبة ... النخبة المعاكسة .

بقيت بيروت

بيروت الحجر والليل والتجارة هشمتها الحرب ..

صارت بقايا مدينة ...

لكن بيروت الاخت بلاجيا ما زالت تنفح الدنيا بالطيب والعطايا ...

بيروت « كرم الزيتون » تحميها « السيدة » ...

وبيروت الايقونة تتمرد على الذين يحملون النار والحديد ...

من كنائس صيدا والخيام وباب ادريس والشوف والبقاع والشمال حملوا الى « كرم الزيتون » أيقوناتهم وصورهم ، التي جرّحتها الحرب او دمرتها .

الاخت بلاجيا بكت ... سقطت ارضا ... كسرت ساقها ...

لقد استطالوا على الايقونات ؟

المشرقية في خطر !

لن أدعهم يحرقون رموزنا !

هكذا تكلمت الاخت بلاجيا ...

وظلت تقاوم الحدث الرهيب لكي ترمم الايقونات ... الضحايا .

بعد شهرين قضتهما مع العذاب والوجع ، عادت الاخت بلاجيا الى مرسمها ...

مهمتها كانت شبه مستحيلة .

أجل !

غير ان الغلبة كانت للارادة والصبر والثقة بالنفس .

لقد ارجعت فناتنا الى الصور والايقونات المحطمة والمشوهة رونقها وبهاءها .

ألم تقل : لن أدعهم يحرقون رموزنا ؟!

الحرب على الايقونات ، في لبنان ، حرب على الاخت بلاجيا ... و « كرم الزيتون » ... وحرب على بيروت الايقونة ...

ماذا يقول عشاق الايقونة ؟

ماذا يقول المشرقيون ؟

اذا سقطت بيروت الايقونة سقط ما سواها ...

وانتم ، أيها الفنانون ، مهما اختلفت مدارسكم وعقائدكم ، ألا تخافون على الفن من الحرب التي باتت تهدد بيروت ـ الايقونة ؟

صرخة في واد ؟...

لكنني لا أرجو أن تكون كذلك .

آذار ١٩٨٤

الفصل السابع

شربل الذي انتصر على شربل

"إن حياة القديسين في جميع عصور التاريخ المسيحي، كانت دائماً مظهراً بيّناً من "حج عثرة" يسوع: إنهم علامة للمخالفة. حياتهم تدين العالم: فهي تقتدي بحياة السيد المسيح الذي يطيب له ان تسطع أشعة قدرته في الضعف البشري. إن ضميرهم المستنير بنور ايمان فعّال، ينشر على القريب والبعيد تعليم الانجيل الأصيل المعاش في حب الطاعة، والفقر، والحرّية الباطنية، وفي الهرب الى القمم لملاقاة أبي الأنوار في صلاة صامتة، ثم الانحدار الى معترك الحياة لكي يشهدوا للأوحد".

الكردينال بولس بطرس المعوشي
بطريرك انطاكية وسائر المشرق
من رقيم له في ١٧/٥/١٩٦٦
خرجه الأب بولس ضاهر في كتابه
"شربل انسان سكران بالله" الطبعة الثانية ١٩٧٨ ص ٥

لو بقيت عنّايا [1] بلا دير [2] ، ولا محبسة [3] ، لما

---

(١) عنايا : قرية في لبنان ـ قضاء جبيل .
جاء في كتاب الاب بولس ضاهر : « في القرن الثالث عشر ، كان الموارنة ، وهم ملتفون حول بطريركهم الموطد كرسيه ، ردحا من الزمن ، في قرية حجولا القريبة ، يقطنون جبل علماية والقرى المجاورة . وكان ، بعد سقوط فلسطين، أن لجأ الصليبيون الى لبنان واستنجدوا بالموارنة ، ولكنهم، بالرغم من شجاعتهم ، كان لا بد للعدو المتفوق بالعدد والعدد أن يتغلب. فقبض الفاتحون في حجولا على البطريرك القديس، جبرائيل، صديق الصليبيين واخيهم في الايمان(؟) . بعد أن قاسى عذابات شبيهة بآلام المسيح ، نال اكليل الشهادة في طرابلس ، رافضا الجحود بدينه المسيحي ، غافرا لمعذبيه ، عام ١٣٠٥ . فعملت في الاديار ، والكنائس ، والقرى ، يد السلب والتدمير ، وقد عزم الغزاة الجدد على ابادة الموارنة، حلفاء الصليبيين ، وابدالهم بشيعيين ، وهم طائفة من المسلمين المستقدَمين من بلاد فارس والعراق . غير أن هؤلاء لم يلبثوا، بعد اختلاطهم بالموارنة ، أن اهتدوا ، ان لم يكن الى الدين المسيحي ، فعلى الاقل الى روح المحبة والاخوة ، والعطف الابوي الذي أحاطهم به البطريرك بولس مسعد ، ولا سيما بعد زيارته لسلطان القسطنطينية ، كان كافيا لكسب ثقة هؤلاء الاخوان الساميين الذين ، هم أيضا ، ورثة الموعد الذي عقده الله مع ابراهيم » .
=

خرجت ، من قضاء جبيل ، الى قضاء كل لبنان ، فقضاء العالم .

ولو لم يأتِ يوسف انطون مخلوف (شربل) (٤) الى

= اضاف :

« كانت المحبسة اذن وما حولها ملكا لعائلة شيعية ، هي عائلة مشايخ آل ملحم من قرية طورزيا ،منهم ابتاعها الشابان يوسف (ابي رميا) وداود (خليفة) بما وفّراه من كد ايديهما، فقد اشتراه الرهبان في ما بعد عام ١٨١٤ م.

واتت السنون ... وبعد أن أصبحت عنايا ملكا للشيعة، عادت للموارنة ، مسترجعة اسمها الجليل القديم ، حالا محلها اسمها الجديد « نبي الرأس » . والجدير بالذكر ان الاسماء التي تحملها هذه الرابية وما يجاورها هي أسماء مأخوذةعن الاراضي المقدسة ! فقمة عنايا بالذات تحمل اسم « جبل التجلي » ، واسم طورزيا ، الى الجنوب ، منقولعن « طورزيت » ، « جبل الزيتون » ، الى الشرق يبدو « آرونا اليابوسي » (المعبد الوحيد) ، في لبنان ، المشيد لاكرام ابوي أمنا العذراء المجيدة) . ثم ان عنايا ، اسم الهضبة التي بني عليها دير مار مارون ومحبسته ، قد يكون مأخوذا من كلمة « بيت عنيا » . وأخيرا ، الى الشمال ،تبدو « صخرة قيافا » ، والى الغرب معبد قديم على اسم « يواكيم وحنه .. وابتاع الارض التي بني عليها الدير من شيعيي حجولا بمبلغ ٤٥٠٠ قرش عام ١٨٢٠ ، الطيب الذكر الاب أغناطيوس بليبل ، رئيس الرهبانية العام » (شربل انسان سكران بالله ، ص ٧٧/٧٨) .

(٢) هو دير مار مارون ، وقد وضع الحجر الاول في الساحة سنة ١٨٢٨ . رئيسه الحالي الاب لويس خليفة كما تقدم .

(٣) انظر اعلاه ، حاشية رقم (١) .

(٤) ولد يوسف انطون مخلوف (الاب شربل) في بقعكفرا سنة ١٨٢٨ .

دير عنايا والمحبسة (٥) ، لبقي الدير والمحبسة ينتظران ، حتى يومنا هذا ، وإلى ما بعد ، من يحوّلهما الى مزار .

عنّايا شربل لم تعدْ قرية لبنانية يحدّها قضاء معيَّن فحسب .فهي معروفة،اليوم،لدى كثيرين من الناس،من الشرق والغرب ، وسوف تُعرف أكثر ، بعد سَفَرِها الثاني الى روما .

سافرت عنّايا ، الى روما ، أول مرة سنة ١٩٦٥،يومة أُعلن تطويبُ راهبها ، صاحب العجائب الاب شربل

---

(٥) سنة ١٨٥١ غادر(شربل)أهله وقريته سرا الى دير سيدة ميفوق ، ثم الى دير مار مارون عنايا ، حيث اندمج في سلك الرهبانية اللبنانية المارونية ، متخذا اسم شربل ، احد شهداء الكنيسة الانطاكية في القرن الثاني . ابرز في اول تشرين الاول ١٨٥٣ ، نذوره الاحتفالية في دير مار مارون عناية . ثم التحق بمدرسة الرهبانية في دير مار قبريانوس كفيفان ، حيث اكمل دروسه اللاهوتية . سيم كاهنا في بكركي ، في ٢٣ تموز ١٨٥٩ . عاش في دير مار مارون عنايا مدة ست عشر سنة ، كان خلالها مثال الراهب القديس وانتقل الى محبسة مار بطرس وبولس المجاورة للدير سنة ١٨٥٧، وما كان يخرج منها الا بأمر الطاعة المقدسة لرؤسائه وفيها نهج الآباء القديسين صلاة وحياة وممارسات .

انظر « لبنان وطن سكران بشربل » جمعه ونسقه وقدم له بولس ضاهر ، طبعة اولى ١٩٧٨ ص ١٤ .

مخلوف (٦) .

ستغزو عنايا ، القريةُ ، العالمَ المسيحي بأكمله ، لأن شربل خدم المسيح ، في ديرها ومحبستها ، براً وسلاما وفرحا وصبرا .

وإن كان التاريخ قد حكى عن معارك « واترلو » و « جبال الأورال » و « العَلَمين » و « سيناء » وغيرها من المعارك ، التي انتصرت فيها جيوش أو انكسرت ، واندحر قادة جبابرة ، او بلغوا أعلى المرتبات ،فعلى التاريخ أن يذكر ، باعتزاز وشرف معركة عنايا التي دامت زهاء سبعة وأربعين عاما . ولكنها ، بكل تأكيد ، ليست مثل سائر المعارك ، القديمة منها والحديثة .

---

(٦) سنة ١٩٥٤ ، وقع البابا بيوس الثاني عشر قرار قبول دعوى تطويب شربل مخلوف وحث البابا يوحنا الثالث والعشرون على الاسراع بدرس ملف الدعوى. وسنة ١٩٦٥ وقع البابا بولس السادس قرار اعلان بطولة فضائل الاب شربل . وتمت حفلة التطويب في ٥ كانون الاول سنة ١٩٦٥ ، ابان اختتام المجمع الفاتيكاني الثاني . وكان لبنان ممثلا رسميا وشعبيا تمثيلا يشمل جميع اللبنانيين. وسنة ١٩٧٦ وقع البابا بولس السادس قرار اعلان قداسة الطوباوي شربل في احتفال عالمي اقيم في ٩ تشرين الاول سنة ١٩٧٧ .
انظر المصدر نفسه .

في كل معركة يتقابل جيشان ، أو اكثر ، فيبدأ الصراع وشدّ الحبال وإرهاق الانفس العظيمة . ومن الميادين ما يحفظ ، حتى اليوم ، آثار حوافر الخيول ، وأقدام الفيَلة، وبقع الدم الذي أريق . ومنها أيضا ما يزال يئن تحت جنازير الدبابات وعربات الموت ، اذ يشهد الآلاف ، لتلك الطائرات الحربية التي كانت تغطي الاجواء ، بما فعلته قذائفها ، في المواقع العسكرية والمنازل الحدودية ، والمدن الآمنة،وقد جعلتها خرابا ما بعده خراب . بيد ان معركة عنايا هي من نوع آخر . انها حرب لا خيول فيها ولا سيوف ، لا دبابات ولا عساكر ، ولا نبال ولا قذائف ، ولا صواريخ عابرة الحدود ، ولا بوارج مرابطة على الشواطىء ، تغطي فريقا وتضرب آخر . بل هي حرب الانسان على ذاته ، بطلاها القلب والعقل .

معركة بلا غبار

في معركة عنايا بقي شربل ، خادم المسيح ، سبعة واربعين عاما يصارع شربل اللحم والعظم .

شربل الاول « مجده يبدأ في القبر » ، وشربل الثاني « مجده ينتهي في القبر » . وشتان بين مجد ومجد . وبين شربل وشربل .

سلاح الاول حب الله ، اذ نسي ذاته « ليفتكر » في الله ، ويتجرد من كل ما فيه ليقتني الله ...

وسلاح الثاني قلب وجسد ، يذكرانه بأمه وعشيرته وقريته وأرضه وثيابه وحبيبته .

وكِلا السلاحين حاد وقاطع .

معركة بلا غبار بدأت في دير .. وانتهت في محبسة .

لماذا المدافع ودويّها ؟

لماذا القصف بالطيران ؟

لماذا الرجم بالقذائف العنقودية وغير العنقودية ؟

انه لصراع بين شربل وشربل .

هل أحد تدخّل ؟

هل جاء المحبسة « مشروع مصالحة » من هذا الفريق أو ذاك ؟

لقد حارب شربل من أجل أن يستحق المسيح .

الهدف واضح اذاً .

ولكن كيف يستحق شربل المسيح ؟

قلب أمه كان أول المنهزمين ... اذ تركها ومشى .

وكما أمه كما حبيبته ماري .

ما حاجة شربل الى ماري ، وهو لم يشعر ، مرة واحدة، بأنه يميل اليها ، مثلما يميل ، عادة، الحبيب الى حبيبته..؟!

ظل شربل يتابع انتصاراته ، واحدا اثر واحد ، فتغلب على ارادته وتفوق على اترابه في القرية ، ثم تحرر من أهوائه ورغباته ، فأتى الدير خاشعا طائعا ، والدنيا في نظره ، لا تساوي ساعة صلاة ، أو لحظة سجود وتأمل .

على أن أقصى غاياته قهر جسده بالانفراد للتعبد والتنسك.

ففي مكان لا جليس فيه ولا أنيس ، كانت الحرب بين شربل وشربل ، تشتد وتعنف يوما بعد يوم ، وقد أبى هذا الراهب ان يهادن او يسالم ، بل واصل جهاده في الليل كما في النهار ، متخذا هدفا له : المسيح فحسب .

كانت عنايا آنذاك تنام باكرا ، فيطفىء أهلها المصابيح ليتسلل كل الى فراشه ، بعد التعب والعمل الشاق . ما عدا واحدا من اولئك كان لا ينام ابدا ، عنيت به الحبيس شربل ، القابع وحده ، في محبسته ، بل الصامت المتعبد ، والمحارب الشجاع ، أو قل المتمرد على الدنيا ومظاهرها ، الساخر من المادة ، الكافر باللذة ، والملتصق بيسوع .

وحده شربل كان يبقى السهران الحاضر الغائب .

« نواصته » تحترق لتضيء صفحة من كتاب ، أو زاوية

من زوايا المجبسة • ويحترق هو كي يلتصق بالمسيح •
فالحرب ، بينه وبين « النواصة » سجال : في الشتاء ،
يتحداه الزمهرير والثلج والليل الموحش والنعاس • وفي
الصيف ، تهاجمه العقارب والافاعي ••• فيتصدى لهذه
وتلك ، وللصيف والشتاء ، بقلب ملؤه الايمان والحب •
ولا عجب في ذلك ، ما دام شربل قد نذر نفسه للمسيح
••• وصمم على أن يكون هو الذبيحة والمحرقة معا •

شربل لا يعيّد ، ولا يزور أحدا ، ولا هو يدخل
البيوت • مهمته ان يسمع ، بصفاء ومحبة ، شكاوى
المعذبين والمضطهدين والفقراء والمرضى والمتعبين
والبائسين ، ويصلي لهم ، ويطلب ، من «أبيه السماوي» ،
للمريض الشفاء ، وللبائس السعادة ، وللفقير النعمة ،
وللمضطهَد الامن ، وللشريد الاستقرار ، وللمتعب الراحة
والهناءة •

على أن شربل كان يرفض الحسنة والهدية من جهة ،
اذ لا حاجة اليهما • ومن جهة أخرى ، كان يوجه المحسنين
الى اليتامى والارامل والعجزة وسواهم من الفقراء
والمعوزين ، ليدفعوا اليهم بحسناتهم وصدقاتهم
وهداياهم •

قال الاب سمعان الاهمجي يصف الراهب شربل
مخلوف :

« ان الرئيس (رئيس الدير) كان يرسل ، من وقت
الى آخر ، الاب شربل الى القرى المجاورة ، إما لتشييع
ميت ، وإما لاسعاف مريض • فكان يذهب في مهمته
متجها توا الى الكنيسة ، كان الاهلون يسرعون اليه ، من
كل صوب ، تبركا بلمس ثيابه ، أو قبلة يده ، ملتمسين
منه الصلاة على ماء يحملونه في أباريق ، لكي يباركوا به
المنازل والمواشي وينالوا الشفاء » (٧) •

وكتب الخوري ميخائيل أبي رميا يقول :

« كان الاب شربل يُفرح قلب من يعترف عنده ،
بنصائحه وارشاداته • وانا قد اعترفت عنده مرارا عديدة •
واني أشتهي الآن من صميم الفؤاد ان احظى بكاهن مثله
لاعترف عنده طيلة حياتي ! كان يقرأ في قلب التائب ،
وكانت ذاكرته ترى كل ماضيه • كان يعطي كل داء
دواءه • وعلى الرغم من قسوة الكفارات التي كان
يفرضها كان المؤمنون يسعدون بالرجوع اليه » (٨) •

وليس غريبا ان يلقى الراهب شربل مخلوف ، عند
اخوانه الرهبان ، المحبة والتقدير ، وعند رؤسائه الثقة

---

(٧) خرجه الاب بولس ضاهر في « شربل انسان سكران
بالله » المصدر المذكور سابقا ص ١٠٦ •
(٨) المصدر نفسه •

والاعجاب ... وكما يروي الاب سمعان الاهمجي المذكور آنفا اذ يقول :

« انه فيما كان يمرض احد الرهبان مرضا ثقيلا ، كان يطلب الى الرئيس بالحاح زائد ان يرسل اليه الاب شربل ليمنحه الاسرار الالهية ، فكان يأتي ويمكث الى جانب المريض الليل كله ، جالسا على الكرسي، ولا يفارقه، اذا تمكن من ذلك ، الا ليصلي فرضه في الكنيسة » (٩) .

هذه الكلمات ان دلت على شيء ، فعلى غنى في النفس والروح عند الراهب شربل ، الذي كان قاسيا على نفسه ... وقاسيا على الناس ، والكهنة ، من اجل مسيحية أصيلة .

الكثيرون ممن عرفوا شربل مخلوف مضوا ولم يبق منهم شيء يُذكر،فيما بقي هو حيا في ضمائر الناس .. يهزها كلما استرخت أو نامت عن حق سليب وشرف طعين ومال غير شرعي ومجد زائف .

المعركة الكبرى

سبعة واربعون عاما ، وأكثر ، عمر الحرب التي

(٩) المصدر نفسه .

خاضها شربل مخلوف ، بصمت وايمان وحب وانسجام ، مع نفسه ، حتى صهرته القداسة .

ولما شاءت السنون أن تحسم هذه المعركة الهامة الخطيرة ، ختمت حياة المجاهد الاكبر والحبيس العنيف ، بموت جسده ، ليحيا بمجد المسيح وحبه ما دام المسيح والمسيحيون .

اعتقد البعض (...) أن شربل مخلوف قهرته الايام وطوته الليالي الى الابد . هؤلاء ظنوا ان « النواصة » قد غلبته فأحرقته . بينما الحقيقة هي أن صراع شربل ، على الارض ، قد انتهى ، ليدخل ، في صراع جديد ، مع الوجدان البشري والذاكرة المستقبلية ... فصارت عنايا رجاء المسيحيين ... وأمل الضعفاء منهم والمقهورين والمظلومين ، اذ صار شربل واحدا من وسطاء الخير ، أصحاب الكرامات ، بين المسيحي والسماء .

تسامع به مرضى ، ومعاقون وبائسون ، من أميركا ، وأوروبا ، وأفريقيا ، والهند ، والصين ، ومن كل مكان ، فأتوا يحملون همومهم وآلامهم ، فتوسلوا اليه ، وسألوه ، وصلوا له ، وبكوا ، أمامه طويلا ، وسهروا على قدميه ، ووعدوه بالتقوى والاخلاص ، فأظهر لهم مكانته وكرامته « عند ربه يسوع » ، « محبة الله » ،

فمنهم من ترك عصاه ومشى ، ومنهم من ترك حذاءه ، غير المتجانس ، في هدأة الليل ، أو مع بزوغ الفجر ، وانطلق فرحانا . وآخرون أنستهم « العجائب » ما كان يجب أن يفعلوا ، فبعثوا من بلادهم ، برسائل الشكران : فمن كان مصابا برأسه ، أرسل رأسا من البرونز أو خلافه ، والذي كان يشكو داء عضالا في معدته ، او رئتيه او قلبه ، بعث اما معدة أو رئتين أو قلبا ، من الحديد او النحاس . كذلك الذين فقدوا أطرافهم او بعضها . هؤلاء أرسلوا الايدي والارجل ، البلاستيكية وغيرها . فامتلأت صالة القديس شربل في دير مار مارون بقرابين الامتنان ورسائل التقدير ، ممن قصدوه فاستجاب لهم محققا مطالبهم وظنونهم الحسنة .

محفوظات الدير

في دير عنايا ، أو قل دير مار مارون ، غرفة محددة فيها : عكازات و « رؤوس » و « صدور » و « أمعاء » و « أكباد » و « قلوب » و « أطراف » ... وفيها أيضا أحذية لاقدام غير متجانسة ، أو مشوهة ، ورسائل ، وصوَر ، كلها تشهد لذلك الذي وُلد في قرية صغيرة تدعى بقعكفرا ، في أعالي بشري ، من أبوين فقيرين ، ومجتمع فقير ، وعاش حياته مقهور الجسد والقلب .

محفوظات الدير هذه وثيابه التي ما زالت ملطخة بدمه ، والقطعة الباقية من السنديانة (١٠) التي كان يصلي تحتها ، وغيرها ، تعترف للمحارب العظيم بأنه ما كان الا مثل حبة الخردل التي زرعت في الارض ، فصارت أكبر جميع البقول ، تكاد أغصانها الكبيرة تلامس السماء .

هكذا بدأ الراهب شربل مخلوف معركته في عنايا ، وهكذا انتهت .

كان « سفير الله » و « وزيره » ... فعاش ملاكا .. وقدّم عجائب .. ومات ملاكا ..

هذا المسيحي المناضل صوته ، اليوم ، يجلجل :

« زاغوا عن الطريق ويسوع قال : أنا الطريق .

زاغوا عن الحقيقة ، ويسوع قال : أنا الحق .

زاغوا عن الحياة ، فوجدوا الموت » .

شربل مخلوف لم يأت بفلسفة أو فكرة او قصيدة او بيان . ولا هو فسر الكلام او تأوله . ولا دعا الى

---

(١٠) قطع هذه السنديانة رواد الدير لأخذوا منها البركات .. والذخائر ، فلم يبق منها سوى تلك القطعة التي يحتفظ بها الدير مع ادوات القديس .

الاجتهاد والتفقه • وانما قهر جسده في حرب لا مثيل لها •

لقد فاق عطاء شربل مخلوف كل هذه العطيات •

وبفضله غدت عنايا مزارا ••• وأرضا مقدسة •

ما أحوجنا ، اليوم ، الى شربل جديد •

ويا ليت كل قرية لبنانية تؤتى النعمة مثلما عنايا •

الفصل الثامن

فرنسيس الغزيري
الأب يعقوب الكبوشي

"تعلّم من شقاء غيرك. تعلّم أن تعطي المحتاج قليلاً. فلا قليل عند من لا يملك شيئاً ولا عند الله، اذا كان العطاء على قدر المستطاع. وان لم يكن لديك ما تعطي، فأعط من نشاطك، أعط من دموعك. ففي ذلك اعظم تفريج لغمّ المعذّب ان يجد قلباً يعطف عليه ويخفّف شيئاً من شقائه".

غريغوريوس النازيانزي
(نحو ٣٢٩-٣٩٠)
(معلم الكنيسة القديس. بطريرك القسطنطينيّة.
صديق القديس باسيليوس ورفيقه في الحياة النسكيّه.
كان شاعراً وخطيباً كبيراً)

ذكر هذا القول الأب سمير مظلوم، رئيس "كاريتاس لبنان" في مؤتمره الصحافي الذي عقد في مقر كاريتاس لبنان - الاشرفية يوم الثلاثاء ٢٦ شباط ١٩٨٥

الصّليبان

اثنان وعشرون بيتا او مقرا ، تناثرت في لبنان، ساحلا وجبلا ، تضم ٢٥٠ راهبة ، كما الملائكة ، على صدر كل واحدة منهن يرتفع صليب بحجم نبضة القلب ، تذكّرنا برجل ، من هذا الجبل الابي ، هو الاب يعقوب الكبوشي (١٨٧٥ — ١٩٥٤ م) المولود « خليل » من « أب فاضل يدعى بطرس صالح حداد ، وأم كريمة اسمها شمس يواكيم حداد ، في بلدة غزير » [١] الكسروانية ، قاعدة

---

(١) الاب سليم رزق الله الكبوشي : ابونا يعقوب ، المطبعة الكاثوليكية — بيروت ١٩٧٨ .

ومما قاله الاب رزق الله عن والد الاب يعقوب :

« بطرس حداد ، نموذج من رجال الجبل اللبناني ، ماروني ، كسرواني ، فخور ، بمنطقته التي يعتبرها قلب لبنان . عضو في أخوية العذراء ، متدين دون مبالغة . بعد القداس ، يهمه فنجان القهوة ، على السطيحة ، من يد ام يوسف ، وبعد الظهر غطة النوم واجب مقدس . مشهور بروحه المرحة وسرعة خاطره ونكاته . واقعي ، لا تدور عليه الحيل . لما تسربت الماسونية الى غزير لتسمم كسروان ، وأخذت للتضليل اسم « بيرق مار مارون » =

أمراء بني عساف والمشايخ الحبيشيين ، ومسقط رأس الامير بشير الثاني الشهابي .

واذا أنت تغادر بيروت ــ الجالسة قلقة على أنقاض بيروت الفينيقية ، عاصمة الحرف ، والرومانية ، التي تمتعت بالحقوق « المدنية » فكانت مركزا لمدرسة الحقوق في القرن الثالث الميلادي ــ او تدخلها من الشمال ، لا بد أن يسترق منك النظر ــ صليبان : واحد على كنيسة تتوج رأس « جل الديب » وترعى سكان « الجل » (٢)

= و « جمعية مار مارون » ، كان في طليعة من حاربها » .
اضاف :
« اقام دعوى على احد الخصوم ، ولما بلغه ان بين الشهود امرأة مستعدة للحلف على الانجيل زورا ، قال : اسحب دعواي ، واترك حقي ، حتى اوفر عليها هذه الخطيئة » .
وقال عن والدته :
« اما الوالدة شمس ، فكانت من نوع اخر . صرح عنها كثيرون ممن عرفوها : « أمه قديسة ، أمه أقدس منه » ... « همها زوجها وبيتها وتربية اولادها . وهي تعرف اهمية دورها ورسالتها . ولا بد ان ابنها كان يفكر بها عندما كتب : « الام سر البيت » (ص ١٠/٩) .

(٢) ان اكثرية سكان جل الديب هم من آل ابو جوده. ومن ابناء هذه العائلة اللبنانية الكبيرة سياسيون ورجال اعمال واطباء ومحامون وصحافيون ورجال كهنوت وادباء، عرف منهم : الوزير السابق خليل ، المطران رولان ، الاب حنا ، المحامي حفيظ ، الدكتور فريد،والاقتصاديون : شكرالله =

وأصدقاءهم ، وحلفاءهم ، وآخر يعتلي قمة نهر الكلب ، حيث دير يسوع الملك ، صاحب الذراعين المبسوطتين دائما ، الساهر على سلامة « أدونيس » والمقيمين في حرمه ، والذين يعبرون الجسر ، يوميا ، ذهابا وايابا . فالاثنان : صليب جل الديب وصليب أدونيس ، يؤكدان مع الاب يعقوب الكبوشي : أن « لا سماء الا بالصليب » (٣) ، و « من اراد السماء بدون وجل ، كمن يمد يده ليأخذ بضاعة بدون دفع » (٤) .

وهل يمكنك ، اذا ما عرفت ان الذي وراء صليبي جل الديب وأدونيس هو الاب يعقوب ، الا ان تنحني اجلالا واكبارا لهذا الرجل ، الذي لبس الخشن ، وسلك الطرقات الوعرة بصندل بسيط رخيص ؟!

= وزرد ووليم (صاحب المبرات) وادوار وداود ،والمحامي سامي أمين عام تجمع الصناعيين في كسروان ، ادوار ، رئيس البلدية ، والصحافي ميشال ، أحد رئيسي تحرير « النهار » ، والمربي بديع ، صاحب مدرسة « الجودة » ، المتعهد حفيظ .. ومن آل ابو جودة من غير جل الديب : جان ، رئيس ومدير عام البنك اللبناني للتجارة ، البير ، صاحب ثانوية « غراند سيتي » وشقيقه حنا صاحب ثانوية « مار يوحنا » في الحدث ، ووليد نسيب ، مدير البنك اللبناني للتجارة ، فرع الحازمية .

(٣) صوت نبي من لبنان ، اعداد الاب سليم رزق الله الكبوشي ، حزيران ١٩٧٥ ، ص ٣٥ .

(٤) المصدر نفسه .

تعال اذاً لنتعرف اليه كاهنا ومؤسسا ومحسنا .

خليل الراهب

« لبس خليل الثوب الرهباني في ٢٦ آذار سنة ١٨٩٤ وأبرز نذوره الاولى في ١٤ نيسان من سنة ١٨٩٥ . ثم ارتبط بالنذور الاحتفالية في ٢٤ نيسان سنة ١٨٩٨ ، وفي الاول من تشرين الثاني سنة ١٩٠١ سيم كاهنا في مدينة بيروت » [٥] ، بل « في كنيسة القصادة الرسولية ، هو وثلاثة من رفاقه ، وذلك بوضع يد المنسنيور دوفال الدومينيكاني » [٦] .

أحب خليل اسم « يعقوب » [٧] ... وأعجب به ،

---

(٥) المجمع المقدس لدعاوى القديسين ، قرار ملف بيروت. او « ابونا يعقوب » المصدر المذكور سابقا . الفصل الثالث: « انا بين ايديكم » من ص ٢١ الى ص ٣٢ والفصل الرابع : « الرهبنة قداس » من ص ٣٣ الى ص ٣٧ .

(٦) ابونا يعقوب ، المصدر نفسه ص ٣٤ .

(٧) يعقوب الاول هو ابن اسحق وأخو عيسو . رزق اثني عشر ولدا اشهرهم يوسف الحسن . باسمهم سميت اسباط بني اسرائيل الاثنا عشر . ذكره القرآن بين الانبياء.
ويحمل اسم يعقوب من المشاهير :
ـ يعقوب الأصغر : هو ابن حلفي .أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر ، واول اسقف في اورشليم . مات شهيدا سنة ٦٢ . له «رسالة» اعتبرت من أسفار العهد الجديد . =

فاتخذه بديلا من « خليل » . وتأثر بالقديس فرنسيس

=

ـ يعقوب الكبير : ترجم له يعقوب الثالث قائلا : هو
ابن زبدي وسالومي من سبط زبولون . نشأ مع اخيه يوحنا
عند ساحل بحر الجليل . ويمكن ان يكون يعقوب ، هذا
تلميذا ليوحنا المعمدان ، كما كان اخوه وشريكاهما سمعان
واندراوس . غير اننا نسمع عنه لاول وهلة في ربيع اوصيف
سنة ٢٧ يغسل الشباك في بحر الجليل مع ابيه واخيه ،
فدعاه يسوع مع اخيه للتتلمذ له بعد ان دعا شريكيهما ،
فتركا كل شيء وتبعاه . كان يعقوب اكبر من يوحنا سنا ،
والثاني بين الرسل . ولما منح يسوع الاثني عشر رتبة
الرسولية : جعل ليعقوب ويوحنا اسم (بوانرجس) وهو
مركب من لفظتين سريانتين معناهما (بنو الرعد) ، مشيرا
بذلك الى طبعهما الناري وغيرتهما الوقادة وروحيهما
الملتهبتين اتقد عليه غضب اليهود فشكوه الى هيرودس
اغريفا (اغريبا) الاول ابن اريسطوبوليس الذي قطع رأسه
بالسيف ارضاء لهم سنة ٤٤ قبل عيد الفصح بمدة وجيزة.
وهو الرسول الوحيد الذي نستطيع ان نسجل نوع موته
بالضبط . وبعد مدة نقل رفاته الى اسبانيا حيث دفن في
(كومبوستيلا) باكرام جزيل (تاريخ الكنيسة السريانية
الانطاكية ج ١ ص ٥٩/٦٠) .
ـ يعقوب اسقف نصيبين : ترجم له يعقوب الثالث
قائلا : ولد في مدينة نصيبين من اسرة سريانية . وتحلى
بالفضائل ، منذ نعومة اظفاره ، ثم رغب عن الدنيا وارتاض
بأعمال النسك ، فذاع صيت فضائله في كل الاقطار ولا
سيما كثرة عجائبه. وكان يقتات بجذور النباتات وأوراقها ،
ويلبس رداء خشنا من جلد المعزي . ولما انتشرت لفحات
فضله رسم اسقفا لنصيبين فلم يغير وشاحه او شيئا من
خشونة عيشه . تبحر في علم الكتاب العزيز وانشأ مدرسة
في نصيبين للعلوم الدينية والآداب السريانية . وهدى
كثيرين من الوثنيين الى حظيرة الكنيسة ، واعتنى بأهل =

الاسيزي (١١٨٢ – ١٢٢٦ م) مؤسس رهبانية الفرنسيسكان ، حيث قال فيه :

= الفاقةوالبؤس .وفي سنة ٣٣٦ حضر تكريس بيعة القيامة في اورشليم . وفي سنة ٣٣٨ لما حاصر سابور الثاني ملك الفرس نصيبين للمرة الاولى ، انقلب بعسكره خازئا بدعاء هذا القديس وتلميذه مار افرام . وفيها توفي فرتبت له الكنيسة عيدا في ١٨ ايار . (الكنيسة السريانية ج ١ ص ١٩٤) .

– يعقوب السروجي : انظر ترجمته في « بيان الزيارة » من الفصل الاول ، ص ٣٥

– يعقوب البرادعي : ترجم له البطريرك افرام الاول برصوم قائلا : من اشهر الاحبار ورعا وطهرا واكبر المجاهدين الرسوليين في نصرة المعتقد القويم ، ونخبة النساك الصوامين القوامين ذوي الصلاح والدين المتين . ولد في مدينة « تل موزل » واسم ابيه القس ثئوفيلس بن ملنو . وترهب في ميعة صباه في دير منسيلتا المجاور لوطنه ، وحذق السريانية واليونانية وتعمق في الكتب المقدسة والعلم اللاهوتي ، وامعن في اعمال النسك وتحلى بأجمل الفضائل . وفي سنة ٥٢٨ رحل الى القسطنطينية وسار فيها سيرته . وفيها رسم بطلب الحارث بن جبلة الغساني ملك العرب وامر القيصرة ثاودورة (تيودورا) ، مطرانا للرها وبلاد الشام وآسيا بوضع يد ثاودوسيوس بطريرك الاسكندرية عام ٥٤٣ وقيل ٥٤٤ فرحل الى الاسكندرية ورسم اسقفين بمعاونة بعض اساقفتها. وطفق يطوف متنكرا بلاد الشام وارمينية وقبادوقية وقيليقية ، وايسورية وبمنيلية ولوقانيا ولوقيا ومزوجية وقارية وآسيا الصغرى وجزائر قبرس ورودس وخيورمدللي ، وما بين النهرين وفارس والاسكندرية مرشدا الارتدكسيين ومشجعا اياهم ورسم لهم بتفويض البطريرك سبعةوعشرين =

« في سنة ١٢٢١ بينما كان القديس فرنسيس يبشر ، بوحي الهي ، بالانجيل الطاهر في جوار بلدة « اسيز » ،

= أسقفا وشمامسةوقسوسا بلغعددهم بضعةآلاف، وكثيرا ما قفل الى ديره . واقام على هذه الحال خمسا وثلاثين سنة لا يعرف كللا . وابلى في بيعة الله بلاء حسنا وكان بطولته وجهاده خير عضد لها في زمن الشدة حتى نقله الله اليه في دير رومانس اوقسيون بمصر في ٣٠ تموز ٥٧٨ وعيّدت له البيعة .

انشأ ليثورجية اولها : « اللهم يا ابا السلام الكلي القداسة » ١٥ صفحة ، واربع رسائل نشرت في الاسناد ، وثلاثا الى يوحنا الافسسي وغيره ، ورسائل عامة الى الاساقفة والكهنة ذكرت في سيرته المطولة . (اللؤلؤ المنثور ، ص ٢٦٠) .

– ديونيسيوس يعقوب بن الصليبي ، ترجم له افرام الاول برصوم قائلا : من افراد الزمان وحسنات ملطية واعيان احبار السريان الاوضحين سبيلا والانجحين سعيا، واحد المدافعين عن النصرانية وصدور المتنصرين للارتدكسية آية اقرانه ادبا ومعرفة وفضلا وسعة تأليف . كان في ايامه جماعة من العلماء ولم يكن العلم في قلب احد منهم احلى منه في قلبه ، فخاطره اوقد وروضه انضر وسراجه ازهر ونجمه ألمع ، وهو لا غرو عين وقته وصدر زمانه وشيخ عصره . ولد يعقوب في مدينة ملطية ، وعن اساتذتها اخذ صنوف العلم من لغة وادب وتفسير وتاريخ وفقه وفلسفة ولاهوت ، محرزا منها حظا وفيا ... عد من اقطاب اللاهوتيين وفي العشر الاخير من تشرين الثاني عام ١١٧١ سار الى جوار ربه فأودع جثمانه بيعة آمد الكبرى وخلفه كاتبه . له تفسير اسفار العهد الوسط ، وتفسير اسفار العهد الجديد . (اللؤلؤ المنثور ، نفسه من ص ٣٨٢ الى ص ٣٩١) .
=

حيث أسس الرهبانيتين الاولى للرجال والثانية للبنات ، كان لكلامه تأثير عظيم في النفوس ، وكانت غيرته تدفع قلوب سامعيه الى بغض الخطيئة وممارسة العيشة الثابتة، حتى ان اكثرهم عزموا على ترك مقتنياتهم للانضواء ، كل حياتهم ، تحت لوائه لكي يستنيروا بارشاداته ، ويتلقنوا عنه المشورات الصالحة ، ويقتدوا بأمثاله العجيبة » .

وقال أيضا :

« وكان في قصد الرجال ، أن يدخلوا في أديرة الرهبانية الاولى ، والنساء في أديرة الرهبانية الثانية ،

= يعقوب المقطّع : جندي قديس . فارسي الاصل . استشهد في عهد بهرام الخامس (٤٢٠ ـ ٤٢٨) .
وحمل اسم يعقوب أيضا قادة مسلمون هم : يعقوب بن داود (كاتب ووزير عباسي) (توفي سنة ١٨٧ هـ/٨٠٣م) ، ويعقوب بن عبد الحق (أبو يوسف المريني ـ المنصور) (١٢١٠ ـ ١٢٨٦) ، سلطان مرين (١٢٥٨ ـ ١٢٨٦) . حكم في فاس (المغرب) ، قضى على الموحدين . ويعقوب ابن كلّس (٩٣٠ ـ ٩٩١) وزير فاطمي من الكتّاب الحسّاب . ويعقوب بن يوسف (المنصور) (١١٦٠ ـ ١١٩٩) ، سلطان الموحدين . مد نفوذه على شمالي افريقيا واسبانيا . انتصر على المرابطين . و « يعقوب ابن الملك العادل ويلقب بالملك المعز ، كان فاضلا ، وتوفي سنة ٦٥٤ هـ » (كما جاء في « منادمة الاطلال » تأليف العلامة عبد القادر بدران ، اشراف زهير الشاويش ، المكتب الاسلامي، الطبعة الثانية (١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م) ص ٣٤٣).

بيد ان رجل الله شعر بنور باطني حمله على رفض طلبهم الذي كانت تتوق اليه نفوسهم . غير انه تبناهم كأولاده الروحيين ، ووعدهم بأن ينشىء لهم خطة جديدة مناسبة لشأن كلٍ منهم وحاله بحيث انهم يشبهون الرهبان ، ويشتركون باستحقاقات التي يربحها هو واخوته في ممارسة الحياة النسكية ، وان لم يدخلوا الاديرة » [٨] .

وكبر اعجاب الاب يعقوب بالقديس فرنسيس فقال مرة :

« لو سألتم ما أعظم الشركات الدينية الموجودة في الكنيسة ؟ الجواب واضح : الرهبانية الثالثة . ومن هو أعظم الآباء القديسين الذين غرسوا في بستان الكنيسة أكبر جمعياتها ، فأصبحت فرحها وفخرها ؟ الجواب : مار فرنسيس [٩] .

على أن الراهب الثالثي ، كما عرّفه الاب يعقوب، هو « جندي ، سلاحه الصليب لمحاربة العالم ، لا بالهرب الى الاديرة ، بل في الميدان » [١٠] او كما يقول : « يمكنني

---

(٨) ابونا يعقوب المصدر نفسه ص ٧٧/٧٨ نقلا عن صديق العائلة ١٩١٣ .
(٩) المصدر نفسه .
(١٠) المصدر نفسه .

أن أعيش كراهب بـدون أن أترك العالم . الثـالثي في العالم كالنفس في الجسد ، ليمنعه من الفساد » (١١) .

فمن كانت هذه مفاهيمه وآراؤه،لا بد أن يتجه نحو الرهبان الكبوشيين وديرهم في بيث خشباو (*) .

فالكبوشيون « فرع من رهبانية اسسها القـديس فرنسيس (١٢١٦) ، أدخلت على نفسها اصلاحا ذاتيا في السنة ١٥٢٥ ، وانتشرت في العالم، حاملة رسالة الانجيل، متبنية طريقة خاصة من القداسة قوامها الصلاة والتبشير بتجرد وفرح ، مفضلة الاقامة والعمل مع الطبقات الفقيرة والكادحة » (١٢) .

وكان قدومها الى الشرق (في) ١٦٢٥ ، اولا الـى بـيروت وصيدا ، ثم الى حلب ودمشق وبغـداد وتبريز والقاهرة ونيقوسيا وغيرها من المدن في لبنان وسوريا والعراق وبلاد فارس وتركيا ومصر والحبشة . كل ذلك ما بين ١٦٢٥ و ١٦٣٨ (١٣) .

و « في لبنان كانت مراكزهم : بيروت ١٦٢٥ ، صيدا

---

(١١) المصدر نفسه .
(*) انظر اسفل حاشية رقم (٤) من ص ٢٠١ (الدليل الى دير الكريم) .
(١٢) المصدر نفسه ص ٢١ .
(١٣) المصدر نفسه .

١٦٢٥ ، طرابلس ووادي قاديشا ١٦٢٨، عبيه ١٦٤٥ (١٤)، غزير ١٦٩٦ ، صاليما ١٧١٠ ، بعبدات ١٨٩٣ » (١٥) (*)

واشتهر من الكبوشيين كثيرون « أمثال الطوباويين اغاتنج وكاسيان (Bx Agathange de Vendôme et Bx Cassien de Nantes 1638) المرسَلين في شمالي لبنان

---

(١٤) هجره رهبانه اثر حرب الجبل ١٩٨٢/١٩٨٣ .
(١٥) المصدر نفسه .
(*) جاء في دراسة اعدتها النيابة الرسولية اللاتينية ــ ببيروت ، ما يلي :
« ان الرهبان الوحيدين الذين لم يتركوا الشرق ، بعد رحيل الصليبيين ، (في اواخر القرن الثالث عشر) ، كانوا ابناء مار فرنسيس الذين تولوا رسميا ، منذ سنة ١٣٠٧ ، حراسة الاماكن المقدسة في فلسطـين والاهتمـام بشؤون الحجاج زائري المهد المقدس وقبر المسيح . اما قدومهم الى لبنان فقد كان سنة ١٣٦٦ ، عندما تمركزوا في حريصا في دير مار انطونيوس . وكانت لهم غاية مزدوجة هي ، من جهة ، الاهتمام بالتجار الاوروبيين المقيمـين في المرافىء اللبنانية ، ومن جهة ثانية ، العمل مع الموارنة فـي قرى الجبل . (لان الكنيسة المارونية كانت آنـذاك الطـائفة الوحيدة المتحدة مع روما) واسسوا ، فيما بعد ، مراكز لهم في اهدن وصيدا وصور وحلب ودمشق وغيرها » .
« المناره » نفسها المذكورة سابقا ، ص ١٨٩ ، وانظر ايضا « النهار » ٩/١٢/١٩٨٥ ص ١١ ، وفيها نبذة عـن رسالة النيابة الرسولية اللاتينية وكنيستها عندنا ، وذلك بمناسبة احتفالها يوم الاحد ٨/١٢/١٩٨٥ ، بربـع قرن لتأسيس رعية سيدة الملائكة في بدارو .

استشهدا في الحبشة ، الاب توما ، ذبحه اليهود في دمشق ، وخلطوا دمه بعجين الفصح (١٨٤٠) ، والاب شارل ، قتل وامرق في عبيه ١٨٤٥ ... وغيرهم من الشهداء الذين سينضم الى جمهورهم الابوان ليونار وتوما ، وكلاهما من بعبدات ، وقد استشهدا ، منفيين في بر الاناضول خلال الحرب العالمية الكبرى » [١٦] .

وظل الاب يعقوب يحفظ اطيب الذكريات عن دير بيت خشباو ، المجاور لغزير ، وأنجح الانظمة الرهبانية التي شهدها ، في هذا الدير ، وطبقها على نفسه ، حتى انه قال ، بعد أكثر من خمسين سنة مرت على انتمائه الى الآباء الكبوشيين في عظة مسجلة بالعامية : « احسن شيء ، هو ان تعطي الرئيس المثل الصالح ، يعني أن تكون موجودا قبل الكل . أعرف أنا ، عندما دخلت الرهبنة الكبوشية في بيت خشباو ، كان عندنا رئيس عاجز ، « ختيار » كان يعجبني أكثر من الكل . نصف الليل ، لما نقوم للصلاة ونذهب الى الكنيسة ، نراه وصل قبل الكل بالرغم من كبر سنه وسوء صحته ، كان هذا أكبر مثل للرهبان حتى يتشجعوا للقيام بواجباتهم نحو

(١٦) المصدر نفسه .

الله من جهة الصلاة . بهذا المثل أنا متأكد ان كل شيء يمشي ، والباري تعالى يعطينا القوة اللازمة حتى نصل الى المكان » [١٧] .

اذاً ، على خطى القديس فرنسيس ورهبانه مشى الراهب اللبناني يعقوب (الحداد) وراح يتصدى للازمات الاجتماعية والانسانية التي كان يعانيها اللبنانيون ، فجاب القرى والمدن اللبنانية ، يبلسم الجراح ، ويهوّن على المعذّبين ، ويسد جوع عائلات فقيرة ، ويبشر ، ويلقي الرياضات الروحية ، ويتعهد الراهبات ، وينشر اخويات رهبنة القديس فرنسيس الثالثة ، وينشيء المدارس الابتدائية لتأمين التنشئة الانسانية المسيحية للشبيبة .

على درب الصليب ، التقى الاب يعقوب المشردين والبائسين والمتعبين والجياع ، فحزن لاحزانهم ، وتألم لاوجاعهم ، من دون أن ينثني عن مهماته الانسانية التي تطوع لتحقيقها ، مهما عاندته الايام والظروف ، بل استمر يدعو الى الصبر ويقول : « الصبر هو فضيلة تنفي من النفس الغم الذي تسببه المصيبة الحاضرة » [١٨] « ولا يعطي البخور رائحة عطرة الا بوضعه على النار . نمزج

(١٧) المصدر نفسه .
(١٨) صوت نبي من لبنان ص ١٥٣ .

المر بالسكر لنشربه بقبول . هكذا التفكر في الجزاء الابدي يشجعنا ، كما ان الربح يشجع العامل على احتمال اتعابه ، انك ترفض حمل صليب ثقيل لو كان من خشب ، غير انك تحمله او تجره الى بيتك لو كان من ذهب » [19] .

ماذا يحمل يعقوب الكبوشي غير آلام الناس وهمومهم ؟

هذا الكاهن هزأ بالدنيا وذهبها وحديدها وخشبها ، اذ « لا توجد ههنا (على الارض) سعادة كاملة » [20] .

وأنى للارض ان تعطي السعادة ما دامت خيراتها مثل « كرة من ماء الصابون ملونة ، سريعة الزوال » أو هي « ثمرة اصطناعية ، لونها جميل لكنها خالية من كل لذة ... » [21] .

خيرات الارض ، مهما يكن نوعها ، « يجب ان نستعملها كسلم للبلوغ الى السعادة » [22] ؟!

وأي شيء يبقى سوى المحبة ، التي على اسمها

---

(١٩) المصدر نفسه .
(٢٠) المصدر نفسه . ص ١٤٥ .
(٢١) المصدر نفسه .
(٢٢) المصدر نفسه .

وبقوتها ، أسس الاب يعقوب ، في سنة ١٩٢١ ، مشروعا رسوليا سماه « الصليب » كي يبرهن أن السعادة ليست على الارض ... بل هي في الاخوّة والاخلاص لبني البشر .

راهبات الصّليب

في سنة ١٩٣٠ بدأ مشروع « الصليب » أعماله ، اذ ولدت جمعية « راهبات الصليب اللبنانيات » ، التي تُعتبر حقا ، من أبرز المؤسسات الرهبانية العاملة على الارض اللبنانية .

رسم الاب يعقوب لهذه المؤسسة الطريق القويم ، طريق المسيح ، مؤكدا على عظمة الفقر وأهميته اذ قال: « ما من رهبانية حادت وجنحت عن الفقر الا تضعضعت أحوالها وتولاها الضعف والعجز وانهار برجها أو أشرف على الانهيار »[٢٣] .

فالراهب ينبغي له أن يكون فقيرا . ومن كان غير ذلك من الرهبان فقدَ همّته ونشاطه وحبه للاحسان ، أو كما يقول الاب يعقوب :

---

(٢٣) المصدر نفسه ص ٨٨ .

« انتبهوا يا رؤساء . إنْ صرنا أغنياء مِلْنا الى حب التنزّه والسفر والاصطياف ، والشراء . أكّدْنَ يا راهبات أن بيتنا يسقط بالفناء في حب الزيادة . أنا لا أريد سوى اللازم لا غير وهذا عضد الرهبانية وثباتها »[٢٤] .

على أن نَذْر الفقر هو التزام الفقر ... ونذر العفة التزام العفة ونذر الطاعة التزام الطاعة . ولكن هذه الالتزامات لا يحققها سوى أصحاب الارادات القوية والعز والانَفة .

« ان الراهب هو أفقر من الفقير ، لان الفقير يمكنه أن يصير غنيا أما الراهب فلا . الفقير يمكنه أن يعمل أعمال تملّك أما الراهب فلا »[٢٥] .

اثنان لا يلتقيان : الراهب والغنى . المسافة بينهما لامحدودة . كلاهما عدو للآخر . « الغِنى أصل كل شر »[٢٦] . و « ما دامت الرهبنة فقيرة ، تجد فيها حب الشغل . ومن اشتغل انتصر على التجارب . لكن مع الغنى ورخاء العيش يأتي الشر »[٢٧] .

---

(٢٤) المصدر نفسه .
(٢٥) المصدر نفسه .
(٢٦) المصدر نفسه .
(٢٧) المصدر نفسه .

تلك هي المبادىء والأسس التي عيّنها الاب يعقوب لراهباته وحدّدها لهن . فليس غريبا أن تنهض المشاريع الخيرية هنا وهناك وفي كل مكان . فمن « معبد سيدة البحر » الى « مدرسة مار فرنسيس » الى «دير الصليب» الى « دار يسوع الملك » ... وإلى مدارس ومعاهد في الاقاليم والمدن ، وراهبات الصليب في تطور مستمر ، وحركة دائمة ، لا تعرف الملل ولا السأم .

قد يسأل أحدنا : أي دافع عظيم يقف وراء هذا التقدم ؟ الجواب عن هذا السؤال نأخذه من الاب يعقوب نفسه ، حيث صرّح في أواخر حياته قائلا :

« كنت أتمنى لو تمكّنتُ من تكريس لبنان كله للصليب ، وكلما شاهدتُ قمّة كنت أريد أن أركّز هناك صليبا . الصليب دليلي وشعلة حياتي »[٢٨] .

ليس معنى هذا أن يكون لبنان وطنا مسيحيا بالمفهوم السوسيولوجي . بل هو يرمي الى جعل الاتصال بين اللبنانيين ، بعضهم مع بعض ، عبر الصليب ، الذي هو « فرح لا كآبة » [٢٩] و « تعزية لا ضجر » [٣٠] .

---

(٢٨) ابونا يعقوب ص ٢٢١ .
(٢٩) المصدر نفسه .
(٣٠) المصدر نفسه .

كيف جاءته الفكرة ؟

يروي الاب سليم رزق الله الكبوشي فيقول :

« دُعي الاب يعقوب الى أحد مستشفيات بيروت لسماع اعتراف شيخ مريض كان بالماضي راهبا وكاهنا ، وترك ديره . ثم عاد ، في آخر أيامه ، يتندّم ويأسف .وهل من وسيط أفضل من الراهب الكبوشي لمصالحته مع ربه ، فحضر الاب يعقوب والتبس عليه الامر ، فاتجه ، خطأ ،نحو شيخ درزي ينام في سرير مقابل سرير الكاهن . فقال له الشيخ : الذي طلبك هو جاري . فتأثر جدا من درجة الاهمال التي وصل اليها أخوه في الكهنوت : لا من يزوره ، لا من يساعده على واجباته الدينية ، لا من يأتيه بالقربان » .

أضاف :

«شجعه الاب يعقوب ووعده بأن يهتم بأمره،ويلاقي له حلاً سريعا ومناسبا . أين ؟ وكيف ؟ وفجأة ، انحلّت المشكلة . لماذا لا يأخذه الى سيدة البحر ؟ لماذا لا يأخذ معه كهنة عجزة مثله يلقون ، على أيدي الراهبات،المساعدة في شيخوختهم ، والخدمة اللائقة بكهنوتهم ؟ » .

اذ ذاك « اعتبر الاب يعقوب تلك الصدفة تدبيرا من

العناية الربانية وهديّة له من أبيه مار فرنسيس بمناسبة اليوبيل المئوي السابع لوفاته » و « عرض فكرته على الراهبات فوافقن للحال » .

و « انتظر (الاب يعقوب) عيد مار فرنسيس في الرابع من تشرين الاول ، وذهب الى المستشفى فحمل بين ذراعيه الكاهن العاجز ووضعه في عربة وأتى به الى جل الديب ، ودخل الكنيسة مع الراهبات ، ورتل الجميع نشيد التسبحة الكبرى : « اياك اللهم نمدح » . وكان ذلك اليوم يوما تاريخيا في حياته ، وفاتحة مشاريعه الخيرية »[31] .

هذا هو السر العظيم الذي تقبض عليه راهبة الصليب بأمانة وطهارة : خدمة العجزة .. ومساعدة المحتاجين .. « والسهر على كل شيء »[32] .

ويا ليتنا استطعنا أن نكرس لبنان كله للصليب ..

(٣١) المصدر نفسه ص ١١٨/١١٩ .
(٣٢) صوت نبي .. ص ٧١ .

الأب يعقوب والمجتمع

عاش يعقوب (الحداد) الكبوشي في قلب المجتمع ، يصارع من أجل الافضل والاحسن والاكمل .

عرف الصحافة ، فقدرها حق قدرها، ونظرا لأهميتها أرادها صحافة واعية جريئة ومخلصة وصادقة ونزيهة . ولطالما نبّه هذا الصحافي أو ذاك قائلا له :

« ان نشر الكتابة الجيدة هو أهم وأنفع عمل في الايام الحاضرة . على المؤمنين أن يقاوموا بكتاباتهم الحسنة الكتابات الفاسدة . لأن المطبوعات الرديئة هي أشرس سلاح ، تهدم كل بنيان أدبي واجتماعي وديني. ان الكتابات الرديئة تزيغ العقل »[33] .

وقال :

« احذروا من الانبياء الكذبة الذين يلبسون لباس الكتاب ، أي الورق ، ورق الجرائد . ان الانبياء الكذبة لا يتكلمون معكم رأسا بل يكاتبونكم »[34] .

(٣٣) المصدر نفسه ص ١٧٥ .
(٣٤) المصدر نفسه .

ولكي يفهم الاب يعقوب الصحافة ودورها ، لا بد له أن يفهم الوطن وعظمته وحقوقه . فللوطن ، عنده ، مكانة جليلة مقدسة،فهو « أرض جدودنا والهواءالذي استنشقوه، (و) السماء التي تأملوها ، (و) الافكار التي افتكروها ، (و) المذهب الذي اعتقدوه وتمسكوا به ودافعوا عنه وربما لاجله ماتوا » [٣٥] .

لذلك نحب وطننا وندافع عنه ونصونه ونحميه ،و« ما كل من قال الوطن الوطن صار وطنيا بل من يعمل لرفع الوطن واعلاء شأنه » [٣٦] .

أين نحن من وطننا اذاً ؟

هل عملنا له أم دمّرناه وأسقطناه من عليائه ؟

ماذا نقول لهذا الكاهن لو عاد يسألنا عن لبنان .. والصليب ..؟

لم يترك الاب يعقوب الكبوشي أيا من الامور الانسانية الا واهتم به .. أو نظر اليه . فبأسلوب بسيط جدا وواضح جدا ، دلّنا على واجباتنا نحو السلطة ، كما بيّن ما لنا على السلطة من حقوق . فلكي نحترم الملك

---

(٣٥) المصدر نفسه ص ١٧٨ .
(٣٦) المصدر نفسه .

والرئيس والقائد والحاكم والوزير وأي مسؤول ، يجب أن يكونوا أهلا للاحترام وأهلا للثقة .

« هل تُعطى قيادة المركب لمن لم يركب البحر في حياته » [٣٧] ؟ و « ما المنفعة من شمعدان كبير لا يعطي نورا ؟ » [٣٨] .

والحقيقة هي « أن من دُعي الى رتبة هو كفؤ لها لا يجب أن يتكبر بل أن ينظر الى مسؤوليته » [٣٩] وإلا تمرّد عليه الناس .. وخرجوا شاهرين السيوف . وعندئذ تقع الكوارث وتحل النكبات وتتساقط الروائع والقيم ، التي أنجزناها .

وبالأسلوب عينه قال الاب يعقوب رأيه في المرأة ، كما أرشد الامهات « والرجال » والابناء ... الى حياة « يرضى عنها الله والعدل » ، ودعا الى التضحيةوالتفاهم والوداد والتعاون والمسامحة .

خاطب الام فقال لها : « لا يكون خلاصك وحدك ولا هلاكك وحدك . فاحفظي المتوجب عليك : نحو الله ـ نحو رجلك ـ نحو أولادك » [٤٠] .

---

(٣٧) المصدر نفسه .
(٣٨) المصدر نفسه .
(٣٩) المصدر نفسه .
(٤٠) المصدر نفسه ص ١٧٢/١٧١ .

والتفتَ الى الآبـاء فقـال لهم : « إن لم تعلّموا أولادكم تضرون بالله اذ منحكم اياهم ليكونوا قديسين • ان لم تعلّموا أولادكم تضرون بأولادكم اذ تهلكون نفوسهم وتفقدونهم الخير السامي • ان لم تعلّموا أولادكم تضرون بهم اذ لا راحة لكم على الارض »[٤١] •

وإلى البنت فقال لها : « البنتُ كالنهر ، ماؤه نقي عند منبعه ومتى جرى في المدينة توسّخ »[٤٢] •

على أن العفّة هي مثل الزنبقة ، التي تصونها ست أوراق •• اذ يصون العفة ستة أعمال :

١ ــ صيانة النظر والسمع •

٢ ــ تقديس عمل الشم والذوق واللمس •

٣ ــ صيانة الكلام والحركات واللبس •

٤ ــ الانتباه الى الصداقة حتى تكون مقدسة •

٥ ــ اجتناب الكبرياء السرية والكسل •

٦ ــ السهر على القلب[٤٣] •

ما أكثر نصائح الاب يعقوب ووصاياه • فلقد تكلم

---

(٤١) المصدر نفسه ص ١٦٨ •
(٤٢) المصدر نفسه ص ١٦٦ •
(٤٣) المصدر نفسه ص ٧٨ •

عن الله والايمان والمسيح الملك وقلب يسوع والقربـان والمناولة والصليب والروح القدس والقديسين والكنيسة والكاهن والعذراء • وعيَّن الكمال والطهارة والوداعة • ووصف الصداقة وعرفان الجميل والمحبة والعمل والخطيئة وعمى القلب وخلاص النفس والتوبة والمـوت والـوقت والرياضة والضمير والغيرة والاصلاح الاخـوي والمسامحة والصلاة • وألقى أضواء على الاحزان والتجارب والصبر والبخل والحسد والغضب والكبرياء والتواضع والتربية• ولا نكون قد بالغنا اذا ما قلنا انه برع في هذه الموضوعات جميعها ، وشخَّصها ووضع لها العلاج الشافي ، والحـل الذي لا غنى لنا عنه • ويكفيه انه قال :

« لا يكفي للسماء ان يكون مسيحنا مات على الصليب لاجلنا بل أن نحمل صليبنا • لا يكفي كوني مسيحيا بل أن أعمل وأنا في حال النعمة أعمالا صالحة »[٤٤] •

وقال :

« عار علينا ان استرحنا بينما أهل العالم يتعبون»[٤٥] •

فالواقع أن حياة هذا النبي اللبناني لم تعرف الفراغ او القعود أو الكسل • وبرغم الامراض التي حلت به،وهو

---

(٤٤) المصدر نفسه ص ١٠٣ •
(٤٥) المصدر نفسه •

شيخ ، بقي الاب يعقوب يعمل ويجاهد ، ويبحث عن المحتاجين ليقدم لهم المساعدات المادية والمعنوية ، ويزور المرضى والعجزة ، ويحتضن المتخلفين عقليا ، وكل ذلك من دون أن يسأل عن معتقد هذا أو ذاك ، اذ الانسان ، عنده ، هو ابن الله فحسب . وما شأن المذاهب والاديان والاحزاب ما دام الضمير « هو محكمة في رأس الانسان »[٤٦] !

فأي ضمير كان هذا الكاهن الذي أسعد الأشقياء وعاونهم على أمورهم !

بل أي عقل هذا الذي بنى « جمهورية البؤساء » ضمن جمهورية تهب العواصف عليها من كل صوب .

لعله كان يقرأ أيامنا هذه من قبل أن يولد اذ قال :

« ان المسيحيين المجتمعين معا للصلاة ، يشبهون عسكرا قويا يدفع الله الى الاستجابة (حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون بينهم) . ان الحطب المجموع يحترق بقوة ، حتى ولو أضافوا حطبا أخضر .

« الله يُسرّ بصوت نفس واحدة فكم بالحري بأنفس

---

(٤٦) المصدر نفسه ص ١٢٦ .

متفقة ومتكاثرة »[٤٧] .

أين هم المتفقون ؟

ما حال الذين يتكاثرون ؟

لماذا ذوو المال عن وطنهم وواجباتهم لاهون ؟

كلما استرق مني النظر صليب ، أرى الاب يعقوب الكبوشي يرتفع وينبسط ضياؤه ليقول : « نرفع الحجارة الاشواك من الارض قبل زرع الكرم . هكذا نفسنا يجب أن نقلع منها العوائد الرديئة بالتوبة والامانة »[٤٨] . وأتصوره يعبث بشعري ليعيد إليّ الامل الذي اختطفته مني الاحداث .

فهلا التفت اللبنانيون ، بعد هذه النكبات ، الى يوم تطويبه[٤٩] ، وتعلموا منه كيف ترفع الحجارة والاشواك من أرض الوطن ؟!

---

(٤٧) المصدر نفسه ص ١٤٧ .
(٤٨) المصدر نفسه ص ١٢ .
(٤٩) في اليوم الرابع والعشرين من حزيران ١٩٧٩ اعلن قداسة البابا يوحنا بولس الثاني قائلا : « يجب ادخال دعوى تطويب خادم الله الكاهن الراهب (يعقوب) الكبوشي مؤسس راهبات الصليب اللبنانيات » .

الفصل التاسع

دمعةُ حُزنٍ وبطاقةُ رحْمة

المطران كيريوس نقولاوس نعمان

متروبوليت بصرى وحوران وجبل الدروز

«أبا المحرُوم، ثِقْ في الخُلد أنّا
هنا باقون نمحضك الولاءَ
سنرعى العَهدَ عهدكَ ما حَيينا
ونفتقِدُ الشهامةَ والإباءَ»

مترى نعمان

على مرمى حجر من المكتبة البولسية ، في جونية ، تصافحنا وتعانقنا . بين البلدية ، قلب المدينة الذي ما أربكه الجهد وشدة الحال ، وبين السوق القديمة التي نفضت « شبابها » وتبرجت للتجار الهاربين من العاصمة، بيروت ، فهبطت عليها « السعادة » من كل صوب ، كانت موقفتنا .

وجهه هو الى البحر ، ووجهي أنا الى الجبل . وترى عربات « التليفريك » ، في الفضاء ، مثل « الفراريج » على السّفود .

سألته عن صحته وعن أولاده « الدكاترة » [1] ، فرد بصوت متقطع وحزين :

---

(١) هم :
ـ عبدالله : ولد في بيروت في ٢٧ كانون الاول ١٩٤٧ واتم تحصيله في الجامعة اللبنانية وجامعة نانسي الفرنسية. يحمل اجازة في الادب المعاصر (١٩٧٠) وكفاءة في الالسنية (١٩٧١) ودكتوراه في الادب الفرنسي (١٩٧٥) . درّس الادب والحضارة العربية في جامعة نانسي (١٩٦٩ ـ ١٩٧٢) والادب الفرنسي في لبنان (١٩٧٢-١٩٧٤) . يعمل منذ =

ــ الجميع مشتاقون اليك • وأنت ما هي أخبارك ؟

= ١٩٦٦ في الترجمة والصحافة والنشر،وهو الملحق الثقافي لدى السفارة اللبنانية في باريس منذ ١٩٧٤ . له مؤلفات بالعربية وبالفرنسية وترجمات من الفرنسية اشهرها : الديمقراطية الفرنسية لـ فاليري جيسكار دستان ، منشورات عويدات والشركة التونسية للتوزيع ، بيروت ــ باريس ١٩٧٧ . ويسهم منذ عام ١٩٧٩ في انشاء «موسوعة لاروس الكبيرة» (في عشرة مجلدات، تصدر تباعا في باريس) .

ــ جهاد ، من مواليد حريصا لبنان عام ١٩٤٩ . يحمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من الدولة الفرنسية وكذلك دبلوم الدراسات العليا الاوروبية ودبلوم الكفاءة في الادب الفرنسي ودبلوم الدراسات الاجتماعية . كان استاذ اللغة وآدابها في جامعة نانسي ــ فرنسا (١٩٧٢ ــ ١٩٧٥) . وهو استاذ جامعي في لبنان منذ عام ١٩٧٥ . مؤسس « التجمع اللبناني للاصلاح » وعضو في غير جمعية ثقافية واجتماعية . له ترجمات من الفرنسية ، وكتب في العربية منها : المليشية (نقد اجتماعي) ، دار نعمان للثقافة ــ ١٩٧٩ و « ابن خلدون وعلم النفس » (بحث حول مفهومه للغرائز ومراقبتها) دار نعمان للثقافة ، ١٩٨٢ .

ــ نبيل : ولد في بيروت في ٢٨ حزيران ١٩٥١ واتم دراسته في جامعات نانسي وباريس . يحمل دكتوراه في الطب (١٩٧٦) وشهادات تبريز في ثلاثة اختصاصات : الطب الوقائي ، امراض القلب والشرايين . يعمل في اختصاصه الاخير منذ سنة ١٩٧٩ في فرنسة .

ــ ناجي : من مواليد حريصا (لبنان) عام ١٩٥٤ يحمل اجازة في التاريخ واجازة في الحقوق واجازة في العلوم التجارية ١٩٧٩ ودبلوم دراسات معمقة في التاريخ القديم ١٩٨٠ ، من جامعة نونت (Nantes) . له مؤلفات بالفرنسية والعربية وترجمات من الفرنسية .

ــ ما زلت أتنفس • أنا أيضا مشتاق اليكم • ما حال الاستاذ عبدالله في باريس ؟ ماذا عن « دار النعمان »[٢]؟

ــ عبدالله مليح • و « الدار » حسبما تعلم •

ففهمت من كلامه أن « دار النعمان » مثل الوردة التي لا تعيش الا في الربيع والصيف • وهي كغيرها من المؤسسات التي تتعاطى الطباعة والنشر ، علاؤها الكتّاب والقراء ، ومناخها الحرية والامن والانفتاح الحضاري على الامم والشعوب •

وعاد ليقول :

ــ ولكن جرحا عميقا محزنا أصابني هذا العام •

سألته :

ــ خير ؟ لماذا أنت مجروح ومحزون هكذا يا أستاذ متري ؟

وسحب الاستاذ متري من جيبه مغلفا فيه بطاقة عليها صورة المثلث الرحمة كيريوس نقولاوس نعمان :

---

(٢) دار نعمان للثقافة ــ ص.ب ٥٦٧ جونيه هاتف ٩٣٠٤٣٩ تأسست ١٩٧٩ .

متروبوليت بصرى وحوران وجبل الدروز [٣] . فـوق

---

(٣) ولد في دمشق سنة ١٩١١ . سيم كاهنا في ١٥ آب ١٩٣٧ بدمشق . في ١٥ آب ١٩٦٢ كان يوبيلـه الفضي ، وذلك بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على رسامتـه كاهنا . سيم اسقفا (مطرانا) على حوران وجبل الدروز في ٨ تشرين الاول ١٩٦٧ ، بوضع يد المطران ميشال عساف والمطران يوسف الطويل والمطران بطرس كامل المدور ، نيابة عن البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ الذي اقعده المرض في حينـه ، ووري المطران نعمـان الثرى في ٢٣ مـن آب ١٩٨٢ .

واذ نذكر البطريرك مكسيموس الصائـغ (١٨٧٨ – ١٩٧٨) ، وهو من حلب ، لا بد ان نتذكر وقفته فـي دار الضيافـة بدمشق ، سنـة ١٩٥٧ او كما جاء في كتـاب « الرهبانية الباسيلية الشويرية في تاريخ الكنيسة والبلاد » للارشمندريت اثناسيوس الحاج ، حيث يقول :

« في ١١ نيسان سنة ١٣٧٦ هـ (١١ نيسان ١٩٥٧ م) ، دعا فخامة رئيس الجمهورية السورية (شكري القوتلي) رؤساء الدين المسلمين والمسيحيين معا ، الى الافطار معه ، في دار الضيافة بدمشق ، وكان من الرؤساء المسيحيين في هذا الافطار ، غبطة البطريرك مكسيموس الرابع صائغ ، وثلاثة اساقفة وغيرهم من اساقفة ونواب بطريركيين ، مـن سائر الطوائف الارثوذكسية والكاثوليكية . في نهاية الافطار، بعد ان تكلم فضيلة الشيخ بهجة (محمد بهجة) البيطار ، واتى على ذكر ما جـاء في القرآن والحـديث عن توصيـة للمسلمين بالنصارى ، ودعوة ابناء الديانتين الى التعـاون على اعـداء الدين واعـداء الوطن ، قام عـلى الاثر غبطـة البطريرك واستأذن فخامة الرئيس وارتجل خطابا شكر فيه رئيس البلاد على دعوته الكريمة الى هذا اللقاء الاخـوي ، واضاف ما ملخصه : « من زمن بعيد احس بثقـل عـلى صدري،وأتوقع فرصة ملائمة لاريح ضميري . انها كلمة =

الصورة كتب: «ذكرى أربعين» . مما يعني أن البطاقة، هذه، يجب أن تكون قد صدرت في الثاني من تشرين الاول ١٩٨٢ .

ويتجاوز الاستاذ متري نعمان [٤] الصفحتين : الثانية

= صراحة،غايتها مصلحة الامة والوطن.نحن النصارى ابناء هذا الوطن ، ونبذل الذات في خدمته وافتدائه ، حتى ببذل الدم نفسه . ولكن فيما نحن على هذا الاستعداد الصادق، لا ننفك نسمع من حين الى اخر ، صوتا من هنا وصوتا من هناك ، ينعتنا بالكفر ويعزو الينا الشرك . فنحن المسيحيين لسنا كذلك ، بل نحن قد سبقناكم الى التوحيد الخـالص ونشرناه في العالم كله ، ومات في سبيل التوحيد ربوات من شهدائنا ، ويا حبذا لو يعلم المسلمون مفهوم عقيدتنا بتثليث الاقانيم في الذات الالهية الواحدة ، لما وجدوا سبيلا الـى اتهامنا بالشرك الذي نحن براء منه ... » .

ويقول الارشمندريت الحاج : « ان خطاب غبطته كان له احسن وقع وتأثير في نفوس الحاضرين ، فصفقوا له ، وصافحه رئيس الجمهورية شاكرا ، وأكد له الشيخ كفتارو شكر العلماء لغبطته واستعداد المسلمين لوضع يدهم بيـد النصارى في خدمة الله والوطن » .

(الرهبانية الباسيلية الشويريـة ، الجزء الثانـي ، ١٩٧٨ ، ص ٦٢٦) .

(٤) من مواليد ٢٦ تشرين الاول عام ١٩١٢ . انجز دراسته الابتدائية في المـدرسة البطريركية بدمشق ، والتكميليـة والثانوية في معهد « الصلاحية » – بيت المقدس (١٩٢٦ – ١٩٣٢) حيث اتقن ، الى جـانب العربية والفرنسيـة ، اليونانية واللاتينية ودرس الانكليزية على نفسه .

– انتقل الى الرسالة البولسية – حريصا ، حيث تابع تثقيف نفسه بنفسه،وكان منذ العام ١٩٣٣،احد القيمين =

والثالثة ، ليريني قصيدته ، التي هي على الوجه الاخر من

= على الشؤون الادارية في المؤسسة البولسية عامة والمطبعة البولسية خاصة .

ـ من منجزاته النثرية والشعرية :

١ ـ مؤلفات مطبوعة :

● التلاقي بعد الفراق : مسرحية شعرية من ثلاثة فصول (الفت في السن الرابعة عشرة وطبعت عام ١٩٣٠) .

● في سبيل النار : مسرحية شعرية من خمسة فصول، ١٩٣٨ .

● هينمات : ضمة شعر ١٩٥٢ .

● انقذوني من اهلي : نقد لغوي ١٩٧٩ .

٢ ـ ترجمات مطبوعة :

● شركة الكهرباء بدمشق ، ١٩٣٣ .

● قوانين الرهبانيات الباسيلية الملكية عن (اللاتينية) ١٩٣٣ .

● الامان : مسرحية نثرية من فصل واحد ، ١٩٤٠ (وطبعة ثانية ١٩٥٥) .

● الخوف من الدير : مسرحية نثرية (للبنين) من خمسة فصول ، ١٩٤٤ (وطبعة ثانية ١٩٥٥) .

● الفتاة الظليم : مسرحية نثرية من ثلاثة فصول ١٩٤٦ .

● محاورات الكرمليات لجورج برنانوس (الثورة الفرنسية) ١٩٦٣ .

● الامل لاندره ملرو (الثورة الاسبانية) ١٩٦٤ .

● دفاع سقراط لافلاطون باللغة اللبنانية ، ١٩٦٨ .

● بريطانيا في عهد الملكة فكتوريا (سيرة دزرائيلي) لاندره موروا ١٩٦٩ .

● العلاقات الانسانية لفرنسيس بو ، ١٩٧٢ . وله مؤلفات مخطوطة منها : نعمانيات : ديوان شعر .

البطاقة . وبما ان موقفتنا جاءت في عرض الطريق ، أعاد الاستاذ متري البطاقة الى المغلف وقال :

ـ انها لك . وأرجو منك أن تقرأ هذه القصيدة ، ففيها حزني ووجعي على أخي المطران الذي توفي ولم أدركه .

ناولني الملف ومشى كأنه في أرض لا يعسرها أحد . دموع الاستاذ متري لست أدري هل هي جفت أم احترقت . في نفسه ، كما بدا لي ، شوق الى البكاء ، والى الدموع تتفجر من عينيه ، ولكن عبثا . فلقد بكى الاستاذ وانتحب عندما جاءه النبأ الشؤم ، ولا ريب في ذلك. فهذه هي قصيدته التي ان حكت فعن قلق رهيب افترسه منذ رحل فقيده الغالي وأخوه الذي « بذل الروح قبل المال » حتى تداعى جسمه واستعصى عليه الشفاء او كما يقول هو :

« أخي ، يا نور عيني ، أي لحد
حوى جثمانك الزاهي نقاءَ
هبطتَ الى الثرى عملاق خير
ومثل النسر قد مل العلاء
قضيتَ النحب منزويا وحيدا
وكم أحييت من فقدوا الرجاء

صرفتَ حيــاتـك المعطــاء تسدي
ومـن جـارك فـي الدنيـا عطـاء
بذلتَ الروح قبـل المـال حـتى
تـداعى الجسم واستعصى شفاء »

فكيف لا يبكي وينتحب من كان اخوه « عملاق خير » و « نسرا معطاء » ، اذ اعطى وبذل لا من أجل الشهرة بل من أجل العطاء فحسب ؟

بل كيف لا يشعر بالهزيمة شاعر طوى الموت أخا له ، مرسلا بولسيا ، نثر الأقوال الجميلة والعظات الرائعة التي منها :

— مهمة النخبة الحياة والتقدم ، وبدونها الانحطاط والخراب .

— لا نبلغ قمم الفضيلة والقداسة الا بسلوكنا الطرق الوعرة والطويلة .

— تبدأ الارادة القوية بالتأمل ، فتسكت كل ما لا يحق له ان يتكلم ، وتصغي الى العقل فتقرر : « انني أريد » .

— علام تتغلب ؟ — على أشد وألد اعدائنا : الجسد.

— القلب قوة عمياء وعلى العقل ان يسيّرها .

— من يكرم والديه يكرم نفسه .

— خسارة الثروة جسيمة ولكنها تعوّض ،وخسارة الوظيفة مجلبة للضيق ولكنها تعوض ايضا . اما خسارة نفس فلا سبيل الى تعويضها .

— يُعرف رجل العمل بثلاث ميزات أساسية : حبّ العمل ، والحزم في القرار ، والتفاؤل .

— الاخلاص يقوم بأن يبذل المرء كل ما لديه حتى ذاته نفسها في سبيل الآخرين ، وان يبذل وهو متهلل (٥) .

اللقاء اليتيم

لقد عرفت المطران الراحل عن كثب ، وكان ذلك ذات مساء في دير الآباء البولسيين (٦) ، في حريصا ، ذي الكنيسة الصفراء التي تشبه التاج الكبير على رأس الملك العادل العظيم .

المطران نعمان وانا كنا نزور ذلك الدير . في صالون

---

(٥) من اقوال المثلث الرحمة ، بتوقيع مرسل بولسي ، تضمنتها البطاقة نقلا عن :
L'Elite, Le Vertu de L'Eaite , Prends ... Lis .

(٦) البولسيون او جمعية المرسلين البولسيين : جمعية ملكية كاثوليكية اسسها المطران جرمانوس معقد في حريصا (لبنان) ١٩٠٣ . يدير رهبانها المطبعة البولسية ومجلة المسرة . ورئيسها الحالي سيادة المتروبوليت حبيب باشا . والاب العام لهذه الجمعية هو حضرة الارشمندريت بطرس المعلم .

الدير تلاقينا الاب العام الجليل الارشمندريت بطرس المعلم عرّف بكل منا . ثم اخذ عنه الكلام الصديق الاب ميشال رحال . صالون الدير ، في تلك العشية ، غص بالضيوف القادمين ، أو الهاربين ، من بيروت وبعلبك وزحلة . امتد بنا الحديث حتى شمل المحنة اللبنانية ، والحوار المسيحي ـ الاسلامي ، ثم انعرج الى تاريخ النصارى في حوران وبصرى ، وما لهم من أديار وبيع وكنائس ، كانت محطات للمسلمين العرب في ارتحالاتهم بين الجزيرة وبلاد سوريا والعراق من جهة ، وبين الجزيرة وعربستان وكل فارس من جهة اخرى . ولما وصلنا الى الكلام عن جبل الدروز ، التفتُ الى المطران نعمان، فاذا هو في بحر من الرضا يسبح ويغوص ، لان له في ذلك الجبل ، معقل الشهامة والعنفوان وجبل السخاء والكرم ، أصدقاء يحاسن بهم الناس . ولا عجب اذا ما قال الاستاذ متري في رثائه للفقيد الراحل :

« بنو معروف والعظماء هبّوا
يجلّون الفضيلة والوفاء »

فالصديق يُعرف في الملمات،كما يُعرف عند الامتحان. وأي ملمة اشد من الموت ؟ وأي امتحان مثل امتحان الموت ؟ الصديق ، ان هو وقف الى جانب ذوي صديقه ، فانما يكون قد سقاهم سلوة من نفسه ، وساعدهم على العزاء والصبر . وان هذه لمن صفات الفقيد المطران

نعمان ، الذي جعل الحورانيين وجميع عارفيه في بصرى وجبل الدروز يشاركون البكاء عليه والتحسر والتفجع ، وعند الاستاذ متري اخبارها الصريحة والصادقة اذ يقول مخاطبا شقيقه المطران :

« عريتَ ، أجل عريت لكسو عري
وجعت لتطعم المعد الخواءَ
طبيبا كنت للاجساد أيضا
فما وفرت جهدا او عناء
وكم شيدت من مبنى منيف
لرب الكون يختال ازدهاء
وكم حققت من أعمال بر
وقد ظلت بمعظمها خفاء
اعدت الى بني حوران عزا
ومن لا شيء زينت العراء
واذا حم القضاء ولا شفيع ...
قضيت وليس من يسقيك ماء
كذا الابطال في الهيجا ضحايا
وقد وهبوا بلادهم الرخاء »

لعل الحزن المستبد بالاستاذ متري مرده الى أن أخاه قد قضى وهو عنه بعيد . و « ليس من يسقيك ماء » لا

يعني ان الفقيد قد اهمله أصدقاؤه او معاونوه ، بل قصد الشاعر غيابه هو بالذات عن المطران، ولربما اعتقد ان لو كان معه لما تغلبت عليه المنية . طبعا ، أنا لا اقول بذلك ، وانما للشاعر متري نعمان حق في ان يعتقد كما يشاء ، ويتصور مثلما يحب ويرغب ، اذ هو المحزون الاول والمجروح الاول ، فأسألوا الجواهري وقصيدته المؤثرة « أخي جعفر » ، واسألوا نسيب نمر وكلمته في أخيه المحامي حسيب ، ثم اسألوا كل شاعر وكل أديب فقد أخاه .

تحت وطأة هذا الحزن وهذا الجرح يقول الاستاذ متري أيضا :

« ونحن اللاحقون نعيش ذكرى
جهادك منه نلتمس العزاءَ
نرودك في بزوغ الفجر صبحا
وفي شفق يسامرنا مساء
وروحك في ندى الاسحار تحيي
موات الارض ترفدنا سخاء
وانك في جنان الورد مسك
يبلسم قلب من يشكو البلاء »

ماذا نقول للاستاذ متري وقد لفه الحزن حتى أنامله؟

ماذا نقول له وقد قطع على نفسه عهدا لا يمكن التراجع عنه حسبما يقول :

« أبا المحروم ، ثق في الخلد أنـّا
هنا باقون نمحضك الولاءَ
سنرعى العهد عهدك ما حيينا
ونفتقد الشهامة والاباء »

هذا الشاعر المجروح المكلوم والمغمور بالحزن نقول له ان جاء حوران : عليك بصاحبك جرير حيث يقول :

« هبت شمالا ، فذكرى ما ذكرتكم
عند الصفاة التي شرقي حورانا
هل يرجعن ، وليس الدهر مرتجعا
عيش بها طال ما احلولى وما لانا ؟ » (٧)

ونقول له ان جاء بصرى ، وهي قصبة كورة حوران، ومشهورة عند العرب قديما وحديثا (٨) : ليس لك غنى

(٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، طبعة دار صادر ، المجلد الثاني ص ١٣٧ .

(٨) المصدر نفسه ، المجلد الاول ص ٤٤١ . ويذكر انه « لما سار خالد بن الوليد من العراق لمدد اهل الشام قدم على المسلمين وهم نزول ببصرى ، فضايقوا اهلها حتى صالحوهم على ان يؤدوا عن كل حالم دينارا وجريب حنطة، وافتتح المسلمون جميع ارض حوران وغلبوا عليها وقتئذ، وذلك في سنة ١٣ هـ » .

عن الامير امرىء القيس القائل :

« ولما بدت حــوران والآل دونها
نظرتَ فلم تنظر بعينيك منظرا ! » (٩)

ولا غنى لك أيضا عن الصمة بن عبدالله القشيري (١٠) القائل :

« نظرتَ ، وطرف العين يتبـع الهوى ،
بشرقيّ بصـرى نظـــرة المتطـاول
لابصر نـارا أوقـدت ، بعـد هجعـة
لريا بذات الرمث من بطن حائل » (١١)

---

(٩) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ص ٣١٧ .

(١٠) الصمة القشيري (... نحو ٩٥ هـ / ... نحو ٧١٤ م) : ابن عبدالله بن الطفيل بن قرة القشيري ، من بني عامر بن صعصعة ، من مضر . شاعر غزل بدوي . من شعراء العصر الاموي ، ومن العشاق المتيمين . كان يسكن بادية العراق ، وانتقل الى الشام . ثم خرج غازيا يريد بلاد الديلم ، فمات في طبرستان . وهو صاحب الابيات التي منها :

« قفا ودّعا نجدا ومـن حل بالحمى
وقل لنجـد عندنـا ان يـودعـا »

انظر الاعلام للزركلي ، المجلد الاول ص ٢٠٩ .

(١١) معجم البلدان ، المجلد الاول ص ٤٤١ .

واما اذا جاء شاعرنا جبل الدروز فلن نقول له شيئا ، الامر هناك متروك للشاعر وحسب . فالجبل هو الملهم ، وهو المحرض على الشعر والغناء ، والنثر . على أن النثر الذي يوحي به مثل جبل الــدروز يحاكي الشعر جمالا وصفاء ومعنى . فهلاّ زار الشاعر الجبل وبصرى وحوران قبل ان يستفحل الحزن ويتسع الجرح ؟

صحيح ان « خسارة الثروة جسيمة ولكنها تعوّض ، وخسارة الوظيفة مجلبة للضيق ولكنها تعوض أيضا . (بينما) خسارة النفس لا سبيل الى تعويضها » حسبما يقول المطران الراحل ...

وصحيح أيضا أن حزن الشعراء والادباء ليس مثالـه حزن المؤرخـين والكيميائيـين واساتـذة الرياضيـات والجغرافيا والعلوم الطبيعية . ولكن هل لنا ان نجعـل الحزن ، مهما يكن شديدا لئيما ، مناسبة للرقص والابتهاج ، ما دام الاخلاص لا يقوم الا « بأن يبذل المرء كل ما لديه حتى ذاته نفسها في سبيل الآخرين ، وان يبذل ، وهـو متهلل » على حد قول الفقيد نفسه ؟

نطالب بأن نسترق من الحزن فرحا ، رحمة بأولـئك الذين ان نزل عليهم الحزن سكنهم واحتلهم ، وان أتاهم

الفرح نشروه على المعذبين في الارض ومنهم اليتامى والمساكين .

فما قولكم وقد غدت مساحة الحزن ، في هذا العصر، اكبر واوسع من مساحة القلب ومساحة المسرة ؟

الفصل العاشر

الصراع على المسلّمات بين ابن المحرومة وابن كمّونة

قال ابن كمّونة :

"... فان النصارى يعترفون بنبوّة موسى والانبياء الذين على ملّته عم، وبجميع المعجزات التي لهم، وبصحّة التوراة وكتب النبوّات. ولا يمكنهم جحود ان اليهود يقرّون بالقيامة والمعاد بعد الموت".

وردّ ابن المحرومة يقول :

"نعم النصارى لا يجحدون اقرار اليهود بالقيامة والمعاد بعد الموت، لكنهم يقولون مع ذلك ان اليهود سرقوا هذه المقالة من غير ملّتهم ولا وجود لها في توراتهم. ومع ذلك لهم أن يسألوا اليهود قائلين : هل الاقرار بالقيامة والمعاد بعد الموت من اركان الشرائع الحقّة أم لا ؟ فان اعترفوا انه من اركانها يقال لهم : فاذن كيف خلت توراتكم عن ذكره وانتم تعتقدون ان شريعتكم حقّة. وان انكروا انه من اركانها فيقال لهم : فانتم لماذا زدتموه على شريعتكم مع زعمكم انها شريعة تامة. ولا شك ان زيادتكم عليها هذه الزيادة وغيرها تخالف زعمكم الذي تزعمون".

حواشي ابن المحرومة من ١٨١

وقال ابن كمّونة :

"... وكان ابراهيم تلميذ جدّه عابرَ وهو صفوتهُ وتلميذُه. ولذلك تسمّى عبرانيًا. وعابر صفوة سام، وسامُ صفوة نوح أبيه. وصفوة ابراهيم من جميع بنيه اسحق، وصفوة اسحق يعقوب، وهو المسمّى اسرائيل، واولاده كلّهم صفوةٌ صالحون للأمر الالهي"

وردّ ابن المحرومة :

"... ومعلومٌ أن الذين يكونون من الصالحين للأمر الالهي، لا يرتكبون (...) الكبائرُ التي ارتكبها هؤلاء القومُ الذين هُم من ذريّة يعقوب. فلا خفّف الله عنهم أثقالَ العذابِ فانهم اضلّ سبيلاً من الدّوابّ. واذا عرفتَ ذلك ظهرَ لك فسادُ قول المصنّف القائل: وأولاده كلّهم صفوةٌ صالحون للأمر الالهي".

حواشي ابن المحرومة من ٧٧/٧٩

يعمل المطران ناوفيطوس ادلبي ، بالتعاون مع الاب سمير خليل اليسوعي ، على احياء التراث العربي المسيحي من خلال تجميع وتحقيق نصوص وأبحاث حول انتاج الفكر العربي المسيحي القديم ، ونشرها ، لاجل الدرس والمناقشة والتحليل ، وبعث الحوار الديني ، القائم على الحجة والبرهان والمنطق السليم والكلمة الهادئة الراقية.

من المؤكد أن أحبار نصارى الشرق وشعراءهم وفقهاءهم وعلماءهم قد تركوا العرب على إرث مجد « لم تخنه زوافره » [1] ، وهو يشمل الدين والعلم والادب

---

(١) جاء في لسان العرب (ج ٢ ص ٢٠١) : « وروي عن النبي (ص) انه قال : بعث ابن مربع الانصاري الى اهل عرفة ، فقال : اثبتوا على مشاعركم هذه ، فانكم على ارث من ارث ابراهيم » . قال ابو عبيد : الارث اصله من الميراث . انما هو ورثه فقلبت الواو الفا مكسورة لكسر الواو ، كما قالوا للوسادة اسادة ، وللوكاف ، اكاف، فكان معنى الحديث : انكم على بقية ورث ابراهيم الذي ترك الناس عليه بعد موته ، وهو الارث وانشد :

« فان تك ذا عز حديث ، فانهم
لهم ارث مجد لم تخنه زوافره »

ومختلف أنــواع الفنون والنشاطات ، ولكنه مثل ثغـر الشتيت ، أي مفرّق مفلّج ، فمنه ما هو موجود فـي الكتب العربية ، ومنه مخطوطـات أتت عليها أحـداث وويلات ، بعضها هلك ، وبعضها في بلدان شتى ينتظر إما الحياة وإما الموت .

وإن آخر الاخبار عن هذا الإرث ، الذي يعاني الغربة والفرقة ، ما ورد في كتاب (« حواشي ابن المحرومة » على كتاب « تنقيح الابحاث للملل الثلاث » لابن كمّونة) الصادر باللغتين : العربية والفرنسية ، وقد حققه المطران حبيب باشا ، متروبوليت بيروت وجبيل وتوابعهما للروم الكاثوليك(٢)(*) كما وضع له مقدمة (دراسة) تحليلية غنية بالمعلومات الدقيقة والملاحظات المفيدة ، ما جعل هـذا

---

(٢) هو حبيب قسطنطين باشا ، ولد في صور يـوم ٢٤ حزيران ١٩٣١ . امه فريـدة باشا . تعلم في المـدرسة الاسقفية في صور من سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٤١ .

ـ دخل معهد القديس بولس في حريصا سنة ١٩٤٢ ، وبقي فيه حتى ١٩٥٦ ، حيث درس الفلسفة واللاهوت .

ـ اتم دروسه العليا ، في المعهد البابوي للعلوم الشرقية ـ روما ، من ١٩٦٥ الى ١٩٦٨ ، اذ حـاز على الاجـازة والدكتوراه في الفلسفة واللاهوت .

ـ انتسب الى جمعية الآباء البولسيين في سنة ١٩٤٢ .

ـ سيم كاهنا في ٢٩ حزيران ١٩٥٦ ، وعين استـاذا للفلسفة في المعهد الاكليريكي البولسي ـ حريصا (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧) .

ـ عين مسؤولا ورئيسا على المعهد البولسي للدراسات الكهنوتية في القدس (١٩٥٧ ـ ١٩٦٢) . =

المجلّد وكأنه ثلاثة كتب في كتاب واحد(٣) .

ـ استـاذ الاسلاميات والفلسفـة العربية في معهـد القديسة حنة في القدس (١٩٥٧ ـ ١٩٦٢) .

ـ نائب عام لابرشية اللاذقية للروم الكاثوليك (١٩٦٢ ـ ١٩٦٤) .

استدعي الى روما للمساهمـة في الجلسة الرابعـة للمجمع الفاتيكاني الثاني بصفة محرر للنشرة الاخباريـة للمجمع باللغة العربية (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥) .

ـ تخصص في علوم اللاهوت (اجازة ودكتوراه) فـي روما ، وعـين لـدى سكرتارية غـير المسيحيين ، الفرع الاسلامي ، في الفاتيكان .

ـ أستاذ الدراسات العربية في المعهد البابوي ـ روما.

ـ انتخب رئيسا عـاما لجمعيـة الآباء البولسيين ـ حريصا في ٣ ايار ١٩٦٨ .

ـ سيم اسقفـا (متروبوليت) عـلى بـيروت للروم الكاثوليك يوم ١٤ ايلول ١٩٧٥ .

ـ مساهم في مجلة « المسرة » ـ حريصا .

ـ واضع رسالة الدكتوراه في ابن كمونة ورد ابن المحرومة عليه .. الكتاب الذي هو موضوع بحثنا .

ـ نقل الى العربية حياة السيد المسيح للكاتب الفرنسي دانيال روب (Daniel - Rops) وذلك في كتاب سمـاه « يسوع في زمانه » الذي عنوانه في الاصل (Jésus en son temps)

ـ الف سيرة الطوباوية الاخت (مريم يسوع المصلوب) وهو تحت الطبع .

ـ له مجموعة خطب ومواعظ تحت الطبع .

(*) صدر له أخيرا (آب ١٩٨٦) الروم الملكيون الكاثوليك (الهوية والرسالة) ١١٠ صفحات ، المطبعة البولسية ، جونية ـ لبنان .

(٣) ٢٢٨ صفحة من القياس الكبير ، للقسم العربي ، الى فهارس الحواشي : الاعلام ، الاماكن ، الاقوام ، والملل ، أهم =

يقول المطران حبيب باشا :

«في مخطوطة عربية فريدة من القرن الرابع عشر ، مسجّلة تحت الرقم ١٥ من مكتبة الانجيليكا في رومة ، (Angelica di Roma) ، تقع على مجموعة من الحواشي وضعها كاتب مسيحي من ماردين ، اسمه أبو الحسن بن المحرومة ، ردّاً على مصنّف ديني كتبه في القرن الثالث عشر ، فيلسوف يهودي من بغداد ، اسمه سعد بن منصور ابن كمّونة .

عنوان المصنّف الديني : « تنقيح الابحاث للملل الثلاث » . ويشتمل على أربعة أبواب : ١ ــ في النبوّة ٢ ــ في اليهودية ٣ ــ في المسيحية ٤ ــ في الاسلام »(٤) .

أضاف :

« وقد نشره المستشرق اليهودي موشي برلمان تحت

= المفردات، والى ثبت بالمراجع و٩٤ صفحة للقياس الفرنسي، الى (Bibliographie) (بيبلوغرافيا) . طبعة ١٩٨٤ ، منشورات « التراث العربي المسيحي » ذوق مكايل ــ لبنان، بالاشتراك مع المطبعة البولسية ، جونية ، لبنان ، والمعهد البابوي الشرقي في روما ــ ايطاليا .
(Prontificio Instificio Orientale - Roma - Italia)

(٤) ص ١٩ .

الرقم ٦ من « منشورات جامعة كاليفورنيا » مع مقدمة وتعليقات (٥) .

« أما حواشي ابن المحرومة فليس لها تسمية رسمية، وهي مجموعة من الملاحظات مدموجة في نص « التنقيح» (كتاب ابن كمّونة) ، يتعرض فيها الكاتب المارديني للفيلسوف اليهودي في بحثه للديانتين اليهودية والمسيحية (في البابين الثاني والثالث) » دون غيرهما من هذا الكتاب» على حد قول المعلّق (٦) .

وقال المتروبوليت باشا :

« مجموع هذه الحواشي مئة وثلاث وثلاثون . سبع وثمانون في الباب الثاني (في اليهودية) وست وأربعون في الباب الثالث (في المسيحية) .

وقد قام المستشرق اليهودي موشي برلمان نفسه ، في مقال له عن ابن المحرومة ، بنشر بعض تنف من تعاليق الكاتب المارديني . وأما معظم الحواشي فبقي مطوياً في

---

(٥) Prelmann. Moshe : Said b. Mansur Ibn Kammuna's Examination of the Iuquires into three faiths , Los Angelos 1967 .

(٦) ص ١٩ .

مخطوطة الانجيليكا ، الى أن قدّر لنا الله نشرها بنصها الكامل في الحلقة(السادسة) (٧) (*)من سلسلة « التراث العربي المسيحي » (٨) .

أما عن الغاية التي يرمي اليها المتروبوليت باشا ، من نشر « التنقيح » و « الحواشي » معا ، فيقول :

« وها نحن نقدمها للقراء كاملة لاول مرة ، متوخّين

---

(٧) اما الحلقات الخامسة الصادرة من قبل فهي :

ا ـ سايروس بن المقفع (القرن العاشر الميلادي) كتاب مصباح العقل ، تقديم وتحقيق الاب سمير خليل (اليسوعي) القاهرة ١٩٧٨ .

ب ـ مقالة في التوحيد ، للشيخ يحيى بن عدي (٨٩٣ ـ ٩٧٤م) حققها عن المخطوطات وقدم لها الاب سمير خليل (اليسوعي) (١٩٨٠) .

ج ـ ميمر في وجود الخالق والدين القويم لثاودورس ابي قرة المتوفي حوالي سنة ٨٢٥ م . حققه وقدم له وفهرسه الاب الدكتور اغناطيوس ديك (١٩٨٢) .

د ـ مقالة في التثليث والتجسيد وصحة المسيحية لبولس البوشي اسقف مصر سنة ١٢٤٠ م . تحقيق ودراسة وفهرسة كاملة للاب سمير خليل (اليسوعي) .

هـ ـ علماء النصرانية في الاسلام ، تأاليف : لويس شيخو ، حققه وزاد عليه وقدم له الاب كميل حشيمة (اليسوعي) (١٩٨٣) .

(*) وصدر أيضا : سليمان الغزي (شاعر وكاتب مسيحي من القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد) حققه وقدم له راعي أبرشية حلب للروم الكاثوليك ، المطران ناوفيطوس ادلبي ، ولنا في المقدمة والديوان بحث مخطوط .

(٨) ص ٢٠ .

بذلك الكشف عن أثر من أندر آثار الادب الدفاعي المسيحي والمساهمة في بعث حوار بين متبارزَيْن طوت المنية رُفاتَيهما وبقي الفكر منهما في تجابه نابض بالحياة »(٩) .

لقد أحسن المتروبوليت باشا التحقيق ، اذ دمج نص « الحواشي » في نص « التنقيح » مما يسهّل على القارىء المقارنة بين الرأي والرأي ، والقول والقول . وهكذا فإنك لواجد ، في الصفحة الواحدة ، بيانا كمّونيا، بحرف صغير ، يليه ، مباشرة ، تعليق ابن المحرومة ، بحرف أكبر، يتخذ مساحة تزيد أو تنقص ، عن تلك التي يشغلها النص التنقيحي ـ الكموني ـ أما الاسلوب المحرومي فمثله مثل الكموني ، في معظم الصفحات ، ولئن ظهر في الحواشي « اللون التهجمي وما يستتبعه من وسائل التنديد والتهكم والتحدي ، متوخّياً ليس فقط الامة اليهودية والشريعة الموسوية بل المصنّف (ابن كمونة) نفسه » (١٠) .

ويعرض المتروبوليت لسيرة ابن كمونة ومُناظره ابن المحرومة ، بطريقة علمية ولغة سلسة جميلة ، فيلقي أضواء على ما يتصل بهما من وصف بيئتهما الدينية والادبية ، ويحلل لكل من الكتاب والحواشي .

غير أن ما يصعب تحديده هو موقف المتروبوليت نفسه، اذ

---

(٩) ص ٢٠ .

(١٠) ص ٦٧ .

يبدو لك قاسيا مرة وليّناً مرة أخرى ، مع البغدادي كما مع المارديني ، حتى يتساوى الاثنان عنده ، في المدح مثلما في الثرب . وكـأن السؤال « مـا هي الحصيلة التي يمكن استخراجها من مقارنة هذين الاثرين : « تنقيح » ابن كمونة « وتحشية » ابن المحرومة ، على صعيد الحوار الديني ، وما يفترضه من شروط ومقتضيات »[11] لا يزال معلّقا ، أو هو مردود الى المتروبوليت المؤلف .

ففي معرض الكلام عن ابن كمونة يقول المطـران حبيب باشا :

« لا شك ان ابن كمونة حاول التزام الموضوعية في عرضه وتمحيصه للاديان الثلاثة ، وتلك صفة قلّما نجدها عند من سبقه أو عاصره من أصحاب المصنّفات المعنيـة بالمناظرات الدينية ، وقد أقرّها له ، بشيء من المبالغة، الذين ألمّوا بكتابه من المحدثين والمعاصرين . فابن كمونة يتحرى الدقة العلمية في عرض المعتقدات وذكر البراهين والمطاعن والأجوبة . وهو ، الى ذلك ، يتبنى ذهنيا موقف أربـاب الملّة التي يعرض لها ، فينوب منابهم في الدفـاع عـن معتقدهم ، ويكمّل ما نقص من أدلتهم ، ويبرز ما فاتهم من حسنات دينهم وإيجابياته » .

---

(11) ص ٧١ .

أضاف :

« ولكن من يجهل صعوبة هذا الرهان الكبير، ووعورة التقيد بالنزاهة والانصاف في البحث والتقويم ، ولا سيما في أمور المعتقد والمذهب ؟ فالدين هو من الشؤون التي يتعذر فيها التزام الحياد المطلق . فهو جزء من ذاتنا ويتناول أعمق ما في ضميرنا وأخطر ما في مصيرنا ، وأدق مـا يمكن أن يمس احساسنا » .

وخلص الى القول : « ان ابن كمونة الفيلسـوف اليهودي ، بالرغم من محاولته الصادقة ونهجه الجديد ، في الانفتـاح على الغير ، لم يـوفق في التجرد تمامـا عـن عصبيته ، والانعتاق من مشاعره ، فكان شديد التساهل مع اليهودية ، مشككا في المسيحية ، صارما في حكمه على الاسلام »[12] .

وفي كلامه عن ابن المحرومة يقول المتروبوليت باشا :

« ويعمد ابن المحرومة أحيانا ، في حميّا الجد ، الى مناداة خصمه من وراء القبر وتحديه للنزال الفكري، فينعقد الحوار بين الفيلسوف اليهودي وندّه ، حيّا نابضا متخطيا

---

(12) ص ٤٩/٥٠ .

هوّة الزمان (ستون سنة تقريبا) (١٣) ابن كمونة توفي سنة ١٢٨٤ م وابن المحرومة ولد في الشطر الثاني من القرن الثالث عشر ، وتوفي في الشطر الاول من القرن الرابع عشر الفاصل بينهما »(١٤) .

أضاف : « ابن المحرومة لا يكتفي ، في رده على صاحب « التنقيح » ، باستعمال التعابير الهجائية . ففي معرض الجدل الديني ـ ومحوره الحقائق المنزلة ـ لا بد من الاحتكام الى الكتب السماوية . وقد رأينا براعة ابن كمونة في استعمال البرهان الكتابي وعلم التفسير ، وعمق معرفته للنصوص المنزلة،فكان على ابن المحرومة أن يجاريه في هذا المضمار أيضا »(١٥) .

ويتابع المتروبوليت فيقول : « والواقع أن الحواشي تبرز لنا كاتبا متضلّعا من علم الكتاب المقدس ، في عهديه القديم والجديد ، وفي جميع أجزائه القصصية والنبوية والتشريعية ، بارعا في التنقيب عن أخطاء خصمه ،وتصحيح

---

(١٣) توفي ابن كمونة سنة ١٢٨٤ م كما جاء في الاعلام ـ الزركلي ج ٣ ص ١٠٣/١٠٢ ، وتوفي ابن المحرومة في الشطر الاول من القرن الرابع عشر ، اذ كان موجودا عام ١٢٩٩ ، كما جاء في « اللؤلؤ المنثور » للبطريرك افرام الاول برصوم ص ٤٣٤ .
(١٤) ص ٦٨ .
(١٥) ص ٦٩ .

تفاسيره المغرضة ، ومعارضة تبيّن مضامينها الصحيحة »(١٦) .

بعد هذا الثناء على ابن المحرومة يعود المتروبوليت فيقول : « بيد أن ابن المحرومة ، في غمرة الجدل ، وفورة الدفاع ، يغلو ويشط أحيانا في استعمال البرهان الكتابي، فيسقط في التفاهة والتعنّت ، وينساق الى ما انساق اليه « التنقيح » من تحيّز وتحامل »(١٧) .

« الحقائق المنزلة » هي البداية وهي النهاية .

هل يمكن التجسير بينها ؟

الحوار ، الذي قام بين البغدادي والمارديني ، لا يُطَمْئِن ولا هو يشير الى هذا .

حقائق اليهودي (ابن كمونة) ، كما يتمناها النصراني (المارديني) ، تنسف تلك التي يدافع عنها ابن كمونة ، ويدعو الى التسليم بها واعتمادها حلاًّ جاهزا وجوابا مسبقا عن كل مسألة طُرحت أو سوف تُطرح .

الكلام ، هنا ، كما في الكتاب، يقتصر على اليهودية والمسيحية فقط ، لان الجزء الرابع من « تنقيح »ابن كمونة، الذي يتناول الاسلام ، لم يصلنا منه شيء ، وربما لن يكون

---

(١٦) ص ٦٩ .
(١٧) ص ٦٩ .

الا أكثر سوءاً مما في الجزء الثالث منه المخصص للمسيحية.

ابن كمونة يهودي تجلبب القميص الاسلامي فظن البعض انه ارتد الى الاسلام، « استنادا الى عبارات التبجيل التي يستعملها المسلمون عند ذكرهم لنبي الاسلام، والتي نجدها في كتاب « التنقيح » وفي كتب أخرى من مؤلفاته » (١٨). وابن المحرومة مسيحي (سرياني أورثوذكسي) (مونوفيزي) ثابت الايمان واضح عنيف. التزم رضى النصرانية مطلقا لا رضى جميع فرق الملة النصرانية أو بعضها.

أما التجرد الذي يؤكد عليه المتروبوليت باشا أساسا لكل حوار، فقد تناءى، يا للاسف كثيرا، اذ تحوّل الصراع، بين اليهودي والنصراني، الى صراع المسلّمات، بعضها ضد بعض، أو قل على المسلّمات، فيما ظلّت العقلانية في الغمد المنسي المهجور.

وكما لابن كمونة (اليهودي) مآخذ على المسيحية، بجميع فرقها، فإن لابن المحرومة أيضا مواقف من اليهودية يطول « قدسية » التوراة، ويصدّعها، ويشجع على الشك والارتياب فيها، وقد أعلن صراحة، في غير موضع من

---

(١٨) ص ٢٩.

حواشيه، أن التوراة « ليست كتاب موسى بل كتاب عزرا »، وهي « حافلة بالمفاسد والمغالط »، وفيها الكثير من القصص الخلاعي »، وتدعو الى « المخازي واتباع الهوى وسفك الدماء »، و « تنطق بأن ثواب الطاعة فوائد دنيوية، وعقاب المعصية آفات وبلايا دنيوية أيضا » كما في الحواشي : ١٣، ١٧، ٢٣، ٣٢، ٤٧، ٨٧، وكلا الرجلين يظهر رغبة كبيرة في الجدل والمحاورة.

أما الذي يلفت النظر فهو قوة ابن كمونة على التصدي للمسيحية، وضعف ابن المحرومة في الرد عليه، في حين ينجح الاخير في الكشف عن مثالب اليهودية وعيوبها وتفنيد أخطائها، والتأكيد على خطرها، ويفشل الاول في تحديثها وتجميلها وتزيينها.

لماذا ؟

انه الصراع على المسلّمات كما قلنا. فاليهودي المؤمن بتوراته ومعتقده، المشدود الى تاريخه ورجالاته، دون التحقيق في صحة أخبارهم، المنجذب الى الوراء أبدا، من أين له أن ينظر الى غير اليهودي بعين الحب أو الرضى ؟ مثله المسيحي المتزمت والمسلم المتزمت وسواهما من أصحاب العقائد والمذاهب والإيديولوجيات، ممن يعبدون النص أو الحرف، ولا يحيدون عن الطريق المرسوم المحدود،

أو الخط الموضوع المفروض ، أو النهج الموروث المحفوظ.

أولئك هم التابعون . لا يسألون التسامح ولا التساهل . المشكلة منهم وفيهم . لا يخلقون ولا يبتدعون. بل يخافون الجديد ، كل جديد ويتعبدون للقديم . واذا ما وقعت بينهم مجادلة أو مناظرة فهدف أي منهم هو الجدل على الباطل والمغالبة به لا لإظهار الحق .

ودائما الصدى هو الغالب المنتصر .فلا أحد يعترف للآخر بالفضيلة أو المزايا الحسنة الا بما تسمح به الظروف والاسباب ، وهو تكاذب على كل حال ، يغطيه التصنّع والتظرّف ، والكلام الصلف الذي لا معنى له .

فعندما يقول ابن كمونة في نقده للمسيحية : « ولو كان المراد بقولكم ان البارىء سبحانه جوهر واحد وثلاثة أقانيم — انه ذات عالمة حية أو ذات عاقلة لنفسها وذاتها معقولة ، كما يحكى عن يحيى بن عدي [١٩] انه فسّر الآب

(١٩) يحيى بن عدي (٢٨٠ — ٣٦٤ هـ = ٨٩٤ — ٩٧٥ م) هو حفيد حميد بن زكريا . ابو زكريا : فيلسوف حكيم ، انتهت اليه الرياسة في علم المنطق في عصره . ولد بتكريت ، وانتقل الى بغداد ، وقرأ على الفارابي ، وابي بشر بن متى وجماعته ، وكان اوحد دهره واليه انتهت رئاسة اصحابه، عمّر احدى وثمانين سنة وتوفي ٩٧٤ (في اللؤلؤ المنثور) (بينما جاء في الاعلام : ٩٧٥) وألف كثيرا احصينا له في ترجمتنا له سبعين مؤلفا بين كتاب ومقالة . ونقل من =

والابن والروح بأن كونه عقلا مجردا هو الآب ، وكونه عاقلا لذاته هو الابن ، وكون ذاته معقولة له فهو روح القدس ، فما قلتموه في أماناتكم التي اتفقتم عليها تنافي ذلك ، فان فيها تحقيقا ان الابن ذات غير ذات الآب ، او ذات الابن هي التي نزلت وصعدت دون الآب » [٢٠] يرد عليه ابن المحرومة قائلا :

« المحكيّ عن ابن عدي ، رحمه الله ، هو المراد بلا شك ، وأما كون الذي قيل في الامانة ينافيه فغير مسلّم ، وكذا كون الابن ذاتا غير ذات الآب ، لانه غير لازم من اطلاق لفظة النزول والصعود عليه بالاستعارة لضرورة العبارة ، من غير اعتقاد التجسيم ، مع العلم بأن النزول والصعود هو بالحقيقة من خواص الأجسام . فإن أنكر

= السريانية الى العربية عشرة كتب وهي: كتاب النواميس لافلاطون ، وكتاب ثاوفرسطس ، وكتاب ما بعد الطبيعة ، وتفسير كتاب الجدل ، والكلام على سوفسطيق ، والكلام على الشعر والمقالة في البحوث الاربعة ، والمقالة الثانية من كتاب السماع الطبيعي ، وحرف (مو) من كتاب الالهيات لارسطو ، والكلام على الآثار العلوية ، واصلح نقل ثلاثة ، وهي : كتاب تفسير الاسكندر لكتاب السماء والعالم ، نقل بشر بن متى ، والمقالة الاولى من كتاب السماع الطبيعي ، نقل أبي رَوْح الصابىء ،وقول لافلاطون سماه طيماوس . انظر الاعلام ، الزركلي ج ١ ص ١٥٦ ، و « اللؤلؤ المنثور » ص ٣٥٨ .

(٢٠) ص ٢٠٠

اليهود هذه الاستعارة في التعبير عن الابن ، فهم كيف أطلقوا لفظة النزول على الله في توراتهم القائلة عن الله جل جلاله : « فنزل الله لينظر القرية والبرج » .

أضاف : « وفي التوراة أيضا ، حكاية عن الله تعالى: هلمّوا بنا ننزل ونقسّم هناك ألسنتهم » . فإن كان ذلك بطريق الاستعارة ، وليس فيه محذور ، فللنصارى أسوة بهم . وإن كان بطريق الحقيقة فقد جسّموا ، لان النزول بالحقيقة من خواص الاجسام ، والتجسيم أعظم محذورا وأبعد عن العقل والدين من منافاة قول لقول آخر ، لو ثبتت المنافاة . فكيف وهي غير ثابتة ؟! » (٢١) .

النزاع ، هنا ، بارد لا ينصر هذا ولا يغلّب ذاك ، الا أنه يعنف ويشتد ، في موضوع اليهودية ، حيث يقول ابن كمونة :

« وجميع ما وصّاهم الله (يقصد اليهود) به على لسان رسوله الامين موسى ، صلوات الله عليه ، هو اعتقاد التوحيد وترك عبادة الاصنام ، وأن لا يشركوا بالله شيئا ، وأن ينزّهوه عن الشبيه والنظير والمعين ، والمشير ، وأن يعبدوه وحده ويحبّوه بكل قلوبهم وأنفسهم وجهدهم ، ويخافوه ، ويستعينوا به ، ويتوكلوا عليه ، وأن يعتقدوا

(٢١) ص ٢٠١/٢٠٢

أنه العالِم الذي لا يغرب عن علمه شيء ، والقادر على كل شيء ، والخالق لكل شيء ، وانه هو الذي يميت ويحيي ويمرض ويشفي، ولا منجى من قدرته ، وانه الاول والاخير، لا إله آخر سواه . وأمرهم بمكارم الاخلاق وبالصلاة والصوم » (٢٢) .

ويأتي الجواب عنه من ابن المحرومة كما يأتي :

« لو أن موسى أمرهم بكل واحدة من هذه المذكورات لكان ذلك مثبوتا في التوراة مثل ما هي سائر الاوامر والنواهي مثبوتة فيها . ولا شك أن التوراة ليس فيها من مكارم الاخلاق الحقيقية شيء أبدا ، لكن فيها ما ظاهره يوهم انه من مكارم الاخلاق وباطنه بخلاف ذلك . فمنه قول التوراة في السفر الخامس : لا يحل لكم أن تأكلوا الرُبُوَ فضة ولا طعاما لا قليلا ولا كثيرا ، فأما من الغريب كُلْ ، وأما من اخوتك فلا تأكل . ومعلوم أن ظاهر هذا الكلام يوهم النهي عن أكل الرُبُوَ ،وباطنه يدل على الامر بأكله لقوله : أما من الغريب كُلْ ، ولا شك أن مكارم الاخلاق تقتضي أن لا يأكل الانسان الرُبُوَ لا من غريب ولا من قريب » .

وقال ابن المحرومة أيضا :

(٢٢) ص ٩٥ .

« وسأنقل مما في التوراة أيضا من الحث على سوء الاخلاق ما يدل على فساد قول المصنّف ، فانتظره وانظر فيه . أما الصلاة والصوم فان التوراة خالية عن ذكرهما بالكلية ، يعلم ذلك كل من تصفحها » (٢٣) .

نصوص وأحكام لو أُخضعت للعقل المادي ماذا سيبقى منها ؟

هذا يغلّب اليهودية على المسيحية ، وذاك يسفّه اليهودية ويدعو الى تركها ، سائلا الله تعالى « في غفران ما بدا من هذا الرجل (ابن كمونة) في حقنا (معشر النصارى) بما أكال علينا وغالطنا في كتابه هذا » (٢٤) .

ومهما يكن ، فالخير كل الخير أن نحيي هذا التراث الانساني المجهول المغمور المعرّض للزوال ، فنحن في زمن « نواجه فيه معضلة الحوار الديني وما ينجم عنها من عقبات شاقة وآمال شيقة (و) لا بد من الاتعاظ بالعبر المتضمنة في هذا الاثر « الممزوج » حسبما يقول المتروبوليت حبيب باشا ، في خلاصة دراسته ــ المقدمة ، التي بها استكمل « التنقيح » و « الحواشي » !

---

(٢٣) ص ٩٥/٩٦ .
(٢٤) ص ٢٢٨ .

الفصل الحادي عشر

الكلدان بين الأمس واليوم

"الحروب الصليبية قد سببت لمسيحيي الشرق كثيرًا من الشر بدلاً مما انتظروه من تخفيف حالهم. الى هذا الوقت كان يضيق عليهم العرب والأتراك ، فقد أخذ يضيق عليهم اللاتين. الحروب الصليبية بدأت بتأثير البابا وات. وبينما كانوا يقنعون الصليبيين ليحرروا الارض المقدسة والقبر السيدي من سلطة الغرباء كان لدى البابا وات مقصد آخر وهو نشر سلطانهم بمساعدة الصليبيين في الشرق وايضًا اخضاع الكنائس الشرقية"

أفغراف سميرنوف
تاريخ الكنيسة المسيحية
نقله من اللغة الروسية الى العربية : الكسندروس
(مطران حمص وتوابعها) طبعة ١٩٦٥ ص ٢٩٦

مع حلول العام الآتي (١٩٨٧) يكون قد قضى على تأسيس اول أبرشية للكلدان ، في لبنان ، ثلاثون سنة ، للحرب منها ما يزيد على الثلث ، وهي كسواها من الابرشيات التي خسرت اما مقرّات لها واما كنائس أو أكثر . بيد ان المركز الجديد لهذه الابرشية يُفترض أن يتم بناؤه وتجهيزه قريبا ، بحيث ان وضع حجر اساسه كان في صيف ١٩٨٠ ، « فوق ارض تبلغ مساحتها سبعة آلاف ومائتي متر مربع في الحازمية ـ برازيليا »[1] ، شرق بيروت . وهذا المشروع قدمه الرئيس العراقي

---

(١) المطران روفائيل بيداويد (مطران بيروت على الكلدان): الكنيسة الكلدانية ـ مجلة « المنارة » ، السنة ٢٧ ، العددان الاول والثاني ١٩٨٦ ، ص ١٨٨ .

صدام حسين « هدية للطائفة في لبنان » (٢) .

والحقيقة هي ان تاريخ الكنيسة الكلدانية ، في لبنان، « يرتقي الى اواخر الجيل الماضي » (٣) ، اذ لجأ الى هذا البلد المضياف عدد غير قليل من العائلات الكلدانية يتقدمهم الخوري يوسف الطويل من ديار بكر ، وذلك عام ١٨٩٥، هربا من مذابح الاتراك والاكراد في بلاد ما بين النهرين » (٤) . وهؤلاء « لحقت بهم موجة جديدة خلال الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، وموجة ثالثة خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) من مختلف بلدان الشرق الاوسط وايران وتركيا » (٥) ، مما دعا الكرسي الرسولي ، عام ١٩٣٨ ، الى تعيين مدبر رسولي لهم ، « ليرعى شؤونهم الدينية مع الكلدان في سوريا والاسكندرونة » (٦) . وظلوا هكذا حتى عام ١٩٥٧ ، وحينئذ تأسست الابرشية فأسندت « ادارتها الى المطران جبرائيل نعمو المدبر الرسولي السابق ، ومنح لقب مطران بيروت على الكلدان » (٧) ، وهذا خلفه المطران جبرائيل كني ، والاخير تلاه المطران الدكتور روفائيل بيداويد .

قبل المضي في المقارنة بين ماضي الكلدان وحاضرهم ، لا بد من التعريف بالكنيسة المسيحية أولا ، فهي ، كما

---

(٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧) المصدر نفسه .

يراها الروسي افيغران سميرنوف : « جمعية بشرية اسسها ربنا يسوع المسيح ، تتألف من أناس متحدين مع بعضهم بايمان واحد به كإله فادي وبتعليم واحد موحى وخدمة الهية واسرار واحدة ، بادارة وقيادة رئاسة اقامها الله لاجل البلوغ الى الكمال الادبي والخلاص » (٨) . ويعتبرها سويريوس يعقوب توما (٩) « جماعة المؤمنين بتوحيد الله وتثليث اقانيمه ايمانا مستقيما ، والمبتاعين بدم الاقنوم الثاني المتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء . فيسمون مؤمنين : لانهم يؤمنون بلاهوت المسيح ابن الله المتجسد. ويدعون مسيحيين لانهم يدينون بدينه وقد مُسحوا بمسحة القدوس أي الميرون المقدس » (١٠) (*) .

ويذهب القس بطرس نصري الكلداني (تلميذ مجمع

---

(٨) تاريخ الكنيسة المسيحية ، نقله من اللغة الروسية الى العربية الكسندروس مطران حمص وتوابعها ، مطابع الفجر — حمص ١٩٦٥ ص ٩ .

(٩) هو الرئيس الاعلى السابق للكنيسة السريانية الارثوذكسية . انظر « البطريرك يعقوب الثالث » ص ١٢٥

(١٠) تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية ، تأليف سويريوس يعقوب توما (البطريرك يعقوب الثالث) ، الجزء الاول ، طبعة ١٩٥٣ ، ص ٣٣ . ويشير المؤلف ، في حاشية رقم (١) الى ان هذا هو رأي القديس تاوفيلوس الانطاكي في مقالته ضد اوطوكيس ١ : ١٢ .

(*) الميرون هو زيت الزيتون وضع فيه ٤٠ زهرة من أنواع مختلفة .

انتشار الايمان) بعيدا ، فيكتب في معنى الكنيسة السريانية وتسمياتها المختلفة ، واحوالها دينا ودنيا ولغة في زمان ظهور النصرانية قائلا :

« ان الكنيسة تأتي على معنيين بمعنى عام وبمعنى خاص . فالكنيسة بالمعنى الاول هي جماعة اقامها المسيح من المؤمنين المعمَّدين المعتقدين بحقائق واحدة والعاملين بشرائع واحدة دينية ، وهم يشتركون باسرار واحدة تحت رعاية رئيس واحد روحي وهو حبر رومية خليفة بطرس الرسول » .

ويتابع قائلا :

« وبالمعنى الثاني هي جماعة أو طائفة مخصوصة من المؤمنين المشتركين مع الكنيسة الجامعة اي الكاثوليكية بالاعتقادات والشرائع والاسرار الدينية والطاعة لرئيسها الروحي الاعظم . الا ان لها تهذيبات وعوائد طقسية مخصوصة بها وهي محصورة في اقليم ، او ولاية ، او جهة كبيرة ، تحت ادارة رئيس خصوصي من طقسها يتولى امرها ويسعى لحفظ عوائدها التهذيبية والطقسية التي تتمسك بها . وعليه فكانت جماعة السريان المشارقة

والمغاربة [١١] كنيسة بالمعنى الثاني لانها جزء من الكنيسة الجامعة » [١٢] .

ويكتب المطران سويريوس اسحق ساكا [١٣] « كنيستي السريانية » [١٤] فكأنه ليردّ على القس نصري وجميع الذين يرون رأيه ، حيث يقول :

« الكنيسة الانطاكية السريانية الارثوذكسية :

---

(١١) المقصود بالسريان المشارقة الذين يسكنون بلاد الجزيرة ، الى ما بين النهرين وكردستان والعراق وآثور وفارس وتركستان والهند . والسريان المغاربة الذين يسكنون البلاد الواقعة غربي الفرات وهي سورية او بلاد الشام .

(١٢) القس بطرس نصري الكلداني : كتاب ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان ، مجلدان : الاول طبع في الموصل في دير الاباء الدومينيكيين سنة ١٩٠٥ ، والثاني طبع في الدير نفسه سنة ١٩١٣ . المجلد الاول ص ٢٨ . وهذا الكتاب اخذته من الصديق الاب لويس الديراني الكلداني ، ناقصا بعض الصفحات (؟) ، اذ انه ينتهي بصفحتين فقط من الفصل الاول من الباب السادس عشر ، من الحقبة الرابعة ، الذي عنوانه : « في نجاح الطائفة السريانية الكاثوليكية في اواخر القرن الثامن عشر فصاعدا ، والفصل عنوانه « في اختيار ديونوسيوس ميخائيل جروة مطران حلب بطريركا » .

(١٣) هو النائب العام لمار اغناطيوس زكا الاول عيواص ، بطريرك انطاكية وسائر المشرق ـ والرئيس الاعلى للكنيسة السريانية الارثوذكسية الجامعة . له مؤلفات عدة ، اكثرها بالاشتراك مع البطريرك نفسه ، مذ كان الاخير مطرانا .

(١٤) ٣٤٨ صفحة من القياس الكبير ، مطابع ألف باء ـ الاديب ـ دمشق ، الطبعة ١٩٨٥

هو العنوان الكامل والتسمية المشرّفة لهذه الكنيسة الجامعة المقدسة ، مبنية على معطيات الانجيل المقدس ، ونابعة عن (كذا) تاريخ الحضارة المسيحية ، وحاصلة عن (كذا) مجريات الاحداث الكنسية ، ومترجمة للعقيدة الرسولية السليمة » •

ويقول أيضا :

« هذه هي الكنيسة التي نشأت في القدس مؤلفة من الرسل والمبشرين وامتدت الى انطاكية وشملت الامم والشعوب كافة ، وجمع شملها القديس مار أغناطيوس النوراني ثالث بطاركة انطاكية ١٠٧ + واطلق عليها تسمية الجامعة وظلت حتى اليوم محافظة على ما رسمه السيد المسيح والرسل والآباء الاولون من عقيدة وايمان وفروض العبادة ، والتقاليد ، واللغة ، ممثلة خير تمثيل الكنيسة المسيحية التي ولدت يوم الخمسين بحلول الروح القدس • ولقد لعبت دورا اساسيا بارزا في تاريخ المسيحية بعلومها ووطنيتها (•••) وصانت استقلالها الديني بتضحيات آبائها وجدودها وابنائها البررة • ولم تحن هامة لتستعبَد لا للشرق ولا للغرب بل ظلت كنيسة حرة • وقد قسا الدهر عليها كثيرا فصمدت في وجه ما انتابها من الشدائد والمحن » [١٥] •

---

(١٥) المطران اسحق ساكا : كنيستي السريانية ص ٢٢

فاذا نحن أخذنا بما قاله سميرنوف وتوما (يعقوب الثالث) وكلاهما على حق ، فان حكما قد ينشأ ، من خلال الموازنة بين مقولتي القس نصري والمطران ساكا ، على تاريخ الكنيسة ، ومفاده ان هذه الكنيسة تعاني ، ومنذ نشأتها ، مجاذبة الحجج فيما يتنازع فيه الخصمان ، ولولا ذلك لبقيت الكنيسة المسيحية على مجدها ، وهي التي بسطت ثوبها الانيق على الشرق ، كما على الغرب ، من أجل مسيحية واحدة موحدّة •

يتفق أحبار الكنيسة ورؤساؤها ومؤرخوها على ان شهداء المسيحية الاولين هم على درجة واحدة من الايمان والتقوى والقداسة ، وتراهم مختلفين أشد الاختلاف في تفسير المواقف والآراء والاجتهادات ، الصادرة عمن سبقهم من بطاركة وجثالقة واساقفة ورهبان وقسس ، ولهم ، في هذا ، طرائق ومذاهب ، واهداف ومآرب ، استحال ـ حتى الان ـ توحيدها والتوفيق بينها • ولطالما حاول المخلصون اختصار المسافة بين الكنيستين : الشرقية والغربية ، وتوطيد السلام بين رجالات المسيح ، الا انهم كانوا يبوؤن بالفشل المروع ، فيُضطهَدون أو يُبعَدون عن مسرح الحياة ، ومعظمهم قد وُسم بالخيانة والانحراف ، فغمرهم البؤس والشقاء حتى الاجل المحتوم !

ففي عام ٦٣٠ ، مثلا ، بدأت الفتن والاضطرابات

تدك العرش الفارسي ، فقتـِل في غضون أيام قلائل ملكان هما : أردشير وشهريون ، فملّك الفرسُ عليهم بوران ابنة خسرو الثاني وأخت الملك شيروي الذي قيل ان شيرين الملكة احتالت على قتله وسمّته لانه قتل ابنها مردانشاه (١٦) . وعلى كون بوران هذه ذكية « لم يخطر (ببالها) ان العرب المسلمين يزمعون ان يهجموا على مملكة الفرس ويقرضوها بل كان الخوف من جهة الروم » (١٧) فحسب .

و « ارادت بوران ان تستدرك الامر بتوثيق عرى السلم بين المملكتين ، (ف) انتخبت لاجراء هذا الامر المهم ايشوعياب (الثاني) الجاثليق (٦٢٨ — ٦٤٥) فسألته ان يمضي برسالتها الى هرقل » (١٨) ، الذي كان ،

---

(١٦) المطران ادي شير : تاريخ كلدو وآثور ، مجلدان ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت ١٩١٣ ، الجزء الثاني ص ٢٤٩ . وهذا الكتاب أيضا أخذته من الصديق الاب لويس الديراني . وكنا نتمنى لو ان المطبعة الكاثوليكية تمكنت من اصدار الجزء الثالث ، الذي انجزه مؤلفه على ما ذكر ، والذي قيل انه ضاع اما في المطبعة واما في مكان ما (؟) والكتاب بحالته الحاضرة قيم ونفيس، تسوده الموضوعية في عرض الاحداث وتحليلها ، كما في الرد على بعض المؤرخين وتصويب اخطاء وردت في ابحاث لهم او مقالات او كتب .

(١٧) (١٨) المصدر نفسه .

حينئذ ، في حلب ، فقبل الجاثليق هذه المهمة ، وسافر باتجاه ملك الروم يرافقه لفيف من المطارنة والاساقفة(١٩) .

عن هذه السفارة التاريخية تحدث المؤرخ الشهيد المطران ادي شير الكلداني (١٨٦٧ — ١٩١٥) (٢٠) قائلا :

---

(١٩) عرف منهم : قرياقوس مطران نصيبين وجبرائيل مطران بيت كرماي (ان وضع ثلاث نقاط على الـ كه ،لتلفظ چ .. أو مثل چ المصرية.) وبولس مطران حدياب وايشوعياب بن يسطو هماغ أسقف نينوى الذي صار بعدئذ جاثليقا وساهدونا أسقف ماحوزا اديون وماروثا أسقف كوسطرا ، ويوحنان أسقف دمشق (والاخير لحقهم على ما يقول التاريخ السعردي) .

(٢٠) هو اسمر صليوا ابن القس يعقوب من عائلة شير (الاسد) ولد في شهر شباط من عام ١٨٦٧ في بلدة شقلاوة التابعة لابرشية كركوك سابقا . تلقى العلم على يد والده وعكف على مطالعة كتب العائلة . وفي سنة **١٨٧٩ دخل معهد** مار يوحنا الاكليريكي في الموصل ، حيث ظهرت مواهبه العالية وذكاؤه الوقاد . رسم كاهنا في عام ١٨٨٩ باسم ادي ورسم مطرانا على الابرشية نفسها في عام ١٩٠٢ . وبدأ بمعالجة الاوضاع المتردية لشعبه في تلك الايام ، فقام بزيارة لاسطنبول وروما وفرنسا للتعرف على المستشرقين هناك وجمع المعونات لافراد طائفته . وفي عام ١٩١٥ وعلى اثر هزائم الجيش العثماني امام الحلفاء صب العثمانيون جام غضبهم على بني قومه فاعتقلوه ، وانهالوا عليه ضربا وتعذيبا واتوا به الى قرية (ديرشوا) حيث قتلوه رميا بالرصاص وقطعوا رأسه تأكيدا على قتله في ١٥ حزيران ١٩١٥ .
كان ادي شير مولعا منذ حداثته بتاريخ امته والرجال =

« فدخل عليه (هرقل) بطريرك المشرق (والوفد المرافق) وسلمه الرسالة وادخل عليه الهدايا التي انفذتها معه بوران الملكة • فرحب به الملك واحسن مثواه وسهل مطالبيه وقضى حاجته » •

وقال :

« ان هرقل كان تقيا متمسكا تمسكا شديدا بالمذهب الكاثوليكي • فسأل الجاثليق عن ايمانه واجتهد في استجلابه اليه • (على ان) مار ايشوعياب كان من تلامذة حنانا وان تعاليم هذا الملفان كانت كاثوليكية • فاقر (الجاثليق) او (البطريرك) قدام الملك واعيانه واساقفته

= العظام الذين برزوا على مسرح الاحداث خلال الاجيال فبذل ما في وسعه لمعرفة سيرهم ومؤلفاتهم ، فكتب عنهم في الكتب والمجلات الدولية . وقد بلغت مصنفاته أكثر من ٢٧ كتابا وبحثا باللغات : السريانية والعربية والفرنسية والتركية . ومن بين اشهر هذه المصنفات كتاب جنة المؤلفين لادباء الكنيسة الشرقية من البداية حتى القرن التاسع عشر ، وهو مفقود . « مدرسة نصيبين » ، « تاريخ سعرد » ، ولعلّ أشهرها « تاريخ كلدو وآثور » بالعربية ، ويقع في مجلدين مثلما قلنا ـ أعلاه . وهو يتطرق الى تاريخ الامة الاشورية الكلدانية ، والى تاريخ الكنيسة الكلدانية النسطورية حتى مجيء الاسلام . وأما الجزء الثالث فيتطرق الى تاريخ الكلدان او الاثوريين منذ ظهور الاسلام وحتى القرن الثامن ، الا انه يعتبر من كتبه المفقودة حسبما مر معنا .

بالايمان الكاثوليكي ، فقبلوه في شركتهم واذنوا له أن يقدس على مذابحهم وتناولوا من يده • وخلع عليه الملك وعلى كل من معه واحسن جائزتهم وكتب الى بوران جواب كتابها وضمن لها ان يمدها بالجيوش متى دعت الحاجة » (٢١) •

ولكن بوران الملكة الحالمة « لم تقتطف الاثمار التي طلبتها من توثيق السلم بينها وبين هرقل ملك الروم » (٢٢) • لان بيروز صاحب الجيش « احتال عليها وخنقها » ، ولم يكن قد مضى على تسلمها العرش سوى ستة عشر شهرا ، « فوقع الخلف والشقاق في المملكة وصار الجيش ثلاث فرق » (٢٣) متنازعة متناحرة ، الامر الذي جدد الحرب بين الفرس والروم لعشرين سنة أو أكثر ، انتهت بزوال الدولة الفارسية على يد العرب الذين هم أيضا أزالوا الامبراطورية البيزنطية العظمى •

كان هذا حظ بوران • أما البطريرك ، وان هو لم يَلْقَ ما لقيته الملكة ، فقد أزعجه « الانفتاح » على الروم والغرب ، كما سبّب له الاهانات الجارحة واللوم والتثريب ممن هم أقل منه علما وشأنا •

---

(٢١) كلدو وآثور : ص ٢٤٧

(٢٢) (٢٣) المصدر نفسه .

يقول المطران ادي شير :

« ان هـذه السفارة مرمرت حياة مار ايشوعياب الثاني . فان صورة الايمان التي قدّمها الى الملك بلغت الى مسامع الكلدان وبلغهم أن بطريركهم قدّس على مذابح الروم . وكما شرط عليهم ألاّ يذكروا اسم كيرلّس الاسكندري شرطوا عليه ألا يذكر هو أيضا اسماء ديودوروس وتئودوروس ونسطوريوس [٢٤] . فشقت هذه الاخبار على النساطرة وطعن به جماعة منهم طعنا شديدا حتى انهم أرادوا عزله » .

أضاف ادي شير :

«وكان من جملة القوم برصوما أسقف كرخ ليدان ، وبيرو الملفان . وهذا الاخير بلغت به الجسارة الى أن وثب على الجاثليق في مجلسه الحافل بالناس الحاضرين للسلام عليه ، وكدّره وشتمه قائلا له : « يا بائع الايمان بالرشوة ومعطي الملوك شهواتهم في الدين بالفضة والمنصرف الى

---

(٢٤) انظر كتابنا « نحن ... وصنمية التاريخ » ، طبعة ١٩٨٦ ، الباب الثاني ــ المحور العربي ، الفصل التاسع : « الآشوريون والنساطرة الى اين ؟ » من ص ٣٤٢ الى ص ٣٥٩ . وانظر أيضا : « الاشوريون » لمؤلفه عزيز برخو عزيز . طبعة ١٩٨٥

رعيتـه بالخزي لماذا قدمت هنا ولم تبق حيث أُعطيت الرشوة وقبلت الهدية والطرفة » (؟) فغضب الحاضرون وهاجوا ، ثم « قاموا وأوجعوا بيرو ضربا وأرادوا قتله لولا ان الجاثليق وقع عليه وغطّاه بردائه »[٢٥] .

بعد ذلك كتب اليه الاسقف برصوما رسالتين«شديدتي المآل احداهما وقف الجماعة عليها والاخرى سُتِرت عنهم » على ما يقول ادي شير [٢٦] . ومما قاله برصوما في الرسالة الاولى :

« ان وهدة عميقة بيننا وبين اليونانيين . فأوّلها ومبتدأ عمقها المجمع الذي كان بمدينة خلقيدونية(٤٥١م). ذلك الذي دفع عن الناس الاستواء ... وقبل قورلس معدن اللجاج ومنشىء الشقاق وموقع النفاق ... انك نفثت الآباء القديسين والمعلمين المختارين ديودوروس وتئودوروس ونسطوريوس عندما لم يُذكروا في القداس الذي قدست في بيعة الملك الطارد لهم الجائر عليهم ... فكيف تبعك قلمك في ما ابطلت به حجة اصحابك وصحّحت على نفسك الطعن في رعيتك بأنك داهنت في ايمانك وقبلت الرشاء في مسيحك .. فبماذا تغسل الآن وجهك عند أهل المشرق »[٢٧] .

---

(٢٥) كلدو وآثور : ص ٢٤٩ .
(٢٦) (٢٧) المصدر نفسه .

وفي الرسالة الثانية ، وهي كانت أعنف وأشد من الاولى ، خاطب الاسقف برصوما البطريرك ايشوعياب قائلا له :

« ارفعْ الآن عنك الامل الخادع بأن تدعى جاثليق المشرق . فآحا وأقاق الجاثليقان اللذان ذهبا برسائل الملوك لم يثلما ياقوتة أمانتهما فوفيا الله حقه وأعطيا قيصر واجبه .. توهمتَ انك خدعت الملك والحق أقول انه سخر بلحيتك .. فان كان عقلك فارقك في ذلك الوقت ونخوتك اسرتك حتى اعمتك عن الرشد فكان ينبغي عند إفاقتك أن تصلح ما أفسدت .. أوَ ما تعلم ان هذا وقت ما ينبغي أن يُتَّخذ فيه المال ولا يُستكثر من الكسوة فان الناس فيه على شر حال من تغيير الممالك ونفوذ الخوارج »[٢٨] (؟) .

وختم برصوما رسالته هذه قائلا :

« نجمل الآن قولنا ونقول عن جماعة الآباء المهتدين والرؤساء القديسين انه ليس لك معنا نصيب .. وهنَّأك الله بفطركة (بطركة) قسطنطينية وذهب قيصر وخِلَعه

(٢٨) يعني العرب المسلمين الذين تقووا اذ ذاك وبدأوا يفتحون البلاد .

وكرامة بوران وورقها . فان جرحك لا يندمل بالمراهم الارضية »[٢٩] .

يذكر المؤرخون ان الجاثليق ايشوعياب أجاب برصوما « معتذرا (معترفا) بما ارتكبه من الخطأ وقال انه لم يقصد بما فعله الا ليزرع السلام في القلوب ويقرّب أمر السفارة التي أُنفذ فيها »[٣٠] .

ليس ايشوعياب وحده المناضل من أجل السلام ووحدة الكنيسة . فهنالك أيضا الكثيرون من آباء السريان المشارقة والمغاربة ممن جاهدوا في سبيل مدّ الجسور بين الشعوب المسيحية ، في كل مكان ، فبعضهم صمد وثابر ، وبعضهم تراجع أمام العقبات والمصاعب التي كانت هي الاقوى والاخطر اذ تعددت مصادرها وتضاربت اهدافها وغاياتها .

لا يمكننا طبعا القاء المسؤولية على فريق دون سواه . فالارض ـ أرض السريان ـ هي كالرمال المتحركة والملوك مهما تواضعوا وتسامحوا وعدلوا ، هم ملوك ، لهم مصالحهم وسياساتهم التي تقرر التحالف والتعاون مع هذا الفريق أو ذاك ، كما تقرر الحرب والعداء مع هذا الفريق أو ذاك . على ان هؤلاء (الملوك) مرتبطون بالمؤسسات الدينية ، التي غالبا ما تكون هي الملكة على

(٢٩) (٣٠) كلدو وآثور ، المصدر نفسه .

الملوك ، والحاكمة على الحكام • فملوك المشرق كـانوا ينسّقون مع زعماء المجوسية أو الزرادشتية أو اليهودية، وربما معهم جميعا ، ضد النصارى • وملوك الغرب كانوا ينسقون مع بـاباوات رومـا وبطاركـة القسطنطينيـة والاسكندرية ، وأحيانا مع اليهود أيضا ، ضد المسيحيين المخالفين للايمان الكاثوليكي الذي حـددته « المجامـع المقدسة » •

هكذا يُكتب تاريخ الكلدان والأشوريين والسريان والارمن(*)والاقباط•وكل ما عدا ذلك هو بعيد عن الواقع، الذي في مجمله ، محزن ومرير •

فمن أول شهيد مسيحي وإلى اليوم ، والسياسة هي أعلى القضايا على الاطلاق • الشهداء بعضهم مثل بعض ، والطغاة بعضهم مثل بعض أيضا •

يقول القس بطرس نصري الكلداني :

« ان الروم في حروبهم مـع الفرس كانوا يسْبُـون جنود الاعداء ويسكنونهم في بـلادهم • وكان الفـرس يصنعون كذلك بالروم ، كما تؤكد لنا ذلك آثار القدماء

(*) يجب أن نلفت ، هنا ، الانتباه الى كتاب « الارمن عبر التاريخ » لمؤلفه مروان المدوّر ، منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت،طبعةأولى١٩٨٢،وهو يسدّ، فعلا، ثغرة واسعة في المكتبة العربية التي تكاد تخلو ، من أي مؤلف بالعربية عن تاريخ الشعب الارمني وعلاقاته بالشعوب والامبراطوريات القديمة والحديثة على مدى القرون التي سبقت الميلاد وحتى اليوم •

وتواريخهم • من ذلك نعلم أن الروم تحت قيادة موريقي غزوا الفرس وسبوا منهم زهاء سبعين ألف نفس ومضوا بهم فأسكنوهم جزيرة قبرس كما روى ابن العبري في تاريخ الدول • وكان معظم الجنود النصارى الذين حمّلوا الى قبرس نساطرة • وكان أسقف قبرس النسطوري يراجع جاثليق المدائن ويدين له وينال منه السياميذ • وبقي الامر كذلك الى أن عاد طيماثاوس اسقفها هو وقومه الى حظيرة الكنيسة في عهد أوجانيوس الرابع (٣١) الذي سمّاهم كلدانا » (٣٢) •

والواقع هو ان التبادل السكاني بين الدول قـديم العهد ، كما ان كثيرا من الملوك والقادة ، الذين انتصروا في الحروب ، قد استحدثوا مـدنا وأسكنوا فيهـا أسرى ومهجّرين ، مما جعل الامم والشعوب تتناثر أو تتنفش ، كالصوف أو كالعِهادة ـ أول مطر الربيع • فبات من الصعب بمقدار التسليم بـ « أصالة » شعب أو طائفة أو جماعة تسليما مطلقا •

من أين جاء الكلدان ؟

(٣١) اوجينيوس ، (١٤٣١ ـ ١٤٤٧) هو السادس بعد المائتين في سلسلة الباباوات .
وعن الاتحاد مع روما ونشأة البطريركية الكلدانية، انظر أيضا دراسة المطران بيدادويد ، في مجلة « المنارة » المذكورة سابقا .

(٣٢) بطرس نصري : ذخيرة الاذهان ج ١ ص ١٩١/١٩٢

يقول المطران ادي شير :

« ان أرض ما بين النهرين هي البقعة الكبيرة التي يكتنفها الدجلة والفرات وتسمى في سفر الخليقة بأرض سنعار ويدعوها الكلدان بيت نهراواثا أو بيت نهرين ، والعرب الجزيرة ، واليونان ميزوبوتاميا . وينشأ الدجلة والفرات في أرمينية في جبل نيفات المعروف الآن بجبل قلشين . ويبتدىء النهران أولا بالمسير في جهتين متوازيتين فيجري الفرات من الشرق الى الغرب حتى مالاطية والدجلة من الغرب الى الشرق متوجها نحو آثور » .

أضاف :

« ثم ان الفرات عند مالاطية يبدّل فجأة مجراه نحو الجنوب الغربي ثم نحو الجنوب الشرقي . وكذلك الدجلة يميل نحو الجنوب ولا يزالان كذلك تارة يقتربان وتارة يبتعدان حتى يختلطا في مجرى واحد يُسمّى شط العرب ثم يصبان في خليج العجم » [٣٣] .

على هذه الارض الخِصب ، ذات الخير الكثير والجناب الرحب ، وُلِدت الكنيسة الشرقية ، فنمت وترعرعت ، وازدهرت لفترة من الزمن ، ثم أتاها القهر والاضطهاد حتى تضاءل عدد ابنائها ، وتراجعت ابرشياتها ،

(٣٣) كلدو وآثور : ج ١ ص ١ .

فلا السياسات الشرقية ترفقت بها ، ولا السياسات الغربية نفعتها ، فيما ظل رؤساؤها يتحاسدون ويتصارعون على الكراسي ، مثلما زعماء العشائر والقبائل !

لقد وُلدت الكنيسة، في هذه البقعة الوسيعة ، ووُلد معها الشقاق والنزاع . و « كان الخطر الاعظم الذي يهدد الكنيسة، في العصر الرسولي ، هو تعصّب اليهود المتنصرين للناموس والشريعة » [٣٤] ، فـ « لما أشرق نور الانجيل على الأرض واستضاء به الناس فبعض الذين تنوّروا به من اليهود والوثنيين بقوا متمسكين ببعض عقائدهم وعوائدهم القديمة وخلطوا عقائدهم اليهودية أو الوثنية مع العقائد النصرانية . وغيرهم اخترعوا بدعة جديدة إما لكون العقائد المسيحية فوق طاقة نور عقلهم الطبيعي أو تكبرا أو محبة بالشرف والمنافع الشخصية أو سياسة» [٣٥]

عن أي مذبحة نُفِّذت في نصارى الشرق تتحدث ؟

وعن أي ملك أو امبراطور أعمل رجاله سيوفهم في أعناق وبطون مسيحيي الشرق تتحدث ؟

« لم يتعرض المسيحيون القاطنون في الامبراطورية

(٣٤) اسحق ساكا : كنيستي السريانية ص ١٩ .
(٣٥) كلدو وآثور : ج ٢ ص ١٨ .

الفارسية للاضطهاد طالما كانت الامبراطورية الرومانية تدين بالوثنية • ولكن ما ان صدر مرسوم ميلانو سنة ٣١٣ الذي فيه أعلن الملك قسطنطين الكبير شرعية الديانة المسيحية في امبراطوريته ، بل تشجيعه لها ثم انتماءه اليها ، حتى تغيّر موقف الفرس من رعاياهم المسيحيين وأخذوا يرنون اليهم شزرا ويكنون لهم كراهية ويضمرون لهم الشر والعداء » [٣٦] •

الفرس طامعون في ارض السريان (*) (Assyrian) وكذلك الرومان • فليس للسريان الا ان يسترضوا هذه الامبراطورية أو تلك • فالارض غالية ، والتنازل عن الدين أو المعتقد أمر مرفوض ابدا • واذاً ، لا مجال للسيطرة على البلاد وأهلها ، الا بزرع الفتن وقمع الحريات وملاحقة المؤمنين، والترغيب بالمناصب ، وتشجيع المنافسة الحادة على البطركة والاسقفية وسائر الرتب والوظائف الدينية وغير الدينية •

وعلى خطى الفرس والرومان سار العرب ، ثم الافرنج، ثم الاكراد والتركمان والمغول والمماليك والعثمانيون والروس والانجليز ، فضلا عن القناصل الاوروبيين في حلب وبيروت

---

(٣٦) الاب ألبير ابونا : تاريخ الكنيسة الشرقية ، المطبعة العصرية ـ الموصل ، ١٩٧٣ ، ج ١ ص ٣٧ •

(*) نقول السريان ، هنا ، لنعني : الآشوريين والكلدان والسريان •• لهذا اقتضى التنويه •

ودمشق وبغداد وأنقرة وطهران وسائر العواصم الشرقية •

في هذا الخضم الرهيب استمرت الكنيسة الشرقية تنزف الدم وتلعقه في آن معا • فمن كل الجهات هبّت عليها العواصف والرياح الملوّثة • ومن كل الجهات أيضا نزلت بها الكوارث والاحزان • فما كان لابنائها ، شعبا ورؤساء، الا أن يضطربوا ويقلقوا ، اذ السفينة توشك أن تغرق والملاحون أكثر من الشعب !!

من على ظهر السفينة المقاومة ، يحلو للخائفين والمروّعين الرجوع الى التاريخ ، وتاليا الى المثل القائل : « الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون » •

يقول المطران ادي شير :

« ان الامة الآثورية أو الكلدانية كانت من أشد الامم بأسا وأكثرهن قوة عصبية وكانت مائلة الى الحرب والقتال، ولذلك حصل لملوكهم أن يفتتحوا بلادا كثيرة ويخضعوا أمما شتى • وكان لا بد لهم من أن يباشروا غزوة في كل عام أي زمن الربيع » [٣٧] •

ويجمع المؤرخون على ان ملوك الآثوريين أو الكلدان « اشتهروا بقساوة القلب والمعاملة الوحشية نحو العدو اذ كان أكثرهم يأمرون بسلخ أجسام الاسرى أو بصلبهم

---

(٣٧) كلدو وآثور : ج ١ ص ١٩

أو بقلع عيونهم ويفتخرون بذلك مدّعين انهم انما يعملون هذا بأمر آلهتهم » [٣٨] .

أجل ! ولكن «أغلب الامم شاركت الامة الآثورية في هذه القساوة نحو الاسرى » [٣٩] ، مع التأكيد على الفرق والتباين بين هذه وتلك ، وهو ان ما فعله الملوك الآثوريون أو الكلدان فاق كثيرا ما فعله سواهم ، وقد برز هذا بوضوح تام في كتاباتهم وعلى تماثيلهم وجدران قصورهم، كما يثبت ذلك علماء الآثار والحفريات .

فمثلا ، لا حصرا ، قال أحدهم وهو آسوربانيبال،عن أويته أحد ملوك العرب : « اني ثقبت فمه بمديتي التي بها أقطع اللحم . ثم جعلت في شفته العليا حلقة من الصفد وعلقت الحلقة بسلسلة كما أفعل بكلاب صيدي » [٤٠] .

هل الغالب صيّاد ، والمغلوب كلب أو خنزير بري او وحش ؟

على ما يبدو ، نسي الجبابرة الاثوريون ان الظلم يجر الظلم ، والعدل يفترض الاحسان . فكانوا ذئابا خاطفة ، وما علموا أن للطغيان نهاية مهما تطاول وتعاظم !

ليت دماء شهداء الكنيسة الشرقية غسلت عار الظالمين وذنوبهم وحماقاتهم .

---

(٣٨) كلدو وآثور : ج ١ ص ١٩

(٣٩) المصدر نفسه .

(٤٠) المصدر نفسه .

غلب الآثوريون فتفجرت الاحقاد الدفينة والمخزونة، وراحت تحصد كل من يقف في وجهها ، بلا حساب ولا عقاب . وللبرهان على ما نقول اتخذنا مثلين متباعدين زمنيا : الاول من عهد شابور الاول الفارسي ، الملقب بذي الاكتاف (٢٤١ — ٢٧٢ م) ، والثاني من العهد العثماني ، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، وأياً كانت هوية الظالم أو المظلوم ، فان للظلم معنى واحدا ، كما للرحمة معنى واحد ، وليس بينهما أي شبه أو تجانس .

روى القس بطرس نصري فقال :

« أما شابور فاستدعى اليه (الجاثليق) شمعون (برصباعي) القديس ثانية . وكان ذلك يوم الجمعة الذي فيه تتذكر الكنيسة آلام المسيح . وأفرغ قصارى جهده ليستميله الى الكفر بدين المسيح . ولما لم يستفد سوى الخيبوبة أمرَ بقطع رأسه ورأس كل رفقائه الذين كانوا في السجن . وكانوا زهاء مئة رجل كان قد أتى بهم شابور من جهات مختلفة ومنهم خمسة أساقفة وكثير من الكهنة ومن سائر طغمات الاكليروس » .

أضاف يقول :

« ولا يسعنا أن نصف الفرح الذي شمل المعترفين لدى سماعهم بحكم الموت بينما كان شمعون يشجعهم بكلامه المؤثر ويقوي عزمهم على الشهادة من اجل ايمان

المسيح . فانهم لما عرض الوالي عليهم أمرَ الملك صرخوا كلهم بصوت واحد : اننا مسيحيون فافعلْ بنا ما شئت . وهكذا بين هذا الهتاف أمضى الجلادون سيوفهم بالمعترفين » (٤١) ولم يعفوا عن الجاثليق – رئيس الكنيسة.

واستمرت ، طبعا ، الاضطهادات ، بشكل أو آخر ، على مدى الازمنة المتتابعة المتلاحقة ، حتى قلّ عدد المسيحيين الكلدان أو الآثوريين ، وانحصرت بِيَعُهم وكنائسهم في المدن الكبرى ، فدخلت الاكثرية منهم في الاسلام لتحمي نفسها من الموت والسحق ، الا الذين أبوا الرجوع عن نصرانيتهم ، فأولئك تعذبوا وشرّدوا من مدنهم وبيوتهم وقراهم ، على ان بعضهم ذُبح أو قُتل كمن سبقهم على طريق الجلجلة. وما مصرع يونان الكركوكي الا واحد من الادلة القاطعة على ما حمله العصر الحديث، الى الكنيسة الشرقية وأبنائها ، من المحن والمظالم .

يقول القس نصري أيضا :

« كان يونان مسقط رأسه في كركوك . وفي الربع الاخير من القرن الثامن عشر كان أبوه عبد الاحد قد هرب به الى بغداد بسبب المجاعة التي عمّت كركوك

(٤١) ذخائر الاذهان : ج ١ ص ٨٠/٨١ .

ونواحيها . وباعه لرجل من أعيان المسلمين وكان بعد صبيا غير يانع . فختنه سيده وحسبه مسلما . أما يونان فلما أحس على نفسه هجر بيت سيده بعد وفاته وتمسك بالنصرانية » .

وقال :

« ولازم (يونان) صناعة الخياطة عند رجل كلداني أو بالأحرى أرمني اسمه داود . وكان رئيس الخياطين عند باشا المعروف بالكولا وزير بغداد . واكتشف على أمره اتفاقيا . فانه تشاجر يوما مع يونان أحد المسلمين . فسعى هذا به لدى اقاربه المتعصبين من المسلمين قائلا : ان هذا يونان هو مرتد لانه كان مسلما والآن يحسب نفسه نصرانيا . فطالبه المسلمون بالاسلام فأبى . فعرضت الدعوى الى المحكمة ووزير بغداد وأثبت اسلامه من الختان الذي يشهد عليه . لا بل ان يونان نفسه أقر بأن سيده قد ختنه حال كونه صغيرا » .

وتابع القس نصري قائلا :

« ولم يصغ الشرع الاسلامي الى هذه الحجة بل استعمل معه الوعد والوعيد ليستميله الى الاسلام . ولما لبث ثابتا في عزمه أبرز الحكم عليه بالموت بحد السيف .

وقبض عليه يوم عيد الشعانين من سنة ١٧٩٩ حيث خروجه من بيعة الكلدان • وأودع السجن ستة أيام بدون أكل وشرب• ثم أُخرج والإعلام بقتله معلَّق على عنقه وحُزّ رأسه في وسط سوق الميدان يوم جمعة الآلام • وقد ذكر هذه الرواية كثير من اهل بغداد وشهود العين فضلا عن أهل كركوك بني وطنه وقرابته وسكان الموصل وآمد» [٤٢]

ان أمة هذه هي أخبارها الدينية والسياسية والاجتماعية ، كيف لا تتقسم وتتفرق ؟ بل كيف لا تكون شيَعا وأحزابا وجماعات ؟

هل الكلدان سريانيون ؟ أم آشوريون ؟

من هم الآشوريون ؟

من هم السريان ؟

يؤكد المطران ادي شير « ان اسم الكلدان أو الآثوريين يطلق على شعب واحد دون تمييز لان لسانهم واحد وتمدنهم وعوائدهم واحدة لا تختلف • غير انه لما انتشرت الديانة المسيحية بينهم أهمل المتنصِّرون اسم الكلدان الآثوري لنفورهم من كل ما يدل على الوثنية • لان اسم

---

(٤٢) ذخائر الاذهان نفسه .

الكلدان في تلك الأحقاب صار مرادفا للمنجّم والفلكي » [٤٣] •

لذلك « اشمأزوا (الكلدان) منه (من اسمهم) وسمّوا أنفسهم مشارقة وكنيستهم الشرقية ، او الكنيسة الكاثوليكية ، أو الكنيسة التي في فارس • ولقبوا بطريركهم ببطريرك المشرق أو جاثليق ساليق وقطسيفون (المدائن) • وقد أطلق أيضا عليهم اسم السريان الشرقيين ولكنه اسم غريب خارجي أطلقه المصريون ثم اليونان على أهل سوريا • ومن اليونان استعاره الآراميون الغربيون » [٤٤] •

على كل ، لقد اختلف هؤلاء النصارى على أشياء كثيرة ، حتى على الاسم ، فنقلوا خلافاتهم الى حيث وصلت أقدامهم ، ولا سيما بلاد الملبار الهندية [٤٥] (*) • وكما السريان الارثوذكس (يصر المؤلفون الكلدان وغيرهم من الكاثوليكيين على تسميتهم: «اليعاقبة» (؟) (**) كما

---

(٤٣) كلدو وآثور : مقدمة الجزء الثاني .

(٤٤) (٤٥) المصدر نفسه .

(*) انظر الدراسة القيمة للاب الدكتور يوسف حبي ، عنوانها « الكلدان والملبار في القرن التاسع عشر » ـ مجلة « بين النهرين » (فصلية حضارية تراثية) تصدر من الموصل ـ العراق ، السنة العاشرة ، العددان ٣٧ ـ ٣٨ ، ١٩٨٢ ، من ص ٥١ الى ص ٧٩ .

(**) راجع الفصل الاول من هذا الكتاب المتضمن رد المطران جورج صليبا على الذين يتمسكون بتسمية السريان الارثوذكس « يعاقبة » ...

الآشوريون والكلدان ، فكل فريق منهم يحسب نفسه هو
المبشر المسيحي في تلك البلاد ،التي فيها أيضا عرفت الكنيسة
أنواعا شتى من الهموم والمعانيات .

الكلدان بين الماضي والحاضر موضوع شيق وشائك
وخطير . وبما ان التاريخ لا يرحم ، كان الحساب عسيرا
جدا ، في مختلف العصور والعهود .

كم حاول هؤلاء شطف الماضي ، بما فيه ، بماء دجلة
والفرات ، وبالقصائد والميامر والاناشيد والالحان ، التي
تشفي الروح والقلب من كل خبيث وكل سوء ، ولكن
السياسة رفضت هذه العروض الانسانية مثلما رفضت السلام
الدائم العادل بين الشعوب ؟!

فالطريق الى الكنيسة المسيحية ، اذاً ، كالطريق الى
المسيح ، الذي لا يستطيع معه صبرا سوى الطوباويين
والحلماء والشهداء !

أينما ذهب الكلداني أو الآثوري أو السرياني ، فان
رائحة دجلة والفرات تذهب معه . فهي على جلده ولسانه
كما في رئتيه . وأما الطبع فعنيد ومتسامح ، ومقدام وحذر ،
وهادىء وصاخب ، وساذج وساخر ، وكريم وسائل ،
وهيِّن وصعب ، وصلب وسريع العطب ، تماما مثلما هي
الارض التي يحتضنها النهران الخالدان : دجلة والفرات .

هل لهؤلاء أن يتحدوا ويلملموا كنائسهم التي أثقلتها
الاحداث والازمان ؟

لو يَدَعون « المجامع المقدسة » ومقرراتها جانبا ،
ويصْغون الى القديس ايسيدوروس البولوزي القائل
للبطريرك كيرلس الاسكندري ، رئيس مجمع افسس
(٤٣١ م.) وخطيبه ، وعدو نسطوريوس اللدود : « ان
التعجيل في الامور المشبوهة يقلل النظر . أما البغضة
فتعميه بالكلية . ان اردت أن تتجنب هذين العيبين عليك
ألا تحكم حكما شديدا بل أن تفحص بعدل عن الاسباب .
ان كثيرين من الذين اجتمعوا في افسس يقولون عنك ان
بغْيتك أن تأخذ بثأرك من أعدائك . لا أن تهتم حقيقة
بنافع يسوع المسيح . ويستتلون كلامهم انه هو ابن اخي
تئوفيلوس فيقتدي به أيضا ويجتهد في اكتساب الشرف قبل
عمه الذي القى غضبه على الطوباوي يوحنا ولو انه يوجد
فرق عظيم بين المشتكى عليهما » .

وقال ايسيدوروس لكيرلس أيضا :

« ناشدْتك الله أن تضرب عن هذه المنازعة ولا تجرح
جسم الكنيسة أخذا لثأرك من الذي أهانك . فتصير بحجة

الديانة سببا لانشقاق أبدي في الكنيسة » (٤٦) .

ان هذه الكلمات المتفجرة وعيا وحضارة وفهما واخلاصا ، كانت نبوءة أو جزءا من نبوءة ، فيا ليتهم ما أصمّوا الآذان ولا غشّوا الأعين وحجّروا القلوب !

ليس للسريان : المشارقة والمغاربة ، الا ان يتوقّفوا عن المماحكات العقيمة ، ويلملموا كنائسهم ، على صوت القديس ايسيدوروس والذين اجتهدوا في ازالة الشقاق من الكنيسة .

١٩٨٦/٧/١٣

---

(٤٦) كلدو وآثور : ج ٢ ص ١٣٠ ، نقلا عن ايسيدوروس الرسالة ٣١٠ و ٣٧٠ ، وتاريخ مؤلفي الكتب المقدسة ص ٤٧٧ .

الفصل الثاني عشر

القدّيسة تريزا الأفيليّة
عاصفة وسيل ونار

"وترى النفس ان الملذّات تولّد لها عمقًا مطبقاً، وانها بها تشتري مشقّةً وهلعًا، حتى في هذه الحياة. يا له من قلق شديد! يا له من سرور يسير! يا له من جهد باطل! في هذه الحال التي بلغتها لا ترى في ذاتها العنكبوت والاخطاء الكبيرة فحسب بل ترى حتى ادنى ذرّة من الغبار، لأن الشمس فيها وضّاءة. وهكذا، مهما بذلت من جهد لتبلغ الكمال، فاذا غمرتها هذه الشمس حقًّا، رأت ذاتها في كدر مطبق. مثلها مثل الماء في اناء: اذا لم تنعكس عليه الشمس بدا رائع الصفا واذا انعكست عليه ظهر مليئًا بالشوائب"

تريزا الافيلية
كتاب السيرة : ص ١٧٧

كتبت القديسة تريزا الافيلية في مطلع كتابها :« كتاب السيرة » [١] تقول :

« لقد تلقيت امرا ، واطلقت حريتي لاعرض ، كتابة ، طريقتي في التأمـل والأنعام التي خصني الله بها . ولكم وددت لو أجيز لي كذلك ان اروي خطاياي الكبيـرة ، واقص حياتي البائسة ، بتفصيل ووضوح ! لكـان الامر يوفر لي تعزية كبرى . لكن اولي الامر لم يوافقوا على ذلك ، بل وضعوا لي قيودا كثيرة » [٢] .

---

(١) تريزا الأفيلية : كتاب السيرة . في الاصل الاسباني :
(Teresa De Jesus : Libro de la Vida , in Obras Completas, 3e ed. (Burgos , Ed. Monte Carmelo, 1982) .
ترجمه عن الاسبانية : أنطوان خاطر ، راجعه وحقق فيـه : الابوان اسطفان طعمة وشاهـين ريشا وأنطوان خـاطر . وضع المقدمات وعناوين المقاطع والحواشي : انطوان خاطر والاب شاهين ريشا . توزيع الرهبانية الكرملية في لبنـان ، دير سيدة الكرمل ، الحازمية ص. ب ٢٨٥ / هاتف٤٥٣٠٩٣
(٢) كتاب السيرة : ص ٣

أضافت :

« لذا أرجو من يطالع قصة حياتي هذه أن يضع نصب عينيه ، حبا بالرب ، ان حياتي كانت من السوء بحيث لم أجد لي عزاء في اي من القديسين الذين تابوا الى الله ، فقد رأيت انهم انصرفوا عن اهانة الرب بعدما دعاهم الى الهداية . أما انا ، فما كنت اعود الى حال أسوأ فحسب ، بل كأني كنت اجتهد لاقاوم الانعام التي يمنحني اياها عز وجل . فكأني كنت اراني ملزمة بان اخدمه اكثر ، فادرك عجزي عن ايفائه ، بذاتي ، اقل ما يتوجب عليّ نحوه » (٣) .

يراودني سؤالان فيهما بعض من أحزاني ،وبعض من تطلعاتي واحلامي . الاول : ماذا كان في بال القديسة تريزا الافيلية ومُنعت من البوح به ؟ الثاني : هل « كتاب السيرة » ، الذي بين أيدينا اليوم ،هو من وضعها وتأليفها حقا ؟ أم ان فيه أثرا ، أو بعض الاثر ، من غير كاهن ،ولا سيما الاب بدرو ايبا نييث ، « العالم الكبير » (٤) و « الخادم لله الامين » (٥) ، وهو الذي « امرها بكتابة سيرة حياتها » (٦) ؟

(٣) كتاب السيرة : ص ٣
(٤) (٥) (٦) ص ٤٩

تريزا الافيلية امرأة بكل ما للكلمة من معنى . يغالبها طموح عظيم ، وسر عميق لا اعتقد ان احدا من الدارسين قبض عليه تماما . فهي امرأة نارية تحرق كل من يقاربها ، بل هي عاصفة وسيْل ونار . وأعظم ما في تريزا قدرتها على التأمل ، وقد اعتبرها البابا بيوس العاشر « معلمة التأمل » (٧) ، وصبرها على الشدائد ، وعنادها الذي تفاقم وتطور حتى صار « انخطافا » شبه دائم . ولا عجب اذا ما دعيت هذه المرأة الحارقة « نور اسبانيا » ثم « معلمة الكنيسة الكاثوليكية » وبالتالي « أم الروحانيين » (٨) .

منذ طفولتها وهي تصارع القلق والناس والطبيعة . وكونها امرأة ذات رسالة وهدف ، ظلت (تريزا) تعلو وتنخفض ، وتسكن وتفور ، وتخمد وتشتعل ، حتى انطفأت جذوتها ، في ألبا دي تورميس ، « مساء ٤ تشرين الاول ١٥٨٢ ، الذي صار بمقتضى الاصلاح الغريغوري، ١٥ تشرين الاول ، وهو اليوم الذي تعيِّد لها فيه الكنيسة » (٩) ، وذلك عن سبع وستين سنة (ولدت

(٧) انظر المقدمة ص ٤٩
(٨ (٩) جاء في المقدمة : وكان للبابا بولس السادس الفضل في منحها لقبين : ففي ١٨ أيلول ١٩٦٥ اصدر براءة « نور اسبانيا » ، يعلن فيها القديسة تريزا شفيعة الكتاب الكاثوليك في اسبانيا.وفي٢٧ أيلول ١٩٧٠ منحها فياحتفال =

القديسة في ٢٨ اذار ١٥١٥) ، فيما لا يزال العالم المسيحي الكاثوليكي يستضيء بنورها الوهّاج الوقّاد .

أربعون فصلا ضمها « كتاب السيرة » بين التمهيد والخاتمة ، وما كل ما يُعلم يقال .

ففي الخاتمة تقول تريزا للاب غارثيا دي توليدو عندما أُرسل اليه « كتاب السيرة » ما يلي :

« لقد صنعت ما امرتني ، حضرتك ، به من اسهاب في السرد ، شرط ان تنفذ ما وعدتني من تمزيق ما تراه سيئا . ما كدت آتي على قراءة الكتاب بعد فراغي من وضعه ، حتى أرسلت حضرتك في طلبه . قد يكون هناك بعض امور مشوشة واخرى مكررة ، فهذا يعود الى ضيق في الوقت شديد ، فما كنت استطيع اعادة النظر في ما كنت أكتب . أرجو ، اذاً ، حضرتك ، أن تصححه وتكلف من ينسخه ، اذا تقرر ارساله الى الاب المعلم آفيلا ، فقد يتعرف أحد الى خطي . واني لأتمنى بحرارة أن يرتّب الامر لينظر ، هو ، فيه ، لاني بهذا القصد شرعتُ أكتب ، فاذا رأى انني في الطريق الصحيح ، شعرت بعزاء كبير ، لان لم

= مهيب لقب « معلمة الكنيسة الكاثوليكية » وهولقب يعطى امرأة لاول مرة في تاريخ الكنيسة . أولا تعتبرها الكنيسة « ام الروحانيين » ؟ فحق لها هذا اللقب . (ص ٢٧) .

يبق لدي ما ازيد ، قياما بما هو من واجبي . تصرف ، حضرتك ، في كل شيء كما يبدو لك ، واعتبر انك ملزم تجاه من عهدتْ بنفسها اليك » (١٠) .

ان في هذه الكلمات ما يدعونا الى التنازل عن ذينك السؤالين الاديبين ، حيث لا ينفعنا التمسك بهما ، وقد قالت تريزا ما يغنينا عن البحث والاستقصاء . ولعل ما قاله المعلم خوان دي آفيلا (١٤٩٩ — ١٥٦٩) ، بعد اطلاعه على الكتاب ، هو الحق الذي دمغ الباطل .

قال المعلم خوان :

« يبدو لي ، من رواية هذا الكتاب ، انكِ قاومتِ هذه الانعام الخارقة اكثر مما ينبغي . أظن انها افادتْ نفسكِ افادة جلى . هذه الانعام جعلت نفسكِ تعرف بؤسها واخطاءها معرفة اوضح ، وتصلحها . لقد دامت مدة طويلة يرافقها دوما فائدة روحية . لقد حثتكِ على محبة الله واحتقار ذاتك وممارسة التقشف . فلا ارى ما يستوجب التنديد بها . اني اعتبرها صالحة ، شرط الا يوثق بها دائما ثقة تامة ، وعلى الاخص حين تبدو غير عادية . وبدا انه يصعب التمييز ان كانت من الله ام لا ، على الانسان الا يتوقف عندها طويلا ، لان القداسة ، في النهاية ،

(١٠) كتاب السيرة : ص ٤١٠ .

ليست سوى الحب المتواضع لله وللقريب » [11] .

ولكن القداسة هي أيضا في الاصلاح او التغيير الى الافضل والاكمل ، وهذا ما فعلته تريزا في رهبانية الكرمل ، بمساعدة القديس يوحنا الصليبي (١٥٤٢ — ١٥٩١) احد علماء التصوف المسيحي .

تريزا الافيلية امرأة بكل ما للكلمة من معنى. رسمت طريقها في الخيال ، لتخرج من الدنيا وهمومها على الدنيا ومتطلباتها ، فاذا يسوع — المسيح هو مرشدها من الضلال ، ومخلّصها من المحن والازمات .

وعلى الطريق نشب « الحب الالهي » في تريزا واستمسك ، فاذا هي بين المرض والجنون ، والفرح والشقاء . وقد حملت اوزارا واثقالا تنوء تحتها الجبال ربما . غير ان الهدف ، على ما يبدو ، كان يغسل الاعصاب المتوترة والجسد الملتهب ، لتبدأ من جديد ، وفي عينيها من ماء الورد اللطيف الرطيب .

الحب الالهي ، عند تريزا ، مسألة وقضية . وكذلك الشقاء وقهر الذات ومقاومة الخطيئة والشيطان .

كم مرة سقطت تريزا ، لتنهض أقوى وأكثر تألقا واشراقا ؟!

(١١) كتاب السيرة : ص ٤١٠ .

ولربما بدأت تريزا من حقل الاشواك ، او حسبما تقول :

« بدأتُ أتبرج وأسعى لاثير الاعجاب بمظهري ، فأعنى عناية كبرى بيدي وبشعري ، واهتم بالعطور وسائر الترهات المتاحة لي ، وكانت كبيرة ، لانني كثيرة التأنق . ما كنت افعل ذلك عن سوء نية لانني ما كنت لارضى ان يغيظ الله احد بسببي . ولازمني طوال سنوات عديدة ميل شديد الى الافراط في النظافة، واشياء أخرى لم اكن اخال فيها ظل خطيئة . اما اليوم فانني اتبين كم كان ذلك قبيحا » .

وتابعت تقول :

« كان لي ابناء عم عدة ، وكان ابي على جانب من الحذر فما اجاز لغيرهم من الشبان دخول بيته ، وليته اتخذ الموقف نفسه تجاههم ، هم ، أيضا ، فانا ادرك الان مقدار الخطر الذي تتعرض له النفوس في مرحلة من العمر ينبغي ان تتعود فيها على الفضائل ، اذا ما عاشرت أشخاصا لا يعرفون بطلان العالم ، بل بالاحرى يوقظون الاخرين للانزلاق فيه » (*) .

(*) اطّلع على هذا البحث صديق لي شيخ مسلم محافظ تقي، فقال : ألا ترى ان تريزا هذه كانت متأثرة بالتربية الاسلامية؟ البيت الاسلامي له حرمته .. وأهل البيت الاسلامي في مأمن من كل أذى .. لقد كانت تريزا جريئة حقا حتى على نفسها .

أضافت :

« كان ابناء عمي اترابا لي ، او يكبرونني قليلا . كنا دائما معا . وكانوا يحبونني حبا كبيرا ، فكنت احادثهم بكل ما يروق لهم ، وأصغي الى ما يروونه من هواياتهم وصبيانياتهم البعيدة عن الصلاح . واسوأ ما في الامر ان نفسي مالت الى ما صار سبب ضيرها كله » (١٢) .

وحاولت الاشواك الكثيرة والكثيفة والعاصية القضاء على الزهرة وأريجها . ففضلا عن ابناء عمها هنالك نسيبتها التي « كانت نزقة جدا في تصرفاتها » (١٣) ، اذ هوت تريزا « معاشرة هذه النسيبة » (١٤) . وكانت تستسيغ محادثاتها والحوار معها لانها كانت تيسر (لها) كل انواع التسليات التي (تروقها) ، بل و (تدفعها) اليها ، و (تطلعها) على احاديثها وسخافاتها » (١٥) ، في حين ان تريزا كانت « على كثير من البراءة في صنع السوء ، مهما كان نوعه » (١٦) .

أيّنا لم يعرف ، بشكل أو آخر ، مثل هذه المرحلة من حياته ؟ بل اينا لم يأكل من اشجار النار والسوء ولو مرة

---

(١٢) ص ١٠ ـ الكتاب
(١٣) المصدر نفسه ص ١١
(١٤) (١٥) المصدر نفسه ص ١١
(١٦) ص ١٢

واحدة ؟ في البدايات ، قد يتساوى اولاد الفقراء واولاد الاثرياء ، اذ الخطيئة تصر على وحدتها ووجودها ، وتأبى أن يرجمها احد ، لانها قريبة من الجميع وفيهم . وما البداية الا كعتبة الباب او مرقاة الدرج ، سرعان ما نبرحها إما الى البيت وإما الى الفضاء .

المهم ان تريزا الافيلية عندما نفضت الاشواك من يديها وكل جسدها ، قالت وقد انهكها الحب والجنون :

« يروّعني احيانا ما ينجم عن العشرة الرديئة من ضرر ، ولو لم اختبر الامر بنفسي ، لما كنت اصدق ذلك . ولا شك في ان الضرر الذي تحدثه في فترة المراهقة بنوع خاص يكون اشد منه في غيرها . فأتمنى ان يتعظ الاباء بما حصل لي ليكونوا كثيري اليقظة في هذا الموضوع . والواقع ان هذه العلاقة غيّرتني بحيث لم تبق فيّ شيئا ، تقريبا ، من طبيعة صالحة ونفس فاضلة ، وأظن ان هذه النسيبة ورفيقة لها تأخذ بالتسليات نفسها كانتا تطبعان في نفسي ميولهما » (١٧) .

تريزا الافيلية امرأة بكل ما للكلمة من معنى . والمرأة ـ المرأة تكسر الجليد لتزرع وردة الحب الالهي الصافي . فهي قوية حتى في الاوحال المتحركة ، وقوية ايضا على

---

(١٧) كتاب السيرة : ص ١٢

معارضيها ومنتقديها ، وعلى الاعتراف ، رغم القيود التي فرضها عليها سادتها الاكارم •

بصراحة فائقة قالت تريزا الافيلية بما تشعر وتحس :

« على ضوء هذا الاستنتاج أفهم النفع الكبير الذي تحدثه العشرة الصالحة • وانا على يقين من انني لو عاشرت ، في سنيّ تلك ، اشخاصا فاضلين ، لكنت كاملة في ممارسة الفضيلة ، لانه لو اتيح لي آنذاك من يعلمني مخافة الله ، لكانت نفسي اكتسبت قوة تجنبها السقوط• وبعد ان فقدت مخافة الله تماما ، بقي لدي الخوف على صيتي فكان هذا هاجسي في كل ما افعل ، غير ان تفكيري بأن تصرفي سيظل خفيا كان يجرّئني على اتيان أعمال كثيرة تنال من صيتي وتهين الله » (١٨) •

تريزا الافيلية امرأة بكل ما للكلمة من معنى • فلماذا السؤال عن ثقافتها واسلوبها في الكتابة ؟ بل لماذا البحث عن طفولتها ومراهقتها •••؟

لماذا الاصرار على تعريتها او تحصينها ، وقد عرّت هي نفسها ، لتحصّن روحها بالحب الالهي ، الذي لشدة حره يمحق كل شيء ؟

(١٨) كتاب السيرة ص ١٢

يقول واضعا المقدمات وعناوين المقاطع والحواشي : الاستاذ انطوان خاطر والاب شاهين ريشا ، في المقدمة :

« يجمع دارسو التصوف المسيحي على ان من سار قدما في طريق الكمال الانجيلي او سعى الى الايمان بجدية ، يمر في مراحل تصاعدية ثلاث :

« ١ ـ مرحلة المبتدئين ، وهم السائرون في طريق التطهر ، وهي مرحلة اعدادية بالزهد والتقشف لتأهيل الانسان للاتحاد بالله • وتتميز هذه المرحلة بالجهد الذاتي الفاعل والتأمل بالاستدلال العقلي والتفكير •

« ٢ ـ مرحلة المتدرجين أو المتقدمين وهم السائرون في طريق الاستنارة • لقد قطعوا شوطا ، وبدأ الرب يسبغ عليهم انعاما سامية وأنوارا بها يعرفون الله وذواتهم معرفة اختيارية ، نذكر من الانعام تأمل السكينة وتأمل الاتحاد والانخطافات •

« ٣ ـ مرحلة الكاملين أو الآخِرين وهم السائرون في طريق الاتحاد • ينعمون باختبار الاتحاد بالله وقد يدوم لحظات ، او ساعات ، او اكثر ، وفق نمو المتصوف الروحي • وفي هذه الحالة تبقى النفس منفعلة بعمل الله لا فاعلة •

« ومعروف ان القديسة تريزا بلغت اسمى درجات التصوّف هذه » (١٩) •

(١٩) المقدمة ص ٤٧

اجل ! ان ما يشدني الى قراءة سيرة حياة تريزا الافيلية هو اعترافها الصامت ، الذي يصفعك لتستيقظ من سبات عميق او غرور مقيت . وليست تريزا ممن يدّعون ما ليسوا فيه . فهي ابتدأت .. ثم تدرجت .. ثم كملت ، حتى اكتملت .

تريزا الافيلية امرأة بكل ما للكلمة من معنى .

عرفت أبواب الجحيم والشيطان والخطأة . وعرفت كذلك محبة الله ، فدخلت في العشق البركاني ، لتتفجر حبا وتواضعا وايمانا وكرامة . وبعد هذه الاختبارات الشديدة العنيفة قالت :

« ما أطرفها طريقة في السعي الى حب الله . ونريد امتلاكه سريعا ، وملء يدينا ، كما يقال . ان نحافظ على تعلقاتنا الدنيوية (لاننا لا نسعى لتحقيق رغائبنا ولا ننتهي الى رفعها عن الشؤون الارضية) وان ننعم بتعزيات روحية كثيرة ، امران لا يتفقان ، واعتقد ان هذه لا تناسب تلك . وهكذا ، لاننا لا نعطي ذاتنا كلها لله ، فهو لا يعطينا هذا الكنز دفعة واحدة . تنازل الرب ، عز وجل ، فاعطانا اياه قطرة قطرة ولو كلفنا ذلك مشقات الدنيا كلها » (٢٠) .

(٢٠) كتاب السيرة : ص ٨٢/٨٣

وحققت تريزا التأمل .. فصارت ترى الله وتعاشره ، ولكن بعد مشقات بالغة الارهاق ، اذ « تيقنت ان الله لا يتوانى عن اثابة من يكابدها (المشقات) بسخاء ، حتى في هذه الحياة » (٢١) .

وكأني بها تعلمنا التأمل والتصوف والانخطاف حيث تقول :

« ان من لم يعان هذه الاندفاعات (اندفاعات الحب الالهي) العنيفة يستحيل عليه ان يفهمها ، فهي ليست انفعالات داخلية ولا عبادات عاطفية تجتاح النفس غالبا فكأنها تخنق الروح ولا يمكن ضبطها . فهذه ادنى شكل من اشكال التأمل ، ويقتضي اجتناب هذه الاندفاعات بأن نسعى الى احتوائها بلطف في داخلنا وتهدئة النفس . مثل ذلك مثل اطفال يشهقون حتى كأنهم يختنقون ، فما ان يعطوا جرعة ماء حتى تزول الغصة . كذلك هنا ، على العقل ان يكون حازما ، ويأخذ بالزمام لئلا يكون مساعدا للطبع في ميله ، وليجعل في اعتباره الخوف من ان لا يكون كل هذا كاملا ، وان قد يكون فيه قسط كبير من الميل الحسي ، وليسكت هذا الطفل بملاطفة وودود تحثه على ان يحب بلطف لا جماحا ، كما يقال » .

(٢١) كتاب السيرة : ص ٨٧

وتقول أيضا :

« لتستجمع النفس هذا الحب في داخلها ولا تجعلنّه قِدْراً تغلي وتفور لانه قد بولغ في ايقاد الحطب فتندفق كلها ، بل فلتلطّفْ ما كان علة هذه النار، ولتحاول اطفاء الشعلة بدموع رقيقة لا بدموع مضنية كما هي الدموع الناشئة عن هذه المشاعر والتي تحدث اذى كبيرا . لقد سكبت احيانا دموعا كهذه في البدء ، فكانت تصدع رأسي، وتتعب روحي حتى لا اقوى في الغد ، ولا في الايام اللاحقة ، على ان اعود الى التأمل . فمن الواجب اعتماد قدر كبير من الفطنة في البدء ليجري كل شيء مجرى لطيفا ، ويتعود الروح ان يعمل في الباطن ، اما الظواهر الخارجية فيجب السعي سعيا حثيثا لاجتنابها » (٢٢) .

ان التجربة التريزية هذه هي « القصيدة » الخالدة في الآداب الصوفية المسيحية ، فيما اختباراتها ، التي صرحت بها ، والممتدة بين نشأتها وتأسيسها دير القديس يوسف وغيره من الاديرة ، وتكوين الرهبانية الكرملية الاصولية ، انما هي ، مجتمعة ، تؤلف دستورا للارواح المتمردة على العذابات وأسبابها ، وعلى شتى أنواع الاضطهاد والحسد والحقد والفساد .

(٢٢) كتاب السيرة : ص ٢٦٦.

من لا يعرف تريزا الافيلية ، ربما لا يعرف كيف تنتصر الارواح على القهر والقمع والعزلة والغريزة .

والحقيقة هي ان في كل دير ، من أديار الرهبان والراهبات ، أرواحا مرتفعة مثلما روح تريزا الافيلية .

تريزا الافيلية امرأة بكل ما للكلمة من معنى.وليس كل امرأة كما تريزا .

لنسْمعها في احدى مناجاتها اذ تقول :

« أيتها العظمة ، ويا أيها الجلال ! ماذا تصنع ، يا سيدي القدير ؟ انظرْ الى التي تمنحها انعامات عظمى كهذه ! ألا تذكر ان هذه الانفس كانت بحرا من الاكاذيب، وخضمَّ أباطيل ؟ وكل هذا بذنبي ، فمع انك ربي،وهبتني طبعا يكره الكذب ، انصرفت ، أنا ، غالبا الى اعتماد الكذب . كيف يُتصوَّر يا الهي ، وكيف يُحتمل أن تمنح ، أنت أفضالا وانعامات كهذه كبيرة من أساء استحقاقها منك أي اساءة ؟» (٢٣)

أربعين فصلا حبَّرت تريزا الافيلية ، بدم قلبها ودموع عينيها ، وما كل ما يعرف يقال . الا انني استطيع القول بأن القديسية تريزا (*) قد تجاوزت الشروط والسدود

(٢٣) كتاب السيرة : ص ٣٩٧

(*) من اهم الحوادث في حياة القديسة تريزا : =

التي حاصرتها ، وأعلنت كل ما عندها ، فكادت تحرقنـــا

=

ـ ١٥١٥ في ٢٨ آذار في مدينة آڤيلا (اسبانيا) مولد تريزا دي هوماداً اي ثيبدا . عُمّدت في ٤ نيسان ، يوم تدشين دير التجسد للراهبات الكرمليات في المدينة .

١٥٢٢ محاولـة هربها مع أخيهـا رودريغو الى «بلاد المغاربة » للاستشهاد .

١٥٢٨ موت والدتها بياتريث دي اهومادا .

١٥٣١ دخولها دير ومـدرسة سيـدة النعمة كطالبة داخلية .

١٥٢٨ ـ ١٥٣١ اقبالها على مطالعة كتب الفروسية .

١٥٣٢ مرضها وخروجها من دير سيدة النعمة .

١٥٣٣ ـ ١٥٣٥ نضوج دعوتها الرهبانية بتأثير صحبة عمها بدرو ومطالعة رسائل القديس ايرونيموس .

١٥٣٥ ٢ تشرين الثاني : هربها من البيت ودخولها دير التجسد .

١٥٣٦ ٢ تشرين الثاني : إتشاحها بالثوب الرهباني .

١٥٣٨ مرضها الخطير : تخرج مـن الـدير للمعالجـة ، تطالع الابجدية الثالثة للاريدو .

ـ ١٥٣٩ تعود في تموز الى آفيلا. قبيل عيد انتقال السيدة (١٥ آب) تصاب بغيبوبة طويلة اربعة ايام فيظنونها ميتة. ثم تستفيق ، وتعود الى دير التجسد ، وتبقى ثلاثسنوات كأنها كسيحة .

١٥٤١ اغناطيوس دي لويولا يؤسس جمعية اليسوعيين .

١٥٤٢ شفاؤها بفضل القديس يوسف .

ولادة خوان دي يبيس (القديس يوحنا الصليبي) .

١٥٤٣ موت والدها . بناء على نصيحة معرفها الاببارون، تعود الى حياة التأمل .

١٥٥٩ أول رؤيا حظيت بها عن المسيح .

رئيس محاكم التفتيش فالديس يمنع الكتبالروحية =

بصمتها ، نحن الذين تفصلنا عنها أربعة قرون وبضـع سنين .

عندما دفع اليَّ الكرمليان الجليلان : الاب جـان

=

باللغة الاسبانية لمحاربة المنوّرين (Alumbrados) وهم جماعة من المشعوذين .

١٥٦٢ حزيران : تنتهي من وضع كتاب « السيرة » .

١ آب : تأسيس دير الاصلاح على اسم مار يوسف في آفيلا . تباشر كتابة « طريق الكمال » .

١٥٦٣ آب : تنتقل الى دير القديس يوسف ، حيث تكتب « رسوم الراهبات الكرمليات الحافيات » .

١٥٦٥ تنتهي من كتابة « السيرة »،صيغة ثانية أي الحالية.

١٥٦٦ تكتب « خواطر في حب الله » .

١٥٦٢ ـ ١٥٦٧ شعورها بضرورة وجود رهبان يمارسون نمط الحياة السائد في دير القديس يوسف .

١٥٦٧ رئيس الرهبانية العام يفوضها تأسيس اديرة مثل دير القديس يوسف .

آب : لقاؤها الاب يوحنا للقديس متيا : واقتناعهبدء الاصلاح بين الرهبان .

سلسلة الاديار المؤسسة :

١٥٦٧ مدينا دل كمبو .

١٥٦٨ مالاغون ـ ڤاليادوليد . دورويلو للرهبان .

١٦٥٩ توليدو وباسترانا .

١٥٧٠ سلمنكا .

١٥٧١ البا دي تورمس . تعيَّن رئيسة على دير التجسد في آفيلا .

١٥٧٣ تباشر تدوين « التأسيسات » .

١٥٧٤ سيقوڤيا . تعود الى دير مار يوسف .

١٥٧٥ بياس وأشبيلية .

=

سليمان والاب جوزف رحمة ، « كتاب السيرة » ،غشيني فرح ما عهدت مثله ، من قبل ، ذلك لانني انتظرت هذا الكتاب طويلا ، وكنت أشعر بأن « نارا » اسبانية تلفح وجهي ، كلما تطلعت نحو اسبانيا ، وبخاصة «الاندلس» حاضرة الشرق والغرب .

١٩٨٦/٥/٢٨

= قضاة التفتيش يصادرون كتاب « السيرة » .

١٥٧٧ ٢ حزيران — ٥ تشرين الثاني : تكتب « المنازل » أو « القصر الداخلي » . يشتد الاضطهاد على تريزا وراهباتها ورهبانها مدة سنتين ، تم بعدها تكوين اقليم مستقل للكرمليين الحفاة .

١٥٧٩ — ١٥٨٢ زيارة الراهبات وتأسيس الاديار .

١٥٨٠ تأسيس دير فيلانويفا .

١٥٨١ تأسيس دير صوريا . انتخاب تريزا رئيسة على دير مار يوسف .

١٥٨٢ ٢٠ أيلول ،تصل مريضة منهوكة الى البادي تورمس، وتلزم الفراش . ٤ تشرين الاول : عند التاسعة مساء تفيض روحها « ابنة للكنيسة » .

١٥٨٣ يفتح التابوت وينقل جثمانها الى آفيلا . نشر كتابها « طريق الكمال » .

١٥٨٦ بأمر بابوي يعاد الجثمان الى البادي تورمس حيث يرقد الآن .

١٥٨٨ نشر مؤلفاتها الكاملة بدعم الاب يوحنا الصليبي ، واعداد الاب لويس دي ليون الاغسطيني .

١٦١٤ البابا بولس الخامس يعلنها طوباوية .

١٦٢٢ البابا غريغوريوس الخامس عشر يعلنها قديسة .

١٩٧٠ ٢٧ ايلول البابا بولس السادس يعلنها اول امرأة « معلمة الكنيسة » .

الخاتمة

من الواضح أن عالمَ الراهب اللبناني قد وَسع أو أن حدوده تمددت وانبسطت . فلا الاسوار ، التي ضُربت حول الديْر ، بقيت تطوف ، في النفوس ، مثلما كانت،ولا الراهب ظل على اعتقاده أن الدنيا ، بكل ما فيها ،من الدير تبدأ وعند الدير تنتهي .

لقد جاور الرهابينُ السماء والحقول ، وسكنوا قمم الجبال وبطونها ، عندما كانت الجبال وعرة والوديان سحيقة والحياة غير معقَّدة . فكان الدير — آنذاك — عالـَما قائما بذاته مستقلا استقلالا تاما ناجزا تدور فيه الحياة دورة شبه كاملة : من العمل في الحقل ، الى الدراسة ،الى الصلاة، الى غرفة الطعام ، الى غرف النوم ، والى الاجتماع في الصالون أو في المكتبة . على أن النظام هو السيد دائما أبدا .

فمَن دخل الدير انسلخ من ثيابه ، وتجرّد من أهله، وأصدقائه وذويه ، لكي يلتصق بالله ويلتحم باخوانه

الرهبان . فإذا كانت الدنيا الدانية هي تحقيق الرغبات كافة والصراع على المادة ومن أجلها ، فإن الرهبانية هي قهر الذات وهي التقشف والوحدة والقضاء على الاهواء والشهوات .

وإذ يقول المسيح : « من أتاني ولم يرغب عن أبيه وأمه وامرأته وبنيه وإخوته وأخواته بل عن نفسه أيضا ، لا يستطيع أن يكون لي تلميذا . ومن لا يحمل صليبه ويتبعني ، لا يستطيع أن يكون لي تلميذا . لا يستطيع أحد منكم أن يكون لي تلميذا ، ان لم يتخلّ عن جميع أمواله » [١] ، فالرهبانية هي العفة والفقر والطاعة ، مما يعني أن لا قصور ولا ترف ولا جشع ولا حسد ولا حقد ولا تقاتل ولا تذابح ولا كذب ولا رياء ، مثلما في الحياة العامة . وأنّى لغير الراهب أن يكون تلميذ المسيح ؟ فالمدرسة بعيدة .. والمعلّم متطلب .

ويمكننا القول ان المسيحية ، برغم كونها عقيدة صعبة التحقيق ، قد استمرت بفضل الرهبان والراهبات الذين تخلّوا فعلا ، عن كل ما لديهم ، فكانوا للمسيح تلاميذ وتابعين ، اذ لولاهم لقضي على المسيحية منذ الفتح الاسلامي ، وعمّ الاسلامُ بلاد المشرق كافة . فما بالك لو أن المسيحية بقيت موحّدة ، والكنيسة ظلت جامعة ؟

(١) لوقا : ف ٢٦/١٤ — ٣٣ .

صحيح أن انحطاط كنائس انطاكية والقسطنطينية وأورشليم (القدس) والاسكندرية جعل المسيحيين ينقسمون على أنفسهم حتى أصبحوا فِرَقاً وطوائف متعددة ، الا أن أياً من هذه الفرق والطوائف لم يتخلّ عن المسيحية ، وإن اختلفت السبل والمناهج . فهذه ، على كل حال ، من الطرق التي تؤدي الى المسيح . وليس سهلا اتهام المسيحي أو جماعة من المسيحيين ، بالهرطقة أو الخروج عن تعاليم المسيح أو التآمر على الكنيسة الام ، لمجرد رأي قاله فجاء مختلفا عن الرأي السائد . فالجميع مسيحيون ، لا فضل لهذا على ذاك الا بما أعطى المسيح والمسيحية ، الا الذين تراجعوا أو ضعفوا أو خدعتهم المادة فانحرفوا الى غاية أخرى ، أولئك هم أعداء الكنيسة وأعداء المسيح ، سواء اعتنقوا دينا آخر أو هم ظلوا يدّعون المسيحية .

تتّهم من ؟

في الحقيقة ، الرهبانية لا تتهم أحدا ولا هي تحتمل أن يتهمها أحد ، ما دامت مع المسيح ، بعقلها وقلبها . ولأن المسيح هو فوق اللاهوت والفلسفة ، فإن المسيحي ، سواء كان نسطورياً أو أرثوذكسيا أو كاثوليكيا أو بروتستانتيا ، أو من شهود يهوه ، عندما لا ينحرف بأخلاقه وأعماله عن الخط الذي رسمه له المسيح ، هو أيضا فوق اللاهوت وفوق الفلسفة . فلماذا لا يكون اللاهوت لجمع الشمل

والاتحاد والتماسك والتسامح بدلا من أن يكون هو الديّان والقهّار والمحاسِب والمجازي ؟

ان جميع الذين عرضْنا لهم ، في هذا الكتاب ، هم مسيحيون بكل تأكيد . فما قدّمه الواحد منهم لا يختلف، من حيث الجوهر ، عما قدّمه الآخر ، بل يتفق معه أو يكمّله ، وإن بدت العناوين كأنها تحتفظ بأشكال النزاع والشقاق ، وتصر على اقناعنا بأن الاهداف متباعدة متنافرة . وربما ظهرت منا عاطفة ، هنا أكثر من هناك ، أو ميل الى هذا دون ذاك ، ولكن الحقيقة ليست كذلك تماما . الحقيقة هي أن نرى المسيحية من خلال ما أنجزه أولئك الاشخاص الذين درسْنا بعض أعمالهم ، وليس من خلال نظريات لا شأن لها الا تعقيد الامور وتأزيمها .

فالمسيح هو في دير الشرفة كما في دير الزعفران .. وفي المعهد الانطوني كما في معهد الرسل .. وزهرة الاحسان ، ومدرسة الحكمة ، ومدرسة البشارة ، وجامعة الروح القدس ، وثانوية مار سويريوس ، والمدرسة الانجيلية، ومعهد القديس بولس وسائر المدارس والمعاهد المسيحية. وفي دير الصليب .. كما في دير سيدة الدخول ـ الاشرفية، ودير سيدة اللويزة ، ، ودير راهبات المحبة اللعازاريات ـ الاشرفية ، ودير مار مارون عنّايا .. ودير الكرَيْم ودير بزمّار .. ودير البلمند ودير مار سابا ودير مار مرقس

ودير مار متى ، ودير مار سمعان ودير مار الياس ودير مار موسى ودير مار أنطونيوس ودير مار اشعيا ودير مار يعقوب ودير القيامة ، المشرف على فاريا ـ كسروان (رئيسه الاب جوفف هلّيط) [٢] ، وفي كل الاديار وبيوت الرهبان والراهبات .

والمسيح ايضا هو في الكنيسة السريانية الارثوذكسية كما في الكنيسة السريانية الكاثوليكية . وفي كنيسة الروم الارثوذكس كما في كنيسة الموارنة، وكنيسة الروم الكاثوليك .. وفي الكنيسة الآشورية النسطورية ، كما في الكنيسة الكلدانية ، والكنيسة المعمدانية ، والكنيسة القبطية ، والكنيسة الارمنية .

ولكنه ليس في النفوس التي لها نزعة الى التسلط والعداء والخصومة والجدل والمماحكة والاحتكار والاستغلال .

لست أدري ما حاجة المسيح الى المذاهب .. والاحزاب .

كلنا ينظر الى المسيح .. الا أن الطريق اليه لا

(٢) زرت هذا الدير ، لاول مرة ، ظهر الاحد ١٣ تموز ١٩٨٦ ، في صحبة الصديق الدكتور سليم فرح ، صاحب « فلسفة كمال يوسف الحاج » ـ اطروحة نال بموجبها دكتوراه في الفلسفة ـ جامعة الروح القدس ـ ١٩٨٥

يستطيع أن يسلكها سوى الذي « يتخلى عن كل شيء »..
كما يقول المسيح نفسه .

ولعل البُعْدَ الذي بيننا وبين المسيح هو الذي شجع على قيام الاحزاب والمذاهب المتضاربة ، مما أعيا المسيحية وأضعفها حتى في أكثر الاماكن حاجة اليها .

فإذا كانت أجراس الكنائس ، أينما وُجدت ، تدعو الى مسيح واحد ، فلماذا هذه العناوين والاسماء اذاً ؟
تستطيع الانسانية ، اليوم ، الادّعاء أنها جرّبت أفكارا كثيرة ونظريات كثيرة،الا أن أياً من هذه الافكار والنظريات لم يصمد طويلا . فهل من رجوع الى الوراء ، أم هنالك مفاجآت قد تقلب المفاهيم التي باتت شبه ثابتة ؟

في الشرق غليان ديني .. وثورات وانفجارات كثيرة. وفي الغرب غليان مادي .. وتسارع الى احتلال الفضاء . وكلاهما لم يعرف الاستقرار ولا الهدوء . وترى الاديان والمذاهب والعقائد كلها متورطة ..وهي تتصرف في الامور على غير بصيرة .لكن سؤالا كبيرا يبرز ، برغم الاضطرابات التي نعاني ، ألا وهو : المسيحية الى أين ؟

واذ تتلمّس الجواب ، لا بد لنا من الاعتراف ، قبل أي شيء ،بأن المثالية هي كالغيث الهزيم الذي لا يُستمسك. فالدليل القاطع على ما نقول هو الخراب أو الدمار الذي حل بتلك الاديار النصرانية التي كانت ملء المشرق ، على

ما جاء في الكتب ولا سيما منها « اللؤلؤ المنثور » لمؤلفه البطريرك افرام الاول برصوم ، حيث يخبرنا أن ثلاثة وثمانين ديرا كانت تغطي هذه المساحة الواسعة من الاراضي المشرقية قد أزيلت ما عدا النزر القليل منها ؟ ولعل الضربة التي أصيبت بها الكنيسة الغربية لا تقل خطورة عن تلك التي نزلت بالكنيسة الشرقية . وكما هنا كما هناك . الكنيسة الواحدة صارت كنائس .. والمسيحيون تفرقت بهم الطرق .

كل الاديان والاحزاب المادية تطارد المسيحية .

اليهودية والاسلام والبوذية والزرادشتية والهندوسية والسيخية والشيوعية والماسونية والاشتراكية والرأسمالية الامبريالية ، جميعها لا تطيق المسيحية ، وهي تعمل ، منفردة او متضامنة ، على ازالة هذه العقيدة ... التي لا تبشر بقوة السيف ولا تحمل الناس على تصديقها قهرا .

لذلك ، ستبقى المسيحية في دائرة الخطر الدائم ... ومواجهة العدو الطبيعي ذي الرؤوس المتعددة . وليس للمسيحية الا ان تصمد وتصبر على الآلام والمعانيات والمحن . وكما الغاية العظيمة تتطلب وسيلة عظيمة مثلها ، كذلك المسيحية تعتمد المحبة التي هي في الحقيقة قليلة الوجود .

سلاح المسيحية لا تصنعه الفبارك ... ولا هو يخرج من الارض ، فيتخذ شكلا معينا او حجما معينا او لونا معينا . سلاح المسيحية هو حب الغير ... والتجسير بين الانسان والانسان ، حتى لا يكون هنالك واحد بعيد وآخر قريب . واذا ما استطاع المرء اكتشاف هذا السلاح فانما يكون قد اكتشف ذاته أو عرف مكانته التي من خلالها سيتعرف الى مكانة الغير ويحبها ويحترمها . فمتى عرف أحب ... ومتى أحب أعطى ... ومتى أعطى أطمأن ... ومتى اطمأن استقر ... ومتى استقر سلم من كل عيب وآفة . على ان السلامة تشمل الجسد والنفس . معنى هذا أنك مسيحي بمقدار ما أنت نقي وطاهر ونظيف وكريم وشجاع ومتواضع .

ليس مصادفة اذاً أن تُنقر الصخور وتسوى الكهوف، وتبنى الاديار على القمم أو في بطون الاودية ، فهناك السلامة ، وهل ينال هذه النعمة سوى القديسين ؟

وليس مصادفة أيضا أن يهرب الى لبنان ، من تبقى من المسيحيين المشرقيين ، لكي يحافظوا على مسيحيتهم . وربما تم في لبنان أكبر تجمع مسيحي مشرقي ، اذا ما استمر المسلمون في سعيهم من أجل قيام الدولة الدينية . واليهود في سياستهم التيوقراطية العنصرية التوسعية . اذ

ذاك سيحتاج المسيحيون ، اكثر من اي وقت مضى ، الى الوحدة التي تفترض التسامح بل التنازل عما يحسبه كل فريق منهم حقا له مُنزَلا مقدّسا .

المسيح واحد . والمسيحية واحدة .

فلماذا عجز المسيحيون ، حتى الان ، عن تحقيق الكنيسة الجامعة ؟!

لا بد ان العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها هي التي حرّضت على قيام هذه الكنائس المتعددة المتضاربة ...

فهل ان اجتماعهم ، في جزء من لبنان ، اذا ما تم ، سيجعلهم اخوانا ، روحا وعقلا ، فيضعون حدا لهذا العجز التاريخي القديم ، ويبعثون ، من هنا ، الى العالم ، المسيحية الصافية الموحّدة ؟ أم انهم سيوغلون في الشقاق والخصومة ويكتبون على أنفسهم مزيدا من البؤس ومزيدا من الشقاء ؟

انه التحدي الكبير ، الذي يطرحه كتابنا هذا : « رسالتي الى المسيحيين » وعسى أن يكون نداء « الكافر » أو « المرتد » ، هذه المرة ، أجدى وانفع من نداءات المؤمنين .

مصطفى

تمت طباعة هذا الكتاب يوم الجمعة الموافق ١٩ايلول١٩٨٦، فيما كان الانتهاء من الطبعة الاولى يوم الجمعة الموافق ١٩ نيسان ١٩٨٥ ونذكر بأن أصول أكثر الموضوعات التي اشتملت عليها « رسالتي الى المسيحيين » يعود تاريخها الى عام ١٩٧٩ ، كما أشرنا في الطبعة الاولى .